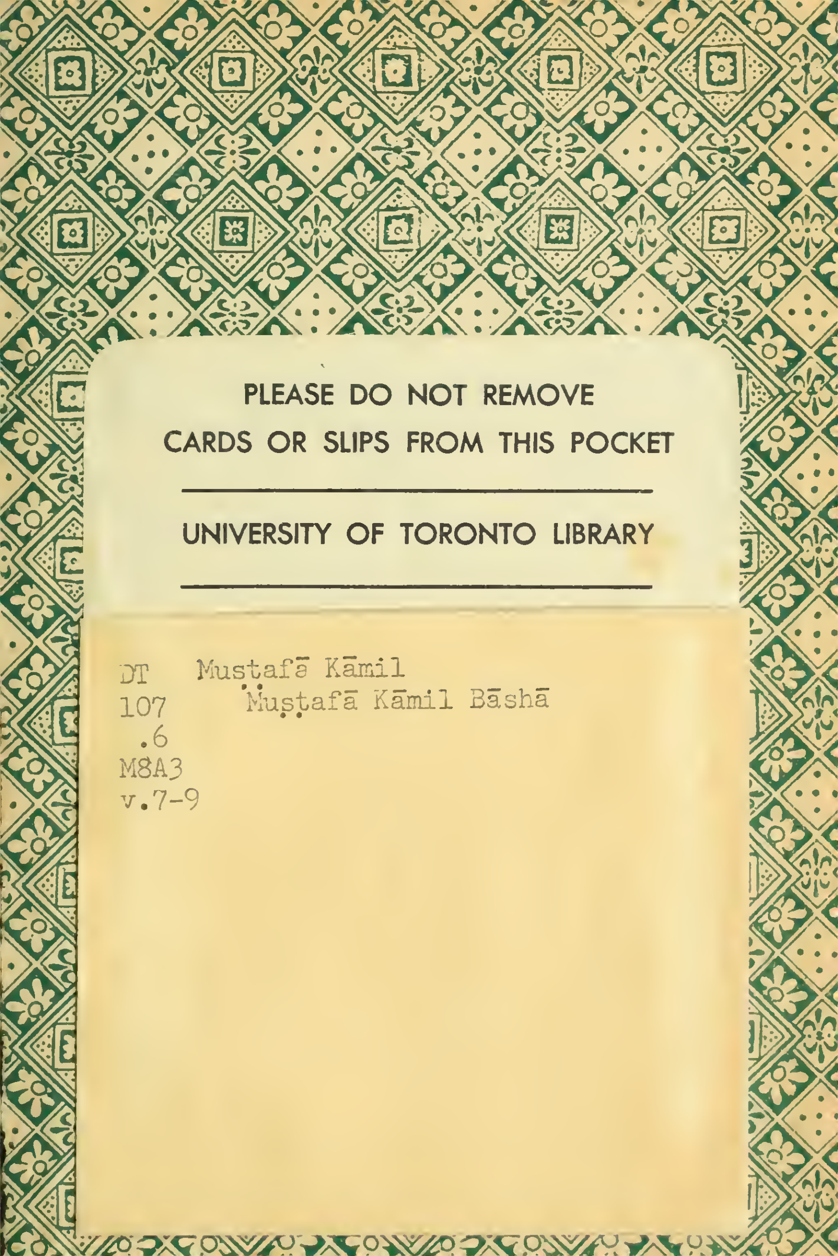
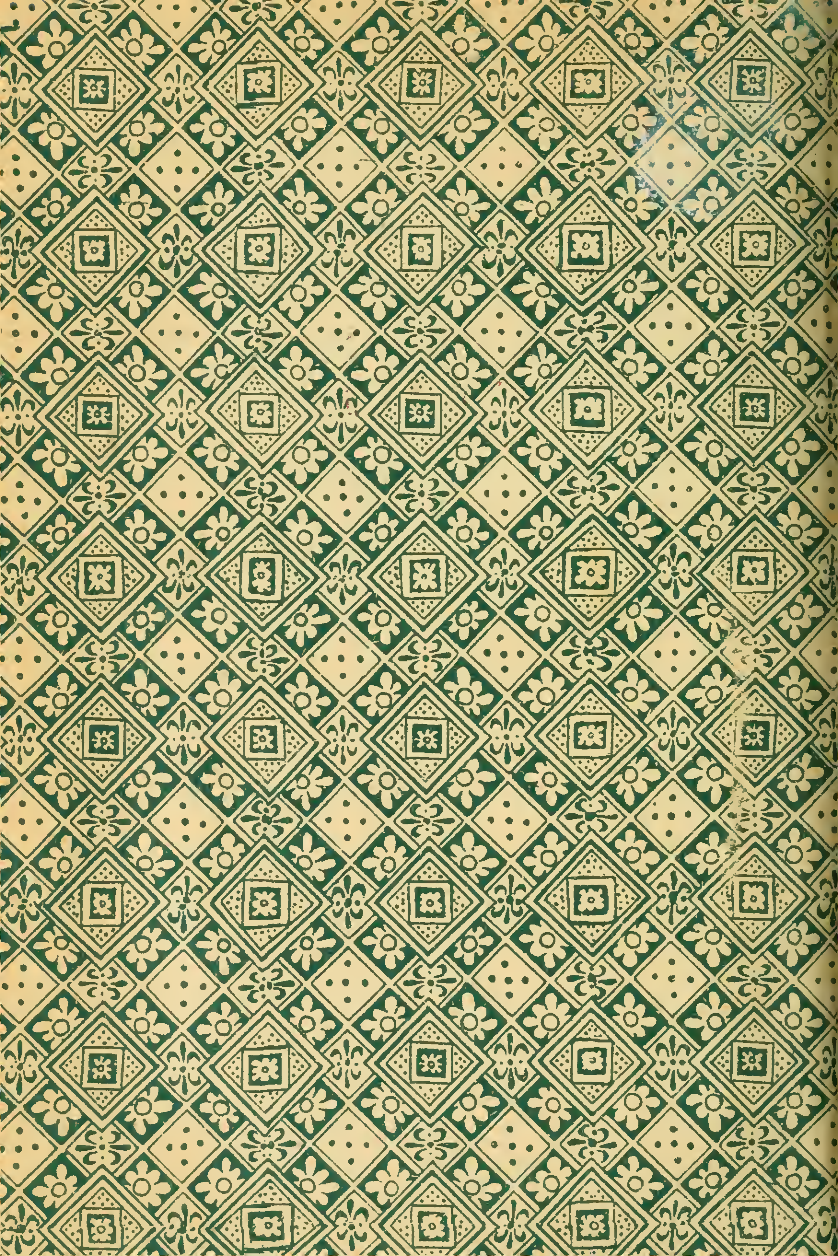








المسئلة الشرقية

﴿ تأليف المرحوم ﴾

مصطفى كامل باشا

الجزء الاول

﴿ الطبعة الثانية ﴾

سنة ١٣٢٦ هـ — ١٩٠٩ م

(مطبعة « اللواء » بشارع الدواوين نمرة ٢٩ بمصر)





مصطفى كامل باشا

في الرابعة والعشرين من عمره

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبيه خير الانبياء والمرسلين . (وبعد) فقد شهد هذا العام فوز الدولة العلية فى حربها مع اليونان فوزا عظيما وانتصارها نصرا مبينا ورأى العالمون بين أصدقاء للدولة وأعداء براهين حياتها ودلائل شبيبتها . فانتعشت نفوس أبنائها وأصدقائها وطمس الله على قلوب خصومها وأعدائها حيث قضى لها بما قضى من الفوز والنصر والسمو والرفعة

وقد طلب منى بعد انتهاء الحرب بعض أصدقاء يحسنون الظن بشخصى الضعيف ان اكتب تاريخ هذه الحرب الشهيرة فأجبت الطلب لاعن شعور بمقدرتى على ذلك بل عن سرور جزيل وحبور نادر المثيل بما نالت الدولة العلية حماها الله

وقد أحببت أن أقدم للقراء الكرام قبل تاريخ الحرب ملخصا عن المسئلة الشرقية التى هى موضوع اشتغال الشرقيين والغربيين . وانى أسأل القراء الكرام عذرا اذا كنت اضطررت للايجاز في بيان المسئلة الشرقية فقد قضى على الوقت بذلك . وأؤمل العودة لموضوعها فى فرصة أخرى مع بيان أوفى وأشفى

وانى أضرع الى الله فاطر السموات والارض من فؤاد مخلص وقلب صادق أن يهب الدولة العلية القوة الابدية والنصر السرمدى ليعيش العثمانيون والمسلمون مدى الدهر فى سؤدد ورفعة . وأن يحفظ للدولة العثمانية حامي حماها وللاسلام امامه وناصره جلالة السلطان الاعظم والخليفة الاكبر الغازى (عبد الحميد خان الثانى) وأن يحفظ لمصر فى ظل جلالته عزيزها المحبوب واميرها المعظم سمو الخديوى (عباس حلمى باشا الثاني) ان ربى سميع مجيب

مصر فى شعبان سنة ١٣١٥ — يناير سنة ١٨٩٨

(مصطفى كامل)

المسألة الشرقية

« ١ »

اتفق الكتاب والسياسيون على ان المسئلة الشرقية هى مسئلة النزاع القائم بين بعض دول أوروبا وبين الدولة العلية بشأن البلاد الواقعة تحت سلطانها وبعبارة أخرى هى مسئلة وجود الدولة العلية نفسها فى أوروبا . وقد قال كتاب آخرون من الشرق ومن الغرب بأن المسئلة الشرقية هى مسئلة النزاع المستمر بين النصرانية والاسلام أى مسئلة حروب صليبية متقطعة بين الدولة القائمة بأمر الاسلام وبين دول المسيحية . الا أن هذا التعريف وان كان فيه شيء من الحقيقة فليس بصحيح تماما . لأن الدول التى تنازع الدولة العلية وجودها لاتعاديها باسم الدين فقط بل فى الغالب تعاديها طمعاً فى نوال شيء من أملاكها . وقد أرانا التاريخ أحوالا كثيرة لم يستعمل الدين فيها الا سلاحاً أو وسيلة لنوال غرض جوهرى فهو ستار تختفى وراءه أغراض شتى

وأطماع مختلفة

والذى يراجع تاريخ الدولة العليـة ويقلب صحائف أمورها من أول وجودها الى اليوم يرى ان المسئلة الشرقية نشأت مع الدولة نفسها . أى انه منـذ وطأت أقدام الترك ثرى أوروبا وأسسوا دولتهم الفخمة قام بينهـم وبين بعض الدول الاوروبية النزاع الشديد ودارت الحروب العديدة . وبالجملة فانه منذ ظهرت صولة الترك فى أوروبا أخذت بعض الدول على عهـدتها معاداة الدولة ومطاردتها والعـمل على اخراجها من هاته القارة . ولـكنها أعمال حبطت وآمال خابت اذ أصبح أمر بقاء دولة آل عثمان من أول الامور الضرورية اللازمة لسلامة بنى الانسان

وقد وهب الله الدولة العثمانية سلطة عالية ورهبة عظيمة حينا طويلا من الزمان فأخضعت لسلطانها الامم والدول وأرهبت بقوتها وعظمتها كل قوى وكل عظيم ورفعت رايتها الهلالية الجليلة على أصقاع شاسعة وأقطار واسـعة . فابقت فتوحاتها وانتصاراتها فى نفوس الامم المقهورة بغضاء كامنـة

وعـداوة لدودة . فكان ذلك السبب الاول فى الحروب العديدة التى وجهت ضدها وأقيمت فى وجهها

ولما كانت البلاد الواقعة تحت سلطة الدولة العلية من أجمل بلاد العالم وأغناها فقـد تاقت نفوس أصحاب الدول الاوروبية لاخراج الترك من هذه البـلاد وتقسيمها بينها . فكانت هذه الدول تحارب الدولة العلية بأمل تقسيمها شيئا فشيئا والاستيلاء على أجزائها جزءاً جزءاً . وهذا هو سبب آخر لعداوة بعض الدول الاوروبية للدولة العلية

واذا دققنا النظر فى سبب العداوة المشهور وهو مسئلة الدين وجدنا ان الدولة العلية هى الدولة الوحيـدة فى دول الارض التى عاملت رعاياها الذين يدينون بغير دينها بالتسامح والتساهل والاعتدال . فقـد اتبعت أوامر الشرع الشريف وتركت للمسيحيين حرية دياناتهـم وعوائدهم وتقاليـدهم واحترمت عقائدهم كل الاحترام فعاشوا طويلا ممتعين بهاته الحرية على حين ان مسيحيي اسبانيا قتلوا المسلمين لانهم مسلمون وهتكوا أعراض نسائهم وحرمة بيوتهم ومارحموا انسانا .

ولم تكتف الدولة العلية حماها الله بحسن معاملة المسيحيين واحترام أديانهم وعقائدهم بل عاملتهم كأعز أبنائها المسلمين ولم تميز بين هؤلاء وبينهم وسلكت مع الكل طريق المساواة وعينت الكثيرين من المسيحيين فى المناصب السامية والوظائف العلية وأتمنتهم على أمورها وجعلتهم محل ثقتها وبقاء المسيحيين الى اليوم فى الدولة العلية أكبر شاهد على اعتدالها الدينى في الماضى وفي الحاضر بل بقاء الجنسيات المختلفة كالبلغار والصرب واليونان وغيرها دليل ساطع وبرهان قاطع على أن الدولة العلية احترمت من نفسها وبمحض ارادتها دين الذين وقعوا تحت سلطتها ولم تقهر أحداً على اعتناق الدين الاسلامي . ويعترف الكتاب والمؤرخون جميعاً بل ويعترف كل انسان فى الوجود مجرد عن الغرض الاعمى ان الدولة العلية كان فى قدرتها يوم كانت أقوى دول الارض أن تجبر كل المسيحيين في بلادها على اعتناق دين الاسلام أو أن تطردهم من أراضيها اذا خالفوا رغبتها . ولكنها احترمت الشرع الشريف فاحترمت الدين المسيحي وأصحابه

وهى حقيقة يقررها التاريخ وينطق بها كل منصف محب لها . ولكن من غرائب أحوال هذا الوجود أن هذه الفضيلة السامية . وهذه المكرمة الفريدة كانت أكبر سبب لكل ما لحق الدولة العلية من الضرر والاجحاف وأصلا لكل ما حل بها من المصائب والبلايا . فاحترامها لعقائد المسيحيين على اختلاف أنواعهم أقام أمامها بعض دول أوروبا بحجة المسيحيين أنفسهم وكان سبباً لحروب جمة

فمسئلة اختلاف الدين في الدولة العلية التى هى نتيجة الاعتدال الدينى والعدل والانصاف كانت ولا تزال الداء الدفين الذى يهدد حياة الدولة من وقت الى آخر . فتداخل الدول الاوروبية فى شؤون الدولة العلية باسم المسيحيين المحكومين بها. ومضايقة أوروبا للدولة باسم هؤلاء المسيحيين واضطرابات الدولة تقوم باسم هؤلاء المسيحيين. والانذارات التى توجه للدولة توجه باسم هؤلاء المسيحيين بل وأغلب الحروب التى جرت مع الدولة جرت باسم هؤلاء المسيحيين. ويعلم الله انهم سعداء الحظ فى الدولة العلية وان تداخل أوروبا

بحجة نصرتهم لالزوم له البتة

ولو أنصفت الدول الاوروبية قليلا لاعترفت بهذه الحقيقة الواضحة وهي ان المسيحيين فى الدولة العلية لا ينقصون عن المسلمين فى حسن المعاملة ان لم يكونوا من الراجحين. وهاهم اليهود لا يثورون ولا يهيجون ولا يشتكون ولا يتألمون بل يحمدون الدولة ليلا ونهاراً فى السراء والضراء ويسبحون فى كل آونة بنعمها عليهم وحسن رعايتها لهم. وما ذلك الا لأنه لا يوجد فى الدول الاوروبية دولة تدعى الدفاع عنهم والعمل لمصالحهم فهم ليسوا بآلات فى الدولة ضد الدولة بل هم يعرفون من أنفسهم أنهم عثمانيون ممتعون بكل الحقوق العثمانية. وأما العناصر التى كالارمن تستعملها بعض الدول كانكلترا فهى تثور بعوامل الدين وبدسائس دينية. وقد ثبت ذلك جليا فى المسئلة الارمنية وشوهد أن الارمن الكاثوليك كانوا على سكينة تامة بينما كان البروستانت يثورون ويدبرون المكائد ضد الحكومة العثمانية

فمسئلة الدين في الدولة العليـة هي الآلة القوية التي

يستعملها أصحاب الدسائس والغايات وأولئك الذين يثورون بدسائس أعداء الدولة انما يثورون ضد أنفسهم ويقضون على حياتهم وسعادتهم بعبثهم وجنونهم واتباعهم لأوامر أعداء الدولة المحركين لهم . فالذين ماتوا من الارمن في الحوادث الارمنية انما ماتوا فريسة الدسائس الانكليزية .والذين ماتوا في كريد ماتوا فريسة الدسائس الانكليزية . بل والذين ماتوا من جنود اليونان في تساليا ماتوا فريسة الدسائس الانكليزية نفسها ومن يعمل بنصيحة أعداء الدولة ويتبع أوامرهم جزاؤه مانال الارمن واليونان

وبديهى ان دولة مثل دولة انكلترا التى تدعى محبة المسيحيين فى الشرق و العمل لراحتهم وسعادتهم لو كانت صادقة فى دعواها لرأت من الواجب عليها أن تصافي الدولة العلية حتى تنال منها متمناها بشأن المسيحيين . والا فمن الجنون فى السياسة أن تدعي انكلترا محبة المسيحيين ثم تعادى الدولة العلية القابضة بيديها على زمام أمور المسيحيين . فهل يقبل العقل البشرى ان دولة قوية كالدولة العلية تعمل في بلادها

على خلاف رغبتها وتنيل أصدقاء الانكليز أى أصدقاء ألد أعدائها الراحة والسعادة والهناء ؟ هل يقبل العقل البشرى ان المسيحيين المدافعة عنهم انكلترا يعادون المسلمين ثم يسألونهم معاملتهم بالرقة واللطف وحسن العناية بهم ؟

ان الاتفاق والوفاق بين المسلمين والمسيحيين فى الدولة العلية لا يكون نتيجة الضغط والقوة بل نتيجة الميل المتبادل وحسن النية من الجانبين والاخلاص والوفاء للدولة العلية . واذا كانت دول أوروبا تريد حقيقة سعادة المسيحيين فى الشرق فأول واجب عليها هو أن تأمرهم بالامتثال لاوامر الدولة والتعلق بها والاخلاص فى خدمتها . والا فالدولة أو فالدول العاملة على القاء بذور الشقاق والعداوة بين المسلمين والمسيحيين لا تجنى ويستحيل أن تجنى شيئاً آخر غير العداوة المرة والخصومة الشديدة

وغنى عن البيان ان المسلمين فى الدولة العلية متى رأوا فريقا من أخدانهم المسيحيين يعمل بأوامر الاجنبى عدوه خائنا للوطن العثماني ناكثا لعهد الدولة العثمانية أى عدوه

دخيلا فى الوطن والملة والدولة . ووجب عليهم العمل ضده بكل مافي استطاعتهم قياماً بواجباتهـم الوطنية . وهذا هو الشأن في أمم العالم فلو فرضنا أن فريقا من الانكليز قام يوما مافى انكلترا باحـداث الاضطرابات والثورات تنفيـذاً لاوامر دولة أجنبية كالروسـيا أو المانيا أو فرنسا . فأى واجب تحتمه الوطنية عندئذ على بقية الانكليز أليس القضاء على هؤلاء الخونة المنفذين لاوامر دولة أجنبية بكل الوسائل

القائمون بالثورات والاضطرابات في الدولة العليـة خونة منفـذون لاوامر أعـداء الدولة يجب على العثمانيين الصادقين اعلان العداء لهم والانتقام منهم بكل ما في الجهد والاستطاعة

ويستحيـل الوصول كما قدمنـا الى الاتفـاق السليم الصحيح بين المسيحيين والمسلمـين فى الدولة العثمانيـة الا باخلاص الجميع لهـا اخلاصا تاما

هذه هى الحقيقة وحدها دون غيرها

واذا كان اختلاف الدين فى الدولة العليـة هو داء من

أدوائها بل هو أكبر أدوائها فالدخلاء فى الدولة العلية داء عضال وبلية لاتعادلها بلية . فان الذين كانوا سبباً فى هزيمة الدولة فى حروب مختلفة هم الدخلاء والذين ساعدوا الدسائس الاجنبية هم الدخلاء . فقد دخل فى جسم الدولة العلية كثير من الاجانب نساء ورجالا وغيروا أسماءهم بأسماء اسلامية وعملوا على الارتقاء فى المناصب حتى وصل بعضهم الى أسماها وصاروا من أقرب المقربين فرضوا بالدولة للدمار وأطلعوا أعداءها على أسرارها . وقد انتشر الدخلاء فى الزمن السالف الى كل فروع الدولة العلية حتى فى الجيش نفسه وصارت لهم سلطة عظيمة ونفوذ كبير وكنت تجد من وزراء الدولة العلية من يعمل لصالح الروسيا مدعيا انه روسى السياسة ومن يعمل لصالح انكلترا مدعيا انه انكليزى السياسة ولكن ليس منهم من كان عثماني السياسة

ولولا أن الأمة العثمانية أمة حية قوية عظيمة الشهامة والوطنية لكانت تلاشت اليوم بدسائس الدخلاء ولو كان للدخلاء في دولة أخرى ما كان لهم فى الدولة العلية من

السلطة والحول لكانت تقوض بنيانها وتداعت أركانها .
وان أعظم سلطان جلس على أريكة ملك آل عثمان ووجه
عنايته لابطال مساعى الدخلاء وتطهير الدولة من وجودهم هو
جلالة السلطان الحالى . فلقد تعلم من حرب سنة ١٨٧٧ وما
جرى فيها أن الدخلاء بلية البلايا في الدولة ومصيبة المصائب.
فعمل بحكمته العالية على تبديد قوتهم وتربية الرجال الذين
يرفعون شأن الدولة ويعملون لاعلاء قدرها . وقد برهنت
الحرب العثمانية اليونانية على ان للدولة اليوم رجالا من
أبنائها الصادقين يخدمونها بالامانة والوفاء ويتفانون في محبتها
وأن ليس للدخلاء من سبيل لنوال مآربهم السيئة . فأمثال
صاحب الدولة « أدهم باشا» الذى كان مجهول الاسم عند
الكثيرين من العثمانيين قبل الحرب كثيرون في الدولة العلية
تظهرهم الحوادث وتعرفنا بهم وبقدرهم المشكلات

وان أغرب شيء فى أحوال الدولة العلية وفى تاريخها
يدهش أعداءها ويحير الكتاب الكارهين لها هو بقاؤها
حية بعد كل المصائب التى تساقطت عليها والبلايا التى نزلت

بها . فلقد رأت هذه الدولة العثمانيـة مالم ترد دولة من دول
الارض القـديمة والحـديثة فقد كانت تتحالف معها بعض
الدول كالنمسا مثـلا وتعمل وهي متحالفة معها على الاتفاق
مع الروسـيا على تقسيمها . وقد كانت تتظاهر انكلترا لهـا
بالصداقة والوفاء وتسعى وهى متظاهرة كذلك على ضـياع
أملاكها من يدها وسـقوطها فى قبضتها . وقـد كانت دول
أوروبا كلها تجتمع وتتحد على ماتسميه بالمبدأ المقدس مبـدأ
حماية استقلال الدولة العلية وسـلامتها : ثم كانت هي بعينها
تجزىء الدولة العليـة باسم هذا المبدأ المقـدس نفسه .
وقد كان العاملون على تقويض أركان الدولة وحلها عديدين
أقوياء . ومع ذلك كله لا تزال الدولة العليـة حماها الله قوية
ثابتة الاركان تخافها أقوى الدول ويخطب ودها إمـبراطور
شهد العالم كله بقوته وعظمته وبأسه

ولقـد يندهش الانسان غاية الاندهاش عند مايقرأ
ما كان يكتب من نحو مائة وعشرين سنة عن الدولة العلية . فقد
كان الـكتاب والسياسيون يتناقشون فى مشروعات تقسيمها

فالبعض كان يريد أن يؤسس مكان الدولة العلية « الاتحاد البلقانى » والبعض الآخر كان يريد اعادة ملك بيزانتان وكان سياسيو الروسيا والنمسا يتباحثون فى مشروع تقسيم الدولة بين دولتيهما فكل كان يضع مشروعا والجميع كانوا متفقين على ان الدولة قصيرة الاجل وأكثرهم أملا فى حياتها كان يجود عليها فى مشروعه بعشرة من السنين أو عشرين عاماً . ولو بعث اليوم من القبور كتاب أواخر القرن الماضى وسواسه ورأوا الدولة العلية قائمة عزيزة تحارب فى أواخر القرن التاسع عشر وتنتصر وتجتاز العقبات عقبة بعد عقبة وتصرف المصائب مصيبة بعد أخرى لكذبوا أعينهم وما صدقوا بالحقيقة

ولكن الحقيقة هى ان بقاء الدولة العلية ضرورى للنوع البشرى وان فى بقاء سلطانها سلامة أمم الغرب وأمم الشرق وان الله جل شأنه أراد حفظ بنى الانسان من تدمير بعضهم البعض ومن حروب دينية طويلة بحفظ سياج الدولة العلية وبقاء السلطنة العثمانية . فقد لاقت هذه الدولة العثمانية فى حياتها الطويلة أخطاراً هائلة كانت تكفى لتداعي بنيان أقوى

الممالك . ومرت عليها ملمات كانت تندك لها الدول القوية والممالك القاهرة بدون أن تمس حياتها الحقيقية بسوء بل بقيت حية تدهش العالم بشبيبتها

وقد أحس الكثيرون في أوروبا من رجال السياسة ومن رجال الاقلام أن بقاء الدولة العلية أمر لازم للتوازن العام وان زوالها (لاقدر الله) يكون مجلبة للاخطار أكبر الاخطار ومشعلة لنيران يمتد لهبها بالارض شرقها وغربها شمالها وجنوبها . وان هدم هذه المملكة القائمة بأمر الاسلام يكون داعية لثورة عامة من المسلمين وحرب دموية لاتعد بعدها الحروب الصليبية الا معارك صبيانية

وان الذين يدعون العمل لخير النصرانية فى الشرق يعلمون قبل كل انسان أن تقسيم الدولة العلية أو حلها يكون الضربة القاضية على مسيحيي الشرق عموماً قبل مسلميه . فقد أجمع العقلاء والبصيرون بعواقب الامور على أن دولة آل عثمان لاتزول من الوجود الا ودماء المسلمين والمسيحيين تجرى كالانهار والبحار فى كل واد

وهى الملمة التى يجب على محبي الانسانية الصادقين فى محبتهم العمل لمنع وقوعها ودفعها بتعضيد الدولة العلية وتقوية سلطانها

ولقد اعتقدت الآن الروسيا كما اعتقدت النمسا ـ وقد كانتا العدوتين القديمتين للدولة العلية ـ بأن تقسيم الدولة العلية أمر مستحيل فعملت كلتاهما على المحافظة على السلام العام بالمحافظة على سياج الدولة العثمانية

فقد رأت النمسا أن حروبها مع الدولة العلية أضرتها ضررا بليغا وظهرت النتائج المشئومة لهذه الحروب . فقد ضعفت النمسا وانتهى بها الامر أن فقدت أملاكها الايطالية التى تكونت منها ايطاليا الحالية وفقدت كذلك أمام بروسيا جزءاً عظيما من مقاطعاتها الالمانية

ولقد عملت النمسا فى عهد عدائها للدولة العلية على تهييج أمم البلقان ضد السلطنة السنية باسم مبدأ الجنسيات لانها بصفتها دولة كاثوليكية كان لا يمكنها أن تهيج هذه الامم الارثوذكسية باسم الدين. فكانت نتيجة تهييج النمسا الامم البلقان

باسم الجنسيات وبالا عليها . وذلك ان مبدأ الجنسيات نفسه
وجد أنصاراً كبارا فى قلب المملكة النمساوية فقامت المجر
ونالت حريتها واستقلالها النوعى باسم مبدأ الجنسية المجرية .
وهاهى أمة البوهيم قائمة اليوم بالمطالبة باستقلالها النوعى باسم
مبدأ الجنسية البوهيمية. وقد أصبح من الظاهر للعيان أن دولة
النمسا تنازع نزاع الموت فى الايام الحالية بفضل مبدأ الجنسية

أما الروسيا فقد قامت دائما في المسئلة الشرقية باسم
الدين الارثوذكسى فعملت لاخراج الرمانيين واليونانيين
والصربيين والبلغاريين وأهل الجبل الاسود من تحت سلطة
الدولة العلية باسم الدين الارثوذكسى . فنشأ عن ذلك مع
استقلال هذه الامم الصغيرة عداوة شديدة بينها وبين
بعضها لما وجدت فى نفسها من الطمع لتوسيع دائرة أراضيها
ذلك فضلا عن أن الكنيسة اليونانية التى هي أم الكنائس
الارثوذكسية أصبحت غير معتبرة عند البلغاريين والصربيين
والنزاع القائم بين هذه الجنسيات المختلفة فى مقدونيا يبين
جيداً درجة عداوتها لبعضها ودرجة الخطر الذى صارت اليه

بلاد البلقان بسبب مسئلة الجنس والدين

واذا بحثنا فيما اكتسبته الروسيا من حروبها مع الدولة العلية نجد انها عادت تركيا قرنا ونصف قرن وحاربتها المرار العديدة وفقدت الرجال والمال بكثرة عظيمة فى كل حرب . ولم تنل فى الحقيقة من كل حروبها الا بلاد القرم والقوقاز . وقد رأت الروسيا مالم تكن تظنه أبدا وهو ان بعض البلاد الصغيرة التى حررتها كصربيا وبلغاريا واليونان ورومانيا عادتها أشد العداء . ولا تزال صربيا ورومانياواليونانسائرة في سياسة لا ترضى الروسيا . وعلى الاخص رومانيا التى تمكن بينها وبين المانيا والنمسا والدولة العلية الصفاء والوداد ولم تعتدل بلغاريا نفسها فى سياستها مع الرسيا الا فى هذه السنين الاخيرة من يوم اعتناق البرنس بوريس ولى عهد بلغاريا للدين الارثوذكسى

وقد رأت الروسيا من جهة أن حروبها مع الدولة العلية لاتفيد غير انكلترا التى قوى مركزها فى آسيا وفى الشرق الاقصى والتى لها أعظم مصلحة فى اضعاف قوة الروسيا

واضاعتها الوقت والمال والرجال في حروبها مع الدولة العلية.
ورأت كذلك من جهة أخرى انه يستحيل عليها أن تأخذ
الاستانة وتنفذ وصية بطرس الاكبر لما تلاقيه فى القيام
بهذا الامر من قبل الدولة العلية ومن دول أوروبا نفسها
وفى مقدمتها فرنسا حليفتها · ولذا فضلت الروسيا الاهتمام
بمسائل الشرق الاقصى ومسالمة تركيا . وقد تحقق العثمانيون
من هذه المسالمة فى المسئلة الارمنية وفى مسئلة الحرب الاخيرة

وقد شهد السياسيون بانه لا يوجد فى تاريخ علاقات
الدولة العلية مع الروسيا للمسالمة والصداقة مثل التلغراف الذى
بعث به جلالة القيصر الى جلالة السلطان يرجوه فيه أن يصدر
أمره بايقاف الحرب مع اليونان

أما الدولة التى أصبحت فى هذه السنين الاخيرة حاملة
لراية العدوان ضد الدولة العلية فهى انكلترا عدوة الاسلام
وعدوة مصر

فلقد قضت هذه الدولة أزمانا طويلة ظهرت فيها
للدولة العلية بمظهر الصديقة الوفية والحليفة الامينة . وكانت

تكسب من هذه الصداقة الكاذبة بقدر ما كانت تخسر تركيا . فان لانكلترا مصلحة عظمى دائمية فى أن الروسيا تحارب تركيا لتضعف قواها فلا تستطيع مطاردة الانكليز فى الهند والشرق الاقصى ولتضعف تركيا فتستولى انكلترا على شيء من أملاكها بحجة الدفاع عنها . وفوق ذلك فان انكلترا كسبت كثيرا من صداقة تركيا لها ـ بقطع النظر عن المكاسب المادية والتجارية والصناعية ـ بما كانت تنيلها هذه الصداقة من النفوذ عند المسلمين ومن السلطة التامة على مسلمى الهند . فلقد كاد أهل الهند يطردون الانكليز من بلادهم فى ثورة سيباى الشهيرة لولا صداقة تركيا لهم هذه الصداقة التى حملت المرحوم السلطان (عبد المجيد) على اصدار منشور لمسلمى الهند أمرهم فيه بالركون الى السكينة والهدو وعدم القيام باحداث الاضطرابات ضد حكومة صديقته « ملكة بريطانيا »

فاذا كان الانكليز في الهند عاشوا طويلا آمنين شر المسلمين فما الفضل فى ذلك الا للدولة العلية . وهاهم اليوم

يدعون ان تركيا « عـدوتهم الحالية » وصديقتهم القديمـة أوعزت الى الهنود المسلمين بالثورة فثاروا ولا يزالون ثائرين وسواء كانت ثورتهم بايعاز من تركيا ـ وهو مالا أظنه لان الثورة قائمة بها قبائل معلومة ولو كانت الدولة العلية أوعزت بالثورة لثار مسلمو الهنـد جميعا ـ أو بايعاز من ضمائرهم ونفوسهم . فدعواهم هذه دليـل ساطع على أنهم استفادوا كثيرا من تظاهرهم بالصـداقة للدولة العليـة وان اشهارهم العداوة لتركيا لا يضر الا بهم

ولقد أدركت الحكومة العثمانية من يوم أن تولى أمور الدولة العلية جلالة السلطان الاعظم (عبد الحميد الثانى) ان انكلترا خداعة فى ودها وانها تضر بمن تتظاهر لهم بالصداقة أكثر مما تضر باعدائها الظاهرين . فقد أخذت من الدولة العلية قبرص بدعوى مساعدتها ضد الروسيا فى مؤتمر برلين ثم دخلت المؤتمر وخرجت منـه بدون أن تستفيد تركيا من هـذه المودة الانكليزية الكاذبة أقل فائدة . بل ان الدولة العلية فقدت فى هذا المؤتمر مالم تفقده قط في مؤتمر آخر

وقد شعرت الروسيا كذلك بعد حرب سنة ١٨٧٧ أنها لاتستفيد من حروبها مع تركيا مايعوض عليها خسائرها العظيمة في هذه الحروب ففضلت سياسة مسالمة الدولة على سياسة العداء . فكان هذا التاريخ مبدأ للشقاق والعداوة بين الدولة العلية وبين انكلترا . وقد ظهرت هذه العداوة بمظهرها التام الواضح بعد احتلال الانكليز لمصر . حيث رأى جلالة السلطان فى هذا الاحتلال وفى خطة الانكليز فيه وفى خداعهم لجلالته ماعلم منه ان الانكليز لاصديق لهم وانهم أكبر أعداء تركيا وأن صداقتهم القديمة المزعومة لم تكن الا حجاباً ستروا وراءه عداوتهم المرة وأطماعهم الشديدة ضد دولة آل عثمان

ومن ذلك الحين عملت انكلترا على دس الدسائس ضد السلطنة السنية فى كل انحاء الاملاك المحروسة فهاجت الارمن والكريديين والدروز . ولكن دسائسها لم تأت بغير نتيجة واحدة . وهى اضعاف هذه العناصر التى اتخذتها انكلترا آلات لها واظهار قوة الدولة العلية أمام الملأ كله .

وقد علمت اليوم كل العناصر على اختلافها وجميع الامم صغيرة كانت أو كبيرة أن عدو اليونان الحقيقى ليس بتركيا التى صبرت على رذائلها طويلا بل انكلترا التى شجعتها على الحرب وساعدتها فى السر والجهر وملأت مقدونيا من الاسلحة والدنانير الانكليزية مؤملة قيامها فى وجه تركيا أثناء الحرب نخابت آمالها وحبطت مساعيها ورجعت مخذولة خذلانا سياسيا دونه خذلان اليونان الحربي

وقد حسب الانكليز أنهم يبلغون متمناهم من مصر ووادى النيل ويضعون بذلك أيديهم على الحجر الاساسى للخلافة الاسلامية والسلطنة العثمانية . ولكن مالا ريب فيه هو أن نصيبهم فى مصر الفشل عاجلا أو آجلا . ولا يغرن القراء سيرهم الحالى فى بلاد وادى النيل فانما هو نتيجة ضعف رجال مصر الذين سلمت اليهم مقاليد الامور . واستيلاء الانكليز على الادارات المصرية لا يؤثر مطلقا على جوهر المسئلة نفسها . وحيث فشل نابليون الاول يفشل الانكليز ولا محالة

وقد علمت انكلترا أن احتلالها لمصر كان ولا يزال
ويكون مادام قائما سببا للعداوة بينها وبين الدولة العلية وان
المملكة العثمانية لاتقبل مطلقا الاتفاق مع انكلترا على بقائها
فى مصر . اذ أن مسئلة مصر بالنسبة لتركيا والخلافة تعد
مسئلة حيوية . ولذلك رأت انكلترا أن بقاء السلطنة العثمانية
يكون عقبة أبدية فى طريقها ومنشأ للمشاكل والعقبات فى
سبيل امتلاكها مصر . وان خير وسيلة تضمن لها البقاء فى
مصر ووضع يدها على وادى النيل هو هدم السلطنة العثمانية
ونقل الخلافة الاسلامية الى أيدى رجل يكون تحت وصاية
الانكليز وبمثابة آلة فى أيديهم . . ولذلك أخرج ساسة بريطانيا
مشروع الخلافة العربية مؤملين به استمالة العرب لهم وقيامهم
بالعصيان فى وجه الدولة العلية . ولكن العرب وغير العرب
من المسلمين أرشد من أن يخدعهم الانكليز بعد مامر من
الامور وما جرى من الحوادث . ولذلك أيضا كنت ترى
الانكليز ينشرون فى جرائدهم أيام الحوادث الارمنية مشروع
تقسيم الدولة العلية حماها الله جاعلين لانفسهم من الاملاك

المحروسة مصر وبلاد العرب أى السلطة العامة على المسلمين

والذى يبغض الانكليز على الخصوص فى جلالة السلطان الحالى هو ميله الشديد الى جمع كلمة المسلمين حول راية الخلافة الاسلامية. وهو أمر يحول بينهم وبين أسمى أمانيهم أى ايجاد الشقاق بين المسلمين وبعضهم وخروج بعض المسلمين على السلطنة العثمانية . ومن ذلك يفهم القارىء سبب اهتمام الانكليز بالافراد القليلين الذين قاموا من المسلمين ضد جلالة السلطان الاعظم وسبب مساعدتهم لهم بكل مافى وسعهم .

وانكلترا تعلم علم اليقين أنها لو استطاعت أن تجعل خليفة المسلمين تحت وصايتها أى آلة لها يكون لها سلطة هائلة ونفوذ لاحد له فى سائر انحاء المعمورة . فانها تستطيع عندئذ (لا قدر الله) أن تنفذ رغائبها عند المسلمين التابعين لها وغير التابعين بواسطة هذا الخليفة . ولذلك فهى بعملها على هدم السلطنة العثمانية تعمل على تحقيق غرض بعيد هو أكبر أغراضها وأمنية سياسية دونها كل الامانى

وكما أن مشروع الاستيلاء على السودان بواسطة مصر هو من المشروعات القديمة عند الانكليز ـ ويثبت ذلك ارسال غوردون وساموئيل باكر الى آخر السودان بواسطة حكومة مصر التى أحسنت الظن بالانكليز فان مشروع جعل الخلافة الاسلامية تحت وصاية الانكليز وحمايتهم هو مشروع ابتكره الكثيرون من سواسهم منذ عهد بعيد . وقد كتب كتاب الانكليز فى هذا الموضوع ومنهم المستر بلانت المعروف فى مصر. فقد كتب كتابا قبل احتلال الانكليز لمصر فى هذا المعنى سماه (مستقبل الاسلام) وأبان فيه أغراض حكومة بلاده وأماني الانكليز في مستقبل الاسلام وقد كتب فى فاتحة كتابه ما نصه

لا تقنطوا فالدر ينثر عقده
ليعود أحسن فى النظام وأجملا

أى ان هدم السلطنة العثمانية لا يضر بالمسلمين بل ان هذا العقد العثمانى ينثر ليعود عقدا عربيا أحسن وأجمل ـ ولكن مالم يقله المستر بلانت هو ان قومه يريدون هذا

العقد العربي في جيد بريطانيا لافي جيد الاسلام

ويبين المستر بلانت في كتابه هذا قوة العالم الاسلامي وكيف ان المدير لاموره يكون قوياً واسع السلطة ويبين كذلك مشروع نابليون الاول وكيف انه أراد أن يكون خليفة المسلمين وان يقود قواهم - وهو يريد بذلك الفات أنظار قومه الى مشروع هم القائمون به الآن ويبين المستر بلانت ايضا « أن مركز الخلافة الاسلامية يجب ان يكون مكة وان الخليفة في المستقبل يجب ان يكون رئيسا دينياً لاملكا دنيويا » أى ان الامور الدنيوية تترك لانكلترا تدبر أمورها كيف تشاء ! ويعقب المستر بلانت ذلك بقوله « ان خليفة كهذا يكون بالطبع محتاجا لحليف ينصره ويساعده وما ذلك الحليف الا انكلترا ! » وبالجملة فخضرة المؤلف لكتاب مستقبل الاسلام يرى - وما هو الا مترجم عن آمال أبناء جنسه - أن الاليق بالاسلام أن ينصب انكلترا دولة له ولم يبق للمستر بلانت الا أن يقول بأن الخليفة يجب أن يكون انكليزياً ! !

يتضح جليا للقارىء مما قدمناه أن ليس للسلطنة العثمانية وبالطبع للخلافة الاسلامية فى هذه الايام عدو يجاهر بالعدوان لها ويعمل على دك أركانها وتقويض بنيانها غير انكلترا . ويمكن تعريف المسئلة الشرقية اليوم بأنها مسئلة النزاع القائم بين انكلترا وبين بقية دول أوروبا بما فيها الدولة العلية . فان معاداة انكلترا للدولة العلية هى فى الحقيقة معاداة لكل المسيحيين ولكل المسلمين أى للعالمين الغربى والشرقى

وان واجب أروبا أمام هذه الحرب السياسية حرب الدسائس والاكاذيب القائمة بها انكلترا ضد الدولة العلية واضح جلى . فمحتم عليها اذا كانت تعمل للمحافظة على السلام العام وعلى أرواح البشر أن تحبط مساعي انكلترا في الشرق وان تقف لها بالمرصاد . ومن العدل ان نقول ان حكومتى فرنسا والروسيا قامتا في المسئلة الارمنية بابطال الدسائس الانكليزية واحباط مساعى سواس انكلترا . وأظن أنه لم يغب عن ذهن انسان ان انكلترا عرضت رسميا على الدول الاوروبية خلع جلالة السلطان الاعظم فرفضت الروسيا وفرنسا

طلب انكلترا قبل كل الدول . وقد قامت المانيا فى الحرب الاخيرة بواجب أوروبا كلها ضد انكلترا فتم للدولة العلية الظفر والنصر وتم لبريطانيا الفشل والخذلان

أما واجب العثمانيين والمسلمين أمام عداوة انكلترا للدولة العلية فبين لا ينكره الا الخونة والخوارج والدخلاء . فواجب العثمانيين ان يجتمعوا جميعا حول راية السلطنة السنية وان يدافعوا عن ملك بلادهم بكل قواهم ولو تفانى الكثيرون منهم فى هذا الغرض الشريف حتى يعيشوا أبد الدهر سادة لاعبيدا . وواجب المسلمين أن يلتفوا أجمعين حول راية الخلافة الاسلامية المقدسة وأن يعززوها بالاموال والارواح ففى حفظها حفظ كرامتهم وشرفهم وفى بقاء مجدها رفعتهم ورفعة العقيدة الاسلامية المقدسة

المسئلة الشرقية

في

القرن الثامن عشر

لقد حدثت فى القرن الثامن عشر أزمة شديدة مهمة للمسئلة الشرقية هى الحرب بين الدولة العلية والروسيا التى طالت من أواخر عام ١٧٦٨ الى أوائل عام ١٧٧٥ وهذه الازمة كانت شديدة غزيرة النتائج وأصلا لتداخل أوروبا فى أمور الدولة العثمانية باسم الدين

وقد كانت الروسيا حليفة للبروسيا فى ذلك العهد محالفة أمضى عليها فريدريك الكبير ملك بروسيا وكاترينا امبراطورة الروسيا يوم ١١ ابريل سنة ١٧٦٤ وكان أجلها ثماني سنوات. وسبب تداخل البروسيا في المسائل الشرقية هو تحالفها مع الروسيا نحو قرن . وداعية هذا التحالف هى العداوة الشديدة التى كانت بين النمسا والبروسيا فى المانيا وبين النمسا والروسيا في مسائل الشرق . وقد كان يعقد أحيانا اتفاق بين تلك

الدول الثلاث ولكن العداوة بقيت طويلا بالرغم عن هذه شديدة بينها وبين بعضها

ومن أسباب تحالف الروسيا والبروسيا غير ماذكرناه اشتراكهما فى المصلحة ضد بولونيا التي كانت جمهورية وقتئذ وفي حالة من الفوضى عظيمة. وقدكان يروق للروسياوالبروسيا بقاء نفوذهما قويا فى بولونيا والعمل على زيادة الفوضى فيها لتتمكنا من تقسيمها والاستيلاء عليها

وكان قد عقد بين فرنسا والنمسا عام ١٧٥٦ تحالف يضمن للنمسا مساعدة فرنسا الحربية والسياسية فى كل أوروبا ويضمن لفرنسا عدم تداخل النمسا ضدها فى حالة قيام الحرب بينها وبين انكلترا . وقد حصل وقتئذ أن (أوجست الثالث) ملك جمهورية بولونيا توفى وأرادت الروسيا بالاتفاق مع البروسيا أن تعين بدلا عنه (ستانيسلاس أوجست بونياتووسكى) الذى كان محبوباً عند كاترينا امبراطورة الروسيا وعاشقا من أكبر عشاقها وكانت ترمى الروسيا بهذا التعيين الى القاء بذور الشقاق والشحناء بين البولونيين

واحداث الاضطرابات فى بلادهم بواسطة هذا الملك الجديد

فعمل عندئذ الوطنيون البولونيون لدى الباب العالى مستغيثين به لاحباط مساعى الروسيا فى تعيين (ستانيسلاس) ولكن سفيرا الروسيا والبروسيا بالاستانة بذلا ضد هؤلاء الوطنيين كل جهدهم

وكان من صالح النمسا وفرنسا عدم نجاح الروسيا والبروسيا فى مسعاهما لتعيين (ستانيسلاس) فحرضتا الدولة العلية ضد الروسيا والبروسيا وأظهرتا لها فائدة تداخلها فى صالح البولونيين ولكن المرحوم السلطان (مصطفى الثالث) كان يعجب بفريدريك ملك البروسيا اعجاباً زائداً فلم يرض لذلك العمل ضده . سيما وان تعيين (ستانيسلاس) كان لايضر بمصالح الدولة مطلقا . فتم تعيين هذا الرجل ملكا لبولونيا يوم ٧ سبتمبر سنة ١٧٦٤

وما استقر هذا الرجل على كرسى ملك بولونيا حتى خلق فيها المشاكل والاضطرابات طبقاً لرغائب كاترينا وسهل لها التداخل فى شؤونها الداخلية . فطلب عندئذ بتاريخ

٢٥ نوفمبر من السنة نفسها سفيرا الروسيا والبروسيا من حكومة بولونيا جملة طلبات تخالف المصلحة البولونية فرفضها مجلس نواب بولونيا وكان رفضه هذا سببا لتداخل الروسيا فدخلت بولونيا بجيوشها الجرارة وأسالت الدماء وأنحت على الكثيرين من الابرياء واستمرت الثورات فى بولونيا تباعا والعالم كله ناظر اليها بلا حراك حتى بلغت الروسيا مرامها من هذه الديار التعسة وصارت بولونيا مستقلة فى الظاهر محكومة في الباطن بأهواء الروسيا وأغراضها

وفى هذه الاثناء تعين المسيو (شوازيل) وزيرا لخارجية فرنسا وكان ألد أعداء الروسيا . وعلى الخصوص كان عدوا شخصياً لكاترينا فكتب الى المسيو « دى فرجين » سفير فرنسا من الاستانة يأمره بعمل كل مافى سعته لخلق المشكلات بين الدولة العلية والروسيا وأرسل اليه ثلاثة ملايين من الفرنكات ليشترى بها ذمم بعض رجال الدولة وكان الوطنيون البولونيون حين ذاك يستغيثون بالدولة ليلا ونهاراً

وحصل ان بعض قسوس الروسيا جاءوا بلاد الدولة وأخذوا يهيجون أهالى اليونان وكريد والجبل الاسود باسم الدين حاملين بأيديهم وعلى صدورهم الصليب . وقام وقتئذ قسيس اسمه « ستيفانو بيكولو » فى شهر اكتوبر عام١٧٦٧ يدعو أهالى الجبل الاسود للقيام ضد المسلمين فهاجت الاهالى هياجاً شديدا

فلما رأت الدولة ذلك ووقفت على الفظائع العديدة التى جرت فى بولونيا أنذرت الدولة الروسية بالخروج من بولونيا فرفضت وكان ذلك سبب الحرب

وقد كانت الامة العثمانية ميالة الى البولونيين حتى ان المسيو « زيجلين » سفير بروسيا بالاستانة كتب الى حكومته بتاريخ ٢٦ يوليو سنة ١٧٦٨ يقول « انه وان كانت الحكومة العثمانية مطلقة النفوذ والسلطة في بلادها ولكن للرأى العام صوتا اذا ارتفع لاتقدر الحكومة على مخالفته »

وعند ماعلمت الروسيا باستعداد الدولة العلية للحرب أرسلت عساكرها واحتلت « كاركوفيا » . وقد أعلنت

الحرب يوم ١٦ اكتوبر سنة ١٧٦٨ وكان ذلك بالقاء الدولة العلية سفير الروسيا فى القصر المعروف (بقصر السبعة أبراج) وبهذه الصورة كانت تعلن الحرب فى القرن الماضى

وقد أرسلت الدولة عندئذ منشوراً للدول الاوروبية بتاريخ ٣٠ اكتوبر سنة ١٧٦٨ أبانت فيه أسباب اعلانها الحرب للدولة الروسية قائلة « لقد تجاسرت الروسيا وقضت على حرية بولونيا وأجبرتها على قبول ملك ليس من عائلة ملوكية ولم تنتخبه الامة ملكا عليها طبقا لقوانينها وشرائعها. وأسالت الروسيا الدماء وذبحت كل من خالف سياستها وأغراضها وخربت الاراضى والاملاك »

وقد أدهش اعلان الحرب بهذه الصورة كل رجال السياسة الاوروبية وجعل كل همه الانتفاع منها . أما المسيو (دى فرجين) سفير فرنسا فقد أعاد الى حكومته الثلاثة ملايين وكتب اليها « ان رجال تركيا لاتشترى ذممهم لانهم يعملون بمقتضى مصلحة بلادهم وشرف دولتهم »

ومضت أشهر طويلة اشتغل فيها كل خصم بالتجهيز

والتحضير ولم تقم الحرب الحقيقية الا فى شهر يوليو عام ١٧٦٩
على شواطىء نهر (الدينستر) وقد اقتتـل الجيشان طويلا
حول (خوتين) واختلف المؤرخون فى اثبات وجود فرق
بروسية بين الجيش الروسى فقال بعضهم بوجودها بمقتضى
المعاهدة التى بين الروسيا والبروسيا وأنكر البعض الآخر
وجودها . ولـكن الرأى الاول أقرب الى العقل والحقيقة

وفى يوم ١٦ سبتمبر هجم الجيش العثمانى على الجيش
الروسى ووقعت بينهما معركة هائلة انتهت بانتصار الروسيين
واستيلائهم على مقاطعـة (البغدان) . وأخذوا بعد هـذه
الواقعة قلاع خوتين وأزوف وتاجا نروج . ثم احتلت العساكر
الروسية يوم ١٦ نوفمبر سنة ١٧٩٦ مدينة (بوخارست) التى
هى عاصمة رومانيا الحالية . أما مقاطعة البغدان فهى تكوّن
مع مقاطعة الافلاق مملـكة رومانيا نفسها

وقد اغترت الروسـيا بهذا الانتصار وأرادت فصـل
اليونان من أملاك تركيا — وكانت أرسلت من قبـل بطلا
اسمه (أورلوف) ليهيج اليونانيين ضد الدولة العلية ـ فأرسلت

فى البحر الابيض المتوسط في آخر سنة ١٧٧٠ أسطولين الاول تحت (قيادة سبيروتوف) الروسي والثانى تحت قيادة (ألفنستون) الانكليزى وقد تجمعت عندئذ جماعات اليونان وتظاهرت بالقيام فى وجه الدولة ولكنها تمزقت شذر مذر عند تقدم الاتراك والالبانيين . فرجعت الروسيا بخفي حنين ويئست من تخليص اليونان فى ذلك الحين

ثم أرادت الروسيا أن تنتقم من الدولة العلية لفشل مساعيها فى اليونان فعاكست مراكبها وأسطولها ولم تأخذ بعد حرب وقتال عنيفين الا بعض السفن العثمانية في « تشمسه »

*
* *

ولقد كانت سياسة كل دولة من الدول الاوروبية فى هذه الحرب مختلفة عن الاخرى . فكانت فرنسا مصادقة للدولة العلية ومعادية للروسيا وكانت الدولة الوحيدة المنتصرة لبولونيا . ولكن صداقتها للدولة العلية وانتصارها لبولونيا لم ينتجا أقل نتيجة لان الدول الثلاث الروسيا والبروسيا والنمسا

اتفقت فى آخر الامر كما سيراه القارىء على تجزئة بولونيا
فكان من المستحيل على فرنسا مساعدة تركيا مساعدة فعلية
خوفا من اشتعال نار الحرب بينها وبين الدول الاوروبية .
ولكن ما كانت تخافه لنفسها تشجع الدول العلية على الاتيان
به فهى كانت تخشى الحرب ولكنها كانت أول محرضة للدولة
العليـة عليها . وهكذا الدول كلها والامم جميعها متى رأت فى
عمل من الاعمال احتمال الخير والشر تفضل أن يقوم به غيرها
فان أنتج خيراً استفادت منه وان أنتج شرا اجتنت أضراره
وكان « شوازيل » وزير فرنسا الاكبر ذا سياسة خرقاء
حيث كانت النمسا ساخرة من تحالفها مع فرنسا لا تقبل منها
نصيحة ولا تتبع لها رأيا . وكانت سياسة « شوازيل » ترمى
الى اضعاف الروسيا وتركيا فى آن واحد كما يتضح ذلك جليا
من مذكرة رسمية أرسلها في شهر دسمبر عام ١٧٦٩ الى
البرنس (كونيتز) وزير النمسا وجاء فيها (وترى فرنسا أن
أحسن شيء يعود على تحالفنا (أي تحالف فرنسا والنمسا)
بالفائدة هو ان تستمر الحرب بين الروسيا وتركيا مع

انتصارات متبادلة من الجانبين حتى يضعف الخصمان بدرجة واحدة . واذا ساعدتنا الايام تكون لنا الفرص كلها والفوائد أجمعها)

أما النمسا فكانت قد عقدت مع الروسيا فى عام ١٧٥٣ معاهدة ضد الدولة العلية ولكنها بطلت عام ١٧٦٢ بسبب تحالف الروسيا مع البروسيا ولما أعلنت الحرب بين الدولة العلية والروسيا عام ١٧٦٨ اتبعت النمسا فى بادىء الامر سياسة الحياد مع مسالمة الدولة العلية

وفي ختام عام ١٧٦٩ كلفت النمسا سفيرها فى الدولة العلية المسيو (توجوت)أن يعرض على وزراء جلالة السلطان رغبة النمسا للتداخل فى عقد الصلح بين المتحاربين . ولم تكن رغبة النمسا الحقيقية من هذا التداخل عقد الصلح بل كان غرضها الوصول الى امتلاك مقاطعة من أملاك تركيا وتوسيع نطاق المملكة النمساوية

وسيجد القارىء فى خلال هذا الفصل الخطة التى جرت عليها النمسا مع الدوله العلية وكيف انها حالفتها ضد الروسيا

وعملت فى الوقت نفسه على الاتفاق مع الروسيا ضد تركيا ! !!

وأما البروسيا فقد كان ملكها وقتئذ « فريدريك الكبير » المشهور بدهائه السياسى وقدرته الفائقة على الاستفادة من كل حادث أوروبى . وقد جعل سياسته فى المسئلة الشرقية الاستفادة من الحرب بين الدوله العلية والروسيا مع المحافظة على استقلال الدولة العلية . وكتب فى مذكراته السياسية الشهيرة « انه يوحد لنا طريقتان أمام تقدم الروسيا واتساع أملاكها . الاولى ايقافها فى تقدمها وفتوحاتها . والثانية ـ وهى أحكم طريقة ـ الاستفادة من تقدمها واتساع أملاكها وفتوحاتها بمهارة » وقد اتبع فريدريك الكبير الطريقة الثانية كما كتب فى مذكراته فكان متحالفا مع الروسيا وعلى تمام الصفاء مع تركيا وبذلك كان يستفيد اكثر من غيره .

ولما قامت الحرب بين الدولة العلية والروسيا كان اشتغال فريدريك الكبير منحصرا فى الوقوف على الخطة التى ستجرى عليها النمسا . هل تبقى وفية لفرنسا حليفتها أى مصافية لتركيا وبولونيا أو تنخدع للروسيا فيفقد التحالف

الروسى البروسى أهميته الاولى . وقد وجد عندئذ فريدريك بدهائه الغريب وذكائه العالى طريقة مثلى لفصل النمسا من فرنسا ولمنعها من معاداة الروسيا فى الشرق وفى بولونيا ولبقاء التحالف الروسى البروسى بأهميتـه الاولى . فوضع لذلك مشروع تحالف ثلاثى بين الروسيا وبروسـيا والنمسا يكون غرضه حل المسئلة الشرقيـة لافى تركيا نفسها بل فى بولونيا بأن تقسم هذه المملـكة بين هاته الدول الثلاث

وهذه الامنيـة كانت أكبر أمانى فريدريك الـكبير أيام حكمه لانه كان يرى في تقسيم بولونيا ربحا كبيرا للبروسيا واتساعا لنطاقها بضم بولونيا البروسية لها

وأول مرة فاتح المسيو (سولمس) سـفير بروسيا فى سان بطرسبورغ المسيو (بانين) وزير الروسـيا الاكبر في مسـئلة تقسيم بولونيا كان جواب الوزير الروسى ان تحالف الدول الثلاث يجب أن يرمى أيضا الى تقسيم الدولة العلية . فلما سمع فريدريك هذا الجواب تخوف منـه وأهمل أمر التحالف الثلاثى فى الظاهر

وقد قلنا ان فريدريك الكبير كان يرى في بقاء الدولة العلية فائدة عظمى لبروسيا وكان يستطلع بحدة ذهنه وقوة بصيرته من خلال الايام الآتية ان مودة الروسيا للبروسيا لاتدوم أبد الدهر وإن بقاء الدولة العلية قوية يكون كحاجز حصين امام الروسيا وكصخرة عالية واقفة امامها وبالجملة تكون للبروسيا قوة عظيمة يمكن الاعتماد عليها حسب مقتضى الحوادث

وقد برهنت الايام على ان فريدريك الكبير — وهو أول عامل على توسيع نطاق بروسيا وأول واضع لمشروع الوحدة لالمانية الذى تم على يدى غليوم الاول وبسمارك — نظر نظرة بصير فجاء من سلالته جلالة الامبراطور غليوم الثاني مدركا أهمية التودد للدولة العلية وتوثيق الروابط بينه وبينها فاستفاد العالم من هذه المودة المزدوجة واستفادت المانيا منها كثيراً

ولما علم فريدريك الكبير بجواب وزير الروسيا تخوف منه كما قدمنا ولكنه لم يرجع عن عزمه الاول وهو

العمل على تقسيم بولونيا . فرأى لنوال هذه البغية أن يتحبب الى النمسا ويتحد معها اتحاداً سريا يوقع الروسيا فى الارتباك والبلبال فتضطر الى قبول آرائه وتدرك فائدة التحالف معه والعمل بنصائحه . وبالفعل تقابل فى مدينة (نيس) مع (جوزيف الثاني) امبراطور النمسا وابن (ماري تيريزيا) الشهيرة وتوصل الى عقد اتفاقية ودية معه فى شهر أغسطس عام ١٧٦٩

فكانت نتيجة هذه الاتفاقية ان الروسيا صارت فى بلبال زائد كما أراد فريدريك . فانها كانت تجهل مضمونها وكانت تظن انها اتفاقية عقدت للعمل ضدها فى المسئلة الشرقية فاضطرت الى تجديد محالفتها مع البروسيا يوم ١٢ اكتوبر سنة ١٧٦٩ واشترط جعل أجلها ممتدا الى غاية عام ١٧٨٠ فنالت بذلك البروسيا ما كانت تتمناه وهو ان الروسيا عرفت مقدار تحالفها معها وصار لآرائها عندها تقدير القبول والرضى وباتفاقها مع النمسا اتفاقية ودية صارت حليفة الروسيا وصديقة النمسا ووضعت بذلك الاساس لمشروعها

العظيم . أى مشروع تقسيم بولونيا بين الدول الثلاث •

وقد بعث فريدريك الكبير بأخيه البرنس هنرى الى سان بطرسبورغ لزيارة القيصر فوصل عاصمة الروسيا يوم ١٢ اكتوبر سنة ١٧٧٠ وقد تحادث كثيراً مدة وجوده فى بطرسبورغ مع القيصرة ورجال السياسة الروسية فى مشروع عقد تحالف ثلاثى بين الروسيا والبروسيا والنمسا بقصد تقسيم بولونيا . فوجد لهذا المشروع قبولا عند الروسيين لم يكن عندهم من قبل

وقد بذلت البروسيا فى ذلك الحين جهدها في اقناع الدولة العلية بضرورة ايقاف الحرب والتوسط فى الصلح حتى رضيت الدولة العلية وطلبت بمذكرة تاريخها ١٢ أغسطس سنة ١٧٧٠ من بروسيا والنمسا التوسط بينها وبين الروسيا فى أمر عقد الصلح

يرى القارىء مما تقدم سياسة كل من دول فرنسا والنمسا والبروسيا فى المسئلة الشرقية فى القرن الثامن عشر أما انكلترا فقد جرت فى هذا القرن الماضى على سياسة

مزدوجة . فكانت تساعد الروسيا فى الحرب كل المساعدة وتظهر للدولة العلية بمظهر الصديقة لتقف على أسرارها حيث تطلع الروسيا عليها . ولما قامت الحرب بين الدولتين العلية والروسية كانت انكلترا مشتغلة بأمور الهند التى كانت استولت عليها منذ بضع سنين من قبل

ولما كانت الروسيا مصافية لانكلترا وغير ميالة وقتئذ للاستيلاء على الهند وسلبها من أيدى الانكليز وكانت فرنسا هي العدوة اللدودة لانكلترا والدولة الوحيدة التي كانت تخاف منها انكلترا على الهند ـ وقد كانت الهند من قبل ملكا لفرنسا ومستعمرة من مستعمراتها ـ اتبع الانكليز سياسة التقرب من الروسيا والتودد اليها ومعاداة فرنسا والدولة العلية

وفضلا عن الاسباب السياسية الداعية لذلك فهنالك أسباب تجارية دفعت الانكليز لمحاباة الروسيا فقد كانت انكلترا تتاجر وحدها فى الشمال وكانت واردات الروسيا كلها من انكلترا . وكان الكثيرون من البحارة الانكليز موظفين فى المراكب الروسية . وقد أراد (شوازيل) وزير

فرنسا الاكبر أن يضرب المراكب الروسية بالعمارة الفرنساوية وقدم بذلك مذكرة لمجلس نظار فرنسا ولكنها رفضت وقبل رفضها أعلنت وزارة لندره ان كل عمل يعمل ضد الروسيا يعد اهانة لانكلترا واعتداء عليها . وهو قول يبين مقدار ميل الانكليز للدولة الروسية فى ذلك الحين أو بعبارة أصرح يبين مقدار المكاسب العظيمة التى كانت تكسبها انكلترا من الروسيا

ومن اكبر الاسباب التى جعلت انكلترا ضعيفة الصوت فى مسائل الشرق فى ذلك الحين هو اضطراباتها الداخلية وقيام الامريكيين بالثورة ضدها مطالبين بالاستقلال الذى نالوه بدماء أبطالهم أى بأعز الاثمان

ومن غريب أمر السياسة الانكليزية انها مع محاباتها للروسية كل المحاباة أرادت أن تظهر لتركيا بمظهر الصداقة كما قدمنا فعرضت عليها في صيف عام ١٧٧٠ أن تتداخل بينها وبين الروسيا لعقد الصلح فأجابت الدولة العلية سفير انكلترا بالاستانة (السير مورى) بمذكرة حكيمة جاء فيها « انه لمن الامور المدهشة الخارقة للعادة ان انكلترا تعرض

على الباب العالى توسطها فى الحرب مع ان لها سفنا في الاسطول الروسى حاربت ضدنا . ولذلك نحن نعتقد ان طلبها التوسط فى الحرب ليس الا ستارا لاغراض أخرى ينويها العدو (أى الروسيا) . فلتعلن انكلترا خطتها وسلوكها بدون مراوغة حتى يعلم الباب العالى مع أى المتحاربين هى أمعه أو ضده ؟ ؟ . وقد أحدثت هذه المذكرة الحازمة تأثيرا شديداً لدى الانكليز وأفهمتهم أن الاتراك خبيرون بسياستهم وبما فيها من الغش والنفاق فاضطروا لسحب ضباطهم وعساكرهم من الاساطيل والجيوش الروسية ولكن ذلك جاء بعد ان قضت الحرب معظمها

ولما طلبت الدولة العلية من روسيا والنمسا التوسط فى أمر الصلح أبلغت انكلترا الروسيا هذا الطلب لتأخذ حذرها فكانت وظيفة انكلترا فى هذه المسئلة اشبه بوظيفة جاسوس على الدولة العلية للروسية

*
* *

ولما علمت الروسيا بواسطة الانكليز بأمر طلب الصلح

أرادت أن تعرقل مساعي البروسيا والنمسا فأمرت الجنرال رومانتسوف بتاريخ ٢٦ سبتمبر سنة ١٧٧٠ ان يكتب الى الصدر الاعظم بأن الروسيا مستعدة للمناقشة مع الباب العالى مباشرة فى أمر الصلح متى أطلق سراح (أوبرسكوف) سفير الروسيا فى الاستانة . وبذلك منعت الروسيا البروسيا والنمسا من التداخل فى أمر الصلح مدعية بأن تداخل هاتين الدولتين يدعو لتداخل فرنسا . وهو الامر الذى ترفضه القيصرة رفضا باتا

وفى هذه الاثناء استولى الجيش الروسى على مدينة بندر واكرامان وبرايلا . ولما طال أمر المراسلات بشأن الصلح بين فريدريك وكاترينا كتبت قيصرة الروس الى ملك بروسيا بتاريخ ٢٠ سبتمبر من السنة نفسها توضح له الشروط التى تشترطها لعقد الصلح . وهى الاستيلاء على أزوف وكاباردا مع استقلال البغدان والافلاق أو بقاء هاتين القاطعتين تحت حكم الروسيا مدة ربع قرن كغرامة حربية . واستقلال ترتار البسرابى والقرم وحرية الملاحة فى البحر الاسود والتنازل

عن جزيرة للروسيا فى الارخبيل وعفو عام عن كل اليونانيين الذين ثاروا ضد الدوله العلية أثناء الحرب

فلما أطلع فريدريك على هـذه الشروط اندهش غاية الاندهاش من مطالب الروسيا وأطماعها . وقد حصل وقتئذ أن رئيس أفندى (وهي وظيفة كانت فى الدولة العلية بمثابة وظيفة ناظر الخارجية) أخبر سفيرى النمسا وبروسيا ان الدولة العلية لاتقبل المخابرة مع الروسـيا مباشرة بشأن الصلح ولـكنها تقبل توسط النمسا والبروسـيا وأبلغهما أنه أعلن ذلك للجنرال رومانتسوف

وقـد كـتب فريدريك لما اطلع على شروط الصـلح المبعوثة اليه من القيصرة الى أخيه البرنس هنرى — الذى كان لا يزال بسان بطرسبورغ — بتاريخ ٣ يناير سنة ١٧٧١ « لقد اندهشت اندهاشا عظيما لما اطلعت على الشروط التى تقدمها الروسيا للصلح وانه يستحيل على أن أقدمها للاتراك أو للنمساويين لانها شروط لا يمكن قبولها » وأبان فريدريك فى كتابه لاخيه أن هذه الشروط لا يمكن لدول أوروبا قبولها

وانها تعتبر اعلان حرب للنمسا . وقد كتب بنفسه للقيصرة بتاريخ ٥ يناير سنة ١٧٧١ انها اذا كانت تريد اجتناب الحرب مع النمسا يجب عليها أن تكتفي بأخذ أزوف والكاباردا وبحرية الملاحة فى البحر الاسود

وفى أثناء ذلك كانت القيصرة كاترينا تتحدث مع البرنس هنرى بسان بطرسبورغ فى أمر تقسيم بولونيا . فلما كتب البرنس هنرى الى أخيه بذلك سر ملك بروسيا حيث جاء هذا الامر موافقا لرغائبه . واجتهد في جعل حل المسألة الشرقية في بولونيا فقط لعلمه بما لبقاء الدولة العلية من اللزوم والاهمية . فأراد تقسيم بولونيا على شرط ان الروسيا لا تأخذ البغدان والافلاق

وقد جرى عندئذ ان النمسا طمحت لمحالفة تركيا ضد الروسيا والعمل للاستفادة من هذه المحالفة ولو ضد تركيا نفسها . فبعث (كونيتز) رئيس الوزارة النمساوية الى المسيو « توجوت » سفير النمسا في الاستانة يأمره بمخابرة رجال الدولة العلية فى أمر عقد محالفة بين النمسا وتركيا يشترط

فيها ان تركيا تدفع سنويا للنمسا ٣٤ مليونا من الفلورينو أي
فوق الثلاثة ملايين من الجنيهات . وان تتنازل لها عن
(الافلاق) ومدينة بلغراد وان تجعل للنمساويين فى ممالك
الدولة العلية أهم الامتيازات التجارية . وفضلا عن كل هذه
الشروط تقدم للنمسا فى حالة الحرب من خمسين الى ستين
ألف مقاتل . وتشترط النمسا على نفسها مقابل ذلك أن
تحارب الروسيا مع تركيا اذا لم ترض القيصرة بطريق المخابرات
اعادة البلاد التى استولت عليها الى الدولة العلية

وقد سعى (كونيتز) عندئذ لدى فريدريك ملك
بروسيا أن يبقى على الحياد اذا قامت الحرب بين النمسا
والروسيا ولكن فريدريك اتبع طريق المراوغة فلم يجب
بجواب صريح

أما فرنسا حليفة النمسا فكانت تعمل في هذا الحين
على مساعدة تركيا بأسطولها مقابل عوض مالى . ولكن
(توجوت) سفير النمسا (الذى كان يكاتب سرا الحكومة
الفرنساوية كجاسوس لها مقابل أجرة شهرية وكان فى

الحقيقة يغشها ولا يخدم الا مصلحة النمسا وطنه) بذل أقصى جهده من حين علم بهذا المشروع على احباط مسعى فرنسا فأبان لرجال الدولة العلية ان مساعدة الاسطول لا تفيد شيئا ما لان الحرب برية محضة لا بحرية . وان قصد فرنسا ليس مساعدة الدولة العلية بل معاداة الروسيا ومد أمد الحرب الى ماشاء الله . فأفلح (توجوت) واقتنع رجال الدولة بصدق أقواله وصحة أفكاره ورفضوا مشروع فرنسا

وقد كان رجال الدولة العلية يؤملون ان اتفاق فرنسا مع الدولة يحمل النمسا (حليفة فرنسا) على مساعدة تركيا . ولكن النمسا كانت تخشى هذا الامر لما فيه من التقيد لها ولعلمها بانها لا تستطيع أن تخدع تركيا اذا كانت فرنسا متحدة معها بخلاف ما اذا كانت هي المتحدة مع الدولة العلية دون غيرها . ولذلك كان فشل مشروع فرنسا مضرا بالدولة العلية مفيدا للنمسا حليفة فرنسا !!!

ولما فشل مسعى فرنسا عمل (توجوت) على عقد التحالف بين النمسا وتركيا . ومن حسن حظ النمسا وقتئذ

ان خضعت تاتار بلاد القرم للروسيا وصارت كتاتار البسرابى فاضطرت الدولة بهذا السبب لتعجيل الاتفاق مع النمسا وقبول معاهدة التحالف . فأمضت المعاهدة مساء يوم ٦ يوليو سنة ١٧٧١ . وشروط هذه المعاهدة ان النمسا تتعهد بمساعدة تركيا ضد الروسيا وعدم سلخ أى جزء من الاملاك العثمانية والمحافظة على استقلال بولونيا مراعاة لشرف الدولة العلية . وان تتعهد تركيا بدفع مبلغ ١١٣٥٠٠٠٠ فلورينو للنمسا (لا ٣٤ مليونا كما طلبت النمسا أولا) أى نحو المليون جنيها وبالتنازل للنمسا عن أراضى (الافلاق) . وبمساعدة الرعايا النمساويين فى بلاد الدولة العلية على ترويج تجارتهم وصنائعهم واشترط بين الدولتين المتعاهدتين ان هذه المعاهدة يكتم أمرها خصوصاً على فرنسا حليفة النمسا اذ ذاك

وقد رفع (توجوت) صورة هذه المعاهدة الى حكومة دولته وطلب التوقيع عليها

فلما وصلت صورة المعاهدة الى (كونيتز) اطمأن من جهة الدولة العلية وأخذ يهدد الروسيا مؤملا بهذا التهديد

حملها على مخابرته في شأن تقسيم الدولة العلية . وقد كان ذلك وأرسلت الروسيا الكونت (ماسين) حاملا لجملة مشروعات تختص بالدولة العثمانية ومكلفا من قبل القيصرة بعرضها على (كونيتز) . ومن ضمن المشروعات مشروعان يشتملان على عقد اتحاد بين النمسا والروسيا يكون غرضه الوحيد اخراج الاتراك من أوروبا وتقسيم الدوله العلية . فالمشروع الاول يبين صورة تقسيمها بين الدولتين بأن تأخذ النمسا صربياً والبوسنه والهرسك والبانيا ومقدونيه ويترك للروسية بقية أملاك الدوله العلية بما فيها الاستانة . وفي المشروع الثاني تأخذ النمسا الافلاق وصربيا وبلغاريا والهرسك وتأخذ الروسيا مقدونيه والبانيا ورومانيا وقسما عظيما من الارخبيل وآسيا الصغرى والاستانة . وتأخذ كذلك الروسيا الاراضى الواقعة على شمال الدانوب وشواطىء البحر الاسود . أما بلاد القرم والموره فتبقي مستقلة

والمشروع الثالث يتضمن بقاء الترك على الشاطىء الشمالى للدانوب واعطاء صربيا والبوسنه والهرسك للنمسا

وما على شواطىء البحر الاسود للروسيا مع استقلال التاتار وقدم الكونت (ماسين) غير ذلك مشروعات أخرى تتعلق بتقسيم بولونيا بين الروسيا والنمسا والبروسيا

وقد اطلعت النمسا على هذه المشروعات كلها وتباحثت فيها واحداً بعد آخر فى وقت كانت تعد فيه متحالفة مع تركيا تحالفا يقتضى رد الروسيا عن أملاك الدوله العلية وبقاء تركيا سليمة كما كانت قبل الحرب والمحافظة على احتلال بولونيا..

وبينما كانت النمسا تتباحث فى هذه المشروعات الغريبة كان فريدريك الكبير ملك بروسيا يسعى لتقسيم بولونيا مع بقاء مقاطعات الدانوب تحت سلطة الدوله العلية . أى لحل المسئلة الشرقية فى بولونيا كما قدمنا

أما الدولة العلية فقد قامت بما تعهدت به نحو النمسا وأرسلت الى حكومة فيينا بتاريخ ٢٥ يوليو سنة ١٧٧١ جانباً من مبلغ المليون جنيه الذى فرضته على نفسها . وقد طلبت الدولة العلية جملة مرات التوقيع على معاهدة التحالف غير أن النمسا كانت تهمل طلب الدولة رغبة منها فى الوصول

الى نوال مآربها وأغراضها بدون حرب وقتال . وقد كانت سياسة (كونيتز) ترمى الى عقد اتفاق يفيد النمسا فائدة عظمى امام مع الروسيا ضد تركيا أو مع تركيا ضد الروسيا . فلذلك كان يؤجل كل مرة أمر التوقيع على معاهدة التحالف مع تركيا أملا منه فى الوصول الى عقد اتفاق مع الروسيا يكون أكبر فائدة وأعظم نفعا . وكان يخشى (كونيتز) انه اذا أمضى على معاهدة الاتحاد مع تركيا تقسم الروسيا والبروسيا بلاد بولونيا بين دولتيهما بدون أن تأخذ النمسا شيأ منها

ولما رأى كونيتز أن الدولة العلية تلح كثيرا فى أمر التوقيع على عهدة التحالف كتب الى الحكومة العثمانية بتاريخ ١٤ اكتوبر سنة ١٧٧١ كتاب صدق واخلاص قال لها فيه « ان دولته محافظة على عهودها وفية فى تحالفها » ولكنه لم يرسل مع ذلك بالعهدة موقعا عليها

وفى هذا الاثناء علم سفير انكلترا بالاستانة اللورد (مورى) بأمر المبلغ الذى أرسلته الدولة العلية للنمسا فأخبر

سفير دولته فى باريس وهذا أخبر سفير البروسيا بها .
فلما علم فريدريك الكبير بهذا الخبر بعث به فى الحال الى
القيصر وكتب الى سفيره بالاستانة يأمره بأن يرشد
وزراء الدولة العلية الى حقيقة أغراض النمساويين ويبين
لهم انها تعمل للاضرار بمصالح حكومة جلالة السلطان .
وكتب كذلك فريدريك الى سفيره بباريس يأمره أن
يعرض على الوزارة الفرنساوية أن تطلب عقد مؤتمر بالاستانة
لعقد الصلح بين الروسيا وتركيا كل ذلك قصد به فريدريك
الكبير أن يظهر النمسا لدول أوروبا بمظهر الدولة الخداعة
فى ودها الخائنة لعهودها مع تركيا وفرنسا في آن واحد

وقد كانت الحرب مع تركيا أضعفت الجيوش الروسية
كثيرا وقتالها فى بولونيا جعلها في أشد حاجة للراحة والسكينة
فضلا عن أن المال كان ينقص وقتئذ الدولة الروسية .
فكتبت (كاترينا) امبراطورة الروسيا بتاريخ ٦ دسمبر
سنة ١٧٧١ الى فريديك الكبير ملك بروسيا تخبره أنها
تنازلت عن مطالبها بشأن « البغدان والافلاق » ولكنها

تطلب من تركيا التنازل لها عن بعض مدائن منها « بندر »
و « أو تشا كوف » وتعلمه بأنها قبلت تقسيم بولونيا واعطاء
البروسيا ماطلبته منهاأى بولونيا البروسيةو (فارميا) وتطلب
القيصرة مقابل ذلك من ملك بروسيا أن يسير عشرين الف
جندى على مقاطعتى (الافلاق والبغدان) اذا قامت النمسا
بمحاربة الروسيا

وعند وصول هذا الكتاب الى فريدريك الكبير ملك
البروسيا كان همه موجها الى تقسيم بولونيا وتوسيع دائرة
أملاك بلاده ففرح غاية الفرح بكتاب القيصرة . وانتهى
الامر باتفاق الروسيا والبروسيا على تقسيم بلاد بولونيا
التعسة . وصارت النمسا بهذا الاتفاق بين أمرين اماالوفاء
بالعهد لتركيا وفرنسا ومعارضة مشروع تقسيم بولونيا واما
الاتفاق مع الروسيا والبروسيا وعدم احترام عهودها نحو
تركيا وفرنسا . فاختار كونيتز الامر الثانى عاملا بالمبدأ
السياسى القائل « بأن لاعهد ولا شرف فى السياسة » .
ووافق الامبراطور جوزيف والامبراطورة مارى تيريزيا

والدته على خطة كونيتز . وكان ذلك فى أوائل عام ١٧٧٢

وفى يوم ٢٨ يناير سنة ١٧٧٢ كتب (كونيتز) الى حكومة الروسيا يبلغها قبول النمسا لمشروع تقسيم بولونيا ولمطالب القيصرة نحو الدولة العلية . مظهراً أمله وأمل حكومته فى أن النمسا تأخذ من أملاك الدولة العلية شيئا كما أخذت من بلاد بولونيا أى أن تقسم الدولة العثمانية كما قسمت بولونيا !!

وبذلك يرى القارىء أن النمسا بعد ان تحالفت مع تركيا على ان ترد الروسيا عن أملاكها بواسطة المخابرات السياسية أو بواسطة الحرب وان تدافع عن استقلال بولونيا. وبعد ان قدمت اليها الدولة العلية ماطلبت من المال . عرضت بنفسها على الروسيا والبروسيا فى يناير عام ١٧٧٢ تقسيم بولونيا وتجزئة الدولة العلية !!

وهى نتيجة اعترفت (مارى تيريزيا) نفسها بانها لاتشرف المملكة النمساوية . وقالت عنها فى رسائلها السياسية « انها سياسة جرت عليها النمسا ضد الشرف وضد مجد

المملكة وضد الذمة والعقيدة » .

وقد تم اتفاق الروسيا والبروسيا والنمسا على تقسيم بولونيا وانتهى الامر بتقسيم هذه المملكة بفضل دسائس الدخلاء وانقسام أهلها على بعضهم . وذهبت هذه الأمة البولونية الشريفة المشهورة بالوطنية الفائقة والشهامة العظيمة ضحية مطامع الدول الثلاث وفريسة الدسائس الاجنبية والشقاق الاهلى

وقد امتنعت الدولة العلية عن ارسال المدد المالى للنمسا لما رأت تلاعبها معها وتلونها في سياستها . فجعل (كونيتز) عدم ارسال المدد المالى سببا لحل التحالف بين دولته وتركيا!

ولما علمت الدولة العلية بأن الروسيا قابلة لعقد الصلح بدون استيلائها على مقاطعتى (البغدان والافلاق) رضيت بالصلح وعقدت مع حكومة الروسيا هدنة بتاريخ ١٠ يونيو سنة ١٧٧٢ . واتفق رجال الدولتين على اجتماع مندوبين من قبلهما بمدينة « فوكتشانى » للمناقشة فى شروط الصلح : فاجتمع المندوبون ولبثوا مجتمعين عشرين يوما اتفقوا فيها على

سائر الشروط الا على شرط استقلال الترتار . فقد طلب مندوبو تركيا بقاء الترتار تحت سلطة الدولة العلية لان جلالة السلطان بصفته خليفة المسلمين لا يمكنه التنازل عن السلطة عليهم . فرفض الروسيون هذا الطلب وبذلك انحل المؤتمر . وبعد انحلاله بزمن عرضت الروسيا على الدولة العلية عقد مؤتمر آخر فقبلت الدولة وعقد المؤتمر بمدينة (بوخارست) بعد أن عقدت هدنة ثانية جعل آخر أجلها ٢١ مارس سنة ١٧٧٣ . وقد اتفق مندوبو الروسيا وتركيا في هذا المؤتمر على مسئلة الترتار فرضيت الروسيا ببقائهم تحت سلطة جلالة السلطان . ولكنها طلبت من تركيا التنازل لها عن (كرتش) و (ويني قلعة) . فلم تقبل تركيا ذلك وانحل هذا المؤتمر أيضا ـ كما انحل المؤتمر الاول بغير نتيجة ـ في أوائل يناير سنة ١٧٧٣

وقد عادت المخابرات مرة أخرى بين الدولتين بتاريخ ١٥ فبراير سنة ١٧٧٣ ولكن الاتفاق كان مستحيلا لان الروسيا كانت تطالب بعزم ثابت بكرتش ويني قلعه وساسة

الدولة العلية كانوا يرفضون طلب الروسيا أشد الرفض لانهم كانوا يرون ـ والحق معهم ـ أن أخذ هذين الموقعين يجعل الاستانة في خطر مستمر من جهة الروسيا ولذلك أقفل باب المخابرات وعادت الحرب بين الدولتين. فأمرت القيصرة (رومانتسوف) جنرال الجيش الروسى بأن يسير وراء الدانوب ويحمل علي العثمانيين فسار بأمرها الجيش الروسى يوم ١٣ يونيو سنة ١٧٧٣ وحمل على (سيليستريا) (وهى مدينة ببلاد البلغار) ولكن الجيش العثماني انتصر عليه انتصاراً عظيما وقطع عليه خط الرجعة حتى فقد الجيش الروسى معظم رجاله . فقام عندئذ الجنرال فيسمان الروسى بعمل جملة مناورات اضطرت الاتراك للرجوع الى الوراء . وقد مات فى هذه المناورات الجنرال فيسمان نفسه ولكنه أعاد للجيش الروسى بعض قوته

وقد رأت الروسيا عندئذ ان مصلحتها تقضى عليها بعقد الصلح مع الدولة العلية خصوصاً وان جيوشها انهزمت هزيمة شديدة بالقرب من (وازنا) وان أهل القرم أظهروا ميلهم للانضمام مع جلالة السلطان ضد الروسيا . فضلا عن أن ثورة

أهلية قامت فى الروسيا تحت قيادة رجل اسمه (بوجاتشيف) كانت تهدد القيصرة وملكها . فلذلك طلبت الروسيا من النمسا التوسط بينها وبين الدولة العلية فى أمر الصلح مقابل جزء تعطاه من أملاك تركيا نفسها

وفى ذلك الحين توفى المرحوم السلطان (مصطفى الثالث) وتولى بعده السلطان (عبد الحميد الأول) فأمر باستمرار الحرب ولكنها عادت بخسائر جمة علي الدولة لان الجيش كان غير مستعد للقتال بعد الحروب الطويلة التى قام بها . فاضطر الصدر الاعظم الى عرض الصلح على الجنرال (رومانتسوف) . وتم الاتفاق بينهما فى ١٠ يوليو سنة ١٧٧٤ وأمضيا بعد ذلك فى ٢١ يوليو سنة ١٧٧٤ على عهدة الصلح بمدينة (كوتشك قاينارجه) . وهى أشهر عهدة أمضت عليها الدولة العلية والحجر الاول للمسئلة الشرقية وعنوان النزاع بين المسيحية والاسلام وأصل الحروب الطويلة التى وجهت ضد الدولة فى القرن التاسع عشر والازمات الشداد التى وقعت فيها

وشروط هذه المعاهدة ان الدولة العلية تتنازل للروسيا عن الكاباردا وتضع مقاطعات الدانوب تحت حمايتها وتعلن استقلال بلاد القرم تحت ضمانتها وتتنازل لها عن (أزوف) (وكرتش) و (ينى قلعة) وتعطيها حق الملاحة فى البحر الاسود وشبه حماية معنوية على رعايا الدولة العلية المسيحيين عموماً والارثوذكسيين منهم خصوصاً

وهذا الشرط الاخير كان ولا يزال آفة الدولة العلية فى علاقاتها مع دول أوروبا فكلها تتداخل فى شؤون الدولة باسم المسيحية واذا قامت الحرب بينها وبين احدى الدول كانت العلة المسيحية وحقوقها. وان سياسة الروسيا مع الدولة العلية في القرن الثامن عشر كانت كسياستها مع مملكة بولونيا التعسة تخلق لنفسها حزبا فى قلب المملكة يخلق لها الاضطرابات والمشاكل عند الحاجة لتتداخل فى شؤون المملكة الداخلية باسم هذا الحزب وبحجة نصرته . ولكن هذه السياسة التى أفلحت فى بولونيا تماماً بفضل النمسا والبروسيا لم تفلح في تركيا تماماً كما كانت تؤمله الروسيا لما عند العثمانيين من الشهامة الحقيقية

ولما لجيشهم من القوة الهائلة ولما بين الدول الاوروبية من الشقاق والاختلاف بشأن أمور تركيا ومسائل الشرق

أما النمسا فقد انتهزت فرصة اشتغال الروسيا وتركيا بأمر الصلح ووضعت يدها على جزء مهم من البغدان وعرضت على الروسيا مقابل ذلك مشروعا يتضمن تحالفها معها ضد الدولة العلية !

ولم توقع الحكومة العثمانية نهائياً على معاهدة (قاينارجه) الا يوم ٢٤ يناير سنة ١٧٧٥

ولم يمض على هذه المعاهدة زمن يسير حتى أحدثت الروسيا فى بلاد القرم الاضطرابات بفضل الدخلاء العاملين بأمرها وأرسلت جيشاً جرارا الى داخل البلاد بدعوى تسكين الاضطرابات . ولكن غرضها الحقيقي كان الاستيلاء على بلاد القرم وبالفعل استولت عليها وظهر للعيان أن الروسيا انما كانت تعمل لاخراج هذه البلاد من حوزة الدولة العلية وان بذل جهدها فى سبيل اعلان استقلالها لم يكن الا ليسهل لها الاستيلاء عليها . وقد احتجت الدولة العلية ضد هذا

العمل المخالف لشروط معاهدة (قاينارجه) وأرادت اعلان الحرب ضد الروسيا ولكنها رجعت عن عزمها بنصائح فرنسا التى كانت تعلم ان الروسيا والنمسا متفقتان على تقويض أركان السلطنة العثمانية

ولكن الروسيا كانت تبذل أقصى الجهد للوصول الى اعلان الحرب بينها وبين تركيا فأرسلت مبعوثين من عندها لتهييج بلاد اليونان والافلاق والبغدان ضد السلطنة السنية ونشرت الجواسيس فى انحاء الدولة العلية ليحدثوا فيها القلاقل ويخلقوا الاضطرابات فلما رأت الدولة العلية ذلك وأن لا مناص لها من الحرب طلبت من سفير الروسيا بالاستانة أن يخابر دولته فى تسليم حاكم الافلاق الذى عصى أمر الدولة والتجأ الى الروسيا وفى عزل قناصل الروسيا المهيجين للاهالي فى بلاد الدولة وفى منح الدولة العلية حق تفتيش مراكب الروسيا التجارية التى تمر من بوغاز الاستانة .

فرفضت الروسيا هذه الطلبات وكان ذلك الرفض اعلانا للحرب بينها وبين الدولة العلية

ولما كانت النمسا متفقة مع الروسيا على مساعدتها ضد تركيا أرسل جوزيف الثانى امبراطور النمسا جيشاً عظيما لمحاربة الاتراك والاستيلاء على مدينة (بلغراد) فانهزم جيشه أمام العثمانيين واضطر للعودة الى مدينة (تمسوار) ببلاد المجر حيث اقتفى أثره الجيش التركى وهزمه هزيمة عظيمة

أما الجيش الروسى فقد استولى فى هذه الاثناء على مدينة « أوزى » وبينما الجيش العثمانى يقاوم جيش الروسيا والنمسا اذ مات المرحوم السلطان (عبد الحميد الاول)فى ٧ ابريل سنة ١٧٨٩ وتولى بعده السلطان الغازى (سليم خان الثالث) حيث أمور الدولة مرتبكة والحرب قائمة على قدم وساق . وقد انتهز الروسيون فرصة انتقال الملك فى الدولة العلية واتحدوا مع النمساويين في الحركات العسكرية وتولى القيادة العامة قائد واحد » فانتصر الجيشان على جيش الدولة واستولى الروسيون على مدينة « بندر » واحتلوا جزأ عظيما من بلاد الافلاق والبغدان وبسرابيا ودخل النمساويون بلاد

الصرب ومدينة بلغراد

وقد مات حين ذاك جوزيف الثانى امبراطور النمسا وعقبه على سرير المملكة النمساوية ليوبولد الثاني فسعى فى عقد الصلح مع الدولة العلية تخوفا من قيام النمساويين بالثورة ضده تقليدا للامة الفرنسوية التى كانت ثائرة وقتئذ ثورتها الاولى الكبيرة ضد لويس السادس عشر . فعقدت عهدة بين النمسا والدولة العلية فى أغسطس سنة ١٧٩١ بمدينة « زشتوى » وقد ردت النمسا الى الدولة العلية بمقتضى هذه المعاهدة بلاد الصرب وبلغراد التى كانت في قبضتها ولم تخسر الدولة العلية من هذه الحرب مع النمسا خسارة تذكر

أما الروسيا فقد استمرت بمفردها على محاربة الدولة العلية حتى توسطت بينهما البروسيا وانكلترا وهولاندة فأمضيت بينهما معاهدة بمدينة « ياش » أخذت الروسيا بمقتضاها بلاد القرم نهائيا وبسارابيا والبلاد الواقعة بين نهرى بوج دينستر ومدينة « أوتشاكوف »

وبذلك انتهت هـذه الأزمة الشديدة التى جاءت في أواخر القرن الثامن عشر وكانت عنوانا لأزمات شـداد توالت بعد بعضها في القرن التاسع عشر . نأتى عليها الواحدة بعد الاخرى

المسئلة الشرقية

فى

القرن التاسع عشر

ليس غرضنا أن نأتي فى هذا الفصل على تاريخ الدولةالعلية فى القرن الحاضر بل على أشهر وأهم أزمات المسئلة الشرقية فلذلك نهمل الحوادث الصغار و نفصل الازمات الشداداأزمة بعد أخرى

الازمة الاولى

استقلال اليونان

كل من قرأ تاريخ الدولة العلية يعلمأن المرحوم السلطان الغازى (محمد الثاني) لما فتح الاستانةأمن الناس على اختلاف عقائدهم ومذاهبهم على أموالهم وأرواحهم ودياناتهم وتقاليدهم حيث اتبع أوامر الشرع الشريف ونشر راية الاعتدال الدينى . فنال اليونانيون من هذه المعاملة الحسنة مالم يكن يخطر لهم على بال من السعادة والرفاهية ورأوا من سلطان

آل عثمان اكراماً لهم واحتراماً لدينهم ولرجال دينهم حتى انه لما انتخب بطريرقهم بعد فتح الاستانة قال له المرحوم السلطان محمد الثانى : « كن بطريرقا لليونان والله يحميك : وفى كل الاحوال والظروف اعتمد على مساعدتي وتمتع بكل الامتيازات التى كانت لأسلافك من قبل »

وقد كانت هذه المعاملة الاسلامية فريدة فى نوعها غريبة فى بابها فان الكاثوليكيين أنفسهم كانوا يعاملون اليونانيين بالاحتقار والازدراء . ويستحيل على المؤرخين أن ينكروا على محمد الفاتح وعلى المسلمين هذه الصفات العالية والمكارم الجليلة التى ظهرت فى الاستانة بعد الفتح كشمس تبدد الظلمات وآية من أكبر آيات الدين الاسلامى الباهر

وقد أدى هذا الاعتدال الدينى الى نمو التجارة فى أيدى اليونانيين فصاروا بفضل الدولة العلية وبفضل تساهلها الدينى أغنياء أثرياء عائشين فى أتم الراحة والهناء ولكنهم لم يحفظوا للدولة العلية عهدا ولم يرعوا لها نعمة بل أنكروا المعروف والجميل وصاروا فى الصف الاول من أرباب الدسائس العاملين

ضد السلطنة العثمانية وأضر الآلات لاعداء الدولة فى قلبها

وقد بلغت ثقة الدولة العليـة برعاياها على اختلاف دياناتهم وأجناسهم وحسن نواياها نحو المسيحيين المحكومين بها أنها عينت لمقاطعات صربيا والافلاق والبغدان حكاما من اليونانيين مؤملة أنهم يخدمونها بصدق وأمانة كما اكرمتهم وأكرمت أمتهم فكانوا الاعداء الألداء فى ثياب الاصدقاء الامناء وعوضاً عن أن يقوموا بالواجب عليهم نحو دولة رفعتهم الى أسمى المناصب استعملوا سلطتهم ونفوذهم فى تهييج أهالى هـذه البلاد ضد الدولة العليـة والقاء بذور الثورات والاضطرابات فيها

*
* *

وقد أسس المهيجون من اليونانيين جمعية فى بلاد الروسيا اسمها (هيترى) — أى الجمعية اليونانية الوطنية — غرضها استقلال اليونان والانتقام من الدين الاسلامى . وقد ساعد القيصر هـذه الجمعية كل المساعدة وأخـذت تنمو وتنتشر وأخذ الكثير من أعضائها يقتلون ويسلبون باسمها وبدعوى

المطالبة باستقلال اليونان . وكان (اسكندرايبسيلانتى) و (ديمتريوس ايبسيلانتى) أهم أعضاء الميترى فى خدمة القيصرالشخصية . وكان (كابوديستريا) زعيم الثورةاليونانية أحد وزراء القيصر اسكندر الاول

وكان ابتداء الثورة اليونانية دخول (ايبسيلانتى) فى المقاطعات اليونانية فى عام ١٨٢١ محرضا على الثورة بلاد اليونان كلها . وقد اعتبر هذا العمل بايعاز من الروسيا . وكان من البديهيات أن (ايبسيلانتى) الذى كان ضابطا بمعية القيصر عمل ماعمل بأمر القيصر أو برضاه . وقد أتى (ايبسيلانتى) نفسه بما يدل على ذلك حيث كتب فى دعوته للثورة . واذا اعتدى أحد من الاتراك على أراضى بلادكم فلا تخشوا له بأساً فان دولة عظيمة مستعدة لمعاقبة المعتدين عليكم »

ولم يكن بين دول أوروبا دولة تعارض هذه الحركة اليونانية مثل دولة النمسا فانها كانت تحيط الباب العالى علما بكل دسائس ثورويى اليونان وبكل تشجيعات الروسيا لهم

وأعمالها السرية

أما انكلترا فكانت خطتها فى بادىء الامر التظاهر بمساعدة تركيا ضد الروسيا ومقاومة الحركة اليونانية أشد المقاومة . ولكن الدولة العلية أظهرت شكها فى نوايا بريطانيا لعلمها بطمعها وجشعها وكراهتها الحقيقية للاسلام . خصوصاً وان سوء قصدها كان قد ظهر باستيلائها على الجزائر اليونانية . وقد جاءت الايام مبرهنة بأسطع برهان على ان الدولة العلية كانت مصيبة في سوء ظنها بالانكليز فقد انقلبت انكلترا فى مسئلة الثورة اليونانية ضد الدولة العلية كل الانقلاب وغيرت كراهتها الاولى لليونانيين بالمحبة العلنية والمساعدة الظاهرة

ولما علمت النمسا بأعمال الروسيا ومساعداتها لليونانيين بذل وزيرها الاول (مترنيخ) الشهير أقصى جهده لدى القيصر اسكندر الاول ليعيد السكون الى بلاد اليونان ويأمر الثورويين بعدم القيام فى وجه حكومة المرحوم السلطان محمود والامتثال والخضوع لاوامر الدولة .وقد أظهر مترنيخ

للقيصر اسكندر الاول مقدار الخطر الذى ينتج عن اشتعال نار الفتنة والثورة فى بلاد اليونان مبيناً له ان تعضيده لثورة اليونان يكون داعيا لانتشار الثورة فى كل أنحاء أوروبا ضد الملوك . فأثرت هـذه الاقوال على القيصر اسكندر الاول وأعلن رسمياً غضـبه وسخطه على ايبسيلانتى ووجه مـلامه لليونانيين ناصحاً لهم بالسكينة والانصياع لحكم الدولةالعلية

ولـكن هـذه التصريحات العلنيـة لم تكن الا ترضية وقتية للنمسا التى كانت مضطربة الاحوال لاشـتغالها بقمع الثورة الايطاليةالتى قامت وقتئذ فى وجهها . ولم يرجع القيصر اسكندر الاول عن عزمه بل صار يتظاهر علناً بمحبة السـلم والميل الى الانصاف مع الدولةالعلية وهو يكمن لها فى الباطن السوء والضرر منتظراً الفرص المناسبة

أما ايبسيلانتى فقد هزمته الدولة هو ورجاله شر هزيمة واضطر الى الهروب في ترانسلفانيا حيث قبضت عليه النمسا وسجنته لغاية عام ١٨٢٧ . وقد أسس ثوار اليونان بالرغم عن سقوط ايبسيلانتى فى قبضة النمسا مجالس أهلية ومجلساعموميا

لهم كبرلمان يونانى

*
* *

وما انتشر فى أوروبا خبر قيام اليونانيين بالثورة ضد الدولة العلية حتى تظاهر الكثيرون من الكتاب والشعراء بتعضيدهم والانتصار لثورتهم ضد المسلمين . وأول من جاهر بالانتصار لليونانيين وبالنداء باستقلالهم هو اللورد (بيرون) الشاعر الانكليزى . فقد هاجر من بلاده وعاش غريباً ينشد مجد اليونان السالف وينادى أوروبا بمساعدة أبناء اليونان ونصرتهم . وقد أثرت كتاباته وأشعاره فى أغلب بلاد أوروبا وجرى على سنته الكثير من شعراء فرنسا وكتابها وفى مقدمتهم (فيكتور هوجو) الشاعر الشهير . وأسست اللجان المختلفة فى فرنسا وانكلترا لمساعدة اليونانيين بالمال والرجال . وسافر المتطوعون من كل بلد في أوروبا ومن كل جانب

وقد قامت الحركة كلها فى بلاد أوروبا باسم معارف اليونان وأنوارها القديمة وباسم الدين المسيحي . فكنت تجد

الكتاب الذين لادين لهم ولا عقيدة في أفئدتهم يدافعون عن اليونانيين باسم الدين المسيحي ويوجهون الى الاسلام أقبح السباب وأدنى الشتائم

وكان أنصار اليونانيين يحسبونهم كآبائهم الاولين متى نالوا حريتهم واستقلالهم بزغت شموس المعارف والآداب والفلسفة من بلادهم وعادت أتينا مشرقاً لانوار الحكمة والعرفان . والذين كانوا ينتصرون لليونانيين مؤملين هذا الامل كانوا اما متعصبين فى الدين ضد المسلمين يحملهم بغضهم على اعتقاد فاسد كهذا أو كانوا سليمى النية . فلقد برهن اليونانيون بعد استقلالهم على ان بينهم وبين اليونانيين القدماء بونا بعيدا وفرقاً عظيما

ولا ريب ان أولئك الذين كانوا ينتظرون شروق أنوار الحكمة والفلسفة العالية من أبناء أتينا الحاليين تحسروا طويلا واندهشوا منتهى الاندهاش من خطئهم فى آمالهم هذا الخطأ الكبير واعتدائهم بغير حق على السلطنة السنية التى كانوا يقولون عنها انها المانعة لترقى اليونان والواقفة فى

سبيل شروق شموس الحكمة والعرفان من أتينا »

ومن الغريب ان أغلب أنصار اليونانيين ان لم نقل كلهم كانوا يجهلون تمام الجهل بلاد اليونان وأهاها . على أنهم لو كانوا أرسلوا بعض الوفود لزيارة هذه البلاد والوقوف على حقيقتها وحقيقة أهلها لكانو أدركوا أنهم مخطئون خطأ كبيراً وان آمالهم البعيدة حلم لا حقيقة له ويستحيل أن يكون له وجود

وقد أنصف بعض الكتاب الاوروبيين الدولة العلية وأظهروا للعالم المتمدن الحقيقة التى لامراء فيها وفضحوا أعمال اليونانيين حتى خجل أنصارهم . وفى مقدمة هؤلاء الكتاب الفضلاء (الفريدلميتر) الفرنساوى فقد وضع كتابا على استقلال اليونان كشف فيه الغطاء عن أمور عديدة تشرف الدولة العلية وترفع من مقامها أمام التاريخ وتشهر أكاذيب أنصار اليونان الجمة

ومن المستندات الرسمية العديدة التى أوردها حضرة المؤلف السالف الذكر عريضة رفعها جماعة من الفرنسويين

كانوا سافروا الى بلاد اليونان لنصرة الثائرين فيها الى أميرال البحرية الفرنساوية بالبحر الابيض المتوسط يسألونه فيها أن يردهم الى فرنسا . وهذه العريضة تترجم للقاريء عن الحقيقة وعن أكاذيب أنصار اليونان وقد جاء فيها : « وقد وصفوا لنا اليونانيين قبل سفرنا من فرنسا بشجعان وأبطال يفوقون آباءهم الاولين شهامـة ومجداً . فما وجـدنا هنا الا رجالا يحملهـم حب المال على حب الجرائم وأناسا لا يزالون في ظلمات الجهالة والوحشية »

وقد كتب القومندان (بوجول) فى مذكراته عن ثورة اليونان بتاريخ ٢٢ ديسمبر سنة ١٨٢٧ ما تعريبه :

وقد جئت الشرق وأنا من أكبر أنصار هذه الامة (اليونانية) ولم يتغير اعتقادى فيها واحساسى نحوها الا بالتجربة . فهى مجردة عن الوطنية والشجاعـة والاتحاد وهم كل رئيس من رؤسائها أن يكون غنياً وقد بلغت الفوضى حدها فى بلاد اليونان . وأغلب أعضاء حكومتها — وكلهم محتقرون أشـد الاحتقار — معروفون من الجميع بانهـم

المسلحون للصوص البحار . ولولا تداخل الدول لخضع اليونانيون جميعا هذا العام . واعترافا بالجميل نحو أمم أوروبا لايزال اللصوص اليونانيون يعتدون على تجارة هذه الامم نفسها ! »

وكتب الامير (رينى) أميرال الاساطيل الفرنساوية بالبحر الابيض المتوسط من أزمير بتاريخ ٢٣ مارث سنة ١٨٢٦ ماتعريبه :

لقد تغش أوروبا بشأن كل مايختص بثورة اليونانيين ضد تركيا . فقد تنقص المستندات الرسمية وليس من عادة الاتراك ان ينشروها . والتقارير اليونانية ليست الامراسلات خصوصية تجسم فيها الامور وتمر على (زانت) و (كورفو) والنمسا قبل أن تلونها الجرائد فى لوندره وباريس بالالوان الساطعة البهية . ولكنها فى أغلب الاحيان ألوان كاذبة . ولا شك ان هذا هو اللازم للتأثير على أفكار العالم . ولكن هذا لا يكفى لانارة أفكار الذين يقودون زمام الامور

*
* *

وقـد انتهز اليونانيون فرصـة قيام (على باشا) والى يانيه ضد الدولة العلية لاحداث الاضطرابات والهيجان فى كل انحاء بلاد اليونان . فقد طغى هذا الباشا وعصى الدولة العلية وأراد الاستقلال والخروج من تحت السلطة الشرعية فصار يعـمل لاستمالة اليونانيين اليـه ضد الدولة العثمانية . ولـكن أطماعه الشـديدة وأخلاقه الشرسـة أكثرت من أعدائه بالرغم عن تملقه لليونانيين ونفاقه

وسبب عصـيانه على الدولة ان اسماعيـل باشا اكبر أصدقائه وأول المقربين اليـه وقع بينه وبينه خلاف شـديد أدى الى هروب اسماعيل باشا الى الاستانة حيث تعين فيها بالحرس السلطانى وأبلغ رجال الدولة أعمال هذا الرجل وسوء نواياه . فقررت الدولة عزل ابنـه الذى كان حاكما لتساليا . فاغتاظ على باشا من ذلك وأرسل أحد أتباعه من الالبانيين الى الاستانة لقتل اسماعيل باشا . وبالفعل قتله هـذا الالبانى عند ذهابه للصلاة

وقد علمت الدولة وقتئـذ بان الانكليز يشجعون على باشا على رفع لواء العصيان ضد الدولة العلية ووقفت على كل مراسلاته مع اليونانيـين فامتلأت غيظا منه واعتـبر خائنا للدولة والملة وأصدر شيخ الاسلام منشورا للمسلمين باعتباره خارجا على الدولة كافراً بنعمتها .

وقـد أمرته الدولة بالحضور الى الاسـتانة فى ظرف أربعـين يوما فخالف أمرها وصمم على معاداتها والقيام فى وجهها . وصار يجتهد فى استمالة المسلمين اليه فلما لم يفلح لانهم جميعا اعتـبروه خائنا وخارجاً من دين الاسـلام مال الى اليونانيين وصار يتقرب منهم ويستنصر بهم ضد الدولة ويوزع الاموال عليهم ولمـا أراد الانتفاع بهـذا الود سألهم بتاريخ ٢٤ مايو سنة ١٨٢٠ تكوين جيش ينصره ضد الدولة. ولـكن اليونانيين الذين كانوا يعرفون أخـذ الاموال وسماع المدائح وبدائع الاقوال من هذا الطاغية كانوا يعرفون من أنفسهم انهم عاجزون عن تقديم الاسلحة والرجال فلم يجيبوا للعاصى طلباً ولم يلبوا له نداء بل بقى يناديهم وهم صامتون حتى اقترب

منه الجيش العثمانى . فلم يجد له مخرجاً من ورطته الا حرق مدينة « يانينا » والالتجاء الى جزيرة كان بنى فيها قلعة حصينة جمع فيها كل ذخائره وأمواله

وقد كان يقود الجيش العثماني ضده خورشيد باشا حاكم الموره فوصل بمهارته وحكمته الى دخول القلعة التى كان ملتجئا اليها هذا المتمرد ولما لم يجد على باشا لنفسه سبيلا غير التسليم سلم نفسه لخورشيد باشا الذى أنفذ أمر الدولة بقتله عقابا له على تمرده وعصيانه . وفى أوائل فبراير سنة ١٨٢٢ أرسل برأسه الى الاستانة لتعلق فى مكان عام انذارا لكل عدو للدولة ولكل خائن

*
* *

وقد انتهز اليونانيون فرصة عصيان على باشا والى يانينا وأخذوا يسلبون وينهبون فى كل انحاء اليونان وجعلوا المورة منبع الثورات والاضطرابات لخلوها من العدد الكافى من الجنود العثمانية . وفى ٥ مارس عام ١٨٢١ دخل من يدعى (كارافيا) وهو يونانى تعلم الجندية فى الروسيا فى ميناء

(جالاتز) — وهو ميناء من رومانيا على الدانوب — وهجم على قلعتها برجاله العديدين حيث نهبوا وسلبوا وقتلوا من فى المدينة كلها وأسالوا الدماء وخربوا المنازل . وقد أشاع اليونانيون عندئذ فى كل اصقاع العالم ان ما أتوه فى هذا الميناء الصغير الذى لا يكاد يوجد به جنود يعد انتصارا كبيرا على الدولة العثمانية وعملا عظيما . وهاج كذلك أعضاء الهيترى بمدينة (ياسى) واحتالوا على حرسها وكان مكونا من خمسين رجلا فأفهموهم ان الاهالى عازمون على الثورة وقطع دابر الاتراك ولكنهم ان تجردوا من أسلحتهم وبنادقهم توطد الامن فى المدينة وعادت الامور الى السكينة والسلام فاغتر رئيس الحرس وظن ان أعضاء الهيترى صادقون فى أقوالهم فأجاب طلبهم وأمر الجنود بالتجرد من السلاح والذخائر الحربية . فقابل اليونانيون هذا العمل بأن نشروا لواء النهب والسلب فى المدينة ورفعوا راية الفتك بالمسلمين فقتلوا الكثير منهم بلا تمييز بين الرجال والنساء والاطفال . ولما جاء (ايبسيلانتى) زعيم جمعية الهيترى استحسن هذه الفظائع

والمنكرات ووافق عليها باسم الانتقام من الاسلام والمطالبة بالحرية :

وقد كانت جمعية الهيترى تهدد الاغنياء من اليونانيين بالقتل ان لم يساعدوها بالمال — وقد اتبعت هـذه الخطـة نفسها جمعيـة ثوار الارمن مع أغنياء الطائفـة الارمنية — وحصل ان (ايبسيلانتى) المذكور لما جاء مدينة (ياسى) علم بوجود يونانى عظيم الثروة اسمه (بول اندرياس) فألقى القبض عليه بدعوى انه اختلس أموالا كثيرة من أموال الهيترى فأدرك الرجل ان هذه التهمة ألقيت عليه ليقدم لايبسيلانتى شيئا من المـال ففعل ذلك وكان فى فعله نجاته

وقد أحدثت هذه الفظائع التى جرت فى (ياسى) فى كل بلاد اليونان فرحا شـديدا واشتاقت نفوس أهاليها للسلب والنهب وذبح المسلمين باسم الحرية والدين !

وقد يجد الانسان فى بعض الـكتب المنتصر أصحابها لليونان فصولا طويلة على هـذه المذابح المختلفـة والجرائم العديدة ومن هذه المؤلفات أشهرها مؤلف المسيو (بوكفيل)

المسمى (محطة الشرق) فقد جاء بالرغم عن شدة تعصب المؤلف ضد المسلمين بحقائق يخجل منها كل انسان يحترم الانسانية ويحبها .

ولما كانت المورة كما قدمنا منبعا للثورات والاضطرابات حاصر اليونانيون مدينة (مونبازيا) فقاوم أهلها الحصار طويلا حتى فقدوا كل الذخائر والمأكولات . وكان يقود اليونانيين وقتئذ (ديمتريوس ايبسيلانتى) فاستعمل الخداع للاستيلاء على هذه المدينة وأعلن أهلها بانه يحترم أملاكهم وأموالهم ويحترم قبل كل شيء أرواحهم اذا سلموا المدينة وانه يساعدهم على الرحيل منها اذا أرادوا ذلك . فصدق أهل هذه المدينة الشقية كلام (ايبسيلانتى) وسلموا القلعة والاسلحة ندخل اليونانيون المدينة وأول شيء قاموا به هو انهم لم يحترموا لرئيسهم قولا ولا عهدا بل هتكوا الاعراض ونهبوا الاموال وقتلوا النساء والاطفال قبل الرجال

وانه ليسهل على القارىء أن يتمثل قوماً لا سلاح بأيديهم ولا قوة تحميهم يهجم عليهم جماعة من أشرار

اليونانيين وهم متسلحون بأنواع السلاح ويتمثل مناظر المعارك الدموية التي تجرى بينهم ودفاع الموت الذى يدافع به المسلمون عن نسائهم وأطفالهم

وقد كتب الكونتر أميرال الفرنساوى (هالجان) فى عام ١٨٢١ تقريرا عن دخول اليونانيين الى (مونبازيا) جاء فيه

« وقد وجد فى قلعة مونمبازيا ثلاثمائة يونانى لم يكتف الاتراك أيام الحصار بمعاملتهم بالحسنى بل عاملوهم كاخوتهم الحقيقيين أثناء المجاعة واحترموا كنائسهم كل الاحترام . ولكن يونانيو الموره لم يعاملوا الاتراك بنفس هذه المعاملة عند ماأخذوا المدينة . بل أتوا بأشنع القبائح وأفظعها فى مساجد الاتراك

« أما المسجونون فقد أرسلوا بغير زاد الى « كاسوميس » ووجدت علي الارض العائلات الاسلامية التعسة تنازع نزاع الموت من الجوع والعطش وهى نائمة على الاحجار . وحوالى الجزيرة وجدت جثث القتلى . وبالرغم عن ذلك كله فقد أراد

اليونانيون ضرب هاته العائلات بالرصاص . ولم تنج من أيديهم الا بفضل المسيو « دى بونفور » الذى هدد اليونانيين وأخذ كل الاتراك الموجودين بهذه الجهة فى سفينة مخاطبا ضباط اليونانيين بأن ماعملوه هم ورجالهم لايأتى به الا لصوص البحار ! »

وهذا التقرير وحده يشهد بأبدع بيان على أن أنصار اليونان فى أوروبا كذبوا على العالم كله الاكاذيب الشنيعة وان الجرائم والفظائع الدموية التى جرت فى بلاد اليونان لم يأتها الا اليونانيون ضد المسلمين

وان الفيلسوف ليقف مندهشا امام هذه الدنايا والجرائم ويعجب كيف ان شعراء أوروبا وكتابها كانوا ينتصرون لقوم لاتتغذى أرواحهم الا بذبح الابرياء ولا تستريح نفوسهم الا الى الجرائم . فهل كان ينتظر شعراء أوروبا وكتابها من هؤلاء القوم الذين كتب عنهم ضباط أوروبا نفسها وبعض من أفاضل كتابها ماقرأه القارىء أن يعيدوا لربوع اليونان مجدها السالف وأن يردوا للوجود أثينا

مشرقا لانوار الحكمة والعرفان ؟ ؟

وقد استولى ثوار اليونان في ١٩ أغسطس سنة ١٨٢١ على مدينة (ناورين) الشهيرة وأتوا فيها من الفظائع مالم ترد عين ولم تسمع به أذن

وكتب عن هذه الفظائع القس الارثوذكسى (فرانتزيس) ماترجمته

وكانت البنات التى تريد الهروب من أيدى القتلة تجرى نحو شاطىء البحر وعلى أجسادها أثر الرصاص . ومع ذلك كانت ترمى وتقتل . وكانت النساء يحمل اكثرهن الاطفال على الذراع فيمزق المعتدون ملابسهن . والتى كانت تلقى بنفسها الى البحر لتستر عورتها كانت ترمى كذلك بالرصاص وتقتل . وقد هشمت رؤوس بعض الاطفال الذين اختطفوا من أمهاتهم . وألقى اليونانيون فى عميق البحار بناتا وأطفالا لم يتجاوز أغلبهم الرابعة أو الخامسة من العمر كأنهم قطع من لحوم الكلاب »

وفى ٥ اكتوبر نفسها استولى ثوار اليونان بعد حصار

طويل على مدينة (تريبوليتزا) . وانه يستحيل على كاتب شرقى أو غربى مهما كانت بلاغته وقوة انشائه وعظيم تأثيره ان يصف المذابح الهائلة البهيمية ـ أو التى لااسم لها ـ التي أتاهااليونانيون . بل يكفى القارىء ان يعلم ان اليونانيين ذبحوا في (تريبوليتزا) ثمانية آلاف من الرجال وفوق ذلك من النساء وان المذابح استمرت ثلاثة أيام كاملات حتى فسد الجو وتغير الهواء وانتشر من بعدها الوباء حيث عم كل بلاد اليونان وجاء من المنتقم الجبار منتقما للأبرياء الشهداء من الظالمين المجرمين السافكين للدماء

وقد كتب أغلب كتاب أوروبا الا من أعماهم الغرض والتعصب على هذه الفظائع ووصفوها كما تستحق فقال عنها الكاتب الانكليزى (فنلى) المشهور ـ وكان قدشهد الحادثة بعينه ـ في كتابه (تاريخ اليونان) :

« ان منظر هذه المذابح لايعادله منظر فى تاريخ البشر لافى فظاعته ولا فى طول مدته »

وقد أحدثت هذه الفظائع فى الاستانة تأثيراً شديداً

جداً وهاج الاهالى طالبين عقاب اليونانيين الذين لهم يد فى جمعية الهيترى . فقام عندئذ شيخ الاسلام ونصح المسلمين بالسكينة والاعتدال وعدم الاعتداء على الابرياء انتقاما من الآفكين (وسيرى القارىء ان اليونانيين كافأوا شيخ الاسلام هذا بأن قتلوه هو وعائلته بعد ندائه فى صالح الابرياء منهم)

فلما علم المرحوم (السلطان محمود) بما عمله اليونانيون بدسائس جمعية الهيترى أمر بتفتيش منازل بعض اليونانيين المشتبه فيهم وعمل تحقيق تام على كل الذين اشتبه فى أمرهم . فأبان التحقيق ادانة الكثيرين من اليونانيين ومنهم (موروزى) الذى كان للسلطان به ثقة عظمى فاستعملها فى تبليغ أعضاء الهيترى أسرار السياسة العثمانية . والبطريرق (جريجوريوس) فأمر السلطان باعدام الجميع عبرة لغيرهم من المفسدين والثوار

أما فى أثينا فقد اتبع اليونانيون خطتهم الدموية بنفسها فأسالوا الدماء بكثرة عظيمة ولم يرحموا أحدا من المسلمين

وقد انتشر بعض أعضاء الهيترى فى أزمير وجعلوا غايتهم جمع الاموال بأدنى الوسائل وأسفل الطرق والقاء الخوف والرعب في نفوس اليونانيين المقيمين بأزمير. فأشاعوا الاشاعات المختلفة عن نوايا الدولة العلية نحو اليونانيين حتى اضطرت العائلات اليونانية كلها الى المهاجرة من أزمير فاستفاد أعضاء الهيترى من هذه المهاجرة انهم جمعوا أموالا كثيرة وأوهموا أوروبا بأن سبب هذه المهاجرة ظلم الدولة العلية وسوء معاملتها لليونانيين !!!

ومما يؤكد ذلك ان أحد رجال فرنسا بعث من أزمير بكتاب الى وزير البحرية الفرنساوية فى ذلك الحين جاء فيه:

« وقد أشاع فى كل أنحاء المدينة رجال يعملون على جمع الاموال بكل الوسائط الدنيئة الاشاعات المزعجة للخواطر بشأن نوايا الاتراك. فمتى علم الاهالى بأن أحد بواخرنا تقصد ميناء الارخبيل تأتينى العائلات اليونانية وتسألنى من كل جانب السفر على هذه البواخر. وقد يطول بي الامر اذا أردت أن أشرح لسعادتكم كل الوسائل التى تمليها الشره

وسوء القصد على رجال يعملون لجمع الاموال بدعوى الانسانية وانه يجب ان يكون الانسان هنا ليعتقد ذلك »

وقد استعملت هذه الوسائل فى جهات مختلفة وأهاج ثوار اليونان كل المسيحيين فى البلاد اليونانية اما بدعوى الدين واما بالتهديدات والانذارات

أما فى الارخبيل فقد جعل اليونانيون همهم الاكبر السرقة واللصوصية والقتل والسلب والنهب . وقد كانت الدولة العلية استخدمت الكثيرين من أبناء اليونان في بحريتها ثقة منها بهم كثقتها بكل رعاياها على اختلاف دياناتهم وأجناسهم . فلما قامت الثورة اليونانية ترك البحرية العثمانية كل اليونانيين الموظفين بها فعاق ذلك الدولة العلية عن قمع الثورة فى الارخبيل كما قمعتها بعد فى بلاد اليونان نفسها

وقد قدمنا فيما سبق ان شيخ الاسلام أصدر منشورا بالاستانة نصح فيه المسلمين بالسكينة وعدم الاعتداء على الابرياء من اليونانيين وقلنا ان مكافأته من هؤلاء كانت القتل . وذلك ان المرحوم السلطان (محمود) عزله من منصبه

لهياج الشعب ضده . فغادر الاستانة على باخرة عثمانية قاصدا بلاد الحجاز . ولما وصلت الباخرة الارخبيل هجمت عليها بعض السفن اليونانية وضايقتها من كل جانب حتى أسرتها وأخذت مافيها من الاموال والخيرات . ولما رأى البحارة اليونانيون ان شيخ الاسلام وعائلته بين ركاب السفينة قبضوا على بناته وذبحوهن أمامه وألقوا بهن الى البحر ثم قتلوا كل من بالسفينة على مشهد منه حتى صار وحده أمامهم فقتلوه شر قتلة جزاء له على نصحه المسلمين بالسكينة وعدم الاعتداء على الابرياء من بنى اليونان ::!

*
* *

وقد أحدثت مذابح اليونان تأثيراً شديداً فى الروسيا فقام القسس ورجال الدين يحرضون الاهالى ورجال الحكومة على أن يطلبوا من القيصر الانتقام من الهلال للصليب وطرد الاتراك المسلمين من بلاد اليونان المسيحية . ومع ان اليونانيين هم الذين اعتدوا على المسلمين وأتوا الفظائع الجسام فان أنصار اليونان فى أوروبا ملأوا الارض بكاء وعويلا واتهموا الدولة

العليـة بانها تذبح الابرياء وتسفك الدماء . فأرسل عنـدئذ القيصر (اسكندر) انذارا للدولة العلية على يد سفيره بالاستانة المسيو (ستروجونوف) جاء فيه

« ان الباب العالى يجـبر المسيحية على أن تتساءل اذا كانت تستطيع أن تنظر بغير حراك الى ابادة أمـة مسيحية وترضى بهذه الاهانات الموجهـة للدين المسيحى » . وطلب القيصر من الدولة العليـة فى مذكرته هـذه طلبات ملؤها التهديد والوعيد

وفى الوقت نفسه أرسل الى الدول الاوروبية مذكرة يفسر فيها لها خطته وسلوكه ويسألها عن الخطـة التى تنوى كل واحدة منها اتباعها اذا قامت الحرب بين الروسيا والدولة العليـة . وعلى أي صورة ترضى كل منها تقسـيم الدولة العلية .....

فكان القيصر اسكندر الاول يريد بثورة اليونان تقسيم الدولة العلية وبلوغ أمانيه من الاستانة والبوسفور

أما الدولة العلية فقـد أجابت على انذار الروسيا بغاية

الشرف والشهامة غير خائفة تهديدها ووعيدها . فترك عندئذ سفير الروسيا الاستانة وأعلن فى ٨ أغسطس سنة ١٨٢١ انقطاع العلائق السياسية بين الدولتين فلما رأت النمسا ذلك خافت النتائج الهائلة والعواقب الوخيمة التى تنتج عن الحرب بين تركيا والروسيا واتفقت مع انكلترا على مقاومة الروسيا ومعارضة أغراضها واتحدت معها على منع الحرب بين الدولة العلية وبينها بكل الوسائل فكتبت وزارة لوندره كما كتبت وزارة فينا الى القيصر تعارض مشروعاته وتعده بالتوسط مع النمسا لدى الباب العالى لنوال ترضية للروسيا . فقبل القيصر توسط النمسا وانكلترا وأطاع نصائحهما . وبالفعل توصل ساسة النمسا وانكلترا الى منع الحرب بين الروسيا وتركيا

ولا يحسبن القارىء ان توسط انكلترا مع النمسا لمنع الحرب بين الدولة العلية والروسيا كانت تقصد به انكلترا خدمة تركيا أو مساعدتها . بل الحقيقة ان الانكليز لما رأوا الروسيا تسعى لجعل بلاد اليونان تحت حمايتها المعنوية

واستخدامها فى سبيل سياستها قاموا فى وجهها وردوها عن محاربة تركيا ثم تظاهروا بعـدئذ بنصرة اليونان أكثر منها حتى حول اليونانيـون أنظارهم الى بريطانيا وصار للانكليز النفوذ الاول فى اليونان . حيث شكلوا في لوندره الجمعيات العديدة لمساعدة اليونان ونصرتهم ولم يتأخر ماليو انكلترا عن تسليف مبالغ طائلة لحـكومة اليونان الثورية . فصارت انكلترا بذلك أول عدوة للدولة العليـة وأول دولة منتصرة لليونان .

وفى أوائل عام ١٨٢٣ صار حاكم الجزائر اليونانيـة الانكليزى الذى كان يعامل قبل هـذا الحين ثوار اليونان بغاية القساوة والشدة يحميهم ويساعدهم ويتركهم يتآمرون فى جزائره ضد الدولة العلية .

ولما رأت الدولة ان الاضطرابات قد كثرت فى بلاد اليونان وان الثورة قد عمت كل انحائها طلبت من المرحوم (محمد على باشا) عزيز مصر ان يمدها بالرجال فأجاب الطلب وأرسـل جيشا جراراً على أساطيـل مصر تحت قيادة ابنـه

المرحوم (ابراهيم باشا)

وفى أثناء تأهب المصريين للدخول في بلاد اليونان كانت الدول الاوروبية تتناقش فى سان بطرسبورغ في أمر المسئلة اليونانية ولكن انكلترا كانت تعمل على عدم نجاح المؤتمر حتى يكون لها حرية تامة فى العمل . وغاية ماأقر عليه هذا المؤتمر هو ان الدول الاوروبية تطلب من الباب العالى ان يعطى أمة اليونان شيئا من الحرية والاستقلال فى ادارتها . وقدأجاب الباب العالى على هذا الطلب بانه لا يهب اليونانيين حقا جديدا الا بعد تمام خضوعهم وانه لا يقبل مطلقا تداخل أية دولة أوروبية أو كل الدول بينه وبين رعاياه

*
* *

أما المصريون فقد أتوا فى بلاد اليونان من الاعمال مايخلده لهم التاريخ وما يحق لمصر ان تفتخر به فى كل آن وفى كل زمان . فانهم خدموا الدولة العلية أكبر الخدم وأجلها وبرهنوا على ان المصرى اذا تعلم وتربى يقوم بأشرف الاعمال وأعظمها . فقد هزم المصريون اليونانيين شر هزيمة واستولوا

على كل بلادهم حتى ارتفعت أصوات أنصار اليونان في أوروبا ضدهم وسموا بطل مصر المرحوم (ابراهيم باشا) بالسفاح اظهاراً لغيظهم من رجل قام بالواجب عليه نحو دولته وأمته وملته .

وقد قدمنا فيما سبق ان البحرية العثمانية كان أغلب عمالها من اليونانيين وكانت غير قادرة على قطع دابر اللصوص من الارخبيل وحدها فلما طلب المرحوم السلطان (محمود) من عزيز مصر ان يمده برجاله وسفنه أمر المرحوم (محمد على باشا) بارسال أساطيل مصر الفخمة الى مياه الارخبيل فاستعدت البواخر في الاسكندرية . ورأى عندئذ هذا الميناء الزاهر مظهر جلال مصر وقوتها فى البحر مما لم تر له طول حياتها مثيلا . وكان الرأى المنتشر حين ذاك بين قناصل دول أوروبا فى مصر ان مصر بقوتها وسلطتها تقهر وحدها بلاد اليونان وتعيدها خاضعة للدولة العلية قبل تمام ستة أشهر

وقد أتمت مصر تجهيزاتها الحربية فى ٩ يونيو سنة ١٨٢٤ م وكان الاسطول المصرى مركبا من ثلاث وستين مركبا

حربيـة عظيمة ومن ثمانية آلاف جندي مصرى من خيرة الرجال . وكان مع الاسطول والجيش ذخيرة سنتين كاملتين

وبعد مبارحة الجنود المصرية لثغر الاسكندرية وقفت بجزيرة (كاكسوس) وأخضعتها وقهـرت أهلها الذين كان أغلبهم يعيش من النهب والسلب . وبعد ذلك بقليل استولى الاميرال التركى خسرو باشا على « ايبسارا » التى أتى أهلها من قبل اخضاع الدولة لها من الفظائع مايعجز القـلم عن وصـفه حتي انهـم قتلوا الكثيرين من أهل ساموس لعدم رضاهم بدفع شبه جزية لهم

وما أخذ المصريون والاتراك هذين الموقعين المهمين حتى نادى أنصار اليونان فى أوروبا بالويل والثبور ونشروا الاكاذيب والمفتريات عن دخول العثمانيين فى هذين البلدين مدعين انهـم ذبحوا الابرياء وقتلوا الاطفال والنساء . هذه العبارات نفسها التى تذكر في كل خـلاف يقع بين المسلمين والمسيحيين في الدولة العلية والتى لاتتغير وان تغيرت الظروف والحوادث . . . .

وفى أول سبتمبر عام ١٨٢٤ اجتمع المصريون والاتراك فى خليج (بودرون) تحت القيادة العامة لخسرو باشا. فلما علم (مياوليس) رئيس بحرية ثوار اليونان باجتماع هذه القوى العظيمة جمع سفن الثوار كلها بين (كوس)وجزيرة (كاباری) فوجه عندئذ (ابراهيم باشا) أسطوله الى جزيرة كريد حيث كان وصلها من الاسكندرية جنود أخرى وأسلحة وذخائر جديدة وجرى حين ذاك ان البحارة اليونانيين الذين كانوا تحت قيادة (مياوليس) طالبوه بماهياتهم ومرتباتهم الماضية وأنذروه بأنهم يعودون الى جزائرهم ولا يبقون بسفنه اذا لم يعطهم هذه المرتبات . فحار (مياوليس) فى أمره مع هؤلاء القوم الذين كان يظنهم شجعانا أبطالا وخداما للوطن اليونانى والذين كان يسميهم أنصار اليونان فى أوروبا برجال الحرية والاستقلال وبورثة اليونانيين القدماء ! ! !

فاضطر عندئذ (مياوليس) الى الذهاب الى مدينة (بوبلى) . وقد كانت هذه المدينة مركز حكومة اليونان الثوروية

أما (ابراهيم باشا) فقد أتم كل تجهيزاته ومعداته وسار بأسطوله وجنوده قاصداً (مودون) بالمورة حيث وصلها فى ٢٤ فبراير سنة ١٨٢٥ . وما استقر بها حتى أخذ يهيء الجيش للقتال والحرب . وفى ٢٥ مارس من السنة نفسها بدأ المصريون بمحاصرة مدينة (ناورين) الشهيرة ومدينة (بيلوس)

ولا يسل القارىء عن مقدار الاحتقار والازدراء الذى كان يظهره اليونانيون نحو الجنود المصرية المظفرة فقد كانوا يظنونهم نساء فى الحرب يهربون من ساحة القتال لاول طلقة نارية . ولكنهم لما اقتربوا منهم عرفوا أن أمامهم شجعانا كباراً وأبطالا يحق لمصر على مدى الدهر أن تفتخر بهم كل الفخار وحق لمحمد على ولابنه الكريم وقتئذ ويحق لسلالتهما من بعد ان تفاخر بهم جنود أعظم الامم المتمدنة

وفى كل واقعة حدثت بين المصريين واليونانيين كان اليونانيون يولون الادبار ويهربون مسلمين البلاد والمواقع !

وقد رأى (ابراهيم باشا) ان الاستيلاء على (ناورين) لا يكون الا بالاستيلاء على جزيرة (سفاكتيريا) فارسل

اليها حسين بك الجريدلى المشـهور بشهامته العظيمة ونظره الصائب فى مسائل الاستحكامات العسكريه. فقهر جنود هذه الجزيرة اليونانية واستولى عليها . وما مضى الا ثلاثة أيام على استيلائه عليها حتى فتح أهالى (بيـلوس) أبوابها وسألوا (ابراهيم باشا) أن يتركهم يهربون بدون ان يلحق بهم الاذى فقبل ذلك (ابراهيم باشا) وكانت نتيجة تسامحه الجميـل ان أهالى (ناورين) لمـا تضايقوا من طول الحصار ويئسوا من الامر خابروه فى أمر تسليم المدينة اليـه بعين الشروط التى سلمت بها (بيلوس) فرضى ابن عزيز مصر بطلبهم وسقطت (ناورين) فى أيدى المصريين فى شهر مايو سنة ١٨٢٥

ولمـا رأى (ابراهيم باشا) ان اليونانيين امتلأت قلوبهم بالخوف منه ومن جنوده الاعزاء شرع في مهاجمـة مدائن المورة ومعاقلها فاستولى بدون صعوبة تذكر على (نيزى) و (كالاماتا) وبلغ (تريبوليتسا) التى تركها اليونانيون وتركوا فيها ذخائرهم من شدة تسرعهم في الهروب منهـا . وفي ٢٦ يونيو من سنة ١٨٢٥ اسـتولى (ابراهيم باشا) على

مدينة (أرجوس)

وقد جعل اليونانيون دأبهم وقتئذ حرق مساكنهم ومعاقلهم ومنازلهم وتخريب المدائن والقرى . وكان أنصار اليونان في أوروبا يكذبون على العالم كله ويدعون ان ابراهيم باشا هو الذى يخرب مدائن اليونان . وقد بلغت قحة بعضهم ان سماه بالسفاح !

أما خسرو باشا فقد صدرت اليه أوامر الدولة بأن يسافر بأسطوله الى الاسكندرية حيث يستعد المرحوم (محمد على باشا) لارسال مدد جديد . فسافر اليها وكان المرحوم (ابراهيم باشا) أرسل كذلك بأسطوله اليها وبقى هو وجنوده فى الموره . فاهتم أمير مصر رحمه الله بتجنيد الجنود حتى تهيئوا جميعاً وكان عددهم احد عشر ألف مقاتل وسافروا من الاسكندرية بتاريخ ٢٣ اكتوبر سنة ١٨٢٥ . وكان فى ذلك الحين (رشيد باشا) محاصراً لمدينة « ميسولونجى » التى كان المدد يصلها من اليونانيين من جهة البر وكانت محاطة ببرك عفنة انتشرت منها الامراض والحميات فى جيش رشيد

باشا مما أطال الحصار وأضر بالجيش العثمانى ضرراً بليغا . ولما علم بذلك (ابراهيم باشا) سافر بجنوده الى (ميسولونجى) وكانت الجنود المصرية وصلت عندئذ من مصر برفقة خسرو باشا فقوى عدد الجيش المصرى التركى المحاصر لهذه المدينة . وفى ٩ مارس سنة ١٨٢٦ استولى الجيش على قلعة (فازيليادى) وفي ١٣ منه سقطت (انتاليكون) فى أيدى العثمانيين ولما رأى قواد الجيش المصرى التركى ان (ميسولونجى) واقعة فى أيديهم لامحالة وانها ان وقعت بغير التسليم من سكانها أسيلت فيها الدماء كتبوا الى أهلها بتسليم المدينة والاسلحة وخروج من يشاء الخروج منها وأعلنوا كل من يريد البقاء فيها انه يبقى آمنا مطمئنا

وقد جاء عندئذ (مياوليس) بأسطوله ووقف فى خليج (باتراس) ولكن الاسطول المصرى التركى هزمه شر هزيمة وقضى بهذه الهزيمة على كل آمال اليونانيين

وقد أراد اليونانيون المقيمون بميسولونجي الهجوم على الجيش المصرى التركى في مساء ٢٢ ابريل سنة ١٨٢٦ ولكن

(ابراهيم باشا) وجنوده تنبهوا للامر وأطلقوا الرصاص عليهم فحصل بين اليونانيين فزع شديد وولوا الادبار وفى فجر يوم ٢٣ ابريل من السنة نفسها أى في اليوم التالى سقطت مدينة (ميسولونجى) فى أيدى الجنود العثمانية .

وفى شهر يونيو سنة ١٨٢٧ استولى الجيش العثماني على مدينة (آتينا) عاصمة اليونان الحالية . وقد أعجب كل منصف محب للانسانية بالخطة التى جرى عليها العثمانيون فى دخولهم آتينا حيث عاملوا أهلها بالرفق ولم يقتلوا ولم يهينوا أحدا ما بخلاف ماعمله اليونانيون مع المسلمين عند استيلائهم فى أول الثورة اليونانية على المدائن والقرى

وتفصيل أخذ آتينا بالعثمانيين ان اليونانيين استدعوا اليهم اللورد (كوشران) والسير (روبرشرش) الانكليزيين ليقودا جيوشهم وعصاباتهم فأجابا الطلب وسافرا الى اليونان وتوليا رئاسة الجيش اليونانى المحاصر فى آتينا

وقد أبدى الجيش العثمانى بقيادة (رشيد باشا) فى محاصرة آتينا من المهارة والشهامة ماأبقي له ذكرا عاطرا فى

التاريخ . فقد جمع هذا القائد العثمانى الجليل بين منتهى الشهامة العثمانية ومنتهى الانسانية التى أمر بها الشرع الشريف

وان انتصار جيش (رشيد باشا) على ثوار اليونان في آتينا لمن الانتصارات المعدودة في تاريخ الحروب البشرية . فقد كاد السير (روبرشرش) نفسه يقع أسيرا فى قبضة العثمانيين لولا انه عند الهزيمة ألقى بنفسه الى البحر حتى أدرك مركباً كانت بالقرب من الشاطىء

ولما رأى القائدان الانكليزيان ان لامناص من التسليم وسقوط أتينا وقلاعها فى أيدى العثمانيين سألا قومندان مركب (جومون) الفرنساوية أن يتوسط بين اليونانيين والعثمانيين فى أمر الصلح فاجاب سؤلهما وكتب بذلك الى (رشيد باشا) فقبل القائد العثماني الشروط التى عرضها عليه المسيو (لوبلان) قومندان مركب (جومون) وهى نزع السلاح من الجنود اليونانية وترك الحرية المطلقة لكل من أراد السفر من أتينا ومعاملة الذين يريدون البقاء فيها بالحسنى وعلى الخصوص الجرحى منهم . ولما علم السير (شرش)

بقبول (رشيد باشا) لهـذه الشروط فرح كثيرا واندهش غاية الاندهاش من هذا الاعتدال العظيم الذى أظهره ظافر كبير كرشيد باشا

ولكن ثوار اليونان أرادوا أن يظهروا شيئا من الشهامة التى كان يترنم بها أنصارهم فى أوروبا فرفضوا هذه الشروط وأبوا تسليم قلاع أتينا . ولو كان (رشيد باشا) رجلا وحشيا كما قال عنه ذلك كذبا أنصار اليونان في اوروبا لكان دخل أتينا جوابا على وقاحة ثوار اليونان وشهامتهم الكاذبة وقضى عليهم وعلى جنودهم وضباطهم شر قضاء ولكنه تأنى فى الامر واستعمل الدعة التى جبل عليها رعاية للابرياء من سكان أتينا

الا ان (رشيد باشا) أنذر السير (شرش) بأنه اذا لم تسلم أتينا وقلاعها للجيش العثمانى فى أقرب زمن هاجم المدينة وكان حرا في عمله غير ملوم . فأرسل السير (شرش) بتاريخ ١٢ مايو سـنة ١٨٢٧ اعلانا لثوار أتينا وضباطها أمرهم فيه بوجوب التسليم وأنذرهم بسوء العاقبة ان خالفوا أمره

ولكن ثوار أتينا جروا على خطتهم الاولى ورفضوا

الامتثال لاوامر السير (شرش) أى لاوامر قائدهم ورئيسهم
فلما رأى ذلك (رشيد باشا) كتب الى المسيو (لوبلان)
قومندان مركب (جومون) كتابا فى غاية اللطف والرقة
أظهر فيه انه عمل كل مافي وسعه للمحافظة على أرواح الابرياء
اليونانيين القاطنين بأتينا ولكن خطة ثوارهم تحمله على اتخاذ
طريقة أخرى للاستيلاء على أتينا . وعندئذ أعلن السير
(شرش) ثوار أتينا بأنه يتركهم وأنفسهم لعدم امتثالهم
لاوامره . فوقعوا فى حيص بيص وارتبكوا أشد الارتباك
وانتهزوا فرصة وجود مركب نمساوية فى الميناء فسألوا
قومندانها التوسط بينهم وبين (رشيد باشا) فى أمر تسليم
المدينة وقلاعها بطريقة سلمية . فسلم هذا الضابط النمساوى
طلبهم للمسيو (دى رينى) قومندان مركب (سيرين)
الفرنساوية فاستلم هذا الاخير الطلب وأخذ يخابر (رشيد
باشا) مدة ثلاثة أيام حتى قبل القائد العثمانى دخول آتينا
بالسلم وعدم سفك الدماء . وفى يوم ٥ يونيو سنة ١٨٢٧
أمضى زعماء الثورة اليونانية بآتينا على شروط تسليم المدينة

ورحلوا جميعا عنها بعد ذلك

وقد كتب المؤرخ الانكليزى (فنلي) فى كتابه (تاريخ اليونان) عن خطة (رشيد باشا) ودخوله آتينا ماتعريبه :

« لقد اكتسب (رشيد باشا) فى سقوط آتينا بخطته التى جرى عليها شرفا أبديا . وظهر فوق السير (روبرشرش) شهامة فى الحرب ورأيا فى السلم . ولم يترك العثمانيون وسيلة من وسائل الاحتراس الا أتوها . ولم ينتقموا أقل انتقام من اليونانيين »

*
* *

وقد توفى فى أول دسمبر عام ١٨٢٥ القيصر اسكندر الاول وتولى بعده (نيقولا الاول) . وماجلس هذا القيصر علي أريكة الملك حتي أعلن عداءه لتركيا وأرسل للحكومة العثمانية بتاريخ ١٧ مارس سنة ١٨٢٦ انذارا يطلب منها فيه جملة طلبات مختصة بالافلاق والبغدان وبلاد الصرب وترك لها مهلة ستة أسابيع لقبول طلباته وأنذرها بأنها ان لم تقبل هذه الطلبات انقطعت العلائق السياسية بين الدولتين واشتعلت

نيران الحرب

فانتهزت انكلترا هذه الفرصة للتقرب من الروسيا وأرسلت فى بادئ الامر الى بلاد اليونان ثم الى الاستانة سفيرا يعرض توسط انكلترا بين الدولة العلية واليونان فرفضت الدولة طلبه بعد ان قبله اليونانيون الذين كانوا فى أسوأ الحالات بفضل (ابراهيم باشا) بطل مصر وابن عزيزها فاغتاظت انكلترا من الدولة وعملت على الاضرار بمصالحها والانتقام منها وأرسلت (ولنجتون) الشهير ـ بطل واترلو التى هزم فيها نابليون ـ الى سان بطرسبورغ ليتفق مع القيصر على المسئلة اليونانية ضد الدولة العلية وبالفعل اتفق معه وأمضى بينهما اتفاق يتضمن ان الروسيا تقبل توسط انكلترا بين الدولة العلية واليونان وان بلاد اليونان تصير مستقلة استقلالا نوعيا وانها تختار بنفسها حاكما عليها

ومن الغريب ان انكلترا لما لم تفلح فى أمر التوسط بين الدولة العلية واليونان أرادت أن تتوسط بالقوة والقهر وبالرغم عن الدولة العلية نفسها مستعينة فى ذلك بالروسيا .

وهكذا كانت انكلترا تفهم معنى صداقتها لتركيا ومعنى اخلاصها لملك آل عثمان؛

ولما رأى المرحوم السلطان (محمود الثانى) ان انكلترا والروسيا متفقتان ضده اضطر الى قبول مطالب الروسيا منتظرا الفرص المناسبة . وأرسل مندوبين من قبله للمخابرة مع مندوبي الروسيا فى أمر عقد معاهدة بين الدولتين .وقد اجتمع المندوبون فى (آق كرمان) ووضعوا بها فى سبتمبر عام ١٨٢٦ عهدة سميت باسم هذه المدينة تضمنت ان يكون للروسيا حق الملاحة فى البحر الاسود والمرور من البوغازين بدون ان تفتش الدولة سفنها وأن تكون بلاد الصرب مستقلة تقريبا وتضمنت كذلك بعض شروط مختلفة بامتيازات الافلاق والبغدان

ويقول بعض المؤرخين ان الذى حمل تركيا على قبول هذه المعاهدة غير اتفاق انكلترا والروسيا ضدها هو تعهد الروسيا صريحا للحكومة العثمانية بعدم التداخل في صالح اليونان

وقد اجتهدت انكلترا بعد عقد هذه المعاهدة في استمالة فرنسا لها وللروسيا وتوصلت الى عقد اتفاق بينها وبين الدولتين لمساعدة اليونان ضد تركيا أمضى عليه في لوندره بتاريخ ٦ يوليو سنة ١٨٢٧

*
* *

وقد كان هذا الاتفاق أساسا لواقعة (ناورين) الشهيرة فان الدول الثلاث لما رأت ان (ابراهيم باشا) فاز في المورة وانتصر نصراً مبيناً واخضع اليونانيين كافة وان الثورة قاربت الانتهاء وأخذ لهيبها فى الانطفاء أمرت كل واحدة منها أميرال أسطولها بأن ينذر (ابراهيم باشا) بالوقوف عن كل عمل عدائى ضد اليونانيين وبالعودة الى الاسكندرية مع رجاله وأسطوله . فرفض (ابراهيم باشا) هذا الطلب أو هذا الانذار قائلا لكل أميرال انه لا يتبع غير أوامر أبيه وأوامر الدولة العلية . ولكنه لما رأى من قواد الاساطيل الاوروبية استعدادهم لاشهار الحرب لاسطوله وعدم برفع بلاغهم الى الاستانة والى والده الجليل . واتفق معهم على هدنة وقتية

لحين ورود أوامر الدولة وأوامر أبيه

ولكن قواد الاساطيل لم يعملوا باتفاقهم مع (ابراهيم باشا) بل أخذوا يراقبون حركاته وسكناته ويشجعون خلافا لشروط الهدنة كل ضابط يونانى أو أوروبى فى خدمة اليونان على مهاجمة المدائن والمواقع التى وقعت فى قبضة (ابراهيم باشا) وجنوده فشجعوا اللورد كوشران على مهاجمة قلعة (فازيلادى) كما شجعوا غيره من الضباط . وقد احتج (ابراهيم باشا) على هذه الاعمال ولما رأى ان احتجاجه لدى قواد الاساطيل الاوروبية لم يفد شيئاً وتحقق من تشجيعهم اللورد كوشران على مهاجمة مدينة (باتراس) خرج من ميناء (ناورين) مع بعض مراكبه لانقاذ تلك المدينة التى كان بها فوق الالف مصرى . ولكن الاسطول الانكليزى أنذر (ابراهيم باشا) بالعودة الى (ناورين) فعاد هو وأسطوله احتراما للهدنة التى كان يذكره بها قواد الاساطيل الاوروبية وكانوا لا يذكرون بها أنفسهم

وجرى عندئذ ان (ابراهيم باشا) نزل الى البر وتوغل

فى المورە فانتهز قواد الاساطيل الدوليـة فرصـة غيابه عن الاساطيل المصرية العثمانية وأجمعوا على تدميرها . فأصـدر الامـيرال (كودرنجتون) الانكليزى — الذى كانت له القيادة العامـة على الاساطيـل الفرنساوية والروسـية والانكليزية — أمره باستعداد السفن الدولية وعين لـكل سـفينة مكانها وألقى التعليمات اللازمـة لـكل ضابط يقود مركبا . وفى يوم ٢٠ اكتوبر سنة ١٨٢٧ ادعى الامـيرال (كودرنجتون) ان مركبا من المراكب المصرية قتل أحد بحارته انكليزيا من سفينة انكليزية . وجعل هذه الجريـمة المختلقة سببا لتـدمير المراكب المصرية والتركية فسلط عليها الاساطيل المتحدة الدوليـة حتى دمرتها عن آخرها وزالت هذه الاساطيل الفخمة فى يوم واحد حيث كان قومندانها الاول وأمـيرها الاعظم (ابراهيم باشا) متغيبا عنها ظانا أن قواد الاساطيل الاوروبية يحترمون كلامهم وعهودهم !

ويقدر المؤرخون عدد الذين ماتوا من بحارة مصر فى هذه المذبحة الشهيرة بستة آلاف بحرى . وقد عد أنصار اليونان

مذبحة (ناورين) بواقعة المجد والفخار . أما أنصار الحقيقة فقد قضوا عليها شر قضاء ووجهوا الملام أشد الملام الى حكومات فرنسا والروسيا وانكلترا التى قامت باسم المدنية بأمر ليس فيه الا العار والشنار . وقد قال امبراطور النمسا وقتئذ عن حادثة « ناورين » بانها « مذبحة » !! ونعم التسمية وقال عنها جورج الرابع نفسه ملك انكلترا انها « حادثة مشئومة »

وقد تهيج الاحرار فى انكلترا ضد الاميرال « كودرنجتون » واعتبروا عمله وحشيا لا شرف فيه ولا فخار فاضطرت الحكومة الانكليزية لان تعلن عدم موافقتها على عمل « كودرنجتون » ولكنها لم تعلن عدم موافقتها على هذا العمل الفظيع الوحشى الا بعد حدوثه .... ويتضح من المستندات الرسمية التى لا تزال باقية فى وزارة البحرية الفرنساوية والتى أتى على بعضها المسيو « الفريدلميتر » فى كتابه عن استقلال اليونان ان حكومات فرنسا والروسيا وانكلترا كانت متفقة من قبل على كل ما أتاه قواد أساطيلها . وقد قال الاميرال

« كودرنجتون » لما علم بعدم موافقة حكومته على مذبحة « ناورين » : « ان الوزراء يضحوننى ليحفظوا مراكزهم »

أما (ابراهيم باشا) فقد عاد بعد المذبحة ولا يسألن القارىء عن تحسره الشديد على أسطوله العظيم الذى تركه زاهيا قويا وعاد فوجده أثرا بعد عين وعن عظيم اندهاشه من هذا العمل الفظيع الذى قام به دعاة المدنية وأنصار الحرية والانسانية . وقد احتج (ابراهيم باشا) أشد الاحتجاج على هذا العمل الوحشى وزاد احتجاجه واندهاشه عند ماعلم بالمطاعن السافلة التى كان يوجهها اليه الاميرال (كودرنجتون) وبان هذا الانكليزى الذى دمر الاساطيل المصرية والتركية بأسفل الطرق وأدنى الوسائل ادعى انه ـ أى ابراهيم باشا ـ هو الخائن للعهد الناكث لشروط الهدنة وانه المسبب لواقعة (ناورين)

وقد كتب الضابط الفرنساوى البحرى المسيو (بوجول) تاريخ مذبحة « ناورين » وأتى فيها على كل ماقاله له (ابراهيم باشا) عقب المذبحة . وانا نأتي هنا على ترجمة فصل يتضمن

تصريحات « ابراهيم باشا » بشأن تهم الاميرال كودرنجتون .

كتب المسيو بوجول ماترجمته :

« قال لى (ابراهيم باشا) عند زيارتى له : انهم يتهمون ابراهيم بأنه خان العهد ولم يحترم كلامه ولكننى مستعد لان أسافر لباريس وللوندره اذا اقتضى الحال ذلك لاظهر الحقيقة ولكى يحمل الذين أسالوا دماء الابرياء وحدهم الفضيحة والملامة . وما أنشئت السفن الا لتكون فريسة النار أو البحار فلذلك لست اليوم آسفا عليها . ولكن اتهامى بانى خنت عهودى هو وشاية سافلة . وانى أعتمد على شرفك ياحضرة الضابط لتبلغ كلمة بكلمة الى أميرالك ماقلته لك

فقل له ان ثانى يوم لواقعة « ناورين » دعا الاميرال الانكليزى الاميرال التركى الى مركب انكليزية ووشى له بانى قدمت اليه مبالغ طائلة ليساعدنى على الاستقلال بمصر من الدولة العلية ومن التابعية للحضرة السلطانية وقال له بانى خائن وأشار عليه بتبليغ ذلك للضباط والبحارة الاتراك . فماذا يقال عن هذا السلوك وعن هذا الغش؟ أولم تبلغ الوقاحة

بالاميرال الانكليزى انه طلب من الاميرال التركى ان يسلمه امرأة من نسائى ؟ »

وانه ليسهل على القارىء ان يحكم بعد اطلاعه على أقوال « ابراهيم باشا » أى الرجلين صادق . أابراهيم ذلك البطل النادر المثال الذى عامل ثوار اليونان بعد انتصاره عليهم النصر المبين بالرأفة والرحمة وما سفك للابرياء دما . ذلك الذى احترم عهده . أم كدرنجتون الذى تولى أمر تدمير أساطيل لم تعاده أقل عداء وخان بذلك عهده وكلامه وشرفه بل لطخ أوروبا والمدنية الغربية بدنس الفضيحة والعار .

*
* *

وبينما كانت الدول الثلاث تتداخل لصالح اليونانيين وتسفك دماء الابرياء لاجلهم وتدمر الاساطيل غدرا لمساعدتهم ونصرتهم كان اليونانيون يهجمون على سفن التجارة الاوروبية ويسرقون كل ما فيها من المتاجر والمصانع والاموال . وقد أيد هذه الحقيقة الاميرال الفرنساوى « دى رينى » نفسه وكتب جملة كتب على هذه السرقات الفظيعة والتعديات

المتعددة الى وزارة البحرية الفرنساوية وقد قال فى كتاب من كتبه (ان عدد السفن التى اعتدى اليونانيون عليها وسرقوا مابها بلغ فى شهر واحد ستين سفينة) فليعجب القارىء بقوم تحارب أوروبا لاجلهم وتخون عهدها حبا فيهم ويلطخ قواد أساطيلها شرفهم وشرف دولهم بمذبحة (ناورين) وهم يجيبونها على هذا التناهى فى الاحسان بالتناهى فى اساءة رعاياها وسرقة أمتعتهم وأموالهم ومتاجرهم ومصانعهم !!!

*
* *

وقد طلبت الحكومة العثمانية من الدول الثلاث ترضية علنية لمذبحة « ناورين » فرفضت الدول طلبها ولم تكتف برفضه فقط بل طلبت منها ان تقبل مطالبها المشتركة بشأن اليونان وان تعلن استقلالها فأجابت الدولة على هذا الطلب الغريب بالاندهاش والاستغراب والرفض . فبارح عندئذ سفراء انكلترا والروسيا وفرنسا الاستانة بتاريخ ٨ دسمبر سنة ١٨٢٧

وفى ١٢ دسمبر من السنة نفسها تجدد بين الدول الثلاث

اتفاق لوندره السالف الذكر . وأخذت الروسيا من ذلك العهد تعمل لاعلان الحرب بينها وبين الدولة العلية . وبتاريخ ١٦ ابريل سنة ١٨٢٨ أشهرت بالفعل اعلانها الحرب لتركيا. وفى ٧ مايو اجتازت الجنود الروسية نهر (بروث)

ولا شك ان الدولة العلية كانت وقتئذ فى أشد الاخطار وكانت أزمتها شديدة قوية فان الروسيا أظهرت عداءها لها باشهار الحرب عليها . وانكلترا أظهرت عداءها لها بمساعدة اليونانيين فى السر والجهر وبترك أسطولها واقفا فى مياه الشرق يهدد موانيها وبعقد المؤتمرات المختلفة لاعلان استقلال اليونان بالرغم عن اخضاع (ابراهيم باشا) لثورويهم وانطفاء نار الفتنة . وفرنسا اشتركت فى هذه العداوة بارسال جيش جرار تحت قيادة الجنرال « ميزون » الى بلاد اليونان

وقد رأى عندئذ المرحوم « محمد على باشا » بنظره الصائب ان الدول الثلاث متفقة كلها ضد الدولة العلية وأن مأمورية مصر قد انتهت بقمع الثورة اليونانية فأصدر أمره الى ابنه المرحوم (ابراهيم باشا) بالعودة هو وجنوده الى

الوطن العزيز فصدع بأمر والده وعاد لمصر . حيث احتلت الجنود الفرنساوية المواقع والبلاد التى أخلتها جنود مصر

وبذلك يرى القارىء ان الدول الثلاث كانت تعمل فى آن واحد ضد الدولة العلية وكانت الدولة بلا نصير ينصرها ولا صديق يساعدها وكانت النمسا تعضدها بالقول فى الباطن وتعلن فى الظاهر صداقتها للروسيا شأنها فى سياستها على الدوام . فضلا عن ان الجيش العثمانى كان حديث التشكيل لان المرحوم السلطان (محمود) قد ألغى طائفة الانكشارية

ومع ذلك فقد أظهرت الجنود العثمانية فى الحرب مع الروسيا من الشهامة والثبات ماحير رجال الحرب فى أوروبا وأدهش الروسيين . فان الجيش الروسى مع عظيم استعداده وكثرة عدده لم يستول على « وارنا » الا بعد صعوبات جمة ولم يستطع أخذ مدينة شوملا : واضطر للرجوع الى الوراء فى شهرى اكتوبر ونوفمبر بعد ان خسر الخسائر الجمة . وقد قارن وقتئذ (مترنيخ) وزير النمسا الاول تقهقر الروسيين

فى هذه الحرب بتقهقر نابليون فى عام ١٨١٢

وقد استمرت الحرب فى عام ١٨٢٩ . ولـكن الجنود العثمانية التى كانت مشكلة حديثاً كما قدمنا لم تستطع مقاومة الجيش الروسى تمام المقاومة فاستولى هذا الجيش على مدينة (اسكى استانبول) واجتاز جبال البلقان وبلغ فى ٢٠ أغسطس سنة ١٨٢٩ مدينة (أدرنه) . وبالرغم عن هذه الانتصارات فان القيصر نيقولا الاول كان يخاف الهزيمة لما رأى عند الجيش العثماني من الدراية والـكفاءة في سنة ١٨٢٨ ولذلك سأل ملك بروسيا أن يتوسط فى أمر الصلح بينه وبين الدولة العلية . فقبل ملك بروسيا ذلك وتوسط بالفعل فى أمر الصلح وفى ٤ سبتمبر من السنة نفسها أمضت الروسيا والدولة العلية على معاهدة (أدرنه) . وهي تتضمن استيلاء الروس على جملة مواقع اسـيوية وضمانة حقوق الافلاق والبغـدان وصربيا وحرية مرور السفن الروسية من بوغازى الدردنيل والبوسفور وحرية التجارة للرعايا الروسيين وتتضمن أيضا ان الدولة العلية تدفع للروسيا غرامة حربية تبلغ الخمسة ملايين ونصف

من الجنيهات . وان الدولة العلية تقبل مااتفقت عليـه الدول
بشأن اليونان

وهذا الاتفاق بين الدول بشأن المسئلة اليونانية لم يكن
مشتملا الا على جعل بلاد اليونان مستقلة تمام الاستقلال !
وقد أمضت الدول في لوندره بتاريخ ٣ فبراير سنة ١٨٣٠ على
معاهدة بهذا المعنى

وبذلك انتهت هـذه الازمة الشديدة وتم اسـتقلال
اليونان . وان القارىء يجـد من خلال هذه السطور ومن
مطالعة هذه الحوادث الحكم الصحيح على خطة الدول نحو
الدولة العلية ويرى كيف انها أخرجت من تحت حكم الدولة
بلاد اليونان بحجة المسيحية والمدنية مع ان الروسـيا جزأت
من قبل مع البروسـيا والنمسا بلاد بولونيا ولم ترع للمسيحية
حرمة ولا للمدنية مقاما !

وهكذا الغـرض في كل الامور يعمي الدول كما يعمى
الافراد

الازمة الثانية

﴿ مسئلة الشام ﴾

(بين مصر والدولة العلية)

ان هذه الازمة هى الازمة التى اذا تذكرها العثمانيون والمسلمون امتلأوا حسرة وأسفا اكثر من كل أزمة سواها لانها أعظم شقاق وقع بين التابع والمتبوع وبين مصر والدولة العلية أى بين قلب الخلافة الاسلامية وهذه الخلافة نفسها وبين روح المملكة العثمانية وهذه المملكة

وسيجد القارىء في هذا الفصل تفاصيل هذه الازمة المشئومة وما جرت على الدولة ومصر والاسلام من الاضرار والمصائب مما يبقى أبد الدهر درسا للعثمانيين والمسلمين ونذيرا بأن الشقاق بين أعضاء مجموع واحد يعود على المجموع كله وعلى أعضائه عضواً عضواً بالمصائب العظام والبلايا الجسام

ابتدأت هذه الازمة بخلاف وقع بين عزيز مصر ووالى (عكا) بسبب مهاجرة بعض المصريين الى الشام

حيث لم يرض والى (عكا) بأن يعيدهم الى مصر طبقا لرغائب المرحوم (محمد على باشا). فأمر عزيز مصر ابنه المرحوم (ابراهيم باشا) بالسفر الى بلاد الشام على رأس جيش جرار للانتقام من هذا الوالى فسافر واستولى فى ٢٧ مايو سنة ١٨٣٢ على (عكا) وبعد الاستيلاء عليها دخل هو وجيشه دمشق وحمص وعبر جبال طوروس بعد معارك مختلفة بين الجيش المصرى والجيش التركى

وقد انتهت سنة ١٨٣٢ بوصول المرحوم (ابراهيم باشا) الى قلب آسيا الصغرى حيث وقعت بين عساكر مصر وعساكر الدولة واقعة (قونيه) الشهيرة التى انتهت بسقوط هذه المدينة فى أيدى المرحوم «ابراهيم باشا». وكان ذلك في ٢١ دسمبر سنة ١٨٣٢ ـ وقد وقع فى هذه الواقعة أسيرا فى أيدى المصريين المرحوم «رشيد باشا» الذى كان يقود الجيش التركى امام «ابراهيم باشا» والذى كان من قبل في بلاد اليونان مكلفا بقمع الثورة اليونانية

ولا شك ان هذه الانتصارات المتوالية تدل من جهة

على ما كان لمصر وقتئذ من القوة الهائلة وتحمل الانسان من جهة أخرى على التساءل كيف تقهقر الاتراك الابطال في هذه المواقع . فالجواب على ذلك ان المرحوم السلطان (محمود الثاني) كان قد ألغى طائفة الانكشارية كما قدمنا وكان مشتغلا بتنظيم جيش جديد عند ماقام المرحوم (محمد علي باشا) باحداث هذه الازمة المشئومة ولم يكن الجيش التركى الجديد مستعدا تمام الاستعداد للقتال

وكان من نتيجة هذا الخلاف المشئوم بين مصر والدولة العلية ان المرحوم السلطان (محمود الثانى) اضطر للاستنصار بالدول الاوروبية . فانتهزت الروسيا هذه الفرصة لتقوية نفوذها فى تركيا وجعل سيطرتها عظيمة على الباب العالي فأظهرت للدولة العلية استعدادها لمساعدتها ضد عزيز مصر وأرسلت الى الاستانه الكونت (مورافييف) أحد ضباط القيصر الخصوصيين مكلفا بتبليغ الباب العالى ان الحكومة الروسية تقدم اليه اذا أراد أسطولا قويا وجيشا عظيما لنصرة الدولة ضد عزيز مصر ومكلفا كذلك بالسفر الى الاسكندرية

لاقناع المرحوم (محمد على باشا) بضرورة الاتفاق مع الدولة والرجوع عن نواياه ومشروعاته ضدها

وبالفعل ذهب (مورافييف) الى الإستانة فاستقبل رجال الدولة بلاغه بالرضى مع الحزن الشديد على هذه الحالة التى وصلوا اليها بسبب الشقاق المشئوم بين المتبوع الاعظم والتابع أى بين خليفة الاسلام وأكبر أمرائه

وقد سافر الكونت (مورافييف) من الاستانة الى الاسكندرية فى يناير عام ١٨٣٣ بقصد اقناع عزيز مصر بوجوب حل المشكلة حلا سلمياً

هذه كانت سياسة الروسيا وسيرى القارىء نتائجها السيئة على الدولة العثمانية . أما البروسيا فلم تتداخل فى الامر بل تركت بقية الدول الاوروبية مشتغلة بالمسئلة وانتظرت النتيجة . وقد ود بعض سواس النمسا أن تتداخل دولتهم فى هذه الازمة المهمة لتحول دون أغراض الروسيا ولكن القابضين على أمور المملكة النمساوية حينئذ رأوا ان الثورة تهدد دولتهم من كل جانب وانهم فى حاجة شديدة لعضد

الروسيا ومساعدتها فالتزموا لهذا السبب الحياد واختاروا سياسة مراقبة الحوادث والانتظار

اما انكلترا فقد كانت أميالها من بادىء الامر ضد أميال عزيز مصر . ولكنها كانت تخاف اضعاف نفوذها فى تركيا بتقوية نفوذ الروسيا فكانت تريد العمل ضد الروسيا ومساعدة تركيا فى آن واحد غير ان ايرلندا كانت فى ذلك الحين قائمة بالثورة ضد بريطانيا رغبة فى نيل حريتها واستقلالها فبقيت لذلك انكلترا مترددة فى سياستها

ولم يكن لعزيز مصر بين الدول الاوروبية دولة تريد نصرته فى السر والجهر غير فرنسا . فان الرأى العام فيها كان يحب (محمد على باشا) حباً شديداً وكانت أعمال عزيز مصر ومجهوداته فى سبيل رفع شأن مصر وتمدينها معروفة في فرنسا ومقدرة فيها حق قدرها لاسيما وان أغلب عمال عزيز مصر فى تمدين مصر كانوا من الفرنساويين . وكان بين (لويس فيليب) ملك فرنسا وبين (محمد على باشا) مودة شديدة وصداقة متينة .

الا ان سفير فرنسا فى الاستانة كان يخاف سقوط نفوذ
دولته فى المملكة العثمانية بقدر ارتفاعه وازدياده في مصر
فعرض على الباب العالى ان يتوسط بينه وبين أمير مصر
وكتب الى المرحوم « ابراهيم باشا » يرجوه باسم فرنسا الاّ
يتقدم فى فتوحاته وكتب الى المرحوم (محمد على باشا)
يسأله ان يقبل الشروط التى أرسل بها اليه المرحوم السلطان
(محمود الثانى) مع خليل باشا . وهذهالشروط كانت تنحصر
في تنازل الدولة لعزيز مصرعن ولايات (عكا ونابلس وصيدا
وبيت المقدس) .ولكن (محمد علي باشا) كان يريدالاستيلاء
على الشام كلها وكان قنصل فرنسا بمصر يشجعه على أمياله
وأغراضه . فلذلك لم يقبل عزيز مصر الشروط السلطانية التى
عرضها عليه خليل باشا ولم يلق رجاء سفير فرنسا بالاستانه
عنده قبولا لانه اعتبره مجاملة لتركيا وغير صادر عن تعليمات
سياسية واردةمن الحكومة الفرنساوية . وأمر ابنهالمرحوم
(ابراهيم باشا) بالتقدم في فتوحاته فصدع بالامر وتقدم
الى ان وصل مدينة « كوتاهيه »

فلما علم المرحوم السلطان « محمود الثانى » بذلك سأل الروسيا فى آخر يناير سنة ١٨٣٣ أن ترسل اليه بأسطولها فوعدته بذلك . وفى هذه الاثناء عاد « مورافييف » من الاسكندرية وكان قد نجح فى مأموريته لدى « محمد على باشا » بعض النجاح فأعلن الباب العالي أن أمير مصر وعده وأصدر أمره لابنه بالوقوف عن التقدم في فتوحاته . فلما علمت الدول الاوروبية بذلك رأت ان مجيء الاسطول الروسى الي مياه البوسفور صار غير لازم فسألت الباب العالي ان يجعل وقوفه ببلاد القرم ولكن الروسيا كان يهمها ان يظهر أسطولها فى مياه الشرق ويعلم المسلمون قبل المسيحيين انها صارت الحامية للمملكة العثمانية والامينة على مصالح دولة آل عثمان ! ! !

فجاء الاسطول الروسى الي مياه البوسفور وجعل مرساه امام سراى السلطان وبعد وصوله بأيام قليلة وصل جزء من الجيش الروسى الى الاستانة وأقام بها . فهاجت لذلك انكلترا والنمسا وفرنسا وطلبت من الدولة العلية

الاسراع بالاتفاق مع عزيز مصر وابعاد العساكر الروسية عن أراضى الدولة . فقبل المرحوم السلطان « محمود الثانى » طلب الدول الثلاث وبعد مخابرات مختلفة أعلنت الدولة العلية فى أوائل مايو سنة ١٨٣٣ بخطين شريفين أنها عينت أمير مصر واليا على الشام وعلى ولاية « أطنه » .وقد سمى هذا الاتفاق الذى صدر به الخطان الشريفان باتفاق « كوتاهية » نسبة الي المدينة التى كان محتلا لها « ابراهيم باشا » عند عقد هذا الاتفاق

ولما صدر هذان الخطان الشريفان سألت الدول الاوروبية الدولة الروسية ان تسحب أسطولها من مياه البوسفور وجنودها من أراضى الدولة فأجابت الطلب ولكنها لم تنفذه الا بعد ان أمضت مع الدولة العلية على معاهدة « خورنكار اسكله سى » التى جعلت للروسيا فى الدولة العلية نفوذا قوياً وسلطة عظيمة

ومضمون هذه المعاهدة ان الدولة العلية تتحالف مع الروسيا تحالفا دفاعياً وان تتعهد كل واحدة منهما بمساعدة

الاخرى فى داخل بلادها أو فى خارجها حسب الظروف .
ولا شك ان ظاهر هذه المعاهدة لا يفيد شيئا غريباً ولكن
المتأمل يرى إن الدولة الروسية كانت غير واقعة وقتئذ تحت
خطر . فكان من المستحيل ان ترسل الدولة العلية يوماً ما
جيشاً تركيا لداخل البلاد الروسية بخلافها فانها كانت واقعة
تحت خطر ظاهر وكان احتمال دخول الجنود الروسية الى
قلب المملكة العثمانية حاصلا . ذلك فضلا عن ان الروسيا
كان فى استطاعتها ان تحدث فى قلب الدولة من الاضطرابات
ماتشاء لما كان لها فيها من الآلات القوية . أى انه كان
يمكنها ان ترسل بجنودها الى داخل الدولة فى أى وقت تريد

والذى يثبت ان دخول الجيوش العثمانية الي قلب المملكة
الروسية كان مستحيلا حتى فى حالة قيام الحرب بين الروسيا
وبين احدى الدول خلافا لظاهر معاهدة (خونكاراسكله سى)
ان الروسيا اشترطت فى آخر المعاهدة ان الدولة العلية غير
ملزمة بارسال مدد عسكرى اليها فى حالة وقوع الحرب بينها
وبين احدى الدول بل يكفيها عوضا عن ارسال مدد

عسكرى ان تقفل بوغاز الدردنيل أمام أساطيل الدولة أو الدول المحاربة للروسيا

وقد علمت فرنسا وانكلترا بهذه المعاهدة وعملت كلتاهما على ابطالها ولكن مسعاهما لم ينجح وتكدرت بذلك علائقهما مع الروسيا

*
* *

ولم يسر حكم هذا الاتفاق طويلا فان انكلترا التى كان يسوءها استتباب السكينة والسلام فى الشرق والتى اقتضت سياستها فى كل أطوار المسئلة الشرقية اضعاف سلطة المسلمين عملت على تحريض الدولة العلية على الاخذ بالثار والانتقام من عزيز مصر . وفضلا عن اهتمام انكلترا باضعاف السلطة الاسلامية فى الاستانة ومصر فانه كان يروق لها ان تأخذ المركز الاول فى النفوذ لدى الباب العالى وتخفض من نفوذ الروسيا وسلطتها . فلذلك استمرت تحرض الدولة على الانتقام من (محمد على باشا) ووجدت عند رجال الدولة آذانا صاغية لان قلوبهم كانت قد تغيرت من جهة مصر

وأميرها وتركت فيها حوادث الشام آلاما كبارا

وقد نجحت انكلترا فى هذه السياسة وعقدت مع الباب العالى اتفاقا تجاريا يخول لها كل ما للروسيا من الحقوق والامتيازات وقابلت ثقة تركيا بها بان استعدت لاحتلال (عدن) كأنها أرادت ان تعرف الحكومة العثمانية مقدار ثمن المودة الانكليزية ....

ومع ذلك فقد اتبعت الدولة العلية آراء الانكليز ونصائحهم وسيرت جيشاً جرارا الى آسيا تحت قيادة (حافظ باشا) . فعبر هذا الجيش نهر الفرات فى ٢١ ابريل سنة ١٨٣٩ وفى ٧ يونيو من السنة نفسها أعلنت الدولة العلية الحرب على جيوش مصر . وقد كان المرحوم (محمد على باشا) علم من قبل باستعداد الدولة لمحاربته واخراجه من الشام فتأهب للقتال واستعد أكمل استعداد

فلما علمت الدول الاوروبية باستعداد الدولة العلية للحرب اهتمت كلها بالمسئلة وأخذت انكلترا تبذل الجهد فى استمالة فرنسا اليها والاتفاق معها على مساعدة تركيا ضد

(محمد علي باشا) واضعاف نفوذ الروسيا فى الدولة العليـة .
ولـكن فرنسا لم تقبـل الاتفاق مع انكلترا ضد عزيز مصر
لما كان له عندها وعنـد الشعب الفرنساوى من الاحـترام
العظيم والـكلمة العليا

وقد قام وقتئذ الخطباء على منبر مجلس النواب الفرنساوى
بالقاء الخطب البليغة دفاعا عن أميال عزيز مصر وأغراضـه
السياسية سائلين حكومتهم مساعدته ومنع كل عمل عدائى
ضده . ولم يظهر الرأى العام الفرنساوى قوته وشـدة تأثيره
على حكومته فى ظروف كثيرة مثل ما أظهر فى مسئلة الخلاف
بين مصر والدولة العلية فانه كان منتصراً لعزيز مصر أشـد
الانتصار

وقد أدى رفض فرنسا لطلب انكلترا الى اتفاق هذه
الدولة مع الروسيا اتفاقا مبدئيا ضد عزيز مصر

أما النمسا فقد عرضت على الدول مشروع عقد مؤتمر
بفيينا لحل المشكلة المصرية . فلم تقبل الروسيا هـذا الطلب
خوفا من تداخل الدول في شؤون تركيا الداخلية واضعاف

نفوذها بمثل هـذا التداخل . ورفضت فرنسا كذلك طلب النمسا منعاً لاتفاق الدول ضد (محمد على باشا)

وبينما الدول مشتغلة بهذا الخلاف الخطير اذا انتشر خبر واقعة (نصيبين) أو «نزيب» التى انتصر فيها الجيش المصرى بقيادة «ابراهيم باشا» على الجيش التركى فى ٢٤ يونيو سنة ١٨٣٩ . وبعـد هـذه الواقعة بأسبوع واحد توفى المرحوم السلطان (محمود الثانى) ولم تكن وصلته أخبار واقعة «نصيبين» لعدم وجود الاسلاك البرقية وقتئذ . وتولى بعده على الاريكة العثمانية ابنه السلطان الغازى (عبد المجيد خان)

وفي ٤ يوليو من السنة نفسها شرع أحمد باشا القبودان الاول للاسطول العثمانى في تسليم هذا الاسطول لعزيز مصر وسبب ذلك انه كان يبغض خسرو باشا الصدر الاعظم بغضاً شـديدا ويميل كثيرا الى عزيز مصر . فلما علمت الدول الاوروبية بهذا النبأ الغريب أرسلت مذكرة الى الباب العالى بتاريخ ٢٧ يوليو سنة ١٨٣٩ تفيده انها متفقة كلها على مساعدته فى هـذه الازمة ودفع الخطر عن المملـكة العثمانيـة . وقد

اشتركت فرنسا مع بقية الدول في ارسال هذه المذكرة ولم يكن قصدها بذلك الاشتراك معها ضد (محمد على باشا) بل منع اتفاقها ضده اتفاقا حربيا

وبناء على رجاء فرنسا لم يتقدم «ابراهيم باشا» بعد «نصيبين» بل وقف عندها

وقد عرض وقتئذ بالمرستون وزير خارجية انكلترا على الدول الاوروبية ان ترسل جميعها انذارا لعزيز مصر تأمره فيه بسحب جنوده من الشام والاكتفاء بأمارته على مصر وتهدده بأنها تنفذ مطالبها بالقوة ان لم يرض بها ويذعن اليها . فعارضت فرنسا مطلب بالمرستون أشد المعارضة وطلبت باسم (محمد على باشا) تعيينه أميرا على مصر والشام وبلاد العرب واستمر الجدال بين حكومتي باريس ولوندره طويلا واشتدت لهجة السياسيين من الجانبين كما اشتدت لهجة جرائد الدولتين وتكدرت عقب ذلك العلائق بين الحكومتين . فسعت الروسيا فى ان تضم اليها انكلترا وتجعل ما بين هذه وفرنسا من الخلاف أساسا لوفاق يوضع بينها وبين انكلترا

وأرسلت لهـذا الغرض البارون دى (برونو) للوندره . ولـكن بعض وزراء الحـكومـة الانـكليزية كانوا يخالفون بالمرستون رأيا وكانوا يودون الاتفاق مع فرنسا . فلم يتم لهذا السبب بين انكلترا والروسـيا الاتفاق وعاد البارون دى (برونو) الى سان بطرسبورغ ليتلقى تعليمات جديدة

وقد زاد وقتئذ تهيج الشعب الفرنساوى فى صالح عزيز مصر ازديادا هائلا وخاف « لويس فيليب » ملك فرنسا من عواقب هـذا التهيج فأمر بارجاع بقايا « نابليون الاول » من جزيرة سانت هيلينه ودفنها بباريس فى موكب حافل ليشتغل الشعب الفرنساوى عن مصر وأميرها بذكرى نابليون الاول وذكرى فتوحاته وانتصاراته العديدة . وبالفعل جىء بجثة نابليون الاول وسارت فى باريس فى موكب لم ير له مثيل لا فى جلاله ولا فى فخامته . مما حول أنظار الشعب الفرنساوى عن مصر كثيرا لا قليلا

أما انكلترا فقد اتفق ساستها مع البارون دى « برونو » بعـد عودته من الروسيا ودعوا الدول الاوروبيـة لارسال

مندوبين من قبلها لحضور مؤتمر يعقد بلوندره لحل المشكلة المصرية . وقد اشتركت فرنسا فى هذا المؤتمر غيران سفيرها بلوندره المسيو « جيزو » الشهير وجه عنايته كلها لمد أجل المؤتمر ومنع الدول من الوصول الى اتفاق نهائى لأن الحكومة الفرنساويه كانت مشتغلة سرا بالتوسط بين تركيا ومصر وكانت تؤمل بلوغ نتيجة مرضية لعزيز مصر بدون تداخل الدول الاخرى .

وقد نجحت فرنسا فى مخابراتها السرية مع مصر والباب العالى بعض النجاح وتوصلت الى عزل «خسرو باشا» الصدر الاعظم . الا ان « بونسونبى » سفير انكلترا بالاستانة علم بمخابرات فرنسا السرية وأبلغ حكومته هذا الخبر العظيم الاهمية . فهاج (بالمرستون) لذلك واغتاظ كثيرا وصمم على الانتقام من فرنسا فدس الدسائس ضد (محمد على باشا) فى الشام وأقام أهلها ضده وعمل على عقد اتفاق بين انكلترا والروسيا والنمسا والبروسيا أى بين كل دول أوروبا ماعدا فرنسا . وبالفعل عقد هذا الاتفاق وأمضى مندوبو الدول

الاربع فى لوندره بتاريخ ١٥ يوليو سنة ١٨٤٠ على اتفاقية مختصة بالمشكلة المصرية

وهذه الاتفاقية تضمنت ان (محمد على باشا) يرد الى الدولة جزيرة كريد وبيت المقدس وأطنه وبلادالشام الشمالية وان يحفظ له ولابنائه من بعده مصر ويتولى ولاية « عكا » مدة حياته . وانه ان لم يخضع لاوامر الدول فى مدة عشرة أيام من تاريخ ارسال الانذار الدولى اليه لاتترك الدول له غير مصر وان لم يخضع في مدة عشرة أيام أخرى لاتترك له مصر نفسها وتضمنت هذه الاتفاقية غير ذلك ان الدول تشترك فى بوغازي الاستانة والدردانيل ضد كل اعتداء

وقد اتفق مندوبو الدول فى هذه الاتفاقية على انها تنفذ قبل توقيع دولهم عليها اذا اقتضى الحال ذلك

وما علم (لويس فيليب) ملك فرنسا بهذه الاتفاقية حتى أعلن غضبه وسخطه ووافق وزيره الاول (تييرس) على الاستعداد للحرب فجند هذا الاخير الجنود الفرنساوية وجمع الرديف واشتغل بتحصين الحدود وساعد الجرائد على

تهييجها الشعب ضد دول أوروبا . فتهيجت فرنسا كلها منادية بالانتقام لها ولامير مصر من دول أوروبا

وفى ١١ سبتمبر سنة ١٨٤٠ ضرب الاميرال الانكليزى (نابييه) ثغر بيروت وجبر (ابراهيم باشا) على اخلاء هذا الثغر . وبعد اخلائه بثلاثة أيام أعلن الباب العالى عزل (محمد علي باشا) من امارة مصر نفسها وكان ذلك بناء علي ايعاز (بونسونبي) سفير انكلترا بالاستانة . فأحدثت هاتان الحادثتان فى فرنسا تأثيراً شديداً وهياجا عظيما مما جعل عناية الحكومة الفرنساوية بتتميم استعداداتها الحربية عظيمة شديدة وصير الحرب قاب قوسين أوأدنى

وقد استعفى بعد ذلك بقليل المسيو (تييرس) من رئاسة الوزارة الفرنساوية وعين مكانه المرشال (سولت) وتقلد المسيو (جيزو) سفير فرنسا بانكلترا منصب وزارة الخارجية . فبذل أقصى جهده فى تعديل اتفاقية ١٥ يوليو التي عقدت بين الدول الاربع في لوندره ولكنه لم يفلح فى مسعاه لشدة كراهة (بالمرستون) وزير خارجية انكلترا

لفرنسا ولعزيز مصر

وفى ذلك العهد جاءت الاخبار من الشام مؤيدة آمال بالمرستون فان الاسطول الانكليزى والاسطول النمساوى استوليا على أهم الموانى السورية وخرجت (عكا) نفسها من أيدى الجنود المصرية في ٢ نوفمبر سنة ١٨٤٠ - ولم يستطع المرحوم (محمدعلى باشا) قمع الهيجان الذى أحدثته الدسائس الانكليزية ضده فى الشام . فسر بالمرستون بهذه الاخبار وأراد ان يزيد الطين بلة ويجعل الاضطراب عاماً في كل انحاء أوروبا فاقترح على الدول الاوروبية عزل (محمد على باشا) من امارة مصر نفسها واخراجه هو وعائلته من الديار المصرية . فازداد لذلك الهياج فى فرنسا ازديادا هائلا وحمل المسيو (تييرس) فى مجلس النواب الفرنساوى على الوزارة حملة شديدة متهما اياها بترك انكلترا تنتقم من (محمد على باشا) صديق فرنسا الحميم فأجاب المسيو (جيزو) وزير خارجية فرنسا على اعتراضات (تييرس) وغيره من الخطباء بأن فرنسا لاتقبل أبداً نزع امارة مصر من أيدى (محمد

علي باشا) وأبنائه من بعده وأنها مستعدة للدفاع عن حقوقه في مصر ولو اضطرت الى الحرب . فأدركت أوروبا من لهجة الحكومة الفرنساوية ان قبول اقتراح بالمرستون يكون داعية لحرب عامة وأصلا لمصائب جمة فرفضته ارضاء لفرنسا ومنعاً للحرب وعواقبها الوخيمة

ولم يخضع المرحوم (محمد على باشا) لأوامر الدول الاوروبية الا عندما رأى ان فرنسا غير قادرة على مقاومة أوروبا كلها وان الأميرال الانكليزى (نابييه) يهدد ثغر الاسكندرية ان بقي مستمرا على المقاومة وعدم الامتثال لاوامر الدول . فأمضى معه اتفاقية تعهد فيها بسحب الجنود المصرية من الشام وتعهد له فيها الاميرال (نابييه) بجعل امارة مصر له ولأبنائه من بعده . وما وصل خبر هذه الاتفاقية الى الاستانة حتى أشار «بونسونبي» سفير انكلترا بها على الباب العالى برفضها فرفضها وصرح بأنه لا يقبل جعل امارة مصر وراثية لعائلة (محمد على باشا) بل له وحده مدة حياته

فلما علمت فرنسا بذلك عرضت حكومتها على مجلس النواب مشروع تحصين مدينة باريس أى اتمام الاستعدادات الحربية فأقر المجلس على المشروع بارتياح تام وأيد الحكومة في خطتها ودفاعها عن حقوق مؤسس العائلة الخديوية. فاضطربت حكومة النمسا وحكومة البروسيا عندما تحققت ان استعدادات فرنسا للحرب حقيقية وان الاعتداء على حقوق (محمد على باشا) وسلالته فى مصر يكون سببا لحرب عمومية فى أوروبا. واتفقتا على منع الحرب بكل الوسائل وتأييد « محمد على باشا » وسلالته من بعده فى امارة مصر وجبرتا بالفعل انكلترا والروسيا على تقديم مذكرة مشتركة معهما للباب العالى طلبت فيها الدول الاربع جعل امارة مصر لمحمد على باشا وسلالته من بعده. وقد قدمت هذه المذكرة في ٣١ يناير سنة ١٨٤١ وأخذت النمسا بعد تقديمها تجتهد فى استمالة فرنسا للاشتراك مع بقية الدول فى أمر تسوية المسئلة المصرية. فقبلت فرنسا ذلك ولكنها اشترطت عدم التعرض لاتفاقية لوندره التى أبرمت بالرغم عن معارضتها وتم مفعولها

وقد أقرت فرنسا مع الدول فى لوندره على اتفاقية البوغازات التى تضمنت قفل بوغاز الدردنيل والبوسفور لكل سفن الدول الحربية بلا استثناء

وقبل أن تمضى الدول على هذه الاتفاقية أصدر الباب العالى — متبعا فى ذلك نصيحة السفير الانكليزى « بونسونبي » خطا شريفا أعلن فيه أن حكومة مصر تبقى وراثية لعائلة « محمد على باشا » ولكن الدولة تحتم انتخاب من تشاء من أعضاء العائلة لامارة مصر عند وفاة أميرها الحاكم والا تجند مصر أكثر من ثمانية عشر ألف عسكرى وان تؤخذ الضرائب بنفس الطريقة التى تؤخذ بها فى تركيا وأن يرسل للدولة منها الربع . فرفض عزيز مصر هذه القيود كما رفضتها فرنسا وعاد الهياج والاضطراب فى فرنسا الى ما كانت عليه . فاهتم « مترنيخ » وزير النمسا الاول بالامر وسعى فى عزل الصدر الاعظم « رشيد باشا » الذى كان يعمل بنصائح السفير الانكليزى فعزلته الدولة وعينت مكانه (رفعت باشا)وأصدرت ارادة جديدة بتعيين

(محمد على باشا) والياً على مصر وجعل امارة مصر لابنائه من بعده الارشد فالارشد . وبان يتفق بعد بين مصر والباب العالي على مبلغ ترسله مصر سنوياً للدولة العلية

فقبل المرحوم (محمد على باشا) هذه الشروط فى ١٠ مايو سنة ١٨٤١ ولم يعد لانكلترا وسفيرها بالاستانة حجة لخلق المشاكل ومد أجل الشقاق وبذلك أمضت الدول كلها فى لوندره بتاريخ ١٣ يوليو من السنة نفسها على اتفاقيتين الاولى معلنة قفل باب المسئلة المصرية (حين ذاك) والثانية متعلقة بقفل بوغازى الدردنيل والبوسفور أمام سفن الدول الحربية

وبذلك انتهت هذه الازمة المشئومة

*
* *

لاريب ان المرحوم (محمد على باشا) كان يعمل لتوسيع نطاق ملكه وكان مولعاً بأن يتولى امارة مصر والشام لتتم له الكلمة فى الشرق وفي البحر الابيض المتوسط . وكأنه رأى ماراه قبله نابليون من ان صاحب مصر لايهنأ له عيش

ولا تكمل له سعادة بغير الشام وكذلك صاحب الشام لا تؤيد امارته ولا تقوى سلطته الا باستلامه زمام أمور مصر فطمح لذلك مؤسس العائلة الخديوية لجعل الشام تحت حكمه وانتهز فرصة رفض والى (عكا) قبول طلبه بارجاع المصريين المهاجرين من مصر الى وطنهم لفتح الشام وتحقيق أمانيه . ومما سهل له ذلك علمه بارتباك أحوال الدولة عندئذ واشتغال المرحوم السلطان (محمود الثانى) بتنظيم جيش جديد

وقد ذهب بعض المؤرخين الى ان (محمد على باشا) كان يؤمل القبض على زمام الخلافة الاسلامية والسلطنة العثمانية والجلوس على أريكة ملك آل عثمان . ولكنى لست ممن يرون هذا الرأى بل ولا ممن يظنونه ظناً . فان (محمد على باشا) الذى وهبه الله من الذكاء النادر والفكر الحاد والنظر الصائب والبصيرة الصادقة ماجعله فى نظر الكثيرين فوق « نابليون » رأيا وعملا أبعد من أن يؤمل مثل هذا الامل المستحيل وان ذلك الذى سخرت له الرجال وذلت أمامه صعاب الاعمال كان يعلم أكثر من كل انسان انزوال

المملكة العثمانية أمر لا يكون الا اذا زال هذا الوجود وان دولة الروسيا القوية العظيمة لم تستطع بلوغ هذه الغاية. فكيف به وما كان الا أمير مصر ؟

كلا . اني لست ممن يرون بأن مؤسس العائلة الخديوية الكريمة كان يؤمل أو يحلم ان يقبض على زمام الدولة العثمانية ولكنه كان يريد أن يحكم الشام مع مصر . وهاهى رسائله الى (لويس فيليب) ملك فرنسا مدونة فى المستندات الرسمية والتاريخية تثبت ان غاية أمانيه كانت الاستيلاء على الشام .

ولو كان يعلم عزيز مصر بالنتائج السيئة والعواقب الوخيمة التى تنشأ عن دخوله الشام ووقوع الخلاف بينه وبين الدولة العلية لكان ولا محالة عدل عن أمنيته وعمله . ولا جرم أن (محمد على باشا) تندم طويلا على هذا الخلاف المشئوم وتحسر على مافرط منه

وقد يذهب الانسان عند مايقلب صحائف تاريخ هذه الازمة المشئومة الى ان هنالك أسراراً لم يكشفها لنا التاريخ دفعت بعزيز مصر ضد الدولة العلية . فان المرحوم (محمد على

باشا) كان يعلم علم اليقين ان انكلترا هى أول عدوة له ولمصر وانها لذلك تعاكسه بكل مافى وسعها . وكان لا يغيب عنه ان الروسيا لا يروق لها استيلاؤه على الشام وتأسيس دولة اسلامية جديدة يكون لها من القوة والحول ماتستطيع معه الدولة العليـة يوماً من الايام ان تقهر الروسـيا وتردها عن ديارها .

وعلى أى حال فهذه الازمـة المشئومة يجب أن تكون درسا أبديا للعثمانيين والمصريين بل ولسائر المسلمين . فان هذا الخلاف القديم كان سببا لمصائب جمة تساقطت على مصر وعلى الدولة العليـة . وفى أغلب الملمات التى نزلت بالدولة أو بمصر يرى الانسان أثراً من آثار ذلك الشقاق المنحوس

وقد يعمل بعض المفسدين على احياء الضغائن فى صدور رجال الدولة العليـة بايهامهم ان مصر طامحة الآن وفى كل آن الى ماطمح اليه مؤسس العائلة الخديوية . وهى دسيسة لا يقصد بها الا الاضرار بمصالح الدولة وبمصالح مصر

فاذا كان الخلاف القديم قد جر على الدولة وعلى مصر

المصائب والبلايا فواجب على بنى الدولة وبنى مصر أن يعتبروا به وان يجعلوا الوفاق والاتفاق رائدهم في كل أعمالهم . فمصر من الدولة روحها ومن الخلافة فؤادها ولا حياة لهذا الجسم العظيم الا بالاتفاق بين أعضائه فى العمل

واذا كانت دول أوروبا تتحد وتتفق مع قوتها وعظمتها عند مايهم المسيحية أمر فكيف لا تتحد معاشر المسلمين وبلادنا واقعة في أشد البلاء والاخطار محدقة بها من كل جانب وأعداؤها يكيدون لها أعظم كيد كلما سنحت لهم الفرص .

لاسلامة للدولة العلية ولمصر الا بالوفاق والاتحاد وقد أدرك هذه الحقيقة المصريون عن بكرة أبيهم مقتدين بالعباس أميرهم المحبوب فتقربوا من الدولة العلية وجاهروا بحبها فى السراء والضراء واعترف العالم كله بأن أهل مصر أصدق المخلصين للدولة العلية وللعرش الشاهانى اذ ثبت ذلك بأجلى بيان فى الحرب الاخيرة . ولا ريب عندى ان أمة مصر العزيزة ثابتة في أميالها لاتتحول أبد الدهر عن اخلاصها

الدولة العلية حماها الله

وأنه ليجب على كل مصرى صادق وعلى كل عثمانى يخلص الحب لبلاده ان يحبط أعمال الذين يبثون الدسائس بين مصر والدولة العلية ويلقون بذور الشقاق بين جلالة الخليفة الاعظم وسمو الخديوى الافخم فان أولئك العاملين على خلق الشحناء والبغضاء بين المتبوع والتابع لاشد خصوم الدولة وألد أعدائها

كتاب

من (محمد على) أمير مصر

الى

(لويس فيليب) ملك فرنسا

نأتى هنا على ترجمة كتاب أرسله عزيز مصر الى ملك فرنسا بشأن حوادث الشام ومسئلة الخلاف بينه وبين الدولة العلية. وكنا قد نشرناه فى جريدة المؤيد الغراء عقب خطبة القيناها بالاسكندرية وأشرنا فيها اليه .

ومن هذا الكتاب يعرف القارىء حقيقة أفكار المرحوم (محمد على باشا) وأمياله وقت الازمة السالفة الذكر

القاهرة في ١٦ رمضان سنة ١٢٥٦ هجرية (نوفمبر سنة ١٨٤٠) أيها الملك العظيم

انى أشعر بالحاجة لاظهار شكرى لجلالتكم . ذلك الشكر الذى يجيش فى صدرى

فلقد ألقت نحوى حكومة جلالة الملك من أمد بعيد
أنظار رعايتها واليوم تتوج جلالتكم مآثرها على باعلانها
للدول ان وجودى السياسى ضرورى للموازنة الاوروبية

وان هذه العواطف الجديدة من شأنها أن تحدد لي
واجبات أعرف القيام بها . وأول هذه الواجبات هو أن
أوضح لملك فرنسا بكل صراحة أسباب سلوكى الحالي
واحداً بعد آخر

لقد كانت فى سائر الازمان سعادة الدولة العثمانية أصدق
أمنية أتمناها من صميم فؤادى حيث أنا أود أن أراها دائما
سعيدة قوية آمنة . وكانت قصارى آمالي ومرامى انظارى
موجهة نحو مساعدتها على أعدائها أولا والمحافظة على كل
ماملكته يدى بعد المجاهدات العظيمة فى سبيل الدفاع
عنها ثانيا

أما الذى حينى نحو فرنسا ـ وأقول ذلك بكل صراحة ـ
وحملنى على اتباع نصائحها دائما فهو ماتبينته من انها أكثر
الحكومات رغبة فى خير الدولة العثمانية بلا خديعة ولا

موار بة ولا شائبة قصد سيء . وكذلك أرجو ان تعتقد جلالتكم ان حبي لبلادي هو الذي كان دائما الدافع لي والقائد لزمامي

وعلى ذلك استطعت بعد المجاهدات العظيمة والاحوال المتناقضة تأييد الامن في الشام فحل فيها اليوم السلام محل الفوضى والاضطراب . واذا كنت قد أظهرت عظيم رغبتي في بقاء هذه البلاد تحت حكومتي فذلك لاني معتقد بأنها اذا نزعت من يدي عادت اليها المصائب التي استأصلت جراثيمها منها . ومن جهة أخرى أرى ان الشام تصير اذا بقيت في يدي عنصر قوة أستطيع به وقتئذ مساعدة مولاي السلطان ودولتي العلية مساعدة فعلية حقيقية ولكنها لما كانت في يد الدولة العلية — وذلك ما أتجاسر على القول به — كان الاضطراب والفوضى والحروب الاهلية مستحكمة فيها . وها قد تحققت اليوم شيئا مما كنت أخافه . فالقد ساعد النفوذ الاجنبي عناصر الشقاق والاضطراب حيث لم يكن يفلح أول الامر مسعى الذين كانوا يهيجون الامة . ولكن مساعي

أولئـك الذين كانوا يظنون أنهم يخدمون اسـتقلال تركيا باحداثهم الاضطراب فى احدى ولاياتها نجحت هذه المرة لافى اثارة خواطر البـلاد فقط بل وفى اقامة الامة ضـد بعضها فثارت بذلك الحروب الاهلية

وان دواعى المصلحة العـمومية التى كانت ترغبنى فى المحافظة على الشام وجعلها تحت حكومتى زالت اليوم بالمرة ولم تبق هنالك الا مصالحى الخصوصية ومصالح عائلتى وانى مستعد لحياطة هذه المصالح بكل مايصل اليه جهدى فى سبيل سلامة العالم . فاترك اذن الامر للحكمة العاليـة واضع بين يدى ملك فرنسا حظي فهو الذى يسوى كما تقتضيه رغبتـه الخلاف الحالى

واذا وافق ماأعرض على جلالتكم فانى أرضى من الشام بعكا لانها البلد التى قاومت بكل الوسائل مساعى التهييج التى عملت لاثارتها ضدى . وقد يجوز ان جلالتكم ترى من العدل ان تترك لى جزيرة (قنديه) التى صارت تحت سلطة حكومتى حسنة زاهية من عهد بعيد . ولـكن اذا أرشدتـكم

حكمة جلالتكم العالية الى ان زمن التساهل والتنازل قد فات وان المحافظة الشديدة واجبة فاني مستعد للكفاح الى آخر لحظة من حياتى أنا وسائر أولادى . وان جيشى فى الشام لايزال عظيما ودمشق وحلب وكل المدائن المهمة لاتزال تحت سلطتى وجيشى الذى فى الحجاز هاهو عائد نحو مصر وقد وصل قسم منه الى القاهرة ويصل القسم الآخر قريبا . وبين يدى شيوخ ذوو نفوذ هم نازعون الآن الي جبل لبنان متعهدين بأن يخضعوا لسلطتى الدروز والمارونيين . ولدى أربعون باخرة مستعدة للسفر لاول اشارة من جلالتكم

وعليه فأؤمل ان أسباب مسعاى لاتبقى مجهولة بعد اليوم حتى لايظن انسان ماأن الخوف صار قائدى الآن فان حياتى كلها براهين داحضة لمثل هذه الدعوى . ولو كان الخوف يقودنى لجاز أن أرى ضعيفا واهنا ولكنت تنازلت منذ ١٥ يوما حيث كان وجودى مهدداً بالاخطار . ولكن اليوم وقد أنقذ وجودى السياسى باعلان فرنسا فانى لاأخاطر بشيء كبير ان طالت الحرب

كلا . وليست القوة التي يعدونها ضدي هي التى ترهبنى
بل ان الذى يرهبنى هو أن أكون سبباً لحرب عمومية وأن
أجر فرنسا التي أنا مدين لها كثيرا الى حرب لا يكون لها
داع غير فوائدى ومصالحى الشخصية

ولهذا فانى أعرض حقيقة الامر على أنظار جلالتكم
واعترافى لكم بالجميل يجعل ذلك فرضا وواجبا علىّ . فضلا عن
انى معجب وواثق بملك فرنسا ذاك الاعجاب وهذه الثقة
اللتين تحمل العالم كله عليهما حكمة جلالتكم وذكاؤكم العالى .
وانى بهما أضع حظى بين يديكم

ومهما كان قرار الملك فانى أقبله بشكر وامتنان مادامت
جلالتكم مشتركة فى المعاهدة التى سيتفق عليها بين الدول
العظيمة والتى تقرر حظى ومستقبلي

وأخيراً مهما وقع ومهما كان الامر فاني أرجو الملك
أن يسمح لي بأن أقول له « ان اعترافى بالجميل نحوه ونحو
فرنسا سيبقى فى قلبي الى الابد واني أتركه ارثا لابنائى وأبناء
أبنائي من بعدى كواجب مقدس »

ولقد كنت أود أ كلف أحـد ضباطي العظام المعول عليهم بحمل هـذا الـكتاب الى أعتاب جلالتـكم . ولكن الصـعوبة وطول القور نتينه حملتاني على تكليف الـكونت « والوسكى » بتوصيله الى جلالتكم اه

(محمد على)

الازمة الثالثة

﴿ حرب القرم ﴾

تبين للقارىء من الفصل السابق ان انكلترا حلت محل الروسيا فى النفوذ لدى الباب العالى وصارت وحدها المسموعة الكلمة فى الازمة الاخيرة عند رجال الدولة وانها توصلت الى ابطال معاهدة (خونكار اسكله سى) التى خولت للروسيا حق ارسال جيوشها الى قلب الدولة العلية عند الحاجة فاستاءت الروسيا لذلك وعقدت النية على الانتقام من الدولة العلية التى أحلت انكلترا محلها وقد كان المرحوم السلطان الغازى (عبد المجيد خان) عاملا على اصلاح أحوال الدولة وتنظيم ادارتها فأصدر فرمان الكلخانة الشهير الذى اشتمل على اصلاحات عديدة كانت تكفى لتقويم أحوال الدولة وتقويتها فى ظرف قليل من السنين . فساء ذلك القيصر (نيقولا الاول) لان سياسته كانت تقتضى تقهقر الدولة على الدوام وعدم تمكنها من اصلاح شؤونها وتقويم المعوج فى

أحوالها . ولذلك أوعز الى المسيحيين الارثوذكس فى الدولة بمعارضة « التنظيمات » والعمل على ايقاف تنفيذها . وبالرغم عما بذله الارثوذكس من معارضة التنظيمات الجديدة فان الحكومة العثمانية التى كان على رأسها وقتئذ (رشيد باشا) ابتدأت فى تنفيذها واستبشر كل العثمانيين بقرب فلاحها تمام الفلاح ونيل ثمارها . الا ان ذلك كان من شأنه ازدياد حقد القيصر (نيقولا الاول) على الدولةالعلية . فأمر باجراء التجهيزات الحربية اللازمة واستعد لمحاربة الدولة مؤملا اضعافها وايقافها فى طريق الاصلاح

ولايجاد المشاكل بين الروسيا والدولة العلية أوعز القيصر (نيقولا الاول) الى القس « دانيلو » الذى كان حاكما على الجبل الاسود وتابعاً للدولة العلية بان يرفع راية العصيان فى وجه الدولة ودعاه قبل ذلك للسفر الى سان بطرسبورغ فسافر اليها وقوبل فيها باحتفاء عظيم وأهداه القيصر المال والنياشين وحرضه ضد الدولة بكل أنواع التحريضات حتى عاد الى الجبل الاسود ونادى أهله باسم

الصليب والدين الارثوذكسى للقيام فى وجه الدولة فلبوا نداءه وثاروا أجمعين

فلما علمت الحكومة العثمانية بذلك سيرت جيشاً عظيما بقيادة عمر باشا (وهو قائد عثمانى جليل اشتهر بقهر بلاد البوسنه) لقمع ثورة أهل الجبل الاسود. فسار الجيش ووقعت بينه وبين الثوار مواقع دموية فى جبال هذه البلاد حتى قهر الثوار وتم له الظفر والنصر. وقد كان لهذه الحادثة تأثير شديد فى أوروبا فاهتمت كل الدول بالامر وعلى الخصوص النمسا فانه كان يهمها عدم اضطراب الاحوال فى البلقان ولكنها كانت مدينة للروسيا بمساعدتها فى عام ١٨٤٩ فى قمع الثورة المجرية فاضطرت للتظاهر بمساعدة أهل الجبل الاسود لدى الباب العالى وكان غرضها الحقيقى توطيد السكينة والسلام فى البلقان واحباط مساعى الروسيا. فسألت الباب العالى فى آخر عام ١٨٥٢ ان يعتدل فى انتقامه من أهالى الجبل الاسود حتى لاتجد الروسيا حجة لخلق مشاكل جديدة

وفى هذه السنة نفسها حدث خلاف عظيم بين الروسيا وفرنسا بشأن الاماكن المقدسة فى الشام وذلك ان لفرنسا بمقتضى معاهـدات قديمة وحقوق ثابتـة حماية معنوية على الكاثوليكيين فى الشرق . وقد توصلت بهذه الحماية الى جعل مفاتيح كنائس (أورشليم) بأيدى الكاثوليكيين . فأرادت الروسيا أن ترفع كلمة الدين الارثوذكسى بتسليم مفاتيح الكنائس بأورشليم الى القسس الارثوذكس ليزداد نفوذها فى الشرق مما يخالف مصلحة فرنسا فى الشرق وشرفها كل المخالفـة فلذلك احتجت الحكومة الفرنساوية على رغبـة الروسيا وطلبت من الباب العالى ان يفصل فى هذا الخلاف بمقتضى الحقوق والمعاهدات فعين الباب العالى لجنة للتحقيق. وبعد بحث طويل أقرت اللجنة على ان للكاثوليكيين وحدهم الحق فى امتلاك الكنائس بأورشليم . وبناء على هذا القرار أصدر الباب العالى فرمانا بذلك بتاريخ ٩ فبراير سنة ١٨٥٢ فاستاءت الروسيا من هذا الفرمان غاية الاستياء وألحت على الحكومة العثمانية بابطاله مدعية ان معاهـدتى « قينارجه »

و « ادرنه » تخولان لها هذا الحق ولكن الباب العالى أبقى فرمان ٩ فبراير بالرغم عن الحاح الروسيا ومعارضتها

وفى آخر عام ١٨٥٢ تعين لويس نابليون (نابليون الثالث) امبراطورا على فرنسا فعمل علي رفع شأن بلاده فى الشرق وسر لهذا الخلاف الناشىء بين دولته وبين الروسيا ليدافع فيه عن مصالح الكاثوليكية ويستميل بذلك رجال الدين اليه

وقد خافت النمسا وقتئذ ان يتسع الخرق على الراتق وتشتعل نيران الاضطرابات في البلقان ونيران الحرب بين الروسيا والدولة العلية فبذلت جهدها فى تسوية مسئلة الجبل الاسود وأرسلت في يناير عام ١٨٥٣ الى الاستانة الكونت دى (لينجن) يرجو الباب العالى باسم النمسا توطيد السكينة فى هذه الجهات المضطربة والعفو عن ثوار الجبل الاسود ومكافأة المسيحيين الذين لم يثوروا ولحقهم الضرر فى هذه الاضطرابات فأجاب الباب العالى رجاء النمسا وتأيدت السكينة والطمأنينة فى الربوع المضطربة .

أما مايختص بمسئلة الاماكن المقدسة فقد أرادت فرنسا ان تتساهل مع الروسيا خصوصاً وانها بلغت مرامها واكتسب (نابليون الثالث) ميل الكاثوليكين اليه فسألت الباب العالى ان يمنح القسوس الارثوذكس بعض امتيازات فى كنائس أورشليم وخابرت الحكومة الروسية فى أمر عقد لجنة بسان بطرسبورغ من مندوبي الحكومتين للنظر في مسئلة الاماكن المقدسة فقبلت الروسيا وكان يخيل وقتئذ للعالم كله ان الخلاف بين الروسيا وفرنسا أوشك أن ينتهى بسلام

*
* *

غير ان القيصر « نيقولا الاول » أمر فى الوقت نفسه البرنس منشيكوف بالسفر الى الاستانة ليخلق سببا لاعلان الحرب على الدولة العلية . وكانت مأموريته ظاهرها انه مكلف بتسوية مسئلتى الجبل الاسود والاماكن المقدسة مع الباب العالى . وقد سافر (منشيكوف) من سان بطرسبورغ فى ١٠ فبراير سنة ١٨٥٣ مصحوبا بضباط عديديين خلافا للعادة الجارية عند سفر أحد السياسيين الى احدى العواصم لمخابرة

حكومتها فى أمر . وجمعت الروسيا على نهر (بروث) جيشا مكونا من خمسين ألف عسكري وبدت جليا لكل أوربا رغبة الروسيا فى الحرب بل عزمها على اعلانها

وكان يظن القيصر « نيقولا الاول » ان البروسيا والنمسا تساعدانه ضد الدولة العلية وان انكلترا لا تعارضه في شيء وكان لا يخاف مساعدة فرنسا لتركيا ولا يظن ان انكلترا وفرنسا تتحدان مع تركيا ضده . وكان سفيره بلوندره يمثل له الحكومة الانكليزية مياله للسلم والرأى العام الانكليزى مضادا للحرب والعلائق بين انكلترا وفرنسا غير متينة لا يخشى معها من عقد اتفاق بين هاتين الدولتين . كل ذلك حمل القيصر (نيقولا الاول) على الاستعداد للحرب وعدم المبالاة بنتائجها

وقد سعى القيصر طويلا فى الاتفاق مع انكلترا على تقسيم الدولة العلية بين دولته وبينها فتحادث فى هذا الصدد كثيراً مع السير (هاميلتون سيمور) سفير انكلترا بسان بطرسبورغ ولكنه لم يفلح لان انكلترا كانت تعلم أن بقية

الدول الاوروبية لا ترضى بأمر خطير كهذا وان تقسيم الدولة العلية ليس بالامر السهل وعلى فرض وقوعه فانه يجر أكبر المصائب على العالمين فضلا عن أن هـذا التقسيم لا يفيد فى الحقيقة غير الروسيا

وفى ٢٨ فبراير سنة ١٨٥٣ وصل البرنس (منشيكوف) الى الاستانة بين رجاله وضباطـه وفي أبهة أراد بها التأثير على أفـكار رجال الباب العـالى . وصار في كل أفعاله يعمل على خلق سبب لاعلان الروسـيا الحرب على الدولة العلية فطلب أولا عزل (فؤاد باشا) ناظر الخارجية العثمانية الذى كان عدوا للروسيا لتسهل له المخابرات . ثم عرض على الباب العالى مشروع عقد تحالف دائم بين الروسيا والدولة العليـة تعـترف فيه الدولة بحماية القيصر على الـكنيسة اليونانية . فاندهش رجال الدولة من هذا المشروع الغريب وأدركوا ان الروسيا تريد اعلان الحرب لانها تعلم جيدا أنه يستحيل علي الدولة قبول هذا المشروع فان لرؤساء الـكنيسة اليونانية سلطة دنيوية علي نحو الخمسـة عشر مليونا من المسيحيين وما

حماية الروسيا على الكنيسة اليونانية الا حمايه حقيقية على
هؤلاء المسيحيين .

وقد أبلغت الدولة العلية سراً وكلاء الدول الاوروبية
طلب الروسيا هذا ووصل عندئذ للاستانة سفيرا فرنسا
وانكلترا بها وكلفا من قبل حكومتيهما بالعمل بالاتفاق .
وبما ان البرنس (منشيكوف) كان لا يزال يجاهر بان مأموريته
تنحصر فى حل مسئلتى الجبل الاسود والاماكن المقدسة
اتفق السفيران على تعجيل حل هاتين المسئلتين حتى يضطر
« منشيكوف » الى مبارحة الاستانة واعلان انتهاء مأموريته
أو التصريح بنوايا القيصر الحقيقية . وسبق اننا ذكرنا ان
مسئلة الجبل الاسود انتهت بتوسط النمسا لدى الباب العالى .
أما مسألة الاماكن المقدسة فقد رضيت فرنسا بتسويتها بما
فيه ترضية للقيصر وتمت هذه التسوية فى ٤ مايو سنة ١٨٥٣
ولم يبق هنالك سبب ظاهرى لبقاء « منشيكوف » بالاستانة .
الا ان القيصر بقى على نيته الاولى وكان لا يزال يظن ان
انكلترا لا تساعد الدولة ضده فقدم « منشيكوف » فى ٥ مايو

سنة ١٨٥٣ للباب العالى انذاراً شديد العبارة طلب فيه أن يجيبه فى ظرف خمسة أيام على طلبه بشأن عقد اتفاقية بين الدولتين يضمن فيها الباب العالى للكنيسة اليونانية حريتها الدينية وامتيازاتها الدنيوية ويجعل للروسيا عليها حماية حقيقية وأعلن « منشيكوف » الباب العالى فى انذاره بانه ان لم يقبل مطالب الروسيا قامت الحرب بين الدولتين . فأجاب الباب العالى بان الكنيسة اليونانية متمتعة بتمام حريتها وبانه مستعد مع ذلك لان يؤكد امام العالم كله لسائر رعاياه المسيحيين ضمانته لحريتهم الدينية وبانه يرفض رفضاً باتاً جعل الكنيسة اليونانية تحت حماية الروسيا مبيناً للبرنس (منشيكوف) أنه لا يستطيع قبول هذا الطلب بدون تعريض استقلال الدولة للخطر ووضع ادارتها الداخلية تحت مراقبة أجنبية (أى تحت مراقبة الروسيا)

وفى ذلك الحين عين (رشيد باشا) صدراً أعظم ووزيراً لخارجية الدولة وكان معروفا بكراهته الشديدة للروسيا فتظاهر (منشيكوف) ببعض اعتدال في خطته وسأل الباب

العالى ان يرسل رسالة للحكومة الروسية يصرح لها فيها بقبول مطالبها وبذلك لاتطلب منه الروسيا عقد اتفاقية بهذه المطالب . فأجاب (رشيد باشا) على هذا السؤال الجديد بالرفض وكان ذلك في ٢٠ مايو سنة ١٨٥٣ . فانقطعت المخابرات وعاد (منشيكوف) الى سان بطرسبورغ . وفى ٣١ مايو من السنة نفسها أرسل (نسلرود) وزير الروسيا الاول انذاراً جديداً للباب العالى بمعنى انذار «منشيكوف» وأعلن فيه بان الروسيا تحتل مقاطعتى الافلاق والبغدان اذا رفض الباب العالى قبول مطالبها . وقد كان ورفض الباب العالى رفضاً جديداً قبول هذه المطالب فأرسل (نسلرود) فى ١١ يونيو سنة ١٨٥٣ الى وكلاء الروسيا لدى الدول الاجنبية منشوراً بين لهم فيه الاسباب التى حملت الروسيا على الشروع فى احتلال الافلاق والبغدان أى على اعلانها الحرب على الدولة العلية

*
* *

ما انتشر خبر تهديد الروسيا للدولة باحتلال مقاطعتى

الافلاق والبغدان حتى هاج الرأى العام في انكلترا وفرنسا
واندهش ساسة الحكومتين من جراءة الروسيا الغريبة
واقدامها على هذا العمل الخطير النتائج . فاتفقتا على مساعدة
الدولة العلية ضدها وأرسلتا اسطوليهما الى فرضة « بزيكا »
أى الى مدخل الدردانيل ليسهل لهما ان تساعدا الحكومة
العثمانية مساعدة فعلية عند مسيس الحاجة

واظهارا لما جبلت عليه العائلة السلطانية المعظمة من محبة
رعاياها على اختلاف دياناتهم ومذاهبهم وحسن رعايتها لهم
على السواء أصدر الباب العالى خطا شريفاً بتاريخ ٦ يونيو
سنة ١٨٥٣ منح فيه سائر المسيحيين فى الدولة العلية الحرية
الدينية التامة أى أكد لهم استمرار الحكومة العثمانية على
احترام هذه الحرية التى تمتعوا بها دائما هم وأسلافهم من قبل
وعرضت فرنسا من جهة أخرى على الدول الاوروبية مشروع
عقد مؤتمر لازالة الخلاف بين الروسيا والدولة العلية
فبرهنت بذلك الدولة العلية ونصيرتها الاولى فرنسا على
اعتدالهما وميلهما للسلم وتركتا مسئولية الحرب وسفك الدماء

على الحكومة الروسية التى بقيت على عنادها ولم ترجع عن قصدها

وعند ماعلم القيصر (نيقولا الاول) بارسال الاساطيل الفرنساوية والانكليزية الى الدردانيل غضب غاية الغضب وزاد غضبه رفض الباب العالى للانذار الذى أرسله اليه المسيو (دى نسلرود) وزير الروسيا الاول فأصدر الى الشعب الروسى بتاريخ ٢٥ يونيو من السنة نفسها منشورا بين له فيه انه أشهر على تركيا حربا يجب عليه اعتبارها حرباً صليبية وجهاداً فى سبيل الارثوذكسية . وبعث كذلك (دى نسلرود) بمذكرة الى الدول الاوروبية أظهر لها فيها ان الدولة العلية وانكلترا وفرنسا جبرت الروسيا على الحرب بأعمالها العدائية ضدها . كأن وزير القيصر أراد أن يغالط أوروبا بهذه المذكرة أو كانه نسى ان دولته هددت تركيا باحتلال مقاطعتى الافلاق والبغدان وان فرنسا وانكلترا ماأرسلتا بأسطوليهما الى مياه الدردانيل الا عند توقع اشتعال نيران الحرب

وقد هاجمت الجيوش الروسية في ٤ يوليو سنة ١٨٥٣

مقاطعتى الافلاق والبغدان واحتلتهما بعد أيام قليلة فاستولى
بذلك القلق على أفكار سواس الدول الاوروبية وعلى الخصوص
دولة النمسا التي كان موقفها حرجا للغاية فانها كانت لا ترضى
معارضة الروسيا لما لهذه الدولة عليها من الايادى البيضاء فى
قمع الثورة المجرية عام ١٨٤٩ ولانها الدولة الوحيدة التي تستطيع
مساعدتها ضد الثورات فضلا عن ان الروسيا كان فى قدرته
أن تهيج العنصر السلافى فى بلاد النمسا ضد الحكومة
النمساوية . وكان من جهة أخرى اعتداء الروسيا على الدولة
العلية مخالفا لمصلحة النمسا كل المخالفة وكان سواسها يعلمون
علم اليقين انها لو ساعدت الروسيا استطاعت فرنسا وانكلترا
ان تهيج ضدها ايطاليا والمجر وبولونيا . فلذلك بقيت النمسا
حائرة فى أمرها مضطربة فى سياستها وغاية ما أقر عليه سواسها
انهم سألوا الباب العالى الا يجعل جوابه على احتلال الروسيا
لمقاطعتى الافلاق والبغدان اعلان الحرب عليها بل مجرد
احتجاج على هذا الاحتلال حتى يسهل للنمسا مخابرة الدول
فى حل المسئلة حلا سلمياً . فقبل الباب العالى سؤال النمسا

وبرهن بذلك للعالم كله على عظيم اعتداله وسلامة أمياله مما شجع النمسا على دعوة الدول لعقد مؤتمر بفيينا . وقدأجابت الدول دعوة النمسا واجتمع منـدوبوها بفيينا فى ٢٤ يوليو سنة ١٨٥٣ ولم تقبل الروسيا الاشـتراك فى هذا المؤتمر بل اكتفت بأن وعـدت الدول بقبول ماتقرره فيـه ان وافق مصلحتها .

وقد أقر هذا المؤتمر على قرار مبهم العبارة والمعنى كان يسهل لسواس الروسيا أن يفسروه حسب أهوائهم وأغراضهم فرفضته الدولة العلية منعا للمشاكل . فلما رأت فرنساوانكلترا ان الاتفاق مستحيل وان الروسـيا عاملة على منعـه وايقاد نيران الحرب أمرتا أسـطوليهما بعبور الدردانيل والوقوف أمام الاستانة . وكان ذلك بناء على طلب الباب العالى ورغبته وفى آخر سبتمبر سنة ١٨٥٣

وفى هـذه الاثناء تقابل القيصر (نيقولا الاول) في مـدينة (اولموتز) مع الامـبراطور (فرنسوا جوزيف) امبراطور النمسا وطلب منه الاتحاد معه ضد تركيا وفرنسا

وانكلترا فاعتذر امبراطور النمسا عن قبول هذا الطلب مظهراً للقيصر أسفه من عدم امكانه مساعدته . فلما لم يجد من امبراطور النمسا اقبالا على مساعدته طلب من ملك بروسيا مقابلته وقابله وعرض عليه كذلك الاتحاد معه ولكن نتيجة مسعاه عند ملك بروسيا كانت كنتيجة مسعاه عند امبراطور النمسا

أما الدولة العلية فقد اهتمت باتمام تجهيزاتها الحربية ولم تغفل شيئاً من لوازم الحرب . وكان الرأى العام العثمانى متهيجاً جداً ضد الروسيا والمسلمون فى حالة قلق وهياج عظيمين خصوصاً وان منشور القيصر لشعبه أبان لهم ان الحرب دينية صليبية فاجتمعوا مئات وألوفاً امام سراى السلطان وطلبوا بأعلى أصواتهم اعلان الحرب فلبت الدولة طلبهم وبعد جلسة عقدت من وزراء الدولة وكبرائها تحت رئاسة المرحوم السلطان الغازى (عبد المجيد خان) وأعلنت الدولة الحرب على الروسيا بتاريخ ٤ اكتوبر سنة ١٨٥٣ . وفى ٨ منه أنذر (عمر باشا) قائد الجيوش العثمانية البرنس (غورتشاكوف) قائد الجيوش

الروسية بانجلاء العساكر الروسية من مقاطعة الافلاق والبغدان وحدد له خمسة عشر يوما أجلا للجلاء تبتدىء الحرب بعدها اذا لم ينفذ البرنس (غورتشاكوف) طلب (عمر باشا)

وقد كان القيصر « نيقولا الاول » مؤملا قهر تركيا ليس فقط بقوة جيوشه الجرارة بل بفضل الاضطرابات والثورات التى كان يعمل عماله وصنائعه لاحداثها فى الدولة العلية . فان جملة من مهيجى اليونان قاموا فى مقاطعة تساليا وابيرا اللتين كانتا تحت حكم الدولة بتحريض الاهالى على العصيان فى وجه الحكومة العثمانية . وساعدت الحكومة اليونانية وقتئذ هؤلاء المهيجين وسمحت لعدد عديد من ضباطها وجنودها بالسفر سراً الى تساليا وابيرا لنشر لواء الثورة بالفعل . وكان القيصر يحرض من جهة أخرى شاه العجم على محاربة الدولة العلية

ولما كان أمل القيصر وطيدا فى نجاح ثوار اليونان والوصول الى احداث الاضطرابات فى الدولة من كل جانب

أظهر لدول أوروبا ميله للسلم ورغبته فى تسوية المسئلة تسوية سلمية . وكان قصده بذلك اغفال الدولة العلية عن اتمام تجهيزاتها الحربية واضعافها بالاضطرابات والثورات . وقد اغترت النمسا بتصريحات القيصر وحسبتها صادرة عن اخلاص فجمعت سفراء الدول بفيينا ثانية فى مؤتمر . وقررت معهم فى ٥ دسمبر سنة ١٨٥٣ أمرين الاول المحافظة على استقلال الدولة العلية والثانى استقلال الحكومة العثمانية تمام الاستقلال فى ادارتها وأعمالها الداخلية . وأرسلت النمسا مع هذا القرار مذكرة للباب العالى سألته فيها أن يخبر الدول فى أقرب وقت على أى شروط يقبل المخابرة مع الروسيا فى أمر الصلح

ولكن جيوش الدولة كانت قد سارت تحت قيادة (عمر باشا) وهزمت الجنود الروسية هزيمة عظيمة اهتزت لها أوروبا كلها وانتهت باسترجاع الدولة لمقاطعة الافلاق الصغرى وبابعاد الجيوش الروسية من صربيا التى كان يجتهد الروسيون فى تهييجها ضد الدولة . وفى آسيا أتى الجيش العثمانى

بقيادة (عبده باشا) ماأتاه مثيله بقيادة (عمر باشا) حيث دخل الاراضى الروسية وهزم جنودها واحتل قلعة (سانت نيقولا) . فازعجت القيصرهذه الانتصارات الباهرة وانتقاما من تركيا أمر أسطوله بالبحر الاسود أن يدمر أسطولها ففاجأه في ميناء(سينوب)وأرسل عليه نيرانه حتى دمره بعد مجهودات عظيمة

فلما وصل خبر واقعة (سينوب) الى المرحوم السلطان (عبد المجيد خان) أرسل الى دولتى فرنسا وانكلترا يسألهما ارسال أساطيلهما الى البحر الاسود لحماية الموانى العثمانية . فأجابت الحكومة الفرنساوية الطلب بدون امهال بخلاف الحكومة الانكليزية فانها تأخرت لعدم ميل (أبردين) رئيس الوزارة الانكليزية الى الحرب وأمله فى حل المسئلة حلا سلميا . غير ان الرأى العام الانكليزى كان ميالا الى الحرب متهيجا ضدالروسيا وكان (بالمرستون) وزير خارجية انكلترا من أكبر أنصار الحرب فقدم استعفاءه فى ١٥دسمبر عام ١٨٥٣ عند مارأى تأخر (أبردين) فى ارسال الاساطيل

الانكليزية الى البحر الاسود . فازداد تهييج الرأي العام الانكليزي واضطر (أبردين) الى دعوة بالمرستون لسحب استعفائه والعودة للوزارة تاركا له قيادة السياسة الانكليزية كما يرى ويشاء فأرسل (بالمرستون) الاساطيل الانكليزية الى البحر الاسود حسب طلب الدولة العلية . وفى ٢٧ دسمبر أرسلت فرنسا وانكلترا مذكرة مشتركة للروسيا أعلنتاها فيها بوجوب سحب مراكبها وسفنها من البحر الاسود وبان أساطيلهما داخلة الى هذا البحر وبانهما تسمحان للدولة العلية بترك مراكبها وسفنها فيه . فكان الاعلان في الحقيقة اعلانا للحرب من فرنسا وانكلترا على الروسيا . ولم ترض حكومتا الدولتين التصريح به علنا لاشتغالهما بأمر اتمام التجهيزات الحربية

كل هذه الحوادث كان من شأنها ازدياد حيرة النمسا فعادت هذه الدولة مرة ثالثة الى مخابرة الدولة العلية وبقية الدول في أمر منع الحرب فطلبت من الدولة ايضاح الشروط التى تطلبها لعقد الصلح فأجابتها الدولة بان شروطها أربع : أولا اعلان استقلال بلادها وأراضيها وضمانة دول فرنسا

وانكلترا والنمسا والبروسيا لهـذا الاستقلال . ثانيا انجلاء العساكر الروسـية من مقاطعتي الافلاق والبغـدان . ثالثا تجديد الضمانات المقدمـة من أوروبا للدولة فى عام ١٨٤١ . رابعا احترام أوروبا كلها وفى مقـدمتها الروسيا لاستقلال الحـكومة العثمانية فى كل أعمالها داخلية كانت أو خارجية

فلما عرضت هذه الشروط على سفراء البروسيا والنمسا وفرنسا بفيينا قبلوها وصدقوا عليها وكلفوا حكومـة النمسا فى ١٣ يناير سـنة ١٨٥٤ بتبليغها للروسـيا . وبقيت الدول منتظرة جواب الروسيا على انذار فرنسا وانكلترا أولا وعلي مذكرة الدول الاربع ثانيا الا أن القيصر (نيقولا الاول) كان لا يزال مؤملا مساعدة البروسيا والنمسا فارسـل الى برلين البارون (دى بودبرج) والى فيينا الـكونت (أورلوف) ليسألا الحـكومتين البروسية والنمساوية ان تبقيا على الحيادة أثناء الحرب ويعـدهما القيصر مقابل ذلك بدعوتهما بعـد للاشتراك معه فى حل المسئلة الشرقيـة . فطلبت النمسا من الـكونت (أورلوف) الا تعبر الجنود الروسية نهر الدانوب

ووعدته بالبقاء على الحيادة اذا قبلت الروسيا هذا الشرط ولكن الروسيا وجدت قبوله يضر بها ضررا عظيما فى الحرب فرفضته وحملت بذلك النمسا على أن ترفض طلبها البقاء على الحيادة وان تحفظ لنفسها حرية تامة في العمل

وقد رفضت البروسيا أيضا طلب الروسيا بالرغم عن قرابة القيصر (نيقولا الاول) لملكها وتحقق القيصر عندئذ أنه لا نصير له بين دول أوروبا وانه سيحارب تركيا وحده . فرفض مذكرة الدول الاربع التى أرسلت اليه فى ١٣ يناير سنة ١٨٥٤ وأجاب على كتاب ودى أرسله اليه (نابليون الثالث) أمبراطور فرنسا نصحه فيه بقبول مطالب الدول بان شرف الروسيا يحتم عليها الحرب . وبقى بذلك على عناده الاول غير حاسب لنتائج الحرب حسابا

فلما علمت الحكومة الفرنساوية والحكومة الانكليزية بنوايا القيصر أرسلتا الى حكومته بتاريخ ٢٧ فبراير سنة ١٨٥٤ انذارا اهددتاها فيه بوجوب اخلاء مقاطعتى الافلاق والبغدان والا أعلنتا عليها الحرب واجتهدت فرنسا وانكلترا بعدذلك

فى ضم النمسا والبروسيا اليهما ضد الروسيا . غير ان ملك بروسيا رفض الاشتراك فى الحرب ضد الروسيا وأبلغ حكومات فرنسا وانكلترا والنمسا بانه مستعد للاتفاق معها على بعض قواعد سياسية تكون فيما بعد أساساً لتسوية الخلاف بين الروسيا وتركيا . فقبلت الدول الثلاث ذلك واجتمع مندوبو البروسيا والنمسا وانكلترا وفرنسا فى فيينا مرة رابعة وأمضوا على بروتوكول (مذكرة) ٩ ابريل سنة ١٨٥٤ المشتمل على القواعد الآتية : أولا استقلال الدولة العلية . ثانياً انجلاء العساكر الروسية من مقاطعتى الافلاق والبغدان . ثالثا استقلال الحكومة العثمانية فى أعمالها وترك الحرية التامة لها فى منح رعاياها المسيحيين الامتيازات اللازمة . رابعا الاتفاق على الضمانات اللازمة لتنظيم العلاقات السياسية للدولة العلية مما يضمن سلامة التوازن الاوروبى

وعند ماوصل انذار فرنسا وانكلترا السابق الذكر الى القيصر (نيقولا الاول) رفضه رفضا باتا وقبل اعلان الحرب

عليه من الدولتين . فعقدت فرنسا وانكلترا عندئذ فى ١٢ مارس سنة ١٨٥٤ تحالفا مع الدولة العلية ضد الروسيا اشترط فيه بادىء بدء ان فرنسا ترسل خمسين ألف جندى الى تركيا وان انكلترا ترسل خمسة وعشرين ألفا ولكن الحرب اقتضت ارسال جنود كثيرة حتى ان فرنسا وحدها فقدت فى ساحة القتال فوق المائة ألف جندى واشترط فى هذا التحالف ان دولتى فرنسا وانكلترا تسحبان جنودهما فى مدة خمسة أسابيع بعد عقد الصلح مع الروسيا . واشترط كذلك ان دولتى فرنسا وانكلترا ترسلان أساطيلهما الى البحر الاسود. وبالفعل استولت فرنسا وانكلترا على البحر الاسود وأرسلتا جيوشهما الى الدانوب. ولقمع الثورة فى تساليا وبيرا أرسل جزء من هذه الجيوش الى هاتيك الجهات فقمعت الثورة فى زمن يسير وعادت السكينة بعد الاضطراب

*
* *

وبعد ان اتفقت فرنسا مع انكلترا ضد الروسيا اجتهدت الحكومتان فى استمالة النمسا اليهما لان قوة الجيش الروسى

كانت على الدانوب وكان يسـهل التغلب عليـه وقهره اذا ساعدت النمسا دول تركيا وفرنسا وانكلترا غـير ان النمسا كانت تأبي العمل ضـد الروسيا قبـل اتفاقها على ذلك مع البروسيا فخابرت هـذه الدولة التي كان من صالحها خـدمة الروسيا بدون أن يدرك ذلك أحد وطالت المخابرات بينهما وانتهت بعقد اتفاقية بين النمسا والروسـيا بتاريخ ٢٠ ابريل سنة ١٨٥٤ تضمنت ان النمسا ترسل لحـكومة الروسيا انذارا بعدم تقـدم جنودها وبانسحابها من مقاطعتى الافـلاق والبغدان وان النمسا والبروسيا تعلنان الحرب على الروسـيا اذا عبرت البلقان أو أعلنت استيلاءها على المقاطعتين

وقد وجهت البروسيا عنايتها بعد عقد هذه الاتفاقيـة الى ابطال مفعولها مع بقائها وأخرت ارسال النمسا للانذار المتفق عليه مؤملة استيلاء الجيوش الروسية فى هذه الاثناء على مدينة (سيليستريا) التى كانت محاصرة لها والتى لم تستطع الاستيلاء عليها . ولم ترسل النمسا انذارها للروسـيا الا فى ٣ يونيه عام ١٨٥٤

ولما لم يستطع (غورتشاكوف) الاستيلاء على (سيليستريا) رفع عنها الحصار وسحب جيوشه عائدا الى الوراء وعندئذ اتفقت النمسا مع الباب العالى بتاريخ ١٤ يونيو سنة ١٨٥٤ على احتلالها لمقاطعتى الافلاق والبغدان وصد هجمات الروسيا عنهما ومساعدة عساكر فرنسا وانكلترا فى حركاتهما الحربية الا ان البروسيا كانت عاملة كما قدمنا على معاكسة النمسا فى خطتها فأوعزت الى حكومات الاتحاد الجرمانى باشتراط جملة شروط للتصديق على الاتفاقية التى عقدت بين الروسيا والنمسا فى ٢٠ ابريل فعملت هذه الحكومات الصغيرة بايعاز البروسيا واشترطت عدة شروط منها اشتراكها فى المخابرات التى ستجرى بين الدول بشأن المسئلة الشرقية ومنها انه اذا كانت النمسا ستجبر الروسيا على اخلاء مقاطعتى الافلاق والبغدان يجب عليها كذلك ان توقف سير انكلترا وفرنسا وتجبرهما على الامضاء على هدنة.

فاضطرت النمسا لقبول هذه الشروط ورضيت فرنسا وانكلترا بناء على رجائها بألا تسير جيوشهما من جهة

المقاطعتين . واتفقتا عنـدئذ على تجريدة (القرم) والهجوم على مدينة (سباستول)

وقد انقذت الروسـيا من اخطار هائلة وخسائر جمـة بتحول الجيوش الفـرنساوية والانكليزية بعـد التركية عن مقاطعتى الافلاق والبغـدان اتباعا لرجاء النمسا . والفضـل فى ذلك للبروسيا التى أوعزت لحـكومات الاتحاد الجرماني باشتراط هذا الشرط على حكومة النمسا

فلما تحققت الروسيا من ميل البروسيا وحكومات الاتحاد الجرمانى اليها أرسلت للنمسا بتاريخ ٢٩ يونيـه عام ١٨٥٤ جوابها على انذارها مبينـة انها لاتستطيع الرضاء باخـلاء المقاطعتين من جنودها الا اذا قدمت لها النمسا ضمانات كافية وأعلنت عـدم اتحادها مع فرنسا وانكلترا وتعهدت بمنعهما من محاربة الروسيا فى الافلاق والبغدان . فرأت النمسا عندئذ ضرورة الاتفاق مع فرنسا وانكلترا على شروط جـديدة لتسوية الخلاف بين الروسيا وتركيا تكون بمثابة انذار جديد للروسيا . وجمعت بفيينا مندوبى فرنسا وانكلترا مع مندوبيها

لوضع هاته الشروط . فلما وصل هذا الخبر الى ملك البروسيا أوعز الى امبراطور الروسيا باعلان اخلاء المقاطعتين من الجنود الروسية مؤملا بذلك تعطيل أعمال مندوبى الدول الثلاث بفيينا . ولكنهم لبثوا مجتمعين بضعة أيام قرروا فيها (يوم ٨ أغسطس عام ١٨٥٤) ان العلاقات السياسية بين تركيا والروسيا لا تعود لمجراها الاول : أولا اذا بقيت حماية الروسيا على مقاطعات الافلاق والبغدان وصربيا واذا لم توضع الامتيازات التى منحها الباب العالى لهذه المقاطعات تحت ضمانة الدول كلها . ثانيا اذا بقيت الملاحة فى الدانوب غير حرة . ثالثا اذا لم تغير الدول معاهدة ١٣ يوليو عام ١٨٤١ رابعا اذا استمرت الروسيا مدعية ان لها حق حماية المسيحيين كلهم أو بعضهم فى الدولة العلية واذا لم تضمن أوروبا كلها استقلال الدولة العلية وسلامتها

وقرر مندوبو الدول بألا تحيد دولهم بعد عن هذا القرار والا يعقد الصلح الا بقبوله

وقد أرادت النمسا ان تصدق البروسيا وحكومات

الاتحاد الجرمانى على هـذا القرار ولكنها لم تقبل منه الا الشرطين الأولين ورفضت الآخرين وأعلنت النمسا انها لاتتحد معها الا اذا تعهدت بمنع الجيوش التركية والفرنساوية والانكليزية من الهجوم على المقاتلين أو محاربة الروسيا من هذه الجهة . فحارت النمسا فى أمرها لانه كان لايمكنها قبول هذا الطلب بغير تكدير علائقها مع حكومات تركيا وفرنسا وانكلترا

وفى هذه الاثناء انتصرت الجيوش التركية والفرنساوية والانكليزية على الجيوش الروسية انتصارات باهرة فقهرتها على شواطىء نهر (ألما) واستولت على مواقع مختلفة وفى ٢٥ اكتوبر عام ١٨٥٤ هزمت الجيوش المتحدة جيوش القيصر فى (بلـكلاوا) وفى ٥ نوفمبر هزمتها في (انكرمان) وكان حصار (سباستوبول) لايزال مستمرا

وقد رأت فرنسا وانكلترا ان النمسا تماطلهما كثيراً فى أمر الاتفاق معهما اتفاقا نهائيا صريحا فافتكرتا فى طريقة تحملها على الاتفاق معهما وهى دعوة حكومة (البيمونتى) الى

الاشتراك معهما في الحرب ضد الروسيا . ويعلم كل مطلع على التاريخ أن النمسا كانت تبغض حكومة (البيمونتى) الايطالية أشد البغض لعملها على تحرير ايطاليا كلها من تحت نير النمسا . فلما علمت حكومة فيينا بأن (البيمونتى) على وشك الاتحاد مع فرنسا وانكلترا خافت من مساعدة هاتين الدولتين فيما بعد لهذه الحكومة الصغيرة وأبلغتهما انها مستعدة للاتفاق معهما وعقدت معهما بالفعل فى ٢ ديسمبر عام ١٨٥٤ اتفاقا تضمن ان النمسا تتبع قرار ٨ أغسطس الذى أقرت عليه الدول الثلاث وانها لا تتخابر بتفردها مع الروسيا وانها تدافع عن مقاطعات الافلاق والبغدان وصربيا ضد كل اعتداء وان فرنسا وانكلترا تتعهدان للنمسا بمساعدتها ماديا اذا قامت الحرب بينها وبين الروسيا . وانه اذا لم يتم الصلح قبل أول يناير عام ١٨٥٥ بالشروط التى قررتها الدول الثلاث فى ٨ أغسطس عام ١٨٥٤ اجتمع مندوبوها وتداولوا فى الوسائل الفعالة التى توصلها الى مرامها

ويعلم القارىء مما سبق ان البروسيا كانت ميالة للروسيا

وعاملة على انفاذها فلما علمت باتفاق النمسا مع فرنسا وانكلترا ضد الروسيا سعت في تأخير تنفيذ هذا الاتفاق لتكتسب الروسيا زمنا تستطيع فيه تحسين أحوال جيشها وتقويته وليسهل للبروسيا حل الاتفاق بين النمسا وفرنسا وانكلترا أو على الاقل اضعافه فأشارت على الحكومة الروسية أن تعلن النمسا بقبولها لقرار ٨ أغسطس عام ١٨٥٤ وتسألها عقد مؤتمر بفيينا للمناقشة فيه . فسرت النمسا بذلك وحسبت الروسيا صادقة في بلاغها وطلبت من فرنسا وانكلترا ارسال مندوبين من قبلهما لحضور المؤتمر . فرضيت الدولتان بذلك ولكنهما طلبتا من النمسا ارسال مذكرة مشتركة للبرنس (غورتشا كوف) الذى كان عين سفيرا للروسيا بفيينا توضح فيها الدول الثلاث معنى قرار ٨ أغسطس السالف الذكر . فلم تجد النمسا مناصا من القبول وحررت المذكرة وأرسلتها في ٢٨ دسمبر عام ١٨٥٤ مفسرة لمعنى قرار ٨ أغسطس . وبعد عشرة أيام من تاريخ ارسالها أجاب البرنس (غورتشا كوف) بمذكرة فسر فيها قرار ٨ أغسطس تفسيرا يناقض تفسير الدول الثلاث

أى تفسير الدول الواضعة للقرار واستمرت المناقشات طويلا قبل عقد المؤتمر نفسه

وقد أحس مندوبو فرنسا وانكلترا أن النمسا تخدع دولتيهما وتعمل على عدم الوفاء بتعهداتها . فأبلغوا حكومتيهم بذلك وأشاروا عليهما بعقد اتفاق بينهما وبين حكومة « البيمونتى » انتقاماً من النمسا . وقد كانت الامراض والحميات أضرت بالجيوش الفرنساوية والانكليزية ضرراً بليغاً وشدة البرد عطلت الاعمال الحربية . فاتفقت فرنسا وانكلترا مع « فيكتور رامانويل » ملك البيمونتى على مساعدة حكومته لهما ضد الروسيا وارسال ثمانية عشر الف مقاتل . وأمضى (كافور) الشهير وزير البيمونتى على هذه الاتفاقية فى ٢٦ يناير سنة ١٨٥٥ . وقد سر (كافور) بها سروراً عظيما لعلمه بأن اشتراك البيمونتى مع فرنسا وانكلترا فى الحرب ضد الروسيا يجعل لبلاده شأنا يسمح له بعرض المسئلة الايطالية على الدول وقت المناقشة فى شروط الصلح بعد اتمام الحرب ولذلك يعتبر المؤرخون اتفاقية ٢٦ يناير عام ١٨٥٥ مصدراً

لتكوين الوحـدة الايطالية وأصـلا لها . وما عقدت هذه الاتفاقية حتى سافرت الى تركيا الجنود البيمونتية تحت قيادة الجنرال (لامارمورا)

وفي هذا الوقت نفسه تقدم القائد العثمانى (عمر باشا) الى مدينة (ايباتوريا) — التى هى أيضا ثغـر من ثغور بحيث جزيرة القرم — وانتصر على الجيوش الروسـية فيها نصراً مبيناً فى ١٧ فبراير عام ١٨٥٥ وانضم بعد هـذا النصر الى جيوش الدولة وجيوش فرنسا وانكلترا المحاصرة لمدينة (سباستوبول)

ولمـا رأت النمسا أن فـرنسا وانكلترا أساءتا الظن بها ورضيتا بمساعدة البيمونتى اجتهدت في ارضائهما والاشتراك معهما فى العمل فعرضت على البروسـيا وحكومات الاتحاد الجرمانى أمر استعدادها للحرب وعزمها على ارسال جنودها ضد الروسيا فرفضت طلبها بأشنع صورة ووجهت اليها الملام العنيف على اتباعها ارشادات فرنسا وانكلترا بدون مراعاة مصلحة البروسيا والحكومات الجرمانيـة . وكان الموغر

للصدور وقتئذ ضد النمسا المسيو « دى بسمارك » الطائر الصيت وكان عضواً بالمجلس المشترك لحكومات الاتحاد الجرمانى بفرانكفور ومسموع الكلمة عند حكومته «البروسيا» وقدأظهر بمهارته السياسية الفائقة لحكومة البروسيا وحكومات الاتحاد الجرمانى ان خير وسيلة لمساعدة الروسيا هى جمع العساكر البروسيانية والجرمانية على الحدود امام الحدود الفرنساوية لتخشى فرنسا شأنها ويرجع « نابليون الثالث » عما كان عزم عليه من ارسال جيش جرار الى النمسا مخترقا به البلاد الجرمانية لمحاربة الروسيا وجعلها بين نار جيوشه من جهة مقاطعتى الافلاق والبغدان وبين نار الجيوش المتحدة من جهة القرم. وقد أفلحت سياسة « بسمارك » وعدل (نابليون الثالث) عن مشروعه عند ماعلم بوقوف الجنود البروسيانية والجرمانية امام حدود فرنسا .

وقد خطر على بال (نابليون الثالث) عندئذ أن يسافر بنفسه الى الشرق ويتولى القيادة العامة على جيوش تركيا وفرنسا وانكلترا ولكن انكلترا عارضته فى رغبته كما عارضه

الكثيرون من نصاحه ووزرائه

وفى ٢ مارس من السنة نفسها (١٨٥٥) توفى القيصر (نيقولا الاول) وتولى بعده القيصر (اسكندر الثانى) فأعلن لاوروبا رغبته فى السلم وميله الى عقد الصلح مما اطمأنت له خواطر الكثيرين من رجال السياسة وحمل فرنسا على طلب عقد مؤتمر دولي جديد بفيينا حيث قبل طلبها وعقد المؤتمر في ١٦ مارس

ولما عقد المؤتمر اتفق مندوبو النمسا وانكلترا وفرنسا وتركيا والروسيا على شرطى اعلان عدم حماية الروسيا لمقاطعتى الافلاق والبغدان وحرية الملاحة فى نهر الدانوب . أما ما يختص بضمانة استقلال الدولة العلية وسلامتها فقد صرح مندوبو الروسيا بأن دولتهم تحترم استقلال تركيا ولكنها لا تقبل الاشتراك مع الدول فى أمر ضمانته وقد رفضت الروسيا كذلك الشرط الرابع وهو المتعلق بتحديد عدد سفنها فى البحر الاسود . فأوقفت بسبب ذلك جلسات المؤتمر فى ٢٧ مارس عام ١٨٥٥ . ولما أعيد عقد المؤتمر رفض (غورتشاكوف)

مرة جديدة تحديد عدد سفن الروسيا فى البحر الاسود وضماناتها مع الدول لاستقلال الدولة العلية وعرض على دول أوروبا قفل بوغازى الاستانة والدردانيل كما تعهدت به الدول فى معاهدة عام ١٨٤١ واعطاء الباب العالى حق فتحهما عند الحاجة لسفن الدول المتحالفة معه . فلم يحصل بذلك الاتفاق بين مندوبي الدول وأوقفت جلسات المؤتمر للمرة الثانية فى ٢٧ ابريل عام ١٨٥٥ . وفى أوائل يونيه أعيد عقد المؤتمر للمرة الثالثة ولكن مندوبى الدول تضاربت آراؤهم كما حصل في المرة الاولي والثانية ولم يجدوا سبيلا للاتفاق فأعلن قفل المؤتمر نهائيا بلا نتيجة تذكر

*
* *

وقد رأت فرنسا وانكلترا أنهما صارتا في أشد حاجة للاتفاق بعد خيبة المؤتمر الدولى فسافر الامبراطور (نابليون الثالث (الى لوندره لزيارة الملكة (فيكتوريا) حيث قوبل فيها بغاية الاجلال والاكرام . وبعد زمن قليل من زيارته ردت له الملكة زيارته بباريس . وبعدئذ اتفقت الحكومتان

الفـرنساوية والانكليزية على اصدار أوامر جديدة لقواد
جيوشهما ببلاد القرم أمرتاهم فيها بأن يحملوا الحملة الاخيرة
على (سباستوبول) وعينت الحكومة الفرنساوية فى القرم
الجنرال (بيليسييه) بدل (كانروبر) على قيادة الجيش
الفرنساوى وأمرته بالزحف على قلاع ومعاقل العدو فاستولى
بجيوشه فى ٧ يونيو عام ١٨٥٥ مع مساعدة جيوش الدولة
العلية له على قلعة (ماملون فير) المعروفة بالقمة الخضراء .
وهجم فى ١٨ يونيو على حصن (ملاكوف) فصدت الجيوش
الروسية عنه جيش فرنسا . فاستاءت لذلك فرنسا وانكلترا
وتركيا وجمعت قواها واتفق قواد هذه الجيوش المجتمعة
(عمر باشا) و (بليسييه) و (سمبسون) و (لامارمورا) على
عمل مشترك للاستيلاء على (سباستوبول) فهاجمت الجيوش
المجتمعة فى ٨ سبتمبر عام ١٨٥٥ مدينة (سباستوبول) حيث
احتل الجنرال الفرنساوى (ماك ماهون) قلعة (ملاكوف)
بعد موت الكثيرين من جنود الدول المتحدة ومن جنود دولة
الروسيا . وكان ذلك اليوم مشهوداً ومن أكبر أيام الحروب

وانتهى بسقوط (سباستوبول) فى أيدى الجيوش المتحدة

وقد أحدث سقوط (سباستوبول) تأثيراً هائلا فى كل أوروبا وانتظر العالم كله ايقاف الحرب وعقد الصلح بين الروسيا ودول تركيا وفرنسا وانكلترا . ولكن الحرب بقيت مستمرة واحتلت الجيوش المتحدة جملة مواقع مهمة منها مدينة (قلبرون) ولولا اقبال الشتاء لاستمرت الحرب بلا انقطاع وفى أثناء الحرب استولت الاساطيل الفرنساوية والانكليزية على ميناء (بتروباولوسك) واحتلت فى بحر البلطيق (بومارسند) وضربت (سفيابورج)

فلما رأت الروسيا أن لا استطاعة لها على استمرار الحرب بذلت جهدها فى استمالة فرنسا لها وحل عقدة الاتفاق بين هذه الدولة وبين انكلترا وأرسلت الى باريس جملة من عمالها وصنائعها ليستميلوا اليها رجال السياسة الفرنساويه والقابضين على أزمة الرأى العام من الكتاب والخطباء فأظهر الامبراطور (نابليون الثالث) استعداده لمساعدة الروسيا ولكنه وجدها ترفض مطالب الظافرين فاضطر الى الاستمرار على خطته

الاولى نحوهـا ولما كان من صالح انكلترا ان تضعف نفوذ الروسيا فى بحر البلطيق اتحدت هى وفرنسا اتحاداً دفاعيا مع حكومة السويد التى كانت ألد عدوة للروسيا وقتئذ وكانت تطمح لاسترجاع (فنلندا)

وجرى فى هذه الاثناء ان (فيكتور امانويل) ملك البيمونتى ذهب الى باريس برفقة وزيره الشهير (كافور) فانتهز الامبراطور (نابليون الثالث) هذه الفرصة للانتقام من النمسا التى خدعته وخدعت انكلترا فى حرب القرم فاستقبل ملك البتمونتى ووزيره أحسن استقبال ووعـدهما بالمساعـدة على تحرير ايطاليا وتكوين وحدتها فاضطربت الحكومة النمساوية وخافت شر العاقبة وأبلغت في الحال حكومتى فرنسا وانكلترا أنها مستعدة لان ترسـل معهما انذارا للروسيا تهـددها فيه باعـلان الحرب عليها اذا رفضت مطالب الدول الثـلاث . وسألت الحكومة النمساوية فرنسا وانكلترا أن تمضيا معهـا على اتفاقية تضمن امام العالم استقلال الدولة العليـة وسلامتها فقبلت فرنسا وانكلترا طلب النمسا واتفقت الدول الثلاث

على صورة الانذار وأرسلته بالفعل لقيصر الروسيا بتاريخ ١٦ دسمبر عام ١٨٥٥ و أعلنته بوجوب قبوله قبل تمام شهر أى قبل ١٧ يناير عام ١٨٥٦ . وهذا الانذار يشتمل على الشروط الآتية

أولا جعل المقاطعات الدانوبية تحت رعاية الدول العظمى وضمانتها ومنع الدولة العلية من ارسال جنودها اليها بدون تصريح الدول . وتعديل الحدود من جهة البسارابيا

ثانيا تقرير حرية الملاحة فى نهر الدانوب تحت ضمانة الدول

ثالثا جعل البحر الاسود حراً . ويعمل لذلك اتفاقية خصوصية بين الروسيا والباب العالى تضمنها الدول بعد . وقبول الدولة العلية فى المجتمع الاوروبي . وعرض كل خلاف يقع بينها وبين احدى الدول على بقية الدول وتقرير مبدأ قفل بوغازى الاستانة والدردانيل

رابعاً تأكيد حقوق المسيحيين فى تركيا بدون الحاق

ضرر باستقلال السلطان وسيادته العالية

خامسا جواز وضع شروط جديدة اذا اقتضت مصلحة أوروبا ذلك

فأجابت الروسيا على انذار دول فرنسا وانكلترا والنمسا فى ٥ يناير عام ١٨٥٦ بقبول الشروط الاربعة الاولى ورفض الشرط الخامس لابهامه ولكن البروسيا خافت اشتعال نيران حرب عمومية فى كل أوروبا تقوم معها الثورات والاضطرابات فنصحت الروسيا بقبول المطالب الخمسة والخروج من هذه الازمة الخطرة عليها وعلى مصالحها . فاتبعت الروسيا نصيحة البروسيا وأبلغت الدول رسميا في ١٦ يناير عام ١٨٥٦ قبولها لشروطها كلها

فاجتمع عندئذ المؤتمر الدولي بباريس فى ٢٥ فبراير عام ١٨٥٦ وعقدت جلساته تحت رئاسة الكونت (والوسكى) وزير خارجية فرنسا واشتركت الدولة العلية والروسيا فيه كما اشتركت حكومة البيمونتى التى أرسلت نائبا عنها الكونت (كافور) الشهير . وكان (عالى باشا) مندوبا عن الدولة

العلية فى هذا المؤتمر

وقد اتفق مندوبو الدول فى هـذا المؤتمر بغير صعوبة على الشروط التى عرضتها من قبـل فرنسا وانكلترا والنمسا والتى أتينا عليها ولم يختلفوا الا فى قبول طلب (نابليون الثالث) بشأن ضم الافلاق والبغدان الى امارة واحدة فقرروا النظر فى هذا الامر بعد انتهاء المؤتمر

ولم يمض على مؤتمر باريس عامان حتى قررت الدول فى باريس نفسها بتاريخ ١٩ أغسطس سنة ١٨٥٨ جعل هاتين المقاطعتين امارة واحدة تحت ضمانة الدول

وقد أمضت الدول الاوروبية على عهدة باريس فى ٣٠ مارس سنة ١٨٥٦ وأعلن قفل المؤتمر فى ١٦ ابريل من السنة نفسها بعد ان تناقش أعضاؤه في جملة مسائل أهمها المسـئلة الايطالية التى عرضها على المؤتمر الـكونت (كافور) ووجه أنظار الدول اليها ولـكن المؤتمر لم يقرر شيئاً فى هذه المسائل واكتفى بالاتفاق على بعض شروط خارجية عن عهدة باريس مختصة بالملاحة والتجارة

انتهت هذه الحرب بنتائج مختلفة نأتي عليها واحدة بعد أخرى

تبين للقارىء ان هذه الحرب أصلها مسئلة الاماكن المقدسة والخلاف بين الكاثوليكيين والارثوذكس. وطالما كانت تؤمل كل دولة من الدول الاستيلاء على الشام والقبض على زمام الكنائس ببيت المقدس فجاء الخلاف بين فرنسا والروسيا بشأنها دليلا على أن هذه الاماكن المقدسة يجب أن تبقى الى الابد فى أيدى الدولة الاسلامية العظمى لانها الدولة الوحيدة التى تقدر أن تحفظ الموازنة بين كل الديانات فى بيت المقدس وتعطى كل ذى حق حقه . وانه لو تركت الاماكن المقدسة لدول أوروبا لوقع بينها وبين بعضها شقاق عظيم وقامت حرب دموية لنزوع كل واحدة منها الى امتلاكها ورغبة كل دولة فى سبق غيرها الى الاستيلاء عليها .

فدفعا لهذا الخطر الجسيم يجب أن تبقى هذه الاماكن في أيدى الدولة العلية العادلة الامينة . وقد أدرك سواس أوروبا ذلك وعلموا أن مسئلة الاماكن المقدسة هي من أهم

الاسباب التى تحتم ضرورة بقاء الدولة العلية

واذا كانت الدولة العلية قد اكتسبت من حرب القرم
هذه النتيجة المهمة فانها لم تكسب غيرها شيئا ما فقد فقدت
المال والرجال وأضاعت نفيس وقتها ولم تأخذمن بلادالروسيا
بلدا واحدة بل انسلخت عنها في الحقيقة (الافلاق والبغدان)
وقد خدعتها الدول بمنحها امتيازين أثبتت الحوادث بعد أنهما
لا يفيدانها شيئا مذكورا . فقد تعهدت الدول كلها بضمانة
استقلال الدولة العلية وسلامتها وأرتنا الحوادث أن دول
أوروبا نفسها سلخت من الدولة العلية جملة بلاد باسم هذا
المبدأ نفسه مبدأ ضمانة استقلال الدولة العلية وسلامتها .
واتفقت الدول كذلك على اعتبار الدولة العلية دولة أوروبية
وقبولها في المجتمع الاوروبى . ولم تر الدولة لهذا الامتياز
فائدة ما بل كانت نتيجته جر البلايا عليها بازدياد تداخل
أوروبا فى شؤونها الداخلية

وقد خرجت الروسيا من هذه الحرب سليمة لم تخسر
فيها غير المال والرجال شيئا . ومعاكسة الدول لها فى البحر

الاسود لم تكن الا معاكسة وقتية كما أظهرته جليا الحوادث بعد مؤتمر باريس

أما الدولة التى استفادت كثيرا من هذه الحرب فهى دولة البروسيا فانها استمالت اليها الروسيا بخطتها نحوها وأوجدت عندها كراهة شديدة للنمسا التى لم تساعدها ضد تركيا كما ساعدتها هى فى قمع الثورة المجرية عام ١٨٤٩ وأحدثت البروسيا بين النمسا وبين حكومات الاتحاد الجرمانى شقاقا كبيرا . فحمل البروسيا كل ذاك على محاربة النمسا عام ١٨٦٦ هذه الحرب التى ساعدت الروسيا فيها البروسيا مساعدة معنوية وانتهت باستيلاء البروسيا على مقاطعتين من أملاك النمسا وقد تمت نتائج هذه الحرب بهزيمة فرنسا أمام البروسيا عام ١٨٧٠ وتكوين الوحدة الالمانية

ومن أهم نتائج حرب عام ١٨٦٦ على النمسا غير فقدها مقاطعتين مهمتين استقلال المجر منها استقلالا اداريا . وهى أيضا نتيجة من نتائج حرب القرم

وقد استفادت كذلك من حرب القرم حكومة البيمونتى

فانها أرسلت الى مؤتمر باريس كما قدمنا الكونت (كافور)
الشهير الذى استلفت أنظار مندوبى الدول الى حالة ايطاليا
ومظالم النمسا وحمل على الحكومة النمساوية حملة شديدة
كان لها رنة ودوى فى كل أصقاع العالم . ومن حسن حظ
البيمونتى ان (نابليون الثالث) كان مغرما بتحرير البلاد
النازعة للاستقلال وكان ميله لايطاليا أشد من ميله لسواها
خصوصا وان بغضه للنمسا كان عظيما بعد حرب القرم لتلاعب
هذه الدولة فى سياستها وعدم وفائها فى وعودها مع فرنسا
وانكلترا . ولم تمض الا سنون قلائل بعد حرب القرم حتى
نالت ايطاليا استقلالها وتكونت وحدتها . فكانت بذلك
حرب القرم سببا لسقوط مقاطعتين مهمتين من أملاك النمسا
فى قبضة البروسيا وسببا لاستقلال المجر استقلالا اداريا وسببا
لخروج ايطاليا من تحت نير النمسا واستقلالها وتكوين وحدتها
وبالجملة كانت حرب القرم سببا لضعف النمسا وتقويض
أركان مملكتها

وقد اكتسبت انكلترا وفرنسا من هذه الحرب ازدياد

نفوذهما في الاستانة فاستعملتاه فى سبيل مصالحهما . فان الهنود كادوا يطردون الانكليز من بلادهم فى ثورة سيباى الشهيرة عام ١٨٥٦ لولا تداخل المرحوم السلطان (عبدالمجيد خان) فانه أصدر منشورا – بناء على رجاء انكلترا – لمسلمى الهند أمرهم فيه بالركون الى السكينة والطاعة لحكومة جلالة الملكة (فيكتوريا) . ومعلوم أن المسلمين فى الهند أقوياء ولهم شأن عظيم وكلمة نافذة وكلهم يحترمون خليفة الاسلام ويجلونه أعظم اجلال . فلما وصل اليهم منشور جلالته وضعوه على رؤوسهم وعملوا بما أمرهم به. فألقوا أسلحتهم وانتهت بذلك الثورة وتوطدت سلطة الانكليز فى الهند بعد اضمحلالها

وانه ليتبادر للذهن ان انكلترا شكرت الدولة العلية على عمل سلطانها الاعظم أو اعترفت لها بالجميل. ثم انها اعترفت لها بالجميل ولكن بمعاداتها والاعتداء على بلادها ! فانها سلطت فى عام ١٨٥٨ — أى بعد عامين من ثورة سيباى — احدى سفنها الحربية الضخمة على ثغر (جدة) فاستمرت تدمر فيه نحو عشرين ساعة أسيلت فيها دماء كثيرة وخربت منازل

وبيوت عامرة . وكان ذلك عقب فتنة صغيرة قام فيها بعض المسلمين على بعض المسيحيين وأصيب فيها قنصل فرنسا وقتلت زوجته . ولم يكن لعمل انكلترا معنى ولا ضرورة لان الدولة العلية كانت قد أرسلت مندوبا عاليا من لدنها لتحقيق الامر ومعاقبة المعتدين

أما فرنسا فقد استعملت نفوذها فى تركيا الذى ازداد بعد حرب القرم كما قدمنا لاعلاء كلمتها فى الشرق فأرسلت جيشا فرنساويا الى الشام عام ١٨٦٠ بحجة مساعدة الدولة العلية على قمع الفتنة التى أحدثها الخلاف والشحناء بين المارونية والدروز مع أن جيش الدولة كان كافيا لاعادة الامن والسكينة فى هذه الديار . ولم تخرج العساكر الفرنساوية من الشام الا فى ٥ يونيو عام ١٨٦١

هذه هى النتائج الخطيرة التى أنتجتها حرب القرم ومنها يعلم القارىء حظ كل دولة فى هذه الحرب وخطة الدول نحو الدولة العلية وكنه مقاصد كل واحدة منها وحقيقة أغراضها

الازمة الرابعة

﴿ الحرب بين تركيا والروسيا وما قبلها وما بعدها ﴾

« من عام ١٨٧٥ الى عام ١٨٧٨ »

أبنا فى ختام الفصل السابق أن نتيجة حرب القرم على النمسا كانت وخيمة حيث فقدت هذه الدولة بعدها مقاطعاتها الايطاليـة وأخـذت البروسيا منها في حرب عام ١٨٦٦ مقاطعتين مهمتين ونالت المجر استقلالها النوعى أى ارتفعت سلطة النمسا عنها . فطمعت هـذه الدولة فى أخـذ شىء من أملاك الدولة العليـة يعوض عليها بعض خسائرهـا فتقربت من المانيا عدوتها اللدودة التى قهرتها وكونت وحدتها بانتصارها عليها وعلى فرنسا عوضا عن أن تستعد للأخـذ بالثار منها واسترجاع المقاطعتين التين أخذتهما منها . وصارت كذلك النمسا تستميل الروسيا اليها وتوعز لها بمحاربة تركيا

وأوضحنا كذلك أن العلائق بين الروسيا والبروسيا صارت جيدة متينة وان مساعدة البروسيا للروسيا فى حرب القرم

حملت الروسيا على ترك البروسيا تحارب النمسا وتقهرها وتحارب فرنسا وتقهرها وتأخذ من كل دولة من الدولتين مقاطعتين عظيمتين وتكوّن بذلك وحدتها ويصير ملكها امبراطوراً لالمانيا بدون أن تعارضها فى أعمالها بل بقيت على الحيادة مظهرة ارتياحها لنجاح البروسيا ضد النمسا وفرنسا اللتين عاكستاها (أى الروسيا) فى حرب القرم

ومن ذلك يرى القارىء ان الروسيا والنمسا والمانيا اتفقت بعد حرب عام ١٨٧٠ التى قامت بين فرنسا والبروسيا واتفق امبراطرتها على العمل بالاتحاد فاهتمت الروسيا لتغيير الشرط المتعلق بحريتها فى البحر الاسود الذى اتفقت عليه الدول فى مؤتمر باريس عام ١٨٥٦ ودعت الدول لعقد مؤتمر للنظر فيه . فأجابت الدول دعوتها واجتمع مندوبوها فى عاصمة بلاد الانكليز فى ١٣ مارس سنة ١٨٧١ واتفقوا (ولم تشترك فرنسا مع الدول لاشتغالها بعقد الصلح مع البروسيا) على تغيير هذا الشرط واعطاء الروسيا الحرية التامة فى الملاحة بالبحر الاسود وتسيير سفنها فيه

ولما تحققت الروسيا من أن المانيا والنمسا مستعدتان لمساعدتها وان ايطاليا دولة ناشئة لايخشى منها وأن فرنسا ضعيفة بعدالهزيمة خافت صوتها وان ليس لها فى دول أوروبا من يستطيع معارضتها غير انكلترا وانها وحدها لاتستطيع ان تضرها بشيء — فضلا عن انالروسيا كانت تعلم ان انكلترا لاتفيد تركيا شيئاً لان مبدأها فى كل أطوار سياستهاان تنتفع من غيرها ولا تنفع غيرها ـ اجتهدت (أى الروسيا) فى تهييج أمم البلقان وأرسلت في كل انحاء بلاد البلقان زعماء ينادون بالثورةضدالدولة العلية وينشرون مبدأ اتحادالسلافيين تحت راية القيصر ويدعون أقوام البلقان كافة للعصيان باسم الدين الارثوذكسى ضد الحكومةالعثمانية الاسلامية .وكان من مصلحة النمسا أن تهيج بلاد البوسنهوالهرسك ضدالدولة العلية لما كان عندها من الامل فى الاستيلاء عليها فساعدت مهيجى الروسيا وأخذت تهيج كذلك أهالى هذه البلادحتى هاج المسيحيون كافة فى بلاد البوسنه والهرسك وصارت المساعدات تأتيهم جهاراً من بلاد الصرب والجبل الاسود

وأرسلت لهم من النمسا الاسلحة والذخائر سراً . فلما علمت
الدولة العلية بذلك أرسلت الى البوسنه والهرسك جيشاً قوياً
بقيادة القائد الشهير والبطل العظيم الغازي (مختار باشا)فقمع
الثورة ورد كيد الثائرين ولـكن دول الروسيا والنمساوألمانيا
التى كانت تريد كما قدمنا اسـتمرار الثورات والاضطرابات
فى الدولة توسطت بين الثائرين وبين الباب العالى وطلبت
من الدولة أن تقبـل مطالب الثوار بتخفيف الضرائب عنهم
وبتركهم يعينون الشرطة (البوليس) من نفس أبناءالبوسنه
والهرسك . فوعد المرحوم السلطان (عبدالعزيزخان)بالنظر
فى هذه المطالب وبمنح رعاياه على اختلاف دياناتهم مايطلبونه
من الامتيازات وما يراه موافقاً لهم وللدولة. وفى ١٢ديسمبر
عام ١٧٧٥ أصدر السلطان ارادة عاليـة بقبول مطالب أهالى
البوسنة والهرسك وبرهن بذلك على عدم تعصب الدولةضد
رعاياها المسـلمين . ولو كانت الدول راغبة حقيقة فى خـير
المسيحيين وغيرقاصدةضرر الدولة واضعافهالـكانت اكتفت
بهذه الارادة السلطانية وساعدت الدولةعلى تنفيذهاوأمرت

الثوار الذين هاجتهم ضد الدولة بالركون الي السكينة وبالامتثال لاوامر الحكومة العثمانية . ولكنها كانت تعمل لبث الفتن والثورات فأوعزت الى الثوار بعدم نزع السلاح وبالاستعداد للكفاح

وفى ٣٠ يناير عام ١٨٧٦ قدمت الدول جميعها بما فيها فرنسا وايطاليا مذكرة للباب العالى طلبت منه فيها منح أهالى البوسنه والهرسك تمام الحرية الدينية وتقرير مساواة الاديان وتخفيف الضرائب وجعل الشرطة أهلية وتشكيل لجنة من أهالى البوسنه والهرسك مكون نصفها من مسيحيين والنصف الآخر من مسلمين لمراقبة تنفيذ ماجاء فى الارادة العلية التى أصدرها السلطان فى ١٢ ديسمبر عام ١٨٧٥

وأول من وضع هذه المذكرة هو الكونت «اندراشى» وقد سميت باسمه . وهو مجرى أغضبت خطته نحو الدولة العلية فى هذه الحوادث الامة المجرية لشدة تعلقها بالدولة العلية واعترافها بالجميل للعثمانيين

ولم تتأخر الدولة العلية عن قبول مطالب الدول المذكورة

فى مذكرتها واجابتها عليها فى ١١ فبراير من السنة نفسها

فلما رأت الروسيا ان الدولة العلية قمعت الثورة أولا ولم ترفض مطالب الثوار ثانيا ولم ترفض مطالب الدول ثالثا وتحققت من انه يستحيل عليها خلق سبب سياسى من المخابرات يقيم فى وجه تركيا أوروبا والرأى العام الاوروبي بذلت جهدها ووجهت كل عنايتها لجعل الثورة عامة في بلاد البلقان حتى تضعف الدولة وترتبك أحوالها من جهة وحتى يسهل عليها ان تشيع فى أوروبا الاشاعات الكاذبة عن معاملة الاتراك للمسيحيين وتهيج بذلك الرأى العام الاوروبي ضد الدولة العلية وضد المسلمين . فاجتمع ثوار البوسنه والهرسك فى (كوسيروفو) فى ٢٨ فبراير أى بعد قبول الدولة لمطالب الدول وقرروا بايعاز الروسيا الاستمرار على الثورة والعصيان وعدم الخضوع للدولة

وقد توصلت الروسيا الى تهييج بلاد الصرب ضد الدولة العلية فهاج أهلها وجاهروا بمعاداة الدولة وطلبوا من حكومتهم محاربتها . فخابرت حكومتها حكومة الجبل الاسود واتفقت

معها ضد الدولة فصارت بذلك بلاد البلقان كلها قائمة على قدم وساق ضد الدولة . وبلغت الفوضى حدها فى هذه البلاد فاعتدى المجرمون على الابرياء وصار كل واحد من الثوار يفاخر الآخرين بما نهب وسلب من المسلمين . وصار الذين لاسلاح بأيديهم من المسلمين يدافعون به عن أنفسهم فريسة للمجرمين من السافكين للدماء من ثوار المسيحيين

رأى المسلمون في بلاد البلقان ماراأوا من الاهانة والسلب والنهب وأسيلت دماء الابرياء من الكثيرين منهم وأنصار الباطل والضلال فى أوروبا يشيعون فى كل مكان أن الدولة العليــة دولة بربرية تسفك دماء المسيحيين وتهتك أعراض نسائهم وتخرب بيوتهـم وكنائسهم وغـير ذلك مما يكرره أعداء الدولة وأعداء الحقيقة فى كل خلاف يقع بين المسيحيين والمسلمين فى بلاد الدولة

وقد عمل أعداء الدولة على تهييج الرأى العام الاوروبى ضدها بكل الوسائل وحصل ان فتاة مسيحية اعتنقت الدين الاسلامي فى ضواحى سالونيك وذهبت لهذه المدينة لاثبات

اسلامها بصفة شرعية فعلم المسيحيون بالامر وتجمعوا فى طريق الفتاة حتى اختطفوها عند مرورها وأخفوها في بيت أحد المسيحيين فهاج المسلمون لذلك وذهبوا الى الحاكم طالبين تخليص الفتاة ثم اجتمعوا فى مسجد للمداولة في الامر وبينماهم مجتمعون اذ دخل عليهم قنصلا ألمانيا وفرنسا فاعتدى عليهما بعض الحاضرين لاعتبارهم دخول القنصلين فى المسجد اهانة لهم وضربوهما ضربا قضى عليهما في الحال . فانتشر خبر الحادثة فى أوروبا وما انتشر حتى نادى أعداء الدولة بالويل والثبور وحملوا على الاسلام ودولته العزيزة حملات شديدة وهاجوا الرأى العام ضد الحكومة العثمانية حتى اضطرت الدول كلها لارسال سفن حربية الى ميناء سالونيك ولم يستطع الباب العالي ان يفهم أوروبا ان القنصلين اخطآ فى الذهاب الى المسجد بل طلبت منه الدول معاقبة المعتدين ولما لم يجد سبيلا لرفض طلب الدول عاقب من ثبت عليهم الاعتداء على القنصلين بالاعدام وانتهت بذلك هذه الحادثة وهى حادثة من حوادث عديدة خلقتها يد الدسائس والاغراض

للايقاع بالدولة والاضرار بها . وانى لست ممن يستبعدون ان اسلام هذه الفتاة المسيحية كان مصطنعا وان الحادثة مدبرة من أولها لآخرها . فكل من طالع شيئا من أعمال أرباب الدسائس فى الدولة يعلم انهم قادرون على ايجاد حادثة كهذه وأكبر منها

وقد عرض فى هذه الاثناء ثوار البوسنه والهرسك على دول أوروبا انهم ينكفون عن الثورة ويعيدون السكينة الى بلادهم اذا أنفذت الشروط الآتية :

أولا أن تعطى الدولة العلية للمسيحيين ثلث الاراضى التى بيد المسلمين

ثانياً أن تصلح لهم المنازل التى هدمت بسبب الثورة وان تساعدهم بالمال وان تقدم لهم الثيران اللازمة لحرث الارض

ثالثاً أن تعفيهم من الضرائب مدة ثلاث سنين

رابعا ان تنجلى العساكر التركية النظامية من بلاد البوسنه والهرسك وان تبقى فقط فى (نيكشيش)

و(ستولاز)و(فوكا)و(تريبين) و (بيوجلي)
و (مستار) وان ترسل النمسا والروسيا مندوبين
من قبليهما فى هذه البلاد لمراقبة تنفيذ هذه الشروط

خامساً نزع السلاح من المسلمين

سادسا ضمانة الدول الاوروبية لتنفيذ هذه الشروط

ولما رأت صربيا وبلغاريا والجبل الاسود ان الروسيا والنمسا والمانيا تشجع ثوار البوسنه والهرسك أصغت لارشادات المهيجين وقامت مستعدة لمحاربة تركيا والانتقام من الاسلام باسم الصليب . ولما أرادت الروسيا أن تعجل بالحرب وباسقاط المصائب على تركيا دعت النمسا والمانيا للاشتراك معها فى تقديم انذار جديد للباب العالى فاجابت النمسا والمانيا طلبها واجتمع البرنس (غورتشاكوف) عن الروسيا والكونت (اندراشى) عن النمسا مع البرنس (بسمارك) في برلين وتم اتفاقهم فى ١١ مايو سنة ١٨٧٦ على انذار ترسله دولهم الى الباب العالى

ولم تطلب الدول الثلاث من الباب العالى ماطلبته في

مذكرة (اندراشى) التى أرسلت فى ٣٠ يناير عام ١٨٧٦ بل طلبت جل ماأراد ثوار البوسنه والهرسك فاشتملت مذكراتها على الطلبات الآتية :

أولا ان يصلح الباب العالى المنازل التى دمرت بسبب الثورة وان يقدم كل مايلزم للفلاحين من الثيران والآلات وان يعفى أهالى البوسنه والهرسك من الضرائب مدة ثلاث سنوات

ثانياً ان يعين الباب العالى لجنة من أعيان أهالى البوسنه والهرسك المسيحيين لتوزيع المساعدات المادية التى يقدمها

ثالثا ان يسحب العساكر التركية من بلاد البوسنه والهرسك والا يتركها تحتل غير عشر قلاع معينة

رابعا ان يترك المسيحيين مسلحين لغاية اتمام الاصلاحات واعادة الامن والسكينة الى بلاد البوسنه والهرسك

خامسا ان يكون لقناصل الدول أو لمندوبيها الحق فى مراقبة تنفيذ هذه الطلبات . وطلبت الدول الثلاث

غير هـذه الطلبات ان تمنح تركيا للثوار هـدنة شهرين وهددتها بانها ان لم تنفذ هذه الطلبات مدة الشهرين اتخذت معها طرق القوة والقهر

وقد قبلت فرنسا وايطاليا التوقيع على هذه المذكرة أما انكلترا فرفضت التوقيع عليها بالمرة

ولا شك ان المطالع لهـذه الشروط يقف منـدهشا مستغربا من معاملة دول أوروبا للدولة العلية واعتدائها عليها بأشنع الصور وأقبحها ويدرك من نفسه ان هذه الشروط لو كان يطلب تنفيذها من أحقر دول الارض لـكانت رفضت قبولها ولو أدى رفضها الى دمارها وخرابها . فموت فيه شرف خـير من حياة تلطخ بالعار . ولذلك كان يستحيل على الدولة العلية ان تقبل هذه الشروط ولو لحظة واحـدة . فان طلب الدول بقاء الجنود العثمانية فى جهات مخصوصـة وقلاع معينة مع بقاء المسيحيين مسلحين هو تشجيع للثوار عظيم وطلب الدول اعطاء الحـكومة العثمانية للمسيحيين كل مايحتاجون اليه من المساعدات المادية واصـلاح المنازل التى دمرت بسبب

الثورة هو طلب لاتستطيع ميزانية تركيا ان تقوم به وتهديد الدول للدولة باتخاذ طرق القوة والقهر معها ان لم تنفذ طلباتها هو تشجيع لكل أمم البلقان على الثورة ضد الدولة العلية

ومن سوء حظ الدولة ان أسقط عن عرش السلطنة العثمانية فى هذا الوقت الممتلىء بالاضطرابات والاخطار المرحوم السلطان (عبد العزيز خان) وأجلس مكانه السلطان (مراد الخامس) الذى لم يحكم الا خمسة أشهر

*
* *

وبديهي ان الروسيا كانت ترمى الى اضعاف تركيا بالثورات والاضطرابات والحرب مع أمم البلقان حتى اذا ثبطت عزيمتها وقلت همتها تحولت ضدها برجالها وقوتها . وهى سياسة لايمكن لمؤرخ عادل ان يقول انها سياسة شريفة لان الروسيا كان يجب عليها ان تحارب تركيا من بادىء الأمر لاأن تهيج ضدها البوسنه والهرسك وصربيا والجبل الاسود وبلغاريا

فقد قام البلغاريون فى وجه الدولة وجعلوا غايتهم قتل

المسلمين فاتوا من الفظائع والجرائم مالا يستطيع وصفه قلم وصار أنصار الضلال فى أوروبا يكذبون على العالم كله ويدعون ان الدولة تذبحهم ونساؤهم وأطفالهم مع انهم كانوا المعتدين على الابرياء من المسلمين

وقد استعدت كذلك صربيا والجبل الاسود لمحاربة الدولة فاتحد أميرا هاتين الامارتين ضد الدولة وحشدا الجنود بكثرة وأرسلت الروسيا ضابطا من أمهر ضباطها (تشرنايف) لقيادة الجيش الصربى . فلما علمت الدولة العلية باستعدادات صربيا والجبل الاسود الحربية أرسلت الى أميريهما فى ٩ يونيو عام ١٨٧٦ تسألهما عن سبب هذه الاستعدادات فاجابت الصرب بأنها تطلب من الباب العالى ان تنجلى العساكر العثمانية من مقاطعتى البوسنه والهرسك وان تحتل العساكر الصربية مقاطعة البوسنه وان تحتل عساكر الجبل الاسود مقاطعة الهرسك . فرفض الباب العالى هذا الطلب الغريب بغاية الشدة والشهامة وأرسل بجيشه الى حدود الصرب والجبل الاسود . وفى ٣٠ يونيو أعلنت الصرب الحرب على تركيا

وفى ٢ يوليو أعلنها الجبل الاسود

ولما كانت الروسيا تعلم ان تظاهر صربيا والجبل الاسود برغبة احتلال البوسنه والهرسك من شأنه أن يكدر النمسا التى تريد تقوية نفوذها فى البلقان وتطمح الى الاستيلاء على هاتين المقاطعتين سافر القيصر (اسكندر الثانى) بنفسه الى (ريشتاد) فى بوهيميا وتقابل مع (فرنسوا جوزيف) امبراطور النمسا وتحادث معه طويلا فى أمور الشرق . ويحقق كثيرون من المؤرخين بأن القيصر وعد امبراطور النمسا باعطائه البوسنه والهرسك بعد انتهاء أزمة المسئلة الشرقية فبقيت النمسا بذلك على الحيادة وقت الحرب بين الدولة العلية وبين صربيا والجبل الاسود

وقد كان يظن سواس أوروبا وكتابها ورجال الحرب فيها ان الدولة العلية ستقهر فى هذه الحرب امام صربيا والجبل الاسود ولكنهم علموا بعدئذ ان جنود تركيا لا يزالون ليوثا فى الحرب وآساداً فى معامع القتال فقد انتصروا على عساكر الجبل الاسود وجنود صربيا نصراً مبيناً بقيادة الغازى عثمان

باشا والمرحوم عبد الكريم باشا وهزموهم فى (زيتشار) هزيمة اهتزت لها أوروبا ومادت لها محافلها ونواديها . ولما شعرت صربيا بأن بلغراد عاصمة بلادها صارت نفسها فى خطر طلبت من الدول بتاريخ ٢٨ أغسطس سنة ١٨٧٦ ان تتوسط بينها وبين الدولة العلية فسألت الدول الاوروبية الدولة العلية ان تعرض عليها الشروط التى تقبل معها عقد الصلح فأجابتها بهذه الشروط :

أولا ان تعود الاحوال فى صربيا الى ما كانت عليه قبل عام ١٨٦٧

ثانياً ان تهدم القلاع التي بنتها صربيا بعد عام ١٨٦٧

ثالثاً ان ترد القلاع التى كانت محتلة لها تركيامن قبل اليها

رابعا ان تدفع صربيا غرامة حربية أو أن تقبل ازدياد الخراج السنوى الذى تدفعه لتركيا

خامسا ألا يزيد عدد الجيش الصربي عن عشرة آلاف مقاتل

سادسا ان يسافر أمير الصرب الى الاستانة ليقدم

واجبات الخضوع والتابعية للحضرة السلطانية وليستلم فرمان تعيينه أميراً على الصرب

فرأت الدول ان هذه الشروط قاسية جداً وان قبولها يضر بالصرب ضررا بليغا على ان القارىء اذا تذكر الطلبات التى اتفقت عليهاالروسيا والنمسا والمانيا فى برلين بشأن البوسنه والهرسك وطلبتها من الباب العالى لوجد شروط الدولةالعلية مع الصرب أخف كثيرا من طلبات الدول مع ان الدولة غلبت الصرب وانتصرت عليها انتصارا باهرا . فطلبت الدول من انكلترا التى كانت تدعى مساعدة تركيا ـ وما كانت تعمل فى الحقيقة الا على تشجيع رجال تركيا فى معارضتهم ضد الدول مع علمها باتفاق الدول كلها ضد تركيا ـ ان تعرض على الباب العالى شروطاً أخرى

وفي هذه الاثناء جلس جلالة مولانا السلطان الاعظم والخليفة الاكبر ﴿عبد الحميدخان﴾ على أريكة المملكة العثمانية حيث المصاعب تحيط بها من كل جانب وأعداؤها يدسون لها الدسائس فى كافة انحائها والدول كلها متحدة

ضدها فبذل أقصى جهده فى تنظيم الامور واصلاح الاحوال ودفع المصائب والاخطار

وقد عرض الكونت (دى بيكونسفيلد) الوزير الاول لانكلترا على الدولة العلية عقد هدنة لمدة ستة أسابيع للمخابرة فيها فى شروط الصلح وبقاء الحالة على ماهى عليه فى صربيا ومنح البوسنه والهرسك استقلالا اداريا فرفضت الدولة هذه الطلبات خصوصا وان القيصر أوعز الى صربيا باستئناف الحرب مرة ثانية فجمعت جنودها وجندت من لم يجند منهم . وفي ١ اكتوبر سنة ١٨٧٦ أرسل القيصر الى (فرنسواجوزيف) امبراطور النمسا كتابا سرياً سأله فيه اتحاد النمسا مع الروسيا لاحتلال بلاد البلقان كلها فرفض امبراطور النمسا طلب القيصر خوفا من نتائج عمل خطير كهذا .

وفى ٥ أكتوبر طلبت انكلترا من الدولة العلية عقد هدنة لمدة ستة أسابيع وفتح مذاكرة بين الدول وقت الهدنة بشأن عقد الصلح فأجابت الدولة العلية بأن الهدنة يجب أن

تكون لمدة ستة أشهر حتى تستطيع جنودها أن تستريح من أنصاب الحرب وبأن يمنع وصول الاسلحة والذخائر لثوار البوسنه والهرسك ولصربيا والجبل الاسود وقت الهدنة . فلم تقبل الدول طلب الدولة العلية العادل وأرسلت الروسيا فى ١٥ اكتوبر الجنرال (اغناتييف) للاستانة حاملا انذارا للباب العالى يتضمن هذه الشروط :

أولا عقد هدنة لمدة ستة أسابيع بلا شرط : ثانيا منح البوسنه والهرسك وبلغاريا استقلالا اداريا : ثالثا ضمانة الدول الاوروبية لحقوق هذه المقاطعات

وما وصل (اغناتييف) الى الاستانة حتى وصلته أخبار انهزام الجيش الصربي امام الجيش العثمانى الظافر . فقد انتصرت الجنود العثمانية انتصاراً عظيما فى (دليجراد) و « الكسيناتس » وباتوا على مقربة من « بلغراد » عاصمة الصرب التى صار أمر سقوطها فى أيدى العثمانيين محققا . فقدم فى الحال (اغناتييف) انذاره للباب العالى وقبلت الدولة العلية عقد الهدنة فى ٢ نوفمبر عام ١٨٧٦

ولما رأت انكلترا ان الروسيا تهدد الدولة العليـة على لسان الجنرال (اغناتييف) أرادت أن تظهر لتركيا مودتها لها لتنتفع من هـذه المودة عند الحاجـة كما سيرى القارىء فأمرت أسطولها بالسـفر الى مياه الشرق والوقوف فى (بزيكا) أى فى مدخل الدردانيل . وعنـدئذ اتفقت الدول على عقد مذاكرة بينها وبين بعضها فى الاستانة

*
* *

وقد اجتمع مندوبو الدول بالاستانة فى أوائل دسمبر عام ١٨٧٦ وقـرروا عدم اشتراك تركيا فى مداولاتهـم ومناقشاتهم بل ارسال قرارهم النهائى اليها بعد اتمام المداولات والاتفاق عليه . وهى أول مرة اجتمع مؤتمر دولى فى عاصمة بلاد لم تشترك فى هـذا المؤتمر ! . وفى ٢٣ دسمبر تم اتفاق مندوبى الدول على وضع قرار نهائى وفي ٢٤ منـه أبلغ هذا القرار الى الباب العالى . وهو يتضمن أن الدولة العلية تتنازل لبـلاد الصرب والجبـل الاسود عن بعض الاراضى ليتسع نطاق امارتيهما . كأنهما الغالبتان لتركيا ! ويتضمن ان البوسنه

والهرسك تصيران مستقلتين استقلالا اداريا وأن يعين لهما لمدة خمس سنوات حاكم يجب ان يكون تعيينه بموافقة الدول وأن يكون البوليس فى البوسنه والهرسك مسيحيا وأن يترك لهاتين المقاطعتين نصف ايرادهما وان تكون لغة البوسنه والهرسك هى اللغة الرسمية فيهما ويتضمن القرار غير ذلك أن القسم الموجود فى شمال البلقان من بلاد بلغاريا يصير مستقلا استقلالا اداريا كالبوسنه والهرسك وان تحتل الجنود البلجيكية هذه المقاطعات السالفة الذكر لحين تنفيذ قرار الدول وان تعين لجنة دولية لمراقبة تنفيذ هذا القرار

ولا ريب أن قرار الدول هذا كان فى الحقيقة اعلانا لتركيا بان دول أوروبا كلها متعصبة ضدها وانها متحدة فى العمل على الاضرار بها . فان الدول الاوروبية كانت تعلم علم اليقين ان هذه المطالب ترفضها تركيا رفضاً باتا لما فيها من المساس بحقوقها . وكيف كانت تستطيع تركيا أن تقبلها بعد ان أقمعت الثورة في البوسنه والهرسك وهزمت جنود الصرب والجبل الاسود شر هزيمة ؟

وقد كانت انكلترا وحدها تتظاهر للدولة العلية بالمحبة والولاء ولكنها أضرت بها كغيرها بل اكثر من غيرها لان الدولة العلية انخدعت بتظاهر سواس الانكليز بالميل لها وحسبت ان بريطانيا مساعدة لها ضد الروسيا وقت الحرب فلما جاءت الحرب علمت تركيا ان انكلترا كانت ترمى فقط الى تشجيعها على معارضة أوروبا مع علمها باتحاد أوروبا ضدها وكذلك خدعت انكلترا تركيا عند عقد مؤتمر برلين حيث أخذت منها قبرص كما سيرى القارىء

ولما رأى مندوبو فرنسا ان الدولة العلية عازمة على رفض مطالب المؤتمر عرضوا على بقية الاعضاء تعديل الطلبات فقبلوا ذلك وأبلغوا الباب العالى انهم يتركون مسئلة تنازل الدولة العلية للصرب والجبل الاسود عن بعض الاراضى لمخابرة أخرى وانهم لا يسألون الباب العالى ان يستشير الدول في تعيين حاكم البوسنه والهرسك الا فى الخمس سنين الاولى وانهم عدلوا عن طلبهم بشأن تقسيم بلغاريا الى قسمين وجعل كل قسم منها مستقلا استقلالا اداريا وانهم عدلوا عن طلبهم بشأن

جعل البوليس كله في البوسنه والهرسك مسيحيا وقبلوا ان يكون من المسيحيين ومن المسلمين وانهم قبلوا اعتبار اللغة التركية في البوسنه والهرسك رسمية كاللغة السلافية . وحددوا للباب العالى مدة ثلاثة أشهر لتنفيذ مابقى من مطالب الدول

وقد أمضى مندوبو انكلترا على هـذا القرار مع بقية منـدوبي الدول ولـكنهم كانوا ينصحون لسواس تركياسرا برفض مطالب الدول

ولـكى تعلم الامـة العثمانية ان جلالة السلطان الاعظم لايعرض بمصالحها للخطر وأنه يستشـير في صغائر الامور وكبائرها كبار الامة وعقلاءها جمع جلالة السلطان الاعظم مجلسا عاليا مكونا من مائة وثمانين عضوا من كبراء الامـة ورؤساء الطوائف والمذاهب وعرض عليهم مطالب الدول وسألهم رأيهـم في الامر فرفضوها بالاجماع وأشاروا على جلالة السلطان برفضها فقرر جلالته رفضها عملا برأى كبراء الامة ورؤساء المذاهب والديانات وحفظاً لـكرامة الدولة وصيانة لشرفها

وفي ٢٠ يناير عام ١٨٧٧ أعلن صفوت باشا مندوبى الدول رسميا بان الدولة العلية رفضت مطالبهم لمساسها بمصالحها الجوهرية . فانفض بذلك المجتمع الدولى وترك مندوبو الدول كافة الاستانة اظهارا لغضب دولهم وانقطاع العلائق السياسية

وفى ٣١ يناير من السنة نفسها كتب المسيو (غورتشا كوف) وزير الروسيا الاول الى الدول الاوروبية يسألها عن الوسائل التى ستتخذها مع تركيا لاجبارها على قبول مطالبها ويعلمها بأن الروسيا مستعدة للعمل وحدها ضد تركيا . وفى الوقت نفسه اتفق القيصر مع (فرنسوا جوزيف) امبراطور النمسا على بقاء النمسا على الحيادة أثناء الحرب بين الدولة العلية والروسيا وقبل القيصر الشروط الآتية : أولا الا تدعى احدى الدول الاوروبية ان لها وحدها حق حماية المسيحيين فى الدولة العلية وان يكون لدول أوروبا كلها القول الفصل بين تركيا والروسيا بعد نهاية الحرب . ثانيا الا تأخذ الروسيا شيئا ما من الاراضى الواقعة على الشاطىء الايمن لنهر الطونة وان تحترم استقلال رومانيا والا تمس الاستانة

بسوء . ثالثا اذا أوجدت الروسيا امارة سلافية جديدة يجب ألا يكون ذلك ضد مصلحة البلاد الغير سلافية والا تدعى الروسيا حقوقا على بلغاريا التى يجب ألا يحكمها أمير روسى ولا أمير نمساوى . رابعا ألا تمر الجنود الروسية من بلاد الصرب.

ولم تكتف الروسيا باتفاقها مع النمسا ومساعدة ألمانيا لها من أول الازمة كل المساعدة بل أرادت أن تتحقق من مساعدة بقية الدول الاوروبية لها مساعدة معنوية فأرسلت الجنرال (اغناتييف) الى عواصم أوروبا فزارها عاصمة بعد عاصمة حتى لوندره نفسها . وفى كل عاصمة من عواصم أوروبا قوبل بالترحاب ووعد بعدم معارضة الروسيا فى شىء وفى لوندرة اتفق مع الوزارة الانكليزية على عقد مؤتمر دولى فى لوندره لارسال انذار أخير للباب العالى . وبالفعل اجتمع المؤتمر وفى ٣١ مارس سنة ١٨٧٧ أرسل الانذار الدولى للباب العالى متضمنا انه يجب على الدولة العلية أن تتمم عقد الصلح مع الجبل الاسود وان تترك له الاراضى التى يطالب بها وان

تنفذ الاصلاحات التى طلبتها منها الدول وان تجعل عساكرها في حالة السلم بان تقلل عددها العظيم الذى جمعته للحرب. وأنذرتها الدول بانها كلها مستعدة لان تتحد وتقرر الوسائل الفعالة ضدها ان لم تقبل مطالبها فى أقرب وقت. وبذلك اشتركت أوروبا كلها اشتراكا معنويا فى معاداة الروسيا لتركيا وتهييجها أمم البلقان عليها وتحملت مسئولية كل ماعملته الروسيا ضد تركيا

وقد أرسلت الروسيا بانفرادها انذاراً آخر للباب العالى أشد لهجة من الانذار الدولى فعرض الباب العالى هذين الانذارين على مجلس المبعوثان ليرى رأيه فيهما فرفضهما في ٩ ابريل سنة ١٨٧٧ وفى ١١ ابريل أعلن الباب العالى الدول الاوروبية رفضه لهما. ومن ذلك اليوم صارت الحرب على أبواب تركيا وأخذت الدولة العلية من جهة والروسيا من جهة أخرى تتمم تجهيزاتها الحربية وترسل جيوشها على الحدود

ولما رأت الروسيا انها لاتستطيع التغلب على تركيا

والفوز عليها الا اذا عبرت جيوشها بلاد رومانيا عقدت فى ١٦ ابريل مع هـذه الامارة ـ خلافا لاتفاقها مع النمسا ـ اتفاقية تسمح للجنود الروسية بعبور أراضى رومانيا . وفى ٢٤ ابريل سنة ١٨٧٧ أعلنت الروسيا رسميا الحرب على تركيا مبينة فى اعلانها ان غرضها بالحرب نصرة المسيحيين :

فلما علمت انكلترا بان الحرب لابد منها سألت الروسيا عدم المساس بمصالحها فى الشرق واحترام صوالحها . فأجابتها الروسيا على ذلك . وهذه هى المساعـدة التى قدمتها انكلترا للدولة العلية !

وقداتخذت الجنود الروسية فى القرم وفى البحر الاسود خطة دفاعيـة وجعلت خطتها الهجوميـة فى جهـة القوقاز والدانوب

وسار الجيش الروسى فى آسـيا تحت قيادة الجـنرال (لويس مليكوف) وبعـد مجهودات عظيـمة وقتال عنيف استولى فى ١٩ مايو على مدينة أردهان وسار فى أوائل يونيه الى مدينة (أرضروم) . أما فى أوروبا فقـد اتفقت الروسيا

مع رومانيا (التي أعلنت عندئذ استقلالها التام عن الدولة العلية) فى ١٤ مايو عام ١٨٧٧ اتفاقا دفاعيا هجوميا وانضمت جنود رومانيا الى جنود الروسيا وعبرت بلغاريا الشمالية. وفى أواسط يوليو احتلت مدينة نيكوبلى واحتل الجنرال (جوركو) مضايق البلقان الموصلة لمضيق شيبكا الشهير . وقد أحدثت هذه الاخبار تأثيرا شديدا فى الاستانة وفى أوروبا كلها وازداد اهتمام الباب العالى بأحوال الجيش . الا أنه من سوء حظ الدولة وشى بعض الدخلاء بالشهم المشهور (عبد الكريم باشا) فعزلته الدولة وعزلت رديف باشا ناظر الحربية وعينت بدل عبدالكريم باشا (محمد على باشا) وهو ضابط روسى الاصل اعتنق الاسلام ودخل فى عسكرية الدولة

ولما علم دولة الغازى (عثمان باشا) بانتصار الجيوش الروسية والرومانية أتى بجيشه الى مدينة (بلفنه) وحصنها أحسن تحصين

وقد هاجت الخواطر فى بلاد المجرحين ذاك هيجانا شديداً لانتصار الروسيا على تركيا فى بعض مواقع وصار

المجريون يتظاهرون فى الشوارع وفى المجتمعات ضد الروسيا
وينادون بمحبة تركيا التى ساعدت ثوارهم عام ١٨٤٩ وأخذوا
يسألون حكومتهم مساعدة تركيا بالفعل . الا ان النمسا التى
بيدها زمام القيادة العامة للجيش المجرى والنمساوى كانت
على الحيادة وكان (بسمارك) يسمعها من وقت الى آخر ان
نصيبها من أملاك تركيا سيكون (البوسنه والهرسك) .
فكانت راضية بالحرب غير حاسبة لتقوية نفوذ الروسيا فى
بلاد البلقان حسابا

وبالجملة لم يكن لتركيا فى أمم أوروبا محب يخلص الحب
لها غير الامة المجرية ولكنها لم تستطع ان تعمل شيئا ما فى
صالحها .

وقد ظن سواس أوروبا ورجال العسكرية فيها ان الروسيا
ستستمر سائرة فى طريق النصر ولكن الاخبار ملأت
أوروبا بعدئذ ان الجنود العثمانية انتصرت على الجنود الروسية
انتصاراً باهراً (فى قارص) بفضل البطل الشهير الغازى (أحمد
مختار باشا) واضطر الروسيون لرفع الحصار عن هذه المدينة .

وفى يوليو وأغسطس وسبتمبر عام ١٨٧٧، هاجمت الجنود الروسية مدينة (بلفنه) المرة بعد الاخرى وارتدوا على أعقابهم خاسرين لما أقام حولها الغازى (عثمان باشا) من المعاقل والحصون المنيعة

ولكن سوء حظ الدولة العلية قضى عليها بألا ترسل مايلزم من المدد للغازى (مختار باشا) بعد ان فقد جيشه الرجال الابطال . فسقطت منه لذلك (قارص) فى أيدى الروسيين فى شهر نوفمبر عام ١٨٧٧ . وسار بعد ذلك الجنرال الروسى (مليكوف) على (أرضروم) . أما (بلفنه) فقد أعيت معاقلها وحصونها الروسيين فحاصروها حصاراً شديدا. وشهدوا قوة الاتراك وشهامتهم وأعجب قيصر الروس نفسه بمهارة الغازى (عثمان باشا) وقوة ادراكه . وقد طالت محاصرة (بلفنه) حتى انقطع المدد عن الاتراك ونفذ كل ماعندهم من الذخائر فعزم الغازى (عثمان باشا) على الخروج من (بلفنه) مع جنوده الاشداء وفى ١٠ دسمبر عام ١٨٧٧ خرج بالفعل ومرت الجنود العثمانية من وسط الاعداء غير

خائفة نيرانهم ولا مقذوفاتهم بل جاعلة وجهتها الاستحكامات التي كان أقامها الروسيون حول (بلفنه) على ثلاثة خطوط متعاقبة واستولت على مدافع الخط الاول والثانى وكادت تستولى على الخط الثالث غير ان الغازى (عثمان باشا) وقع جريحاً فظنه قومه ميتا وانتشر خبر موته بين الجنود العثمانية فثبطت هممهم وانحلت عزائمهم . ودخل الروسيون فى هذه الاثناء (بلفنه) واضطر قواد الجيش العثمانى للتسليم والاتفاق مع قواد الجيش الروسى على ايقاف الحرب بالقاء الجيش العثمانى للسلاح وقد فقد الجيش الروسى فى محاصرة (بلفنه) ٢٨٠٨٠ رجلا وفقد الجيش العثماني ١٥٣٠٠ رجلا

ولم يعتبر رجال العسكرية فى أوروبا سقوط (بلفنه) انتصارا للروسيين على العثمانيين بل أعجب كل انسان بالعثمانيين أكثر من اعجابه بالروسيين فان الروسيين كان عددهم مائة وخمسين الف مقاتل وكان عدد العثمانيين ثلثهم أى خمسين الفا فقط . وقد أظهر القيصر اسكندر الثانى نفسه للغازى (عثمان باشا) عظيم اعجابه بدفاعه عن (بلفنه) وقال

له ان هذا الدفاع يعد من الاعمال الحربية النادرة المثال في تاريخ البشر

وبالجملة فلم تنتصر الروسيا على تركيا في هذه الحرب الا بالدسائس العديدة التي دستها ضدها في البوسنه والهرسك وفي بلاد البلقان . فقد رأى القارىء أن الدولة العلية اضطرت الى قمع ثورة عظيمة في البوسنه والهرسك ومحاربة الصرب والجبل الاسود وقمع ثورة بلغاريا مما أراق دماء كثيرة من دماء العثمانيين وأمات أبطالا من جنود الدولة وحملها الاموال والمصاريف الطائلة

ومع ان الثورة في البوسنه والهرسك وبلغاريا والحرب مع صربيا والجبل الاسود أضعفت جيوش الدولة فان هذه الجيوش الفخمة حاربت الروسيا بكل قوة وشهامة وانتصرت عليها في مواضع مختلفة . ولم تحارب الروسيا تركيا بجيوشها وحدها بل استعانت برومانيا التي قدمت لها نحو المائة الف مقاتل . ولو كانت الروسيا حاربت تركيا من بادىء الامر قبل أن تهيج البوسنه والهرسك وبلغاريا والصرب والجبل

الاسود ضدها لكانت انتصرت تركيا ولا محالة وخابت الروسيا وهزمت شر هزيمة

واذا أضاف القارىء الى ماتقدم أن تركيا كانت تضع ثقتها فى رجال من الدخلاء يعملون بأوامر الاجنبي ويعرضون بمصالح الدولة للدمار وانه كان بين قواد جيشها قائد روسى الاصل علم فضل تركيا فى انتصارها على الروسيا فى بعض مواقع مهمة

ولا بد لنا من ان نذكر للقارىء أيضا ان جنود الجبل كانت تعاكس جنود الدولة أثناء الحرب وان الصرب انضم جيشها لجيش الروسيا بعد سقوط (بلفنه) . فكانت الدولة العلية بذلك مشتغلة من كل جانب برد الاعداء عن ديارها ولم يكن لها نصير ينصرها على أعدائها بل كانت وحدها امام أعداء عديدين وكان اعتمادها على محض قوتها

*
* *

طالما ادعى أعداء الدولة العلية انها اذا فتحت بلاداً نشرت فيها لجنودها راية السلب والنهب والفتك بأهلها واذا

مرت بأرض خربتها وغيرت معالمها . فليقرأ المنصفون ماعمله
الروسيون وصنائعهم البلغاريون فى هذه الحرب مع المسلمين
الابرياء الذين لم يكن لديهم أسلحة يدافعون بها عن أنفسهم
بل كانوا آمنين مطمئنين يحسبون الحرب بشرية انسانية
لا بهيمية بربرية

وقد أتى السير اشميد برتلت في كتابه الحديث (مواقع
تساليا) علي تاريخ كثير من هذه الفظائع . وانا نذكر للقراء
الكرام شيئا منها :

لما عبر الجنرال سكوبيف نهر شيبكا فى ينايرسنة ١٨٧٧
وجد معسكرا يحتوى على مائة ألف من نساء الاتراك نازلا
بقرب هرمنلى فلم يكن من جنوده سوى انهم فتكوا بهن
وطردوهن امامهم على ثلوج نهر ميرتزا الى جبال رودب
حتى مات أكثرهن من البرد والجوع

وانا نستشهد علي هذه المعاملات البربرية واعتداء
الروسيين والبلغاريين على الابرياء من المسلمين بما جاء فى
جريدة الدالى نيوز وقد كانت اذ ذاك منتصرة للروسيا . ففى

عدد ٨ فبراير سنة ١٨٧٨؛ جاء فيها بالحرف الواحد :

ادريا نوبل فى ٢٧ يناير سنة ١٨٧٨ لمكاتبنا فى الحرب

« ان المسافة التى بين (فيلوپوپوليس) و (هرمنلى)
تبلغ سبعين ميلا قد كانت بالامس مرتعا لآلاف من العائلات
واليوم أصبحت قاعا صفصفا خاوية على عروشها ليس بها
سوى جيف الموتى وعظام القتلى وبقايا المذبوحين .فتحولت
نضارتها السابقة الى منظر مخيف وأطلال دوارس وذلك نتيجة
ماحصل من الفظائع المنكرة التى تقشعر من هولها الابدان.
ولا يمكن لاى انسان أن يتصور مهما اجتهد ان يحاول تلك
الاهوال التى وقعت فى تلك البقعة والحالة التى وصلت اليها »
وكتب هذا الكاتب نفسه :

« بينما نحن نسير من (فيلوپوپوليس) كنا نرى جثث
الفلاحين مغطاة بالثلوج ولا شك ان بعضها قدلبث على هذه
الحالة الشنيعة المحزنة أسبوعين أو ثلاثة ولم تزل آثار الدماء
على ملابس بعضهم . وهكذا كنا نسير بين رمم القتلى وآثار
الخيام والارض حولنا مغطاة بالجثث وبقايا المعسكرات كما

تغطى بالبسط والفرش وكنا نخترق صفوفا من جثث القتلى
ورمم الحيوانات مسافة لاتقل عن خمسة وثلاثين ميلا . فرأينا
نساء ملقاة فى الثلوج وأولادا وأطفالا مرماة فى البرك
ورجالا ممزقة أجسادهم مما أصابهم من الجراحات القتالة .
ورأينا الثلج محمرا من أثر الدماء المنهطلة وأظن ان أغلب
النساء متن من البرد القارص لان نضارة الحياة كانت بادية
على وجوههن فكأنهن نيام للراحة من عناء هذا العالم
ومعاملة أهله !!البربرية باسم المدنية

اما الرجال فكنت تراهم واحدا بجانب الآخر تظهر
عليهم علائم العظمة حتى مع الموت وذقونهم ملوثة بدمائهم
وأيديهم موضوعة على صدورهم كأنهم يحافظون على قلوبهم
الشريفة من أن تدوسها أعداؤهم باقدام الخيل

اما الاطفال والاولاد فهم كالنساء مات أغلبهم من
شدة البرد القارص والثلوج المتراكمة . فكنت ترى أوجههم
لطيفة بعضها باد وبعضها مغطى بالثلج وكانت تلوح عليهم
نضارة الطفولية وتظهر عليهم الطهارة والبراءة التامة كأنهم

نائمون نوما طبيعيا أو كأنما جعلت من الثلوج الناصعة البياض سرائرهم وأيديهم الناعمة البيضاء بارزة من المياه الذائبة

ولا أشك ان أمهاتهم لما رأينهم أمواتا على صدورهن من شدة البرد وان لا أمل فى عودتهم للحياة رمينهم فى الثلوج ليخففن حملهن وفارقن حشاشات أكبادهن بالرغم عنهن والدموع تسيل من عيونهن حتى اذا أدركت الخدود تحولت بردا من شدة الزمهرير

« وانى لم أشعر بيأس زائد وبلاء عظيم في حياتى الا عند مارأيت بعينى الفظائع والمصائب التى حلت على بنى الانسان . فلقد رأيت امرأة تسير بجانب طفلة تناهز العاشرة من عمرها وهما تجدان فى المسير فراراً من معاملة الروسيين وقساوتهم البربرية ولكن الابنة لم تقو على المشى لان أقدامها العارية تعبت غاية التعب من المسير على الثلج فسقطت ميتة بين أيدى أمها الحنونة ولقد داهم الام الليل بظلامه الحالك وبرده الفاتك فسقطت طريحة بجانب ابنتها

وان الطريق الى (هاسكيوى) مملوأة بجثث عديدة

وكلما مررنا على قرية رأيناها خاوية على عروشها ليس بها الا بقايا المذبوحين والمقتولين ولقد سألنا بعض البلغاريين : من قتل هؤلاء ؟ فأجابونا بصوت الشامت المسرور « اننا ونصراءنا قتلناهم شر قتلة »

أما فى هاسكيوى فكنت ترى كثيراً من الجنود التركية مقتولين وفضلا عما أصابهم من الجراح القاتلة فان فلاحى البلغار لم يشفقوا عليهم بل رجموهم بالحجارة ليفنوا عظام هؤلاء الشهداء الابطال

ولقد سألت احدى العائلات التركية من أين جاءت والى أين تسير ؟ فقالت لي انها تركت (بلفنه) من خمسة شهور مضت وهي على مثل حالها من الفقر المدقع تسير ليلا ونهارا لاغذاء لديها سوى ماتجده من لحوم الحيوانات التى تموت فى الطرق وكانت هذه العائلة مكونة من أب وأم علي صدرها طفل صغير وولد يبلغ العاشرة من العمر وكلهم حفاة عراة الارض فراشهم والسماء غطاؤهم وليس لديهم سوى بعض خرق يسترون بها سوآتهم وقدرة يطبخون فيها اللحم

وكلما سرنا خطوة بعد (هاسكيوى) رأينا مناظر أبشع وأفظع فكم رأينا امرأة وزوجها مقتولين نائمين بجانب بعضهما وطفلين بقربهما على الثلوج وشيوخا متكسرة جماجمهم وكل هذا فضلا عن خراب القرى وسلب ونهب مالا صحابها من الخيرات والاشياء النافعة . ومن المناظر التى تولد الحسرة وتحزن الفؤاد أنى رأيت شيخا هرماً من الترك ملقى على الارض وبجانبه مصحف قرآن شريف مفتوحا وملوثا بدمائه وذلك بينما كان البلغاريون يسلبون الناس أموالهم ويحملونها على عرباتهم ثم يجرونها فوق جثث القتلى لتدهس العجلات لحومهم وتفتت عظامهم وتهشم جماجمهم بلا رحمة ولا شفقة بل وبلا تأثر لمثل تلك المناظر البشعة الفظيعة فأين المدنية وأين حب الانسانية ؟ ؟ ؟

واني أقول ان عدد الذين فتك بهم البلغاريون من الابرياء الآمنين كثير جدا وقد ترك بيوتهم نحو الخمسة وسبعين ألفا هروبا من المعاملة القاسية البربرية ولكنهم لا يكادون يفرون من القتل حتى ينقض عليهم البلغاريون

ويفتكون بأغلبهم . ولم يهرب الا القليل الى بلاد الترك وانه ليحق للعالم ان يسمى الطريق بين فيلوپوپوليس وهرمنلى (طريق الموتى) لكثرة مافقد فيه من الارواح البريئة

ولقد رأينا فى طريقنا الى قسطنطينية من أمثال هذه المناظر الفظيعة كثيرا وكم رأينا أناسا من الضعفاء يسيرون سريعا لايلتفتون وراءهم خوفا من أعدائهم واذا سألتهم الى أين يسيرون لم يجيبوك من شدة ضعفهم وانتهاك قواهم كأنهم لايعرفون الى أى طريق هم سائرون . وانما غاية مايتصورون انه يجب عليهم الفرار حتى يأمنوا على أرواحهم ومن شدة فزعهم وهلعهم كانوا يتركون أمتعتهم حين تكسر لهم عربة ويفرون وحدهم

واني بينما أكتب هذه الاسطر أرى امام عينى كثيرا من العربات تغدو بأصحابها بين هضاب متراكمة من الثلج وأغلب النساء يسرن حفاة عراة خائرات القوى من الضعف والتعب

ولذلك ضوضاء يصحبها صراخ الاطفال وعويل الاولاد

وبكاء النساء وزفزفة العواصف وقرقعة عجلات العربات مما يزيد المنظر فظاعة وبشاعة ومع الاسف الزائد ان هؤلاء المساكين التعساء يروحون فريسة الظلم وليس من يرحمهم أو يشفق عليهم

وقد كتب مكاتب الستندرد الذى سارمع الدوق نيقولا وجاب الجزء الشمالى من بحيث جزيرة البلقان مانصه

« لم أترك لنفسى مجالا للتكلم عن كبائر الفظائع كما يجب ان نسميها وأقول الآن ان المتوحشين لا يفعلون مع الفارين الهاربين كما فعل البلغاريون مع جيرانهم الاتراك من القساوة البربرية والمعاملة الوحشية وما حمل هؤلاء المسيحيين على فعل هذه المنكرات سوي حب نفوسهم الخبيثة للفتك بعباد الله وظمئها الى شرب دماء جيرانهم الابرياء الذين لا سلاح بأيديهم . ولقد سمع تابع لى رجلا بلغاريا فى احدى حوانيت الخمر فى (سيستوف) يقول وهو حامل سكينة هائلة « كنت أحمل معى بندقية ولكن هذه السكينة اللطيفة أفادتنى اكثر من البندقية لانى ذبحت بها عشرة منهم كما تذبح الاغنام »

ولعمرى ان مثل هذا التغيير لا يضارعه مثيل فى القسوة والفظاعة البهيمية واني لا أشك أنهم قتلوا الضعفاء الابرياء وذبحوهم كما تذبح الاغنام . ولقد مضى شهران على الروسيين وهم مقيمون ومع ذلك لم يسمع ان تركيا أساء الى أحد المسيحيين . ومما يحكى ان ضابطا روسيا اشترى من أحد الفلاحين المسيحيين ديكين روميين بمبلغ نصف شلن ثم سأل الفلاح قائلا « أليس الناس فى سرور لمقابلة اخوانهم المسيحيين » فأجابه « فلننظر حتى نرى ان كنتم تعاملوننا كما كان يعاملنا الاتراك بالحسنى »

وقد سأل المستر ادموند قنصل انكلترا في (فيلوبوبوليس) خليل أوغلى حسين ومصطفى أوغلى عبد الله وسليمان أوغلى رشيد وهم من سكان (بالفان) التى تبعد بمسافة سير ثلاث ساعات من ترنافو عما جرى لهم من الاهانات فأجابوا بما يأتى

« فى صباح السبت الماضى (٧ يوليو) وصل ألايان من الكوساكز الى قرية (بالفان) فخرج كبارها حين

سمعوا بوصول الروسيين لمقابلة قوادها ولكن الكوساكز حاصروا القرية وطلبوا من السكان تسليم أسلحتهم وفى اليوم الثانى حضر ألايان آخران من الكوساكز وأحاطوا كاخوانهم بالقرية وكان يصحبهم فى هذه المرة عدد لا يقل عن الفين أو ثلاثة آلاف من البلغاريين الذين يسكنون القرى المجاورة وجميعهم متقلدون بالنبابيت والسكاكين والبنادق والسيوف المختلفة الاجناس فابتدأ هؤلاء الاوغاد فى طرد أهل القرية وحيواناتهم ونهب الناس وسلبهم من كل شىء يستحق الاخذ ثم أشعلوا النار في القريه فى أماكن عديدة وكلما حاول أحد الخروج من لظى النار ولا سيما الاطفال والنساء حملوا عليه وزجوه فيها

أما الكوساكز فانهم وقفوا بعيدا على شكل كوردون حول القرية غير متألمين مما يجرى امام أعينهم بل كانت علائم السرور بادية على وجوههم ولولا اننا (خليل أوغلي ومن معه) هجمنا على الكوردون بقلوب شجعها اليأس وقطعناه فى طرف القرية ماتمكنا من الفرار من لهيب النار » وكان

المتكلم هو خليل أوغلى المـذكور ولقد استمر فى حـديثه وعـلامات الحزن والاسـف بادية على وجهه ولـكنه حينما أراد أن يتكلم عما حصل لعائلته بكى بكاء مرا وصار يتنهـد كما تتنهد الشكلى ثم خنقته العبرة فلم يقدر على الـكلام وبعد مدة طويلة أمكنه أن يعبر لناعماحصل لاختيه اللتين كان يعتنى بأمرهما لان زوجيهما كانا فى الجيش وقال لنا انه رأى بعينيه عائلته وقد كانت تزيد عن احدى عشرة نسمة ترمى فى النار واحدا بعد واحد . »

ولمـا عبر الروسيون نهر الدانوب سـنة ١٨٧٧ قبضوا على نساء الاتراك وأطفالهم الذين كانوا يحاولون الهروب من وجه أعدائهم وأحضروهم الى مدينة شملا بحالة تذيب الافئدة وتقطع الاكبدة وهناك رآهم بعض مكاتبي الجرائد الاوربية فكتبوا قراراً بهذا الشأن وأمضوا عليه

ولقد أرسل وزير خارجية الدولة العلية هذا القرار الى السفارة العثمانية فى باريس بتاريخ ٢١ يوليو سنة ١٨٧٧ قائلا (انى أرسـل اليكم القرار الآتي باجمـاع وامضاءات

مكاتبي الجرائد الاجنبية الآتية وهي

(كولونيا غازت) (جرنال الديبا) (نيو فراى برسيه) (ستندارد) (دايلي تلغراف) (اللستراندلندن نيوز) (مانشستر جارديان) (التيمس) (فرانكفور ترزايتنج) (مورنن بوست) (ريببليك فرانسز) (بسترلويد) (فاينر تاجبلاط) (مورنن ادفر تيسر) (سكوتمان) (نيويورك هرالد) (منشستر اكزامنر). والقرار هو الآتي:

الممضون أدناه الذين يمثلون الصحافة الاوروبية والمجتمعون في مدينة شملا يرون ان من واجباتهم ان يمضوا الرسائل التى أرسلها كل واحد منهم الي جريدته عن القسوة البربرية التى ارتكبها ويرتكبها البلغاريون ضد السكان المسلمين الابرياء وأن يشهد كل منا اننا رأينا بأعيننا جراح النساء والشيوخ والاطفال وسألنا في مدينتى راسجراو وشملا النساء والاطفال والشيوخ عما حل بهم من الجراحات العنيفة بالسيوف والحراب فضلا عن البنادق التى ربما ظن أنها أصابتهم أثناء اشتعال نار الحرب.

ويستدل من أجوبتهم ان ماحل بهم هو من معاملة الروسيين والبلغاريين ويستنتج من كلامهم أيضا ان معظم سكان القرى من المسلمين ذبحوا كما تذبح الاغنام . ونحن الممضون أدناه نقر ان أغلب الجرحى من النساء والاطفال»

الامضاءات

وكتب مكاتب التيمس — وقد صحب هذا المكاتب الجنرال جوركو ورأى بعينه ماحل بالاتراك الابرياء — من معسكر جنوب البلقان في ١٢ يوليو سنة ١٨٧٧ مايأتى

ان هذه الحرب ليست من الحروب الانسانية بل هي هول على هول وفظائع على فظائع لان الجندى الروسى يرى التركى كحيوان يجتهد فى صيده ليقتله وأما البلغارى فكيفما تمكن من القتل قتل . وهذا هو البرنس ويتشتنستين يقول ان البلغاريين يقتلون جرحى الاتراك ويسلبون القتلى أموالهم فماذا يعمل الانسان ذو العواطف الحية حينما يرى اخوانه يتحمسون لشرب الدماء عند مايسمعون انه قبض على أسرى من الاتراك ؟ أم كيف يتسنى للابطال ان ينظروا بعين الرضى

رجالا يلوثون انتصارهم بما يركبونه من منكرات الفظائع والمذابح ؟؟»

*
* *

لما رأت الدولة العلية ان أوروبا كلها ضدها وأن لا نصير لها بين الدول وان اطالة الحرب مضرة بها طلبت من الروسيا ايقاف الحرب وعقد هدنة للمخابرة في شروط الصلح فقبلت الروسيا ذلك بغاية الامتنان وعقدت الهدنة بين المتحاربين فى (أدرنه) بتاريخ ٣٠ يناير عام ١٨٧٨ واشترطت الروسيا عند عقد الهدنة ان القواعد الاولية للصلح يجب أن تكون استقلال الصرب ورومانيا وتنازل الدولة العلية لهما وللجبل الاسود عن بعض الاراضى وجعل بلغاريا مستقلة استقلالا اداريا وجعل الادارة فى البوسنه والهرسك مستقلة وتقدير غرامة حربية تدفعها تركيا للروسيا.

وما انتشر خبر هذه الاتفاقية التى عقدت فى أدرنه بين المتحاربين حتى هاجت الخواطر فى النمسا ضد الروسيا ورأت حكومة الامبراطور (فرنسوا جوزيف) ان هذه الشروط

التى جبرت الروسيا الدولة العليـة على قبولها ماسـة بحقوقها وبمصالحها فى البلقان وعلى شواطىء نهر الدانوب فأعلنت الدول الاوروبيـة بانها تعتبر كل اتفاق يقع بين المتحاربين لاغيالاعمل له وان أوروبا كلهايجب عليها أن تجتمع فى مؤتمر للفصل بين تركيا والروسيا

أما انكلترا فقـد أظهرت عنـدئذ ميلها للدولة العليـة وتظاهرت بالمحبة والصداقة لملك آل عثمان وأرسلت بأسطولها الى مياه البوسفور وهددت الروسيا بانزال العساكر الانكليزية الى الاستانه. وسيرى القارىء الى أى غاية كانت ترمى انكلترا عندئذ وهل كانت صادقة فى تظاهرها بالمودة للدولة العلية أو غير صادقة

وقد أجابت الحـكومة الروسية على اعلان النمسا بأن ليس لاوروبا حق فى ان تتداخل فى أمور لاتمس مصالحها مطلقا وان الروسـيا تعرض على الدول عقـد مؤتمر أوروبي للنظر في شروط الصـلح . فوافق البرنس « بسمارك » علي جواب الروسيا وعرض علي الدول عقد مؤتمر ببرلين

وفى هذه الاثناء كان الجنرال « اغناتييف » يتخابر مع مندوبى تركيا فى شروط الصلح وفي ٣ مارس أمضى معهم عهدة سان اسطفانوس التى هي اكبر المعاهدات ضررا بالدولة العلية . فهى تتضمن جعل بلاد الجبل الاسود مستقلة تمام الاستقلال من الدولة العلية مع توسيع نطاقها واعطائها ثغرين على البحر الادرياتيكى وتتضمن جعل بلاد رومانيا مستقلة تمام الاستقلال وجعل بلاد الصرب مستقلة مع اضافة أراضى (نيش) الى بلادها وتتضمن جعل بلاد البلغار مستقلة استقلالا نوعيا وتعيين حاكم روسي لها ينظمها ويحكمها لمدة سنتين يكون لها بعدهما الحق فى انتخاب أمير عليها وتتضمن العهدة كذلك احتلال العساكر الروسية لبلاد البلغار مدة سنتين وهدم كل القلاع والحصون الموجودة على نهر الدانوب (الطونة) وجعل الملاحة فى نهر الدانوب حرة . وتتضمن العهدة أيضا ان الادارة في البوسنه والهرسك تكون موافقة لما طلبته الدول في مجتمع الاستانة وتوضع تحت مراقبة الروسيا والنمسا وأن أرمينيا تمنح بعض امتيازات وبعض حقوق جديدة

وان جلالة السلطان يصدر عفوا عاماً عن الثوار والمجرمين السياسيين . وتتضمن العهدة غير ذلك ان الدولة العلية تدفع للروسيا غرامة حربية قدرها ١٤٠٠ مليونا من الروبل . وقد رضيت الروسيا بأن تتنازل للدولة عن مبلغ ١١٠٠ مليونا من الروبل مقابل تنازل الدولة لها عن باطوم وأردهان وقارص وبايزيد في آسيا وعن اقليم (الدبروجه) في أوروبا . وهذا الاقليم أضيف الى مملكة رومانيا مقابل استيلاء الروسيا على اقليم (بسارابيا) الذي سلخ منها فى عام ١٨٥٦

وتشتمل العهدة على تعهد الدولة العلية برعاية الرعايا الروسيين فى بلادها ووضع حقوق القسوس الارثوذكس تحت حماية القيصر واعادة تنفيذ المعاهدات التجارية التى كانت بين الروسيا وتركيا قبل الحرب وفتح بوغازى الدردانيل والبوسفور فى كل وقت للسفن التجارية

وما علمت الدول الاوروبية بهذه العهدة حتى اعترف ساستها بان الروسيا اعتدت على حقوق الدولة العلية شر اعتداء وأن دول أوربا تفقد موازنتها ويضيع بالمرة التوازن العام اذا

أنفذت شروط عهدة سان اسطفانوس . وكانت أشد الدول تهيجا ضد الروسيا هي النمسا التي خدعت في اتفاقيتها التي عقدتها مع الروسيا في يناير عام ١٨٧٧ فخابرت انكلترا واتفقت معها على معارضة الروسيا كل المعارضة وطلبتا منها عرض عهدة سان اسطفانوس للمناقشة بين مندوبي الدول في المؤتمر المزمع عقده فاجاب القيصر في ٢٦ مارس سنة ١٨٧٨ بانه لا يرضى بأن دول أوروبا تتناقش في الشروط التي لا تخص الا الروسيا وتركيا . وقد أمل القيصر عندئذ الاتفاق مع النمسا فأرسل الى فيينا الجنرال (اغناتييف) ولكن الاتفاق كان مستحيلا لتباين أميال الروسيا والنمسا

وقد استفادت انكلترا من خيبة الجنرال (اغناتييف) في مأموريته بفيينا واعتمدت على مساعدة النمسا لها ضد الروسيا وأعلن اللورد سالسبورى وزير الخارجية الانكليزية وقتئذ أن عهدة سان اسطفانوس تجعل البحر الاسود تحت سلطة الروسيا ورحمتها وتهدد استقلال الدولة العلية وسلامتها وتضر بمصالح انكلترا. أي أن إنكلترا أرادت ان تسمع

الروسيا انها اذا صممت على تنفيذ عهدة سان اسطفانوس قامت الحرب بينهما . وكان القابض فى الحقيقة على مفاتيح السلم والحرب حينئذ هو البرنس (بسمارك) لان المانيا كانت بين الدول فى موقف الحكم فانها اذا كانت انضمت الى الروسيا كانت اضطرت النمسا الي العدول عن محاربة الروسيا وبذلك كانت فشلت انكلترا وبلغت الروسيا مرامها واذا كانت وقفت على الحياد بدون ان تساعد الروسيا وتركتها امام انكلترا والنمسا كانت خسرت الروسيا أهم مكاسبها فى عهدة اسطفانوس . وقد سألت الروسيا المانيا مساعدتها مذكرة أياها برعايتها لها ضد النمسا فى عام ١٨٦٦ ومساعدتها لها ضد فرنسا فى عام ١٨٧٠ حيث منعت النمسا من مساعدة فرنسا . ولكن البرنس (بسمارك) أبي مساعدة الروسيا بجنود المانيا معتذرا بان المانيا فى حاجة مستمرة لمراقبة فرنسا والاستعداد لمحاربتها فاغتاظ قيصر الروسيا واغتاظ سواسها أشد الغيظ من المانيا ووزيرها وابتدأت العداوة الكامنة بين الدولتين من ذلك الحين فى الظهور

ولما رأت الروسيا انه لااستطاعة لها على محاربة النمسا وانكلترا بعد محاربتها لتركيا طلبت من الوزارة الانكليزية أن تعرفها عن التغييرات التي تريد اجراءها فى عهدة سان اسطفانوس وجرت المخابرات في ذلك بين اللورد سالسبورى وبين الكونت « شوفالوف » سفير الروسيا بلوندرة . وفى ٣٠ مايو عام ١٨٧٨ أمضيا اتفاقية سرية تتضمن التغييرات التى طرأت على عهدة سان اسطفانوس ولم يكن لهذه التغييرات الجديدة التي أحدثتها الوزارة الانكليزية فى عهدة اسطفانوس أهمية لان المؤتمر الدولي كان من شأنه أن ينظر فى كل شروط الصلح وأن يقرر مايتفق عليه فيه بالاغلبية

أما فرنسا فقد كانت خطتها فى المسئلة من بادىء الامر خطة الدولة الراغبة فى السلام العديمة الاطماع فى أخذ شىء من أملاك الدولة العلية ولما عرضت عليها الدول الاوروبية الاشتراك معها في مؤتمر يعقد للفصل النهائى بين تركيا والروسيا اشترطت على الدول . أولا اشتراك كل الدول التى أمضت على معاهدة باريس عام ١٨٥٦ فى هذا المؤتمر . ثانيا

ان لا ينظر فى هذا المؤتمر الا فى المسائل المختصة بالحرب بين تركيا والروسيا . ثالثا أن لا يبحث أعضاء المؤتمر فى شؤون مصر والشام وأن لا يناقش أحد فى المؤتمر في حقوق فرنسا على الاماكن المقدسة . فقبلت الدول كلها هذه الشروط ورضيت بذلك فرنسا أن تشترك معها فى المؤتمر

وقد ظهر للقارىء مما سبق ان انكلترا كانت متظاهرة بالمودة للدولة العلية وكانت تهدد الروسيا بأعلى صوت ولسان ولم يكن قصدها من ذلك خدمة تركيا أو مساعدتها بل التغرير بها وخدعها . فانها وعدتها بالمساعدة فى مؤتمر برلين ضد الروسيا وعرضت عليها عقد اتحاد معها تتعهد فيه انكلترا بالدفاع عن تركيا اذا مستها الروسيا بسوء — ولو كانت انكلترا صادقة فى مودتها لكانت تحالفت مع الدولة العلية قبل الحرب — وتأخذ منها مقابل ذلك جزيرة (قبرص) فانخدع رجال الدولة العلية لسواس بريطانيا وأحسنوا الظن بهم وعقدوا معهم هذه المعاهدة في ٤ يونيو عام ١٨٧٨ أى قبل عقد مؤتمر برلين بايام قلائل وبذلك فقدت الدولة العلية جزيرة قبرص بدون

أن تكسبها المودة الانكليزية الكاذبة أقل فائدة

*
* *

وقد دعا البرنس بسمارك رسميا فى ٣ يونيو عام١٨٧٨ مندوبي الدول الاوروبية للاجتماع ببرلين فحضر المندوبون وعقدت الجلسة الاولى للمؤتمر فى ١٣ يونيو . وكان أهم مندوبى المانيا البرنس (بسمارك) وأهم مندوبي النمسا الكونت (اندراشى)وأهم مندوبي فرنسامسيو(وادنجتون)وأهم مندوبي انكلترا الكونت (بيكونسفيلد) والمركيز(دى سالسبورى) وأهم مندوبى ايطاليا الكونت (كورتى) . وكان مندوبو الروسيا البرنس (غورتشاكوف)والكونت(شوفالوف) والبارون (دوبريل) . أما مندوبو الدولة العلية فكانوا (قره تيودورى باشا) و (ومحمد على باشا) الروسى الاصل و(سعد الله بك)

وقد أرسلت حكومة اليونان مندوبين من قبلها لعرض مطالب اليونان على المؤتمر وكان مندوبو انكلترا مساعدين لهم كل المساعدة فطلبوا من المؤتمر قبولهم لسماع أقوالهم .

وكان قصد مندوبي انكلترا من هذه المساعدة معاكسة الروسيا التي يسوءها تقوية العنصر اليوناني لما في ذلك من الضرر بالعنصر السلافي . وكأن مندوبي انكلترا كانوا يجهلون ان مساعدتهم لليونان تضر بالدولة العلية أكثر من ضررها بالروسيا . ولكن مصالح الدولة العلية كانت لا تهمهم مطلقا بعد ان تحققت أمنيتهم بالاستيلاء على (قبرص) !

وكانت تنحصر مطالب اليونان في اظهار ضرورة استيلائها على تساليا وأبيرا وألبانيا وكريت . وقد قرر المؤتمر قبول مندوبي اليونان في آخر جلسات المؤتمر وسماع مطالبهم

وأول مناقشة دارت بين أعضاء المؤتمر كانت على مسئلة بلغاريا واستغرقت أربع جلسات . وقد انتهت المناقشة باتفاق أعضاء المؤتمر — بالرغم من معارضة مندوبي الروسيا - على جعل مساحة بلغاريا أقل بكثير مما اتفقت عليه الروسيا مع الدولة العلية في سان اسطفانوس بجعل حدودها عند جبال البلقان واعطائها (صوفيا) كعاصمة لها مع بعض الاراضي في جنوب البلقان . وقرر المؤتمر بذلك جعل مساحتها ٦٤٠٠٠

كيلومتر مربعا بعد أن كانت فى اتفاقية سان استفانوس
١٦٣٠٠٠ كيلو متر مربع . وصار عدد سكانها مليونا ونصف
مليون بعد ان كان في عهدة اسطفانوس أربعة ملايين. وبذلك
بقيت سواحل الارخبيل في أيدى الدولة العلية خلافا لشروط
عهدة اسطفانوس . وقرر المؤتمر جعل احتلال الجنود الروسية
لبلاد بلغاريا لمدة تسعة أشهر فقط لا لسنتين كما قررته عهدة
اسطفانوس وجعل تنظيم بلغاريا تحت مراقبة لجنة دولية لا
تحت مراقبة مندوب روسى

وقرر المؤتمر كذلك انشاء ولاية جديدة في جنوب البلقان
بين مقدونيا وأدرنه تكون عاصمتها مدينة (فيليبوبوليس)
وتسمى بالروملي الشرقى وتكون ادارتها الداخلية مستقلة
وأن لا يجوز للجنود العثمانية أن تقيم فى داخلها بل يكون لها
الحق فقط فى الدفاع عن حدودها . ولم يرض أعضاء مؤتمر
برلين تسمية الروملي الشرقى ببلغاريا الجنوبية ولكنهم كانوا
يرمون ولا محالة الى ضم هذه الولاية الجديدة الى بلغاريا
بعد زمن قليل من عام ١٨٧٨

ولما دارت المناقشة بشأن (البوسنه والهرسك) قام الكونت (اندراشى) مندوب النمسا وقرأ تقريراً طويلاً أبان فيه أن بقاء هاتين المقاطعتين تحت يد الدولة العلية أى تحت حكم المسلمين يكون سبباً لاستمرار الاضطرابات والثورات فيهما وأظهر ما فى ذلك من الضرر بمصالح الدولة النمساوية وما انتهى من كلامه حتى وقف الماركيز (سالسبورى) وأيد أقواله وسأل المؤتمر تقرير احتلال الجنود النمساوية لمقاطعتى البوسنه والهرسك احتلالا لا أجل له . وهكذا ساعدت انكلترا الدولة العلية وبرهنت لها على صدق اخلاصها !. . . ! وقد احتج مندوبو تركيا على هذا السؤال الغريب فأجابهم البرنس بسمارك — الذي كان الموعز للكونت (اندراشى) وللماركيز (سالسبورى) بما طلباه — بأن الغرض من مؤتمر برلين ليس رعاية المصالح العثمانية بل رعاية مصالح أوروبا والمدنية !.... ! وقد اتفق مندوبو المؤتمر بالاغلبية على جعل البوسنه والهرسك تحت حكم النمسا واعطائها حق احتلال أقليم « نوفى بازار » . وهو أقليم على طريق سالونيك

وبعد ذلك نظر المؤتمر فى مسئلة الصرب والجبل الاسود فأعلن استقلالهما تمام الاستقلال وقرر اعطاءهما بعض الاراضى لتوسيع نطاقهما ولكن أقل مما قررته عهدة اسطفانوس. وفى ذلك الوقت قرر المؤتمر سماع مطالب اليونان فدخل المسيو « ديليانيس » والمسيو « رانجابيه » وقرأ الاول مطالب حكومته وهي تشتمل على اعطاء اليونان ألبانيا وأبيرا وتساليا وكريت. فاتفق أعضاء المؤتمر على تقرير جعل المناقشة فى مطالب اليونان بين اليونان والدولة العلية نفسها وعلى انه اذا لم يحصل الاتفاق بين الحكومتين على تحديد حدود جديدة بينهما يعرض الامر عندئذ على الدول الاوروبية وأقروا على تنظيم المقاطعات اليونانية الباقية تحت حكم الدولة العلية على نسق الروملي الشرقى وجعل تنظيمها تحت مراقبة اللجنة الدولية

ولما جاءت مسئلة رومانيا أعلن المؤتمر استقلال هذه البلاد كصربيا والجبل الاسود وقرر المساواة التامة بين كل أهاليها على اختلاف دياناتهم . وهذا القرار جاء مفيدا جدا

لليهود الذين أساءت اليهم حكومة رومانيا في معاملتها معهم كما أساء اليهم أهلوها كل الاساءة . وقد سمع المؤتمر مندوبى رومانيا « المسيو براتينو والمسيو كوجو لنيسانو » كما سمع مندوبي اليونان فطلبا منه عدم تقرير سلخ أى جزء من أراضى رومانيا وعدم مرور الجنود الروسية في بلادهم وأن يقرر أن الروسيا تدفع غرامة لرومانيا مقابل ماتكبدته من الخسائر أثناء الحرب . ولكن المؤتمر لم يستطع قبول هذه الطلبات لما فيها من المساس بمصالح الروسيا واكتفى بتقرير اعطاء رومانيا ألفى كيلومتر مربع فى أقليم الدبروجة

وقد نظر المؤتمر بعد ماتقدم فى مسئلة الملاحة فى نهر الطونة فقرر بقاءها على ماكانت عليه قبل الحرب ومنح النمسا بعض امتيازات . وقرر المؤتمر فى مسئلة الغرامة الحربية عدم جواز استبدالها بأراض أو ببلاد عثمانية واعتبار الروسيا آخر دائن لتركيا أى أنه لايجوز لها أن تتقدم فى المطالبة بالغرامة الحربية قبل الدائنين السابقين لتركيا

أما ما يتعلق بالمسيحيين فى الدولة العليـة فقـد صرح

مندوبو تركيا بأن دولتهم تحترم كل الديانات فى بلادها وتعامل رعاياها على السواء فقرر المؤتمر جعل المساواة فى الحقوق بين المسلمين والمسيحيين تامة وجعل المسيحيين فى بلاد الدولة العلية تحت حماية أوروبا المعنوية

ولم يبق امام المؤتمر بعد المسائل السالفة الذكر الا مسئلة استيلاء الروسيا على بعض بلاد ومواقع فى آسيا فتعهدت الروسيا بالتنازل عن مدينة (بايزيد) للدولة العلية مقابل تنازل الدولة عن مدينة « خوتور » للعجم وتعهدت كذلك بعدم تحصين ثغر (باطوم) وجعله ثغراً حراً للتجارة . وقد قرر المؤتمر أيضاً ان الاصلاحات المزمع اجراؤها فى أرمينيا تعرض على الدول الاوروبية كافة وان حرية بوغازى البسفور والدردانيل تبقى كما قررته معاهدة باريس عام ١٨٥٦ ومعاهدة لوندره عام ١٨٧١

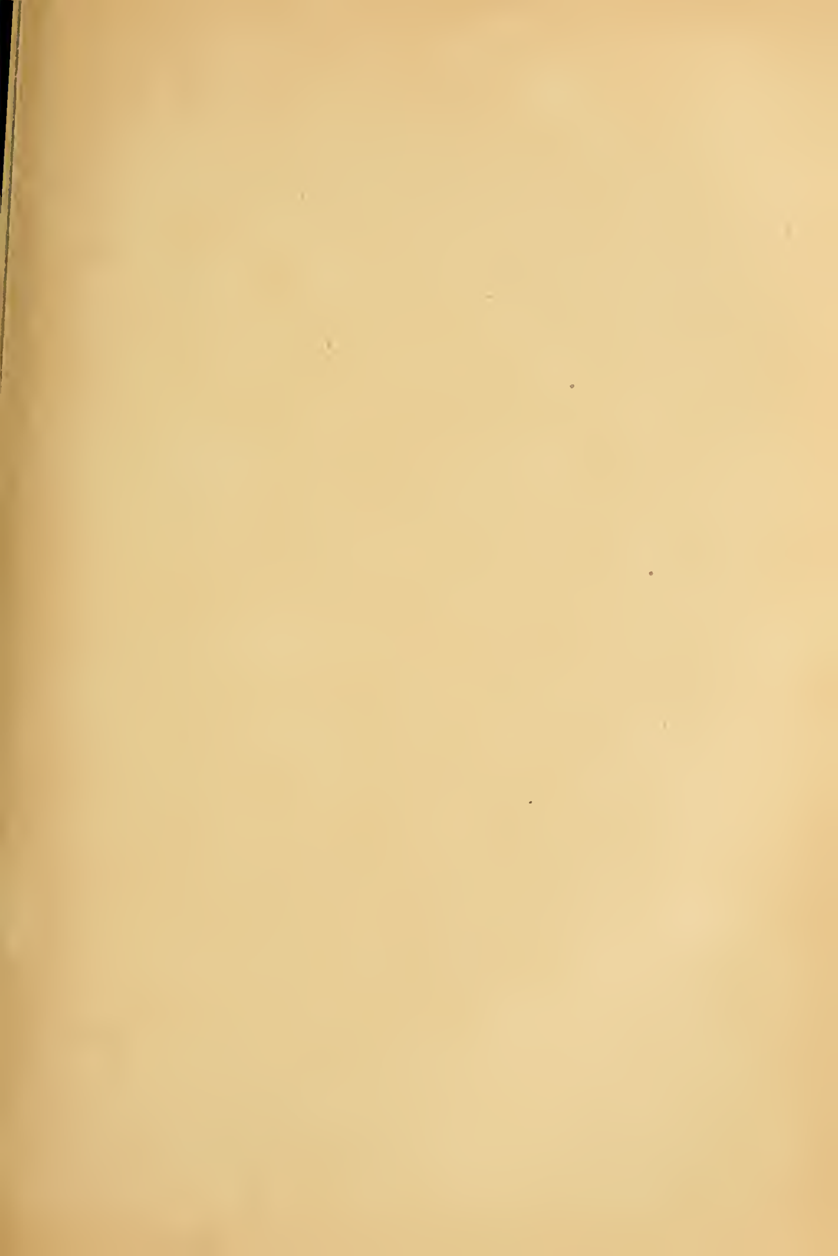
ولما رأى مندوبو انكلترا ان أعمال المؤتمر قد انتهت وان الساعة آذنت باعلان استيلاء دولتهم على جزيرة (قبرص) أعلن الكونت (دي بيكونسفيلد) ذلك فى ٨ يوليو عام

١٨٧٨ لاعضاء المؤتمر فاندهش مندوبو الروسيا غاية الاندهاش وتحقق العالم كله ان انكلترا قد خدعت الدولة العلية اكبر خدعة وانه خير لها أن تعتمد على ألد أعدائها من أن تعتمد على دولة الانكليز . ولم يندهش البرنس (بسمارك) ولا الكونت (اندارشى) من اعلان الكونت (دى بيكونسفيلد) استيلاء انكلترا على قبرص لانهما كانا عالمين بالامر ولم يعارضا فيه لتعهد (بيكونسفيلد) بمساعدتهما في تقرير استيلاء النمسا على (البوسنه والهرسك)

وقد طلب البرنس (غورتشا كوف) مندوب الروسيا قبل انفضاض المؤتمر تقرير الوسائل الفعالة التى تستطيع بها دول أوروبا اجبار تركيا على تنفيذ قرارات مؤتمر برلين واستمرت المناقشة فى هذا الطلب ثلاثة أيام ولكنها انتهت برفضه وخرج البرنس (غورتشا كوف) من موءتمر برلين منهزما شر هزيمة سياسية

وفى ١٣ يوليو عام ١٨٧٨ أمضى مندوبو المؤتمر على معاهدة برلين وانتهت بذلك جلسات المؤتمر





المسئلة الشرقية

﴿ تأليف المرحوم ﴾

مصطفى كامل باشا

الجزء الثاني

﴿ الطبعة الثانية ﴾

مطبعة اللواء بشارع الدواوين بمصر

بسم الله الرحمن الرحيم

(تابع الازمة الرابعة)

﴿ مابعد الحرب ﴾

(بين الدولة والروسيا)

لقد فقدت الدولة العلية مالم تفقد مثله فى حرب أخرى ولم ير العالم من يوم تقسيم بولونيا واتحاد الدول ضد فرنسا عام ١٨١٥ اعتداء على حقوق مملكة مثل مارأى عام ١٧٨٨، فان دول أوروبا كلها كانت ضد الدولة العلية وكانت كل واحدة منها تعمل للاستيلاء على شيء من أملاكها . وماضر الدولة العلية الا حسن ظنها بدولة انكلترا فانها عملت بنصائحها واتبعت آراءها ورفضت مطالب أوروبا فى مؤتمر الاستانة مؤملة مساعدة انكلترا لها وقت قيام الحرب. مع أن مطالب الدول فى مؤتمر الاستانة كانت لاتعد شيئاً مذكورا اذا

قورنت بقرارات الدول فى مؤتمر برلين . ولو كانت الدولة العلية سمعت أصوات الذين كانوا ينادونها بان دولة انكلترا خداعة في ودها لا تعمل الا لمنفعتها وتضحى كل مودة وكل صداقة في سبيل الوصول الى غاياتها لكانت نجت من المصائب الجسام التى أسقطت عليها بسبب الحرب وبعدها

وان الانسان ليندهش غاية الاندهاش من ان الدولة العلية آمنت بالانكليز بعد انتهاء الحرب وبعد خداعهم لها وأعطتهم (قبرص) مؤملة مساعدتهم لها فى مؤتمر برلين . بل ويزداد اندهاشه واستغرابه ويقف حيران عند ما يعلم أنه بقى للانكليز نفوذ عند الدولة وكلمة مسموعة بعد مؤتمر برلين نفسه . نعم ان نفوذ الانكليز فى الاستانة لم يبق طويلا بعد مؤتمر برلين ولكنهم استطاعوا ان يخدعوا الدوما بأقبح صفة وأسفل وسيلة فى مسئلة مصر

ومن غرائب الامور ان الكونت (دي بيكو نسفيلد) لم يخجل من أن يقول امام البرلمان الانكليزى بعد عودته من مؤتمر برلين ان هذا المؤتمر قوي سلطة الدولة العلية وأيد

استقلالها وسلامتها

وعندى أن سبب وثوق الدولة العلية وقتئذ بانكلترا وانخداعها لها هو ما كان للدخلاء فيها من السلطة والنفوذ وبعبارة أصرح وأجلى ان سبب مصائب الدولة العلية هو انتشار الدخلاء فى جسمها . فقد رأى القارئ فى خلال هذا الفصل ان رجلا روسى الاصل اسمه الحقيق (شارل دترا) استطاع ان يصل الى رتبة قائد عثمانى وان يستلم زمام الجنود العثمانية بدل البطل العثمانى المشهور المرحوم (عبد الكريم باشا) . نعم الاصل فى اضمحلال الدولة العلية الدخلاء . وكيف تستطيع هذه الدولة الارتقاء فى المدنية والحضارة والتقدم الى الامام والانتصار على خصومها ومصالحها بأيدى الدخلاء تدبر كيف يشاؤون وكما تقتضى الغايات والاهواء فقد كانت مصالحها مسلمة في مؤتمر برلين الى (قره تيودورى باشا) اليونانى (ومحمد على باشا) أو (شارل دتروا) الروسى ؟؟

ولا ريب ان اكبر عمل يقوم به جلالة السلطان الاعظم (عبد الحميد خان) نحو الدوله والملة انما هو تطهير الدولة من

الدخلاء والاعتماد فى كل أمور الدولة وفي الجيش قبل كل شيء على العثمانيين الحقيقيين . فكم من عثماني وكم من مسلم كان يقضى الليل والنهار أيام الحرب العثمانية اليونانية قلقا خائفا وجود دخيل في الجيش يخونه ويعرض به للانهزام . ولكن (أدهم باشا)ورجاله برهنوا على ان الخليفة الاعظم معتمد في أمور الدولة على أبنائها الحقيقيين الصادقين وأن ليس للدخلاء اليوم من نفوذ في الدولة

رأى القارئ ان الحرب مع الروسيا قامت فى عام ١٨٧٧ بسبب بلاد البلقان . فكان من الواجب على أوروبا ان تجعل مرمى أنظارها تأييد الامن والسلام فى هذه البلاد وتوطيد أركان السكينة فيها. ولكن قرارات مؤتمر برلين ولدت البغضاء والشحناء بين أمم البلقان وبين بعضها وأوجدت أسباب العداوة والكراهة المستمرة . فان رومانيا عادت الروسيا وقلبت لها ظهر المجن بعد مؤتمر برلين لاعتداء هذه الدولة عليها وعدم اعترافها لها بالجميل على مساعدتها لها بالمال والرجال.واشتدت كذلك كراهة الصرب والجبل الاسود

لمملكة النمسا بسبب استيلاء هذه المملكة على البوسنه والهرسك مع طموح أنظار كل من هاتين الامارتين الى الاستيلاء عليهما . وأخذت بلغاريا بعد مؤتمر برلين تستعد لضم الروملي الشرقى اليها وتكوين وحدتها بالرغم من قرارات الدول ولو أدى ذلك الى الاضطراب والحرب . وأخذت اليونان كذلك تستعد للاستيلاء على تساليا وأبيرا ولو اضطرت الى استعمال القوة واشعال نيران الحرب . فصارت بذلك بلاد البلقان بعد مؤتمر برلين مضطربة الاحوال لا تعرف السلم ولا السلم يعرفها

وقد كانت الروسيا تعمل لسلخ بلاد البلقان من الدولة العلية أملا منها في نشر سيطرتها عليها وتسييرها حسب أهوائها ولكنها تحققت بعد مؤتمر برلين أنها أوجدت بنفسها أعداء لها فى البلقان وانه يستحيل عليها استخدام هذه البلاد الناشئة فى سبيل أغراضها . وبلاد بلغاريا نفسها التى بذلت الروسيا أقصى مجهوداتها فى جعلها مستقلة وضم الروملى الشرقى اليها اتبعت طويلا سياسة مخالفة لمقاصد الروسيا حينما كان

(ستامبولوف) قابضاً على أزمة الوزارة البلغارية

ولقد كان الشأن الاول في حوادث هذه الازمة التى نحن بصددها للبرنس (بسمارك) فانه هو الذى شجع الروسيا في بادىء الامر وهو الذى كان يرشد النمسا فى سياستها وهو الذى كان له الصوت الاعلى والرأى الاول فى مؤتمر برلين . وبالجملة هو الذي خلق أغلب البلايا التى نزلت بالدولة العلية فى هذه الازمة الشديدة . وما كان عاملا الا لمصلحة بلاده وخير وطنه شأن سائر عظماء الرجال . فانه رأى فى مبدأ الازمة أن الروسيا طامعة في ضم أملاك تركيا اليها وحل المسئلة الشرقية بابتلاع الدولة العلية ورآها مؤملة مساعدة ألمانيا لها مكافأة على رعايتها لها فى عامي ١٨٦٦و١٨٧٠ ضد النمسا وفرنسا . وسبق أننا بينا ان الروسيا والمانيا والنمسا كانت متفقة اتفاقا ثلاثياً فأدرك البرنس (بسمارك) انه اذا وقف فى وجه الروسيا من بادىء الامر وعارضها في أغراضها أمكن لهذه الدولة أن تتحد مع النمسا وان تضم اليهما فرنسا وتؤلف اتحادا ثلاثيا ضد المانيا . وكان من الامور البديهية عند

البرنس (بسمارك) ان مصلحة المانيا تقضي عليها بالمحافظة على استقلال الدولة العلية لتبقى الى الأبد شغلاشاغلا للروسيا ومانعا حصينا أمامها وسببا قويا للمشاكل بينها وبين انكلترا مما يمنع الروسيا من الاعتداء على المانيا. فكانت مصلحة المانيا تحتم على البرنس (بسمارك) أن لا يقف أمام الروسيا في بادىء الامر وان لا يساعدها كل المساعدة ضد الدولة العلية . فلذلك شجع الروسيا عند ماقامت ثورة البوسنه والهرسك واضطربت الاحوال في البلقان . ولكنه رأى ان الروسيا ستسخط عليه ولا محالة بعد انتهاء الحرب لعدم مساعدته لها حسب مرامها ووجد من صالح دولته ايجاد العداوة بين الروسيا والنمسا والاتحاد مع هذه الدولة الاخيرة اتحاد يضمن لالمانيا السلام وعدم اعتداء الروسيا عليها . فاخذ يحرض النمسا بكل الوسائل على الاهتمام بمسائل البلقان ومنافسة الروسيا . ومن حسن حظه ان امبراطور النمسا كان ميالا للاستيلاء على بعض أملاك تركيا لتوسيع نطاق مملكته التي استولت المانيا على مقاطعتين منها وانفصلت عنها ايطاليا تماما فوجدت نصائح

(بسمارك) لدى سواس النمسا آذانا صاغيـة واستعدادا تاما لقبولها . وبذلك استطاع بسمارك ايجاد العداوة والبغضاء بين النمسا والروسيا

ولما انتهت الحرب وتحققت أفكار (بسمارك) وصار سواس الروسيا وسواس النمسا على طرفي نقيض في الاميال والآراء ساعد رجل السياسة الالمانية دولة النمسا على الاستيلاء على البوسنه والهرسك حتى تقرر ذلك في مؤتمر برلين وازداد حنق الروسيا على النمسا . ولم يمض زمن قليل بعد المؤتمر حتى اتحدت النمسا والمانيا وتم فوز (بسمارك) في سياسته الماهرة

وقد رأى (بسمارك) ان ما بين ايطاليا وفرنسا من الروابط المتينة والعلائق التاريخية ربما أدى الى عقد تحالف بين هاتين الدولتين يكون بانضمام الروسيا اليه تحزبا دوليا ضد المانيا والنمسا وأن لا سلامة للتحالف الالماني النمساوى لا بانضمام ايطاليا اليه فأوعز الى سواس فرنسا بالاستيلاء على (تونس) لتقوية السلطة الفرنساوية في شمال أفريقا .

وكان (بسمارك) يعلم ان لسواس فرنسا وقتئذ ميلا شديدا للاستيلاء على البلاد التونسية كما انه كان يعلم علم اليقين ان تقوية نفوذ فرنسا في تونس يضر بالمصالح الايطالية ضررا عظيما ويوجد عداوة لدودة بين فرنسا وايطاليا

وما علم سواس فرنسا بأن المانيا ترى بعين الرضى تقوية السلطة الفرنساوية في (تونس) حتى قرروا ارسال حملة على البلاد التونسية لفتحها ورفع الحماية عليها وانتهى الامر برفع حماية فرنسا على هذه البلاد العثمانية التعسة الحظ وسقوطها فى أيدى دولة أوروبية. وقد بلغ (بسمارك) بهذه الحماية غايته التى كان يسعى اليها حيث استحكمت العداوة بين فرنسا وايطاليا وانضمت ايطاليا الى التحالف الالماني النمساوى تشفيا من فرنسا وانتقاما منها

ولما تم تشكيل التحالف الثلاثى اجتهد البرنس (بسمارك) فى تحسين علائق دولته مع الدولة العلية وتقوية نفوذها فى الاستانة . وهكذا اقتضت مصلحة بلاده أن يعمل ضد الدولة العثمانية ويساعد الدول الاخرى على سلبها أملاكها ثم يعود

الى التقرب منها بعد ذلك لتمتنع الروسيا عن الاعتداء على المانيا ولكى يزداد نفوذ المانيا في الشرق وتتقدم فيه تجارتها

ولقد تنبهت الروسيا الى سياسة (بسمارك) وحولت أنظارها نحو فرنسا وعملت على تمكين المودة بينها وبين الجمهورية الفرنسوية حتى لا تكون الكلمة فى أوروبا لالمانيا وحدها. ويمكننا أن نقول أن الحجر الاول لاساس التحالف الفرنساوى الروسى قد وضع عقب مؤتمر برلين

أما علاقات الروسيا مع انكلترا فقد تكدر صفاؤها بعد مؤتمر برلين وأيقن سواس الروسيا ان كل حروب دولتهم مع الدولة العلية لا تفيد غير انكلترا أحدا . فان لهذه الدولة مصلحة تبقى ما بقى الوجود فى ان الروسيا تحارب تركيا لتضعف كلتاهما فتبقي لها السيادة فى الشرقين الادنى والاقصى كما أن لها مصلحة أبدية فى وجود العداوة بين فرنسا والمانيا لتبقى صاحبة الكلمة النافذة في أوروبا

وقد أوجدت عداوة الروسيا لانكلترا وعداوة تركيا لانكلترا بعد مؤتمر برلين تقربا بين الروسيا والدولة العلية

وتحسينا عظيما فى روابطهما . فان الروسيا تبقى مصافية للدولة العلية ما دامت وجهة سياستها التقدم فى الشرق الاقصى والعمل على اسقاط نفوذ انكلترا فى البلاد الأسيوية. وتزداد هذه المصافاة كلما ازدادت العداوة بين الدولة العلية وانكلترا فان الدولتين الواقفتين امام بعضهما فى كل أزمات المسئلة الشرقية انما هما انكلترا والروسيا حتى صح ان تسمى المسئلة الشرقية بمسئلة الخلاف بين انكلترا والروسيا فى الشرق . فاذا ظهرت انكلترا نصيرة تركيا اشتدت العداوة بين تركيا والروسيا واذا ظهرت انكلترا بمظهر عدوة تركيا تمكنت المحبة بين تركيا والروسيا .

واني لا أجهل أن الروسيا بعد مؤتمر برلين اجتهدت كثيرا فى ضم الروملي الشرقى الى بلغاريا وتقوية نفوذها الدينى والسياسى فى بلاد البلقان ولكن العالم كله رأى تغير السياسة الروسية نحو الدولة العلية في هذه السنين الاخيرة وخصوصا فى المسئلة الارمنية وفي مسئلة الحرب بين الدولة العلية واليونان

وانه لا يمكننا ان نجزم بأن السياسة الروسية تبقى أبد الدهر مصافية للدولة العثمانية . فان الدول كلها تسير سياستها على حسب ما تقتضيه مصالحها ومنافعها . فهذه المانيا حاربت النمسا واخذت منها مقاطعتين عظيمتين ثم اتحدت معها . وهذه ايطاليا ثارت ضد النمسا وانفصلت عنها ثم اتحدت معها ونسيت مساعدة فرنسا لها وعادتها بعد ان كانت أول دولة وفية لها . وهذه فرنسا حاربت الروسيا فى حرب القرم ثم صارت الان متحدة معها . وهكذا شأن الدول كلها لا تخدم الا مصالحها ولا تعمل الا لمنافعها فان اتحدت المصلحة اتحدت الدول وان اختلفت افترقت

ومما لا مراء فيه ان للروسيا وتركيا مصلحة مشتركة ضد انكلترا ويمكن لكل انسان ان يجزم بان العلائق بين الدولة العلية والروسيا تبقى ودية حبية ما دامت السياسية العثمانية لا تخدم المصالح الانكليزية والاغراض البريطانية . وقد أدرك سواس بريطانيا هذه الحقيقة حتى ذهب بعضهم الى القول بان ثورة الهند الحاضرة مدبرة بالاتفاق بين تركيا والروسيا

ولا ريب ان المستقبل سيعرفنا عمر سياسة مصافاة الروسيا للدولة العلية والخطة التى ستتبعها كل دولة نحو آل عثمان

﴿ مابعد مؤتمر برلين ﴾

ظهر للقارىء من الفصل السابق ان مؤتمر برلين أوجد فى بلاد البلقان أسباب الاضطراب ودواعي الهيجان ونزيد الان انه لم يمض زمن يسير بعد المؤتمر حتى نزعت كل أمة من أمم البلقان الي تكدير السلم بالمطالبة بأشياء جديدة. وقد عرفت هذه الامم ان أوروبا مساعدة لها فى كل أمر فازدادت لذلك أطماعها وكبرت آمالها

وقد رأى القارىء ان مؤتمر برلين قرر تأسيس ولاية جديدة فى جنوب بلغاريا تسمي بالروملي الشرقى وتكون تابعة للدولة العلية مباشرة . وقرر احتلال الجنود الروسية لهذه الولاية مع امارة بلغاريا مدة تسعة أشهر . ولما كانت الوحدة الدينية هي سبب تداخل الروسيا فى بلاد البلقان وهى الرابطة القوية المتينة التى تربط الروسيين بالبلغاريين عمل

الروسيون مدة احتلالهم لاقليم الروملي الشرقي على اهاجة خواطر أهله ضد الدولة العلية وحثهم على الاتحاد مع بلغاريا لتكوين امارة واحدة . وبالجملة زرعوا بأيديهم بذور الهيجان والثورة مؤملين أنهم اذا غادروا الاقليم وجاءت الجنود التركية لاحتلال هذه البلاد العثمانية فوجدتها ثائرة مطربة مشتعلة نيران الفتنة فى كل أنحائها اضطرت أوروبا للتداخل فى الامر وتكليف الروسيا باحتلال أقليم الروملى الشرقى مرة ثانية أو اعلان انضمامه لامارة بلغاريا

ولما اقترب ميعاد انجلاء العساكر الروسية من بلاد الروملى الشرقى أرسلت الروسيا الى الدول الاوروبية مذكرة استلفتت فيها أنظارها الى أن رجوع العساكر العثمانية الي هذا الاقليم قبل تنظيمه واصلاحه يكون سببا لايجاد القلاقل والاضطرابات وعرضت عليها فى هذه المذكرة مد أجل اللجنة الدولية المكلفة بتنظيم بلغاريا والروملى الشرقى سنة كاملة بعد انقضاء الاجل الاول وارسال جيش مختلط أوروبى لاحتلال الروملى الشرقى هذه السنة. وكانت الروسيا تعلم ان

دول أوروبا لا تقبل ارسال جنودها الى بلاد الروملى الشرقى وصرف المصاريف الطائلة بغير نفع لها فكانت تقصد فى الحقيقة بمذكرتها استمرار احتلال جنودها لهذا الاقليم سنة كاملة بعد التسعة الاشهر الاولى. ولكن الباب العالى أجاب على هذه المذكرة بأن استمرار احتلال الجنود الروسية أو الاوروبية لاقليم الروملى الشرقى من شأنه اضعاف سلطة الدولة العلية فى نظر أهالى هذه البلاد والاخلال بقرارات مؤتمر برلين وتشجيع أمم البلقان على مخالفة هذه القرارات الدولية مما تكون نتيجته اشتعال نار الاضطرابات في بلاد البلقان والاضرار بالسلام العام فى أوروبا. وهي ملاحظات حقة عادلة أحلتها بعض الدول محلها من القبول ولكي يظهر الباب العالى اعتداله أعلن الدول الاوروبية بأنه عازم على تعيين « اليكو باشا » واليا على أقليم الروملي الشرقي وهو رجل بلغاري الاصل ارثوذكسى الدين

ولكن بذور السوء والبؤس قد ألقيت فى أرض خصبة فى العداوة للدولة العلية فلم تمهل العالم الا قليلا حتى انتجت

الشرور وقام أهلها فى وجـه صاحب السيادة الشرعية عليهم
وماتعين « اليكو باشا » والياً على الروم‌للي الشرقي حتى
أقبلت عليه المصاعب والمشا كل — وكان ولا شـك يسر في
الباطن بها ويقبل هـو كذلك عليها — فطلب منه الاهالى
المسيحيون عدم رفع الراية العثمانية على قلاع الاقليم وأن لا
يضع على رأسه الطربوش أبداً حتى فى الاحتفالات الرسمية
فلما رأت الدول ذلك سألت الروسيا أن تأمر أهالى
الروم‌للى الشرقى بالركون الى السكينة والانصياع لقرارات
مؤتمر برلين فأجابت الروسيا سؤال الدول ولكنها اشترطت
عدم رجوع الجنود العثمانية الى هذه البلاد . فطلبت أوروبا
ذلك من الدولة العلية وهددتها بعدم مخالفة طلبها . وهكذا
شأن أوروبا مع الدولة العلية تسمح لرعاياها المسيحيين باتيان
كل أمر فظيع وكل مخالفة ضد السلطة الشرعية وعندما تريد
الدولة العلية أستعمال سلطتها الشرعية وحقوقها المعترفة بها أوروبا
نفسها تمنعها كل المنع وتهددها بسائر أنواع التهديد ! ! !
ويدرك القارىء من نفسه أن أشارة الروسيا على أهالى

الروملي الشرقي بالخلود الى السكينة لم تكن الا أشارة قضت بها الحوادث والظروف والا فسياسة الروسيا في بلاد البلقان بعد مؤتمر برلين بقيت واحدة ثابتة ترمي الى ضم الروملي الشرقي لامارة البلغار

*
* *

وقد سلمت الدولة العلية اتباعا لقرارات مؤتمر برلين قلعتي (بوز) و (بودجورتزا) من بلاد البانيا لامارة الجبل الاسود ولكن حكومة الجبل الاسود لم ترض بنصيبها الذى قرره لها مؤتمر برلين بل صرحت على لسان جريدتها الشبيهة بالرسمية « جلاس تشرنا جورسا » انها تنتظر الفرص المناسبة للاستيلاء على ما تراه ضروريا ولازما لامارتها

أما الالبانيون فقد أحدث ترك الدولة العلية لموقعي « بوز » و (بود جورتزا) تأثيرا هائلا عندهم وهاجهم ضد حكومة الجبل الاسود فقاموا ضدها وأعلنوا العداء لها ورفعوا راية العصيان في وجهها ولم يمض الا زمن يسير حتى اشتعلت نيران المعارك الدموية بين جنود الجبل الاسود وبين أبطال

ألبانيا . وكانت الدولة العلية قد سحبت جنودها من البلاد الالبانية المتنازل عنها للجبل الاسود فلما هاج أهلها ادعت حكومة الجبل الاسود أن الدولة العلية هي المحرضه لهم وانها أخلت البلاد المتنازلة عنها قبل الميعاد . ولكن الحقيقة التى لامراء فيها هي أن الالبانيين قوم شديدو التمسك بعرى الولاء للدولة العلية ولا يرضيهم أن يكونوا تحت سلطة حكومة أخرى

ولما خابت حكومة الجبل الاسود فى قمع ثورة الالبانيين استنجدت بأوروبا فأرسلت الدول الاوروبية للدولة العلية بلاغا سألتها فيه احتلال البلاد المتنازل عنها للجبل الاسود وقمع الثورة فيها ثم تسليمها بعد ذلك الى امارة الجبل الاسود... فأهملت الدولة العلية طلب الدول وتركت الالبانيين يدافعون عن بلادهم أشرف دفاع ويطردون جنود الجبل الاسود منها وقد كانت انكلترا في هذه المسئلة اشد الدول تظاهرا بالعداوة لتركيا فعرضت على الدول الاوروبية اعطاء ثغر (دولسينيو) لامارة الجبل الاسود . ولكن الدولة العلية صممت على المعارضة واحتلت أعالي مدينة (دولسينيو) . فلما رأت ذلك

انكلترا عرضت على الدول الاوروبية عمل مظاهرة بحرية في المياه العثمانية تهديدا للدولة العلية

وفى ٣ أغسطس عام ١٨٨٠ أرسلت الدول الاوروبية بلاغا للدولة العلية طلبت منها فيه العمل على اعطاء ثغر (دولسينيو للجبل الاسود فى مدة ثلاثة أسابيع أو الاشتراك مع الدول فى عمل مظاهرة بحرية أمام ثغر (دولسينيو) لارهاب اهله واجبارهم على التسليم . فاجاب الباب العالي في ١٩ أغسطس بان الدولة العلية لاتستطيع اعطاء ثغر (دولسينيو) للجبل الاسود الا اذا بقيت مالكة لمدينتى (دينوش) و (جرودا) وبانها تطلب بعد ذلك أجلا أطول من ثلاثة أسابيع لتسليم (دولسينيو) للجبل الاسود.

وقد أشيع وقتئذ أن الصرب تحالفت مع بلغاريا تحالفا هجوميا دفاعيا فاصدر جلالة السلطان أمره بجمع الجنود والاستعداد للطوارىء

وكانت الدولة أرسلت (رضا باشا) على رأس فرق عسكرية الى (دولسينيو) لاحتلالها فظن أهلها انه جاء

لتسليمها الي الجبل الاسود فقاوموه مقاومة عنيفة حتى اضطر الى الاقامة هو وجنوده بالقرب من (دولسينيو) وبقي منتظراً أوامر الدولة العلية

وفي هذه الاثناء أعلن اللورد غرانفيل فى مجلس العموم الانكليزي بتاريخ ٣٠ أغسطس عام ١٨٨٠ أن الدول الاوروبية وافقت انكلترا على عمل مظاهرة بحرية أمام ثغر (دولسينيو) ووضع أساطيلها تحت قيادة الاميرال الانكليزى (سيمور) فلما علمت الحكومة العثمانية بذلك أرسلت فى ١٥ سبتمبر من السنة نفسها منشورا لسفرائها لدي الدول الاوروبية أمرتهم فيه بابلاغ الحكومات الاوروبية ان اعطاء (دولسينيو) بالقوة الى الجبل الاسود يكون سببا لهيجان عظيم واضطراب عام فى بلاد البلقان وان الدولة العلية لاتقبل التنازل عن (دولسينيو) الا بالشروط الآتية: أولا عدم اجراء مظاهرة بحرية . ثانيا المحافظة على أرواح وأموال المسلمين والمسيحيين القاطنين فى (دولسينيو) . ثالثا بقاء (دينوش) و (جرودا) في يد الدولة العلية. رابعا عدم اعطاء امارة الجبل الاسود شيأ من

أملاك الدولة فى المستقبل

وفي الوقت نفسه أرسل أهالى (دولسينيو) الى قناصل الدول بها خطابا مؤثرا للغاية احتجوا فيه على اعطاء مدينتهم للجبل الاسود وقالوا فيه : اننا عازمون على المقاومة أشد المقاومة ولو دمرت مدينتنا ومتنا جميعا عن آخرنا . ومع ذلك فاننا لا نزال نؤمل ان الخلاف لا يقع لما نعلمه من ان دول أوروبا تعمل لمصلحة الامم وخيرها لا لدمارها وخرابها »

وقد احدث هذا الخطاب عند سائر المسلمين فى تركيا تأثيرا شديدا وهاجت النفوس والضمائر هياجا كبيرا واندهش الكل من ان أوروبا لا تكتفى باخراج المسيحيين من تحت سلطة المسلمين بل تعمل أيضا لاخراج المسلمين من تحت سلطة دولتهم الشرعية ووضعهم بالقوة والقهر وبالرغم منهم تحت السلطة المسيحية وتحت سلطة أمم البلقان أي تحت سلطة ألد أعدائهم

وقد انتهزت انكلترا فرصة وقوع الخلاف بين أوروبا وبين الدولة العلية وطلبت من الدول أن تسمح لها باحتلال

ثغور تركيا ومحاصرة الدردانيل . وكانت الجرائد الانكليزية تطعن وتتشذ على جلالة مولانا السلطان الاعظم (عبد الحميد خان) طعنا قبيحا وتطلب من أوروبا انزاله عن عرش ملكه الجليل. وقد اجتهدت ألمانيا فى حل المشكلة حلا سلميا وأعادة السكينة والسلام الى ربوع البلقان فنصحت الدولة العلية بقبول اعطاء (دولسينيو) للجبل الاسود وتسليمها لحكومته فى أقرب وقت حتي لا تجد انكلترا حجة لخلق المشاكل وايجاد القلاقل. فاضطرت الدولة العلية للعمل بنصيحة المانيا لانفرادها وحدها ضد أوروبا كلها وعدم وجود مساعد لها بين الدول الاوروبية وأعلنت أوروبا فى ١٢ اكتوبر عام ١٨٨٠ بانها مستعدة للاتفاق مع امارة الجبل الاسود على اعطائها (دولسينيو) وانتهى الامر باستيلاء امارة الجبل الاسود على هذا الثغر فى ٢٦ نوفمبر عام ١٨٨٠

*
* *

ما انتهى مؤتمر برلين حتى خابرت اليونان الحكومة العثمانية فى أمر تحديد تخوم جديدة بين الدولتين بمقتضى

قرارات مؤتمر برلين فرضيت الدولة العليـة بالتنازل لليونان عن ثلث خليج (فولو) ورفضت اعطاءها يانينا ولاريسا وفولو . ونظرا لطمع اليونان فى الاستيلاء على تساليا وابيرا لم تتم المخابرات بين الدولتين على شىء واستنجدت اليونان بأوروبا لمساعدتها ونصرتها . فأرسل اللورد سالسبرى وزير خارجية انكلترا مذكرة رسمية للدول الاوروبية عرض عليها فيها عقد لجنة دولية للفصل بين تركيا واليونان

وفى ذلك الحين تعين المسيو (جوشن) سفيرا لانكلترا لدى الباب العالى وكاف من قبل حكومته بمساعدة اليونان على أخذ تساليا وابيرا من الدولة العلية

وقد أجابت الدول الاوروبية طلب انكلترا وأرسلت بلاغا للدولة العلية أخبرتها فيه بانها قررت عقد لجنة دولية ببرلين فى شهر يونيو عام ١٨٨٠ للفصل فى الخلاف الذى بينها وبين اليونان

وفى شهر يونيو اجتمعت اللجنة الدولية ببرلين كما اتفقت الدول وكان اجتماعها تحت رئاسة البرنس (دى هوهنلوه) ولم يقبل فيها مندوبو تركيا ولا مندوبو اليونان. وقد قررت

اعطاء جزء عظيم من تساليا وابيرا مع (يانينا) و (متزوفو)
و (لاريسا) لليونان وقدم سفراء الدول في الاستانة وفي
أتينا فى ١٥ يوليو سنة ١٨٨٠ مذكرة للحكومة العثمانية
والحكومة اليونانية متضمنة قرار اللجنة الدولية ببرلين .
فقبلته حكومة اليونان بمزيد الامتنان ورفعت شكرها للدول
الاوروبية . ولكن الباب العالى رفض هذا القرار كل الرفض
وأبان للدول الاوروبية ان تنازل الدولة العلية لليونان عن
هذه المدائن والمواقع يجعل لليونان طريقا على الدولة العلية
ويسهل لها الاعتداء على البلاد التركية فى كل وقت فضلا
عن ان سكان هذه البلاد التى قررت اللجنة الدولية ببرلين
اعطاءها لليونان أغلبهم من المسلمين

وقد ألحت الدول الاوروبية مرة ثانية على الدولة العلية
بقبول قرار اللجنة الدولية ببرلين ولكن الدولة بقيت على
خطتها الاولى ورفضت التنازل عن يانينا ومتزوفو ولاريسا

أما حكومة اليونان فقد اهتمت بتجنيد جنودها
وأظهرت استعدادها لمحاربة الدولة العلية وصرحت على لسان

جرائدها وخطباؤها بأنها تنفذ قرار اللجنة الدولية ببرلين بالقوة ان لم تستطع أوروبا أجبار الدولة العليـة على قبوله . ولـكن الدولة العلية كانت تستعد للحرب أحسن استعداد ولم تهمل شيئا من معدات القتال . وكانت اليونان تؤمل مساعدة أوروبا لها ضد الدولة العلية اذا قامت الحرب بينهما. وكان لها الحق أن تؤمل هذا الامل لانها وجدت من أوروبا المساعدة التامة فى كل وقت وفى كل أمر . غير ان الدول الاوروبية كانت تأبى قيام الحرب بين الدولة العلية واليونان خوفا منها على دمار اليونان وخرابها ومنعا لاشـتعال نيران الحرب فى بلادالبلقان. فلذلك اجتهدت فى فصل الخلاف بين اليونان وتركيا واقناع الباب العالى بضرورة قبول ما قررته وما تقرره

وقد عرضت فرنسا علي الدول الاوروبية وعلى تركيا واليونان تحكيم دولة من الدول لفصل الخلاف بين الحـكومة العثمانية والحـكومة اليونانية بصفة نهائية ولـكن الدولة العلية رفضت هذا الطلب . وكان اليونانيون يعملون وقتئذ كل مافي

وسعهم لاعلان الحرب على تركيا فقد عرضت حكومتهم على مجلس نوابهم مشروع عقد سلفة لشراء الاسلحة اللازمة للجيش ولاتمام الاستعدادات الحربية . واقر مجلس النواب اليونانى على هذا المشروع بالاجماع

وفى ١٤ يناير عام ١٨٨١ عرضت الحكومة العثمانية على الدول الاوروبية ان يلغى قرار اللجنة الدولة ببرلين وان تعقد لجنة دولية جديدة بالاستانة يحضرها مندبو اليونان ويكون قرارها نهائيا . فبادرت الدول الاوروبية بالموافقه على طلب الدولة العلية وصارت الدولة بذلك ملزمة بتنفيذ قرار اللجنة التى طلبت عقدها بالاستانة

ولما عقدت اللجنة الدولية بالاستانة طلب بعض الاعضاء التنازل لليونان عن كريد وجزء من تساليا وطلب البعض الآخر التنازل عن تساليا كلها وجزء من ابيرا . وفى أثناء مناقشة اللجنة الدولية كان اليونانيون يسلحون جنودهم وينظمون جيشهم ويتممون معداتهم الحربية استعداداً لمحاربة تركيا حتى ان المسيو (تريكوبيس) رئيس حزب المعارضين

فى مجلس النواب اليونانى قال امام المجلس « بأن الحكومة اليونانية متفقة مع المعارضين على أن الحرب مع تركيا لا مناص منها » . وقد أجابه المسيو (كوموندروس) رئيس الوزارة اليونانية وقتئذ « انى لا أقول بان الحرب لا مناص منها ولكنى أقول بانها ربما كانت قريبة الوقوع جدا »

وقد استمرت اللجنة الدولية في مناقشاتها . ولكن مندوبى الدول لم يستطيعوا الاتفاق مع مندوبى تركيا فاتفقوا على وضع قرار فيما بينهم يقدم لتركيا بصفة انذار نهائى من دول اوروبا . وأخذ مندوبو أوروبا يتناقشون وحدهم حتى اتفقوا فى آخر الامر على اعطاء تساليا كلها وأبيرا لغاية نهر « أريا » لليونان وهدم قلاع « بريفيزا » التى تقرر تركها للدولة العلية . وأبلغ سفراء الدول هذا القرار للحكومة العثمانية وللحكومة اليونانية فقبلته الحكومة اليونانية وأبلغت الدول ذلك فى ١٢ ابريل سنة ١٨٨١ وسألتها التعجيل بتسليمها البلاد المتنازل لها عنها . أما الحكومة العثمانية فانها لما رأت اجماع الدول واتفاقها كلها ضدها أبلغتها قبولها لقرار اللجنة الدولية

بالاستانة وسألتها قبول الشروط الآتية : أولا عدم تجنيد المسلمين القاطنين بالبلاد المتنازل عنها لليونان فى العسكرية اليونانية مادامت الدولة العلية لاتجند اليونانيين المقيمين ببلادها فى عسكريتها . ثانيا هدم قلاع مدينة « فولو » ثالثا جعل محاكمة اليونانيين القاطنين بتركيا امام محاكمها العادية

ولكن دول أوربا بالغت فى تعضيدها لليونان واعتدائها على الدولة العلية ورفضت قبول هذه الشروط العادلة وأمضت كلها فى ٢٢ مايو على اتفاقية بخصوص أجبار الدولة العلية على تنفيذ قرار اللجنة الدولية فاضطرت الدولة العلية الى مخابرة حكومة اليونان والاتفاق معها على تنفيذ قرار اللجنة الدولية وعلى خروج الجنود التركية من البلاد المتنازل عنها لليونان فى مدة لاتزيد عن خمسة أشهر

*
* *

وقد اشتغلت النمسا بعد مؤتمر برلين بالاستعداد لاحتلال مقاطعتى البوسنه والهرسك فأرسلت جيشا جرارا اليهما تحت قيادة الجنرال (فيليبو بوفيتش) وأصدرت لاهالى البوسنه

والهرسك منشورا أبانت لهم فيه أن الدول الاوروبية كلفتها باحتلال بلادهم لتوطيد السكينة فيها واسعادها وان جلالة السلطان أنابها عنه فى تنظيم أمورهم — وهو مايخالف الحقيقة بالمرة وقد ذكرت النمسا ذلك كذبا لتخدع المسلمين من أهالى البوسنه والهرسك — وانها (أى النمسا) لاتميز بين الديانات بل جل مقاصدها نشر لواء المساواة والعدل والحرية بين الاهالى

وبالرغم مما جاء في هذا المنشور فان أهالى البوسنه والهرسك من المسلمين قاموا أجمعين عند ماعلموا باقتراب النمساويين من بلادهم لاحتلالها واستعدوا للدفاع عن وطنهم الدفاع الواجب وانضم اليهم الارثوذكسيون — أي الذين يدينون بدين الروسيا ويخلصون الحب لها — واتخذت مدينة (بوسنه سراى) أو (سراي فو) ومدينة (موستار) مركزا للدفاع عن بلاد البوسنه والهرسك

وقد دافع أهالى البوسنه والهرسك عن بلادهم دفاع الابطال وقاوموا جنود النمسا مقاومة عنيفة وأذاقوهم مر

القتال حتى اضطر قواد الجيش النمساوى للرجوع بالجيش
الى الوراء فى مواقع كثيرة واضطرت الحكومة النمساوية
الى ارسال جنود عديدة لتزداد القوة بهم ويستطيع الجيش
النمساوى الانتصار على أهالى البوسنه والهرسك . وكان
على رأس المسلمين من أهالى البوسنه فى هذه الحركة الوطنية
رجل شديد العزم والحزم اسمه (حاجى لودجا) قاد الجموع
ضد النمساويين أحسن قيادة واستحق بما أتاه شكر أمته
ووطنه وثناء التاريخ

وفى ١٠ اغسطس عام ١٨٧٨ سقطت مدينة (بوسنه
سراى) فى أيدى النمساويين وهذا اليوم كان يوما مشهودا
فقد فيه النمساويون عددا عديدا من جنودهم ورأوا أمامهم
البنات والنساء تدافع عن البوسنه فى مقدمة الرجال . فهكذا
تكون الوطنية الحقة وهكذا يكون الذود عن الاوطان .
وقد مات فى هذا اليوم العبوس كثيرون من أهالى البوسنه
وذهبوا شهداء الوطنية الحقة والاخلاص الملى

ولم تثبط همم أهالى البوسنه والهرسك بسقوط عاصمة

البوسنه فى أيدى النمساويين بل استمروا يقاتلون قتال الابطال واستمرت الثورة ضد النمساويين فى شمال البوسنه وفى بلاد الهرسك كلها . وقد انهزم النمساويون أمام حماة البوسنه والهرسك مرة بعد أخرى ولاقوا فى هذه المعارك الدموية من الاتعاب والمصاعب ما لا يجده جيش فى حرب كبيرة مع دولة عظيمة . وفي آخر شهر أغسطس عام ١٨٧٨ اضطر الجنرال (سايارى) الى ترك ما كان استولى عليه بين نهر (درينا) و (ساقب) بعد أن خسر جيشه الخسائر الجمة وفقد العدد الوافر من رجاله . وفى ١٠ سبتمبر انسحب الجنرال (زاش) هو وجنوده من موقع (بيهاتش) فرارا من هجمات أهالى البوسنه والهرسك الابطال

ولم ينتصر الجيش النمساوى بعد سقوط (بوسنه سراى) الا عند ما ازداد عدده بوفود فرق جديدة من النمسا . وعندئذ استولى على مدينة « تريبينيه » ومدينة « زفورنيك » وأخذ يتقدم شيئاً فشيئاً حتى قمع الثورة واستولى على البلاد كلها ولكن بعد ان أذاقه أهالى البوسنه والهرسك أشد

العذاب وبرهنوا على انهم رجال لا يستسلمون للعـد و ولا يسلمون وطنهم وشرفهم للاجنبي عن طيب خاطر

وقد كان المجريون من أول الازمة لآخرها مع الدولة العلية وكانت مصلحتهم تقضى عليهم بذلك. فان استيلاء النمسا على البوسنه والهرسك يزيد من عدد السلافيين فى المملكة النمساوية ويضر بنفوذ المجر وكذلك ازدياد نفوذ الروسيا فى بلاد البلقان من شأنه أن يجعل المجر فى قلق مستمر على حياتها ووجودها السياسى فان الروسيا هى أول وأكبر عدو للمجر وهي التى قمعت الثورة المجرية عام ١٨٤٩ بعد ان خابت النمسا فى قمعها

واذا أضفنا الى اشتراك المجر في المصلحة مع الدولة العلية اخلاص أهالى هذه البلاد للاتراك واعترافهم بالجميل للدولة التى استقبلت ثوارهم عام ١٨٤٩ أحسن استقبال وأكرمت مثواهم ورفضت تسليمهم للنمسا كل الرفض فهمنا كنه تظاهر المجريين بمحبة الدولة العلية واظهار أميالهم نحوها بكل قوة . ومما يخلد ذكره أبد الدهر ان النمسا أرسلت مع الجنود

النمساوية التي بعثتها للاستيلاء على البوسنه والهرسك أورطة مجرية وأصدرت اليها الاوامر بطرد جنود الاتراك من هذه البلاد فلما وصلت الاورطة ووجدت الجنود العثمانية — وهم الذين بقوا بعد اخلاء الدولة للبوسنه والهرسك — تذكرت ان هؤلاء الجنود ينتسبون لهذه الامة التركية الشريفة وانهم جنود الدولة التي أحسنت الى أبناء وطنها فألقت الاورطة كلها السلاح وأبت اطلاق الرصاص على الاتراك قائلة بصوت واحد « اننا لا نطلق الرصاص على أصدقائنا » فاغتاظ الامبراطور « فرنسوا جوزيف » من هذا العمل ومن هذه المخالفة العسكرية وأمر بضرب عشر الاورطة بالرصاص اذا استمرت على مخالفتها فأبلغ الامر للجنود المجرية ولكنها فضلت اظهار اعترافها بالجميل للعثمانيين عن الطاعة لاوامر الامبراطور

وقد استحكم الخلاف بين النمسا والمجر وظهر ظهور الشمس فى رابعة النهار عندما طلبت النمسا الاشتراك معها في تقرير مبلغ ٥٥ مليونا من الفلورينو «أى نحو الخمسة

ملايين من الجنيهات » لمصاريف الحملة النمساوية ضد البوسنة والهرسك بعد ان صرف على هذه الحملة مبلغ ٨٢ مليونا من الفلورينو . فهاج المجريون وأخذت جرائدهم تطعن على النمسا وتوجه اليها الملام والتعنيف حتى اضطرت الوزارة المجرية — التى كان يرأسها وقتئذ المسيو « تيسا » الشهير — الي تقديم استعفائها ولما رأى الامبراطور « فرنسوا جوزيف » ان الموقف حرج سأل المسيو « تيسا » أن يبقى فى منصبه هو وزملاؤه حتى يجد من يخلفهم وأخذ يستميل الحزب الاهلى في المجر نحوه ويرجوه عدم احداث قلاقل فى البلاد. ولكى يسهل الامبراطور على المجريين قبول طلب الحكومة النمساوية بشأن مصاريف الحملة على البوسنه والهرسك قرر جعلها عشرين مليونا من الفلورينو بدلا من خمسة وخمسين . وبذلك انتهى الخلاف بين النمسا والمجر ظاهريا . ولكن احتلال النمسا للبوسنه والهرسك أبقى فى نفوس المجريين كراهة شديدة للنمساويين فوق الكراهة الاصلية الكامنة فى نفوسهم

وقد احتلت النمسا في ٨ سبتمبر عام ١٨٧٩ اقليم « نوفى

بازار » بالاشتراك مع الجنود العثمانية — ولم يستمر احتلال النمسا له زمنا طويلا — وكان لهذا الاحتلال شأن معهم لان « نوفى بازار » على طريق سالونيك وبواسطتها كان يسهل للنمساويين ان يبلغوا الاستانة قبل الروسيين اذا قامت الحرب بين الروسيا والدولة العلية

والذي أوعز للنمسا باحتلال (نوفى بازار) هو البرنس (بسمارك)فانه لما رأى ان الروسيا أظهرت العداء لالمانيا واتهمتها بنكران الجميل عمل على الاتحاد مع النمسا ضدها كما قدمنا ووجه عنايته لاضعاف نفوذ الروسيا في بلاد البلقان وجعل نفوذ النمسا فيها قويا عظيما لتزداد العداوة بين هذه الدولة وبين الروسيا وتبقى بذلك النمسا مضطرة دائما الي المحافظة على تحالفها مع ألمانيا . وكان يقصد البرنس (بسمارك)بتقوية نفوذ النمسا فى بلاد البلقان غير ما ذكرنا ايجاد الشقاق بين النمسا والمجر وتحويل أنظار النمسا بهذا الشقاق وبمصالحها فى البلقان عن البلاد الالمانية لتبقى دائما تحت سلطة المانيا وفى دائرة نفوذها

وقد توصل البرنس (بسمارك) بسياسته هذه الى توطيد العلائق والروابط بين رومانيا والنمسا وسهل عليه ذلك لحقد رومانيا على الروسيا بعد الحرب الروسية التركية. ونجح كذلك في تحسين علائق الصرب مع النمسا وادخال بلغاريا نفسها في دائرة نفوذ النمسا

وبذلك أفلح البرنس « بسمارك » في سياسته الماهرة وبلغ ما تمناه فازدادت العداوة بين النمسا والروسيا وتقربت من النمسا امارات البلقان — التي أوجدتها الروسيا بمالها ورجالها — واشتغلت النمسا ببلاد البلقان وبمشاكلها مع المجر عن البلاد الالمانية . ولما رأى البرنس « بسمارك » ثمار سياسته سافر الى فيينا حيث استقبل فيها استقبالا عظيما واحتفل به سواسها وأهلها احتفالا شائقا — ولا ينسى القارىء ان « بسمارك » هو سبب مصائب النمسا وأصل انحلالها . ولكن الامم النازلة فى مهواة التقهقر والانحطاط من شأنها النسيان — وأعلن وقتئذ فى كل أنحاء العالم ان النمسا تحالفت مع المانيا تحالفاً دفاعياً هجومياً وان سياسة « بسمارك » توجت بالنجاح والفلاح

أسلفنا ان البرنس « بسمارك » بذل جهده فى ابعاد ايطاليا عن فرنسا وايجاد الشحناء والبغضاء بينهما وأظهر لفرنسا انه مستعد لمساعدتها على رفع حمايتها على البلاد التونسية . ولما كان سواس فرنسا ميالين لتقوية نفوذ بلادهم في تونس فقد تلقوا أقوال البرنس « بسمارك » بغاية الارتياح وانتظروا الفرصة المناسبة لارسال حملة على البلاد التونسية وقد كانت ثلاثة أخماس ديون الامارة التونسية لفرنسا والخمسان الآخران لايطاليا وانكلترا مما جعل لفرنسا مركزا خاصا بها في تونس ولم يكن لها منافس بين الدول غير ايطاليا التى كانت تنصح (باى تونس) على الدوام بمعاكسة فرنسا وعرقلة مساعيها وكان الايطاليون فى البلاد التونسية يجارون الفرنساويين فى كل عمل ويجتهدون فى سبقهم الى الربح والمكسب

وقد حدث ان بعض قبائل رحالة اعتدت على حدود الجزائر فانتهزت فرنسا هذه الفرصة لتحقيق غاياتها وتنفيذ مشروعها وقررت ارسال حملة فرنساوية على الحدود التونسية فلما علمت الدولة العلية بذلك أرسلت مذكرة لفرنسا

وللدول الاوروبية بتاريخ ٢٧ ابريل عام ١٨٨١ احتجت فيها على عمل فرنسا وأبانت ان البلاد التونسية هي جزأ من المملكة العثمانية وان الاعتداء عليها يعتبر اعتـداء على الدولة نفسها .

فأجاب المسيو « بارتلمى سانت هيلير » وزير خارجية فرنسا على مذكرة الدولة العلية بمنشور أرسله في ٩ مايو عام ١٨٨١ الى سفراء فرنسا لدى الدول الاوروبية أوضح فيه الاسـباب التى حملت فرنسا على ارسـال تجريدة الى البلاد التونسية وأبان الاعتبارات التى تجعل البلاد التونسية فى نظر فرنسامستقلة تمام الاستقلال عن الدولة العلية. وهذه الاعتبارات هى ان علاقة تونس مع الدولة العلية ليست الا علاقة دينية محضة وان امارة تونس عقدت مع دول أوروبا جملة معاهدات بدون توسط الدولة العلية أو تصديقها عليها . فقد عقـدت مع فرنسا معاهـدة فى ٨ أغسطس عام ١٨٣٠ تعهدت فيها بالغاء الرقيق وعقدت مـع انكلترا نحو عشرين معاهـدة وعقدت مع ايطاليا معاهدة فى عام ١٨٦٨ بدون أن تحتاج

في كل هـذه المعاهدات الى أمر أو الى توسط من الدولة العلية . وأضاف الى ذلك وزير خارجية فرنسا ان جملة حروب قامت بين الامارة التونسية وبين بلاد أخرى بدون تداخل تركيا . ففى عام ١٨٣٣ حاربت مملكة «سازدينيا» ولاية تونس وكانت علائقها مع الدولة العلية جيدة حسنة ولم يتكدر صفاؤها بحربها مع تونس . وقبل ذلك فى عام ١٨١٩ قرر مؤتمر (راكس لاشابيل) أجبار تونس على منع لصوصية البحار بدون توسط الدولة العلية واستند كذلك وزير خارجية فرنسا على استقلال تونس بأن فرنسا استقبلت في عام ١٨٤٧ (أحمد) باى تونس كما تستقبل الملوك والامراء وبغير توسط سفراء الدولة العلية وبأن دستور الولاية التونسية المشتمل على ١١٤ مادة لم يذكر فيه حرف واحد يدل على تابعية هذه الولاية الى الدولة العلية

وختم وزير خارجية فرنسا منشوره بقوله ان أغلب دول أوروبا موافقة على ارسال حملة فرنسوية الى البلاد التونسية » . ولا شك أنه كان يشير الى المانيا والنمسا

ولكن هذه الاعتبارات التى أتى عليها وزير فرنسا كلها تسقط أمام أمر واحد وهو أن باى تونس أرسل فى آخر عام ١٨٦٤ (خير الدين باشا) الى الاستانة ليستصدر فرمانا شاهانيا بتعيينه أميرا على البلاد التونسية وصدر الفرمان بالفعل بمقتضى طلب باى تونس نفسه . وفي ٢٥ اكتوبر عام ١٨٧١ صدر الفرمان السلطانى بتعيين (محمد الصادق) باى تونس وقرأه (خير الدين باشا) فى (الباردو) يوم ١٨ نوفمبر عام ١٨٧١ فى حفلة حافلة فاذا سلمنا بأن البلاد التونسية كانت مستقلة تمام الاستقلال قبل عام ١٨٦٤ وعام ١٨٧١ فلا يمكن لاحد أن يعتبرها مستقلة عن الدولة العلية بعد ارتباطها بها هذا الارتباط القاضى بصدور فرمان شاهانى لتولية الباى عند موت سلفه . وكيف يستطيع سواس أوروبا أن ينكروا تابعية تونس للدولة العلية وقد رأينا الدول الاوربية تضع حمايتها على بعض بلاد افريقية بمجرد عقدها معاهدة حبية بين أمراء هذه البلاد وبينها ؟

وقد طلبت الدولة العلية من الدول الاوروبية أن تتداخل

فى الامر وتفصل الخلاف الواقع بينها وبين فرنسا ولكن سياسة الدول كانت قيادتها بأيدى البرنس (بسمارك) وكانت الروسيا ميالة لفرنسا وعاملة على التقرب منها . فلم تجد الدولة العلية نصيرا ينصرها وينصر الحق ولما أرادت أن ترسل سفنها الى تونس هددتها فرنسا باعلان الحرب عليها اذا أرسلتها ومن البديهى أنه كان يصعب على الدولة العلية بعد حربها مع الروسيا أن تحارب فرنسا وتفتح بابا جديدا لتداخل الدول فى شؤونها والاضرار بمصالحها. فلم تستطع لهذا السبب أن تحتج على عمل فرنسا في تونس احتجاجا فعليا بل كان كل ما فى استطاعتها أن تحتج احتجاجا قوليا

ولما رأت فرنسا أن عملها فى تونس لا يلقي معارضة من دول أوروبا أرسلت حملتها على البلاد التونسية وكانت مؤلفة من ٢٦٠٠٠ جندى وقد قهرت قبائل الحدود بعد مجهودات عظيمة وتوصلت الى عقد معاهدة مع باي تونس وهى في الحقيقة اعلان حماية فرنسا على البلاد التونسية

وقد عرضت على مجلس النواب الفرنساوى فى ١٩ مايو

عام ١٨٨١ صورة هذه المعاهدة التى أمضاها الجنرال (بريار) باسم فرنسا مع باى تونس فى (الباردو) بتاريخ ١٢ مايو عام ١٨٨١ وهى تشتمل : أولا على احتلال فرنسا للمواقع التى تراها ضرورية لها فى البلاد التونسية . ثانيا على تعهد فرنسا لباى تونس بحمايته وحماية عائلته ودفع كل خطر عنه وعنها ثالثا على تعهد فرنسا بضمانة تنفيذ المعاهدات المعقودة بين تونس وبين الدول الاوروبية. رابعا على تعيين وزير فرنساوى في تونس يقوم بتنفيذ هذه المعاهدة ويكون الواسطة بين فرنسا وبين الولاية التونسية . خامسا على جعل الرعايا التونسيين فى الخارج تحت سلطة وحماية سفراء فرنسا وقناصلها وعلى تعهد تونس بعدم عقد معاهدة ما مع دولة من الدول قبل عرضها على فرنسا والاتفاق معها عليها . وتتضمن المعاهدة غير ذلك بعض شروط بشأن تنظيم مالية تونس وبشأن الديون التونسية وبخصوص عدم وصول الاسلحة والذخائر الى القبائل المعادية لفرنسا .

وقد وافق مجلس النواب الفرنساوى بالاجماع على هذه

المعاهدة عند عرضها عليه. ولما علمت بها الدول رسمياهنأت المانيا والنمسا واسبانيا الحكومة الفرنساوية على نجاحها. أما الباب العالى فقد احتج على عمل فرنسا باسم حقوقه الشرعية وترك للتاريخ الحكم على معاملة أوروبا للدولة العلية واعتدائها عليها

وقد أحدثت معاهدة فرنسا مع تونس في ايطاليا كدرا شديدا وسخطا على فرنسا وحولت انظار ايطاليا نحو النمسا والمانيا. واشتدت العداوة بين فرنسا وايطاليا الى حد أن الفرنساويين والايطاليين صاروا يتشاحنون فى كل بلد من بلاد فرنسا. ففى ١٤ يوليو سنة ١٨٨١ (يوم عيد الجمهورية الفرنساوية) حصلت معركة كبيرة فى مرسيليا بين الفرنساويين والايطاليين مات فيها ثلاثة من الفرنساويين وايطالى واحد

وقد أظهرت الجرائد الالمانية عندئذ ارتياحها للعداوة الناشئة بين ايطاليا وفرنسا وصارت الجرائد الايطالية تطعن على فرنسا أقبح الطعن وتسبها أفحش السباب وتمدح المانيا وتطرىء فى المديح تشفيا من فرنسا وانتقامها منها وفى شهر

يونيو من عام ١٨٨١ نفسه تقابل المسيو (كيرولى) رئيس الوزارة الايطالية وقتئذ مع البرنس (بسمارك) فى مدينة (كيسينجن) وطالت المحادثة بينهما واعتبرت هذه المقابلة فى كل دوائر أوروبا السياسية مبدأ انضمام ايطاليا للتحالف الالمانى النمساوى أى نجاحا لسياسة (بسمارك)

أما فرنسا فقد استمرت على خطتها فى البلاد التونسية واحتلت فى ١٠ أكتوبر عام ١٨٨١ مدينة (تونس) نفسها وأرسلت جيشا جرارا لاحتلال مدينة (القيروان). ومن الامور المشهورة عند احتلال فرنسا للقيروان أن رجلا فرنساويا دخل فى دين الاسلام وسمي نفسه (سيد احمد الهادى) واجتهد فى تحصيل الشريعة الغراء حتى وصل الى درجة عالية فيها وعين اماما لمسجد كبير فى القيروان . فلما اقتربت الجنود الفرنساوية من المدينة استعد أهلها للدفاع عنها وجاؤا يسألونه أن يستشير لهم ضريح شيخ فى المسجد يعتقدون فيه فدخل وخرج مهولا لهم بما سينالهم من المصائب وقال لهم بان الشيخ ينصحكم بالتسليم لان وقوع البلاء صار محتما . فاتبع القوم

البسطاء قوله ولم يدافعوا عن مدينة (القيروان) أقل دفاع بل دخلها الفرنساويون آمنين في ٢٦ اكتوبر عام ١٨٨١ . وهكذا سقطت المدينة فى أيدي فرنسا بحيلة دخيل من الدخلاء وما سقطت بلاد اسلامية في أيدى دولة أوروبية الا وكان للدخلاء يد فى سقوطها

وبذلك لحقت البلاد التونسية بالجزائر ووقعت في قبضة فرنسا وتمت لفرنسا فيهما السلطة وانتهت النتيجة الاخير للحرب المشؤومة بين الروسيا وبين الدولة العلية

﴿ الازمة الخامسة ﴾

﴿ المسئلة المصرية ﴾

ان سبب مصائب مصر هى ديونها التى اقترضها (اسماعيل باشا) الخديو الاسبق . فانها العلة الوحيدة لتداخل الاجانب فى شؤون مصر ولتداخل انكلترا على الخصوص فى أمورها وقد اشتهر بين الناس كافة ان قاعدة سياسة التداخل الاجنبي فى شؤون أمة من الامم والعمل على استعبادها هي (فرق تحكم) فان الشقاق والتفريق بين أفراد أمة واحـدة يجران حتما الى اضمحلال هذه الامة وسقوطها في قبضة أعدائها . وقد أوجد سواس هذا العصر قاعدة جديدة لاستعباد الامم وهي (أدن تستعبد) فان. اعتماد السياسة الاوروبية فى استيلائها على البلاد الافريقية والاسيوية انما هو على اقراض أمرائها . فمتى أرادت دولة أن تستعبد أمة وتستولي على بلادها سلطت على أميرها من يحسن له المدنية وزخرفها وتغيير حاله بأحسن منها فاذا كان الامير ضعيف الرأى قصـير النظر فى

العواقب أو كان ذا أهواء شريرة أصغي الى هذه الاقوال المزخرفة واستدان وأثقل عاتق أمته وبلاده بالديون التي تجر وراءها التداخل الاجنبي والاستعباد

وقد انخدع (اسماعيل باشا) بزخارف أقوال بعض الاوروبيين وتغلبت عليه أمياله الطبيعية وأهواؤه فاستدان من أوروبا الديون الطائلة وفتح أبواب مصر للاوروبيين وجر بذاك على ملك مصر وعلى بلاد مصر العزيزة المصائب الكبار والبلايا الجسام وانتهي به الامر أن خلعه من كرسي ملكه أصحاب الديون أنفسهم أى أولئك الذين كان يظنهم أصدقاء له وكان يفضلهم على بني وطنه ويعمل بآرائهم ونصائحهم . وهي عبرة تاريخية يجب على أمراء الشرق كافة ان يعتبروا بها فان قوة الممالك في قوة الامم وسعادتها الحقيقية لا في الزخرف الكاذب والطلاء الباطل . وكلما كانت الامة قليلة الديون كان استقلالها قويا متينا وكانت كلمتها عالية عزيزة وبالعكس كلما ازدادت ديون أمة ازدادت مصائبها وتسلط الاجنبي عليها وهددت في استقلالها وفي حياتها نفسها

وقد تغيرت أمور مصر وتغيرت سياسة الدول نحوها من عام ١٨٧٥ بشراء انكلترا من (اسماعيل باشا) أسهم مصر في قنال السويس حيث ازداد نفوذ هذه الدولة في بلادنا العزيزة وصارت منافسة لفرنسا أشد المنافسة . وقد توصلت انكلترا بما صار لها من النفوذ فى السنين الاخيرة من حكم (اسماعيل باشا) الى تعيين جملة موظفين من الانكليز فى ادارات مصر وفى السودان المصرى وجعلتهم ذريعتهم في بذر بذور السوء والقلاقل في أرض مصر . وتوصلت كذلك الى عقد معاهدة منع الرقيق مع الحكومة المصرية عام ١٨٧٧ وهي المعاهدة التى منحت انكلترا فى المادة السادسة منها «حق جولان الطرادات الانكليزية فى مياه البحر الاحمر وحق البحث فى السفن المصرية الحاملة للرق أو المشتبه فى انها حاملة له والاستيلاء عليها لتسليمها فيما بعد للحكومة المصرية وحق الاستيلاء على الرقيق الذى تعثر عليه احدى الطرادات الانكليزيه فى سفينة مصرية واتخاذ الوسائل اللازمة لتحريره» . اى منح الانكليز سيطرة عالية على ماهو

من شؤن مصر وحقوقها ومنحهم حق التداخل فى أحوال مصر

وبازدياد نفوذ انكلترا فى مصر ازدادت المشاكل فى بلادنا وتمهدت لها سبل احتلالها . فقد قررت انشاء المراقبة على المالية فى مصر بالاشتراك مع فرنسا وكانت أول عاملة على خلع (اسماعيل باشا). وبعد تولية المغفور له (توفيق باشا) نشرت سماسرتها فى كل انحاء مصر وشجعت الحزب الوطنى من جهة وفرقت بينه وبين مولاه وفريق آخر من المصريين من جهة أخرى حتى نزل القضاء باحتلالها لمصر وتمت خديعتها للمصريين وللدولة العلية ولاوروبا كلها

ومن سوء حظ مصر ان سماسرة الانكليز نجحوا فى التفريق بين المصريين وبعضهم فاستحكم الشقاق بين الجراكسة والمصريين في الجيش وبعبارة اخرى بين المصريين وبعضهم لانه لايمكن اعتبار الجراكسة الذين قضوا فى مصر طول حياتهم واستوطنوا البلاد وتناسلوا فيها أجانب عنها بل هم فيها مصريون لافرق بينهم وبين سلالة الفراعنة القدماء .

ولو كان زال من بين الجراكسة والمصريين سوء التفاهم

وعرفوا انهـم كلهم مصريون تجمعهم جامعة الوطن العزيز وأن لبلادهم عدوا طامحا الى الاستيلاء عليها من عهد بعيـد لـكانت نجت مصر من الخطر الجسيم الذى هى واقعة فيه الآن ولـكانت تمت لمصر السعادة والرفاهية والحرية. ولـكن العداوة استحكمت بين بنيها ففشل امرهم وذهبت ريحهم وتداخل الاجنبي بينهم وتساقطت على مصر المصائب العديدة وهذا شأن كل أمة يقع الشقاق والتفريق بين افرادها

وقد ابتدأت الحركة العرابية باتفاق جملة ضباط مصريين علي رفع عريضة شكوي للمغفور له (توفيق باشـا) ضـد (عثمان باشا رفقى) ناظر الحربية بسبب تعصبه ضد المصريين وتحزبه للجراكسة وتكليف أحمد عرابى بك وعلى فهمي بك وعبد العال حلمي بك بتقديمها للخـديو . وما تقدمت هذه العريضة حتى اهتم بالامر أصحاب الدسائس الاجنبية العاملون على ضياع مصر وبذلوا جهدهم فى توسيع الخرق وجعل الشقاق عظيما فنصحوا برفت عرابى وعلى فهمي وعبد العال حلمى . وبالفعل استدعى (عثمان باشا رفقى) هؤلاء الضباط الى

نظارة الحربية وأعلنهم أمام مجلس مكون من الذوات بأنهم مرفوتون من وظائفهم وان ثلاثة من الضباط الجراكسة عينوا في مناصبهم وأمر بسجنهم فقبضت عليهم الجنود وسجنتهم وأمر كذلك بارسال كل الضباط المصريين المعروفين بالميل لعرابي وزميليه الى سجن القلعة . فهاجت الضباط والعساكر المصرية عند ماعلمت بما جرى لرؤسائهم وهجموا على سجن نظارة الحربية وأخرجوهم منه وابتدأ بهذه الحركة الاضطراب في البلاد وقلقت الافكار كما كان يبتغيه أصحاب الغايات وأرباب الدسائس الاجنبية .

وبعد أن خرج عرابي وزميلاه من السجن أرسل (عرابي) الى قناصل الدول الاوروبية في مصر كتابا بتفصيل ماجرى واستلفت أنظارهم الى هذه الامور وذهب الى عابدين وقابل سمو الخديو فصرح له المرحوم (توفيق باشا) بأنه عفا عنه وعن كل الضباط وأخبره بأنه عين (محمود باشا سامى البارودى) ناظرا للجهادية بدلا من عثمان باشا رفقى . وكان ذلك في يوم ٢ فبراير عام ١٨٨١ . وقد أفهم السير (ماليت)

قنصل انكلترا الجنرال (عرابى) وأنصاره بانه هو الذى نصح الخديو بالعفو عنهم وباستبدال عثمان باشا رفقى . وقصد بذلك استمالتهم اليه وتغريرهم بانه نصير لهم

وفى يوم ٤ فبراير من السنة نفسها أمر الخديو عرابى وعلى فهمى بأن يذهبا الي قنصلى فرنسا وانكلترا ويؤكدالهما بأنهما يتكفلان بالراحة العمومية ويضمنان المحافظة على أرواح وأموال الاوروبيين فتوجها وعملا بأمر العزيز

ولو كان الامر وقف عند هذا الحد لكانت انتهت المسئلة وبقى السلام سائدا فى ربوع مصر ولكن أصحاب الدسائس كانوا يبذلون الجهد الجهيد فى بلوغ غاياتهم السيئة فأوعزوا الي بعض خدمة الخديو الخصوصيين بتهييج الجنود ضد ضباطهم وباغرائهم على الفتك بهم . وقد وجدت هذه الايعازات السيئة آذانا صاغية عند بعض ضعفاء العقول وذهب (فرج بك الزينى) ليلا الى احدالآلايات وحرض العساكر على قتل ضباطهم فلم توافقه العساكر وقبضت عليه وفى اليوم الثانى أرسل لنظارة الحربية وجرى التحقيق بشأنه وقد ظهر

من التحقيق أنه أمر بتحريض الجنود على قتل ضباطهم من أحد خدمة الخديو ويقول (عرابي باشا) فى تقريره ان خادم الخديو أمر بذلك من مولاه . وجرت جملة أمور من هـذا القبيل حكم على الذين أتوا بها بالابعاد الى السودان . ولما كان لبعض الاشخاص الذين أبعدوا الى السودان علاقات ببعض خدمة الخديو فقداحدث ابعادهم غضبا شديدا عند حاشية العزيز واستعمل ذوو النفوذ فى المعية نفوذهم فى اقناع الخديو بضرورة عزل محمود باشا سامى من نظارة الحربية فعمل العزيز برأيهم وطلب من محمود باشا سامي الاستقالة فاستقال وعين مكانه « داود باشا» صهر العائلة الخديوية . وما تعين حتى أصدر الاوامر بعدم اجتماع الضباط مع بعضهم والتشديد عليهم كل التشديد. ويقول «عرابى باشا » فى تقريره انه وضع على بيته وعلى بيت عبد العال بك حلمى أرواما للفتك بهما

وقد أحدثت هذه الامور كلها تأثيراً سيئا على نفوس الضباط فاتفقوا على عمل حركة أهلية عامة لتغيير دستور البلاد ونظامها واسقاط وزارة « رياض باشا » التى كانوا يتهمونها

بمعارضتهم وبتقوية السلطة الاستبدادية فى البلاد. وانضم اليهم الـكثيرون من أعيان البلاد وفضلائها

وفي ٩ سبتمبر عام ١٨٨١ ذهبت الجنود المصرية فى الساعة الثالثة بعد الظهر تحت قيادة « عرابى » الى ميدان عابدين وطلبت من الحضرة الخديوية اسقاط وزارة رياض باشا وانشاء مجلس نواب مصرى وجعل عـدد الجيش ١٨٠٠٠ جندي كما تسمح به الفرمانات الشاهانية واقتضت المصادفة وقتئذ ان قنصل فرنسا الجنرال والمراقب الفرنساوى كانا غائبين عن مصر وكان المراقب الانكليزى المستر (كوكفيل) موجودا فى مصر مع المستر (كوكسون) الذى كان قائما مقام السير « ماليت » قنصل انكلترا الجنرال . فنصح المستر كوكفيل والمستر كوكسون الخديو بقبول مطالب (عرابى) وجنوده . ولم يمض الا ساعتان حتى قبل الخديو طلبات « عرابي » وأسقط وزارة « رياض باشا » وأمر « شريف باشا » بتشكيل وزارة تحت رئاسته

وقد استفادت انكلترا فى هذه الحادثة ازدياد نفوذها

عند رجال الحزب الوطني وعند المغفور له « توفيق باشا » وعند خدامه وأنصاره فصار بذلك وكلاؤها في مصر محل ثقة الفريقين

وان السياسة التي اتبعتها انكلترا من أول الحوادث العرابية لآخرها لسياسة كلها غش وخداع وكذب . أو كما يقول عنها السياسيون سياسة كلها دهاء ومهارة. فانها أفلحت في تكبير الشقاق بين الجراكسة والمصريين أي بين افراد أمة واحدة وأفلحت في القاء بذور النفور والعداوة بين الخديو و « عرابي » اذ ظن عرابي وحزبه ان الخديو يريد الفتك بهم وانه هو المحرض على قتلهم . وأفلحت في تفهيم المغفور له توفيق باشا ان جلالة السلطان يريد خلعه ومحو حقوق العائلة الخديوية في مصر وأفلحت كذلك في تفهيم رجال الدولة العلية ان « توفيق باشا » طامح الى انتهاج خطة المغفور له « محمد علي باشا » في مسئلة الشام ضد الدولة وبذلك صارت انكلترا مسموعة الكلمة عند عزيز مصر وعند رجال الحزب الوطني وعند رجال الدولة العلية . وصارت الحوادث تجري حسب

مشيئتها وكما تقضيه آمالها وأمانيها

وما تظاهر «عرابى» مظاهرته الحربية فى ٩ ستمبر عام ١٨٨١ حتى شجع سواس بريطانيا الباب العالى على الانتقام من (توفيق باشا) وانتهاز هذه الفرصة لنيل سلطة فعلية على مصر بمساعدة الحزب الوطنى وتعضيده ولم تكتف وقتئذ الوزارة البريطانية بتحريض الباب العالى على تشجيع (عرابى) بواسطة سفيرها في الاستانة بل أوحت الى الجرائد الانكليزية أن تساعدها في سياستها فنادت التيمس وزميلاتها وقتئذ بأن الطريقة الوحيدة لايقاف تيار القلاقل والاضطرابات فى مصر هي تداخل الدولة العلية واحتلال الجنود التركية للديار المصرية

وقد انخدعت الدولة العلية لسواس بريطانيا وحسبتهم صادقين فى أقوالهم مصافين لها فى مسئلة مصر وظنت انه يمكنها الاعتماد عليهم وقررت حسب اشارتهم ارسال وفد لمصر لدراسة الاحوال فيها ورفع تقرير لجلالة السلطان فحضر لمصر وفد مكون من على باشا نظامى وأحمد أسعد أفندى

وقدري أفندي . وقبل وصول هذا الوفد الى مصر بيومين صدرت الاوامر بسفر ألأى (عرابي) الى التل الكبير وألاى (عبد العال بك) الى دمياط لكي لا يجتمع عرابى وعبد العال بأعضاء الوفدولكنهما لم يسافرا وتقابلا مع الوفد عند حضوره . وقد حقق المغفور له (توفيق باشا) لاعضاء الوفد بانه متفق مع (عرابى) وانه راض عن جيشه . ولما علمت فرنسا وانكلترا بأن الدولة العلية أرسلت وفدا لمصر أرسلتا أسطوليهما الى ميناء الاسكندرية . وقد غادر الوفد العثمانى مصر وعاد للاستانة في ١٩ اكتوبر عام ١٨٨١ وبعد سفره بارحت سفن فرنسا وانكلترا ثغر الاسكندرية . وقد أشيع وقتئذ في سائر انحاء العالم ان الوفد العثمانى كان مكلفا بتشجيع (عرابي) وحزبه واعتقدت الأمة المصرية كلها بهذه الاشاعة وصارت تعتبر (عرابى) النائب الحقيقي عن جلالة السلطان في مصر والمدافع عن حقوقه بها

وقد جرت انتخابات أعضاء مجلس النواب المصرى فى ١٠ نوفمبر عام ١٨٨١ وأظهر (شريف باشا) ارتياحه من

النتيجة التى تمت عليها الانتخابات. واجتمع المجلس لاول مرة في ٢٦ دسمبر من السنة نفسها

وفي ٣١ ينار عام ١٨٨٢ نشرت جريدة (التيمس) الانكليزية مبادىء الحزب الوطنى فى مصر وهى تنحصر فى ستة أمور : أولا الاعتراف بسيادة الدولة العلية مع المحافظة على الامتيازات الممنوحة لمصر . ثانيا الطاعة والاخلاص لسمو الخديو ما دام محترما لوعوده التى فاه بها فى سبتمبر عام ١٨٨١ . ثالثا الاعتراف بالخدم الجليلة التي أدتها فرنسا وانكلترا لمصر وبان المراقبة الثنائية موافقة لحالة البلاد المالية ولازمة لضمانة حقوق الدائنين . رابعا المحافظة على الامن فى سائر أنحاء مصر وضمانة أرواح وأموال الاهالي والنزلاء . خامسا اعلان مبادىء الحرية الدينية والسياسية في بلاد مصر واعتبار سائر المصريين سواء أمام القانون وتشكيل مجلس نواب مصرى وتحديد حقوق كل سلطة . سادسا ترقية شأن البلاد بنشر التعليم فى كل أرجائها

وقد أعجبت التيمس بمبادىء الحزب الوطنى وأمياله

وأظهرت تخوفها من تداخل فرنسا فى مصر تداخلا عسكريا وأبانت ان تداخل فرنسا أو أية دولة أوروبية فى مصر تداخلا عسكريا يجر على مصر وعلى مصالح أوروبا فيها أكبر الاخطار ولكن التيمس نسيت رأيها هـذا بالمرة ولم تتذكره عنـد احتلال الجنود الانكليزية لمصر بل صفقت لهذا الاحتلال طربا واستحسانا

أما الامة المصرية فقد أظهرت من مبدأ الحوادث العرابية ميلها لعرابي وموافقتها له على عمله وشجعته بكل أنواع التشجيع . ولم يكن ذلك عن كراهة للمغفور له (توفيق باشا) الذى لم يسىء الى الاهالى قط بل عن رغبة الامة فى نيل حريتها وتحقيق سعادتها واستقامة أحوالها . وقد أوجد حكم (اسماعيل باشا) فى نفوس المصريين كافة بغضا شديدا للحكم المطلق وكراهة لدودة للسلطة الاستبدادية وتشوق الكل الى جعل حكومة مصر حكومة دستورية شورية حتى قام (عرابي) وجماعته فانضمت اليهم أصوات الامة واجتمعت حولهم المئات والالوف من أبنائها . ونظراً لكون الجنود

كانوا فى قبضة يمين « عرابى » فان الفلاحين البسطاء أنفسهم كانوا يهللون ويكبرون عند ما يذكر أسم (عرابى) وكانوا ينتظرون من ذلك المصرى البحت السعادة المرغوبة والرفاهية المأمولة

وهذه الحركة الوطنية التى لم يعهد لها مثيل من قبل فى تاريخ الامة المصرية كانت تعود ولا محالة على مصر بالفوائد الجملة والتقدم السريع لو كانت وقفت الامور فى الحوادث العرابية عند حد محدود . ولكن الشقاق والطمع والجهل والدسائس الاجنبية أوقعت البلاد فى حضيض الذل والهوان بعد ان كانت مشرفة على الخير والسعادة والحرية

وقد تعين (عرابى) وكيلا لوزارة الحربية فى ٤ يناير عام ١٨٨٢ وازدادت بذلك سلطته فى الجيش وقوى نفوذه واجتمع حوله من الاهالى خلق كثيرون . وقد كثرت عندئذ الاشاعات بان الدولة العلية مساعدة لعرابى سرا وانها تجتهد في استمالة بعض الدول الاوروبية لتعضيدها على محو حقوق العائلة الخديوية وجعل مصر ولاية عثمانية كالشام وطرابلس

واستدل الناشرون لهذه الاشاعات على صحتها — وما كانوا الا سماسرة للانكليز — بان الدولة العلية أرسلت على نظامى باشا ورشيد بك الى برلين وفيينا فى مأمورية سرية. وأدعوا أن هذه المأمورية انما هي السعى فى بلوغ تلك الغاية

ولا شك ان هذه الاشاعات كان من شأنها ان تزيد فى النفور والشقاق بين المغفور له (توفق باشا) وبين جلالة السلطان الاعظم وكان الانكليز يستخدمونها عند الخديو ويجسمونها له ليبتعد عن الدولة العلية ويبقى دائما تحت سلطتهم وآلة في أيديهم

ولما رأت فرنسا ان نفوذ الحزب الوطنى يزداد كل يوم وان كل شيء في مصر صار فى قبضة العسكرية المصرية خافت علي مركز الخديو وأرسلت بالاتفاق مع انكلترا مذكرة لوكيلها فى مصر أمرته فيها كما أمرت انكلترا وكيلها أن يبلغ المغفور له (توفيق باشا) ان فرنسا وانكلترا متفقتان على مساعدته كل المساعدة ضد المصاعب القائمة فى وجهه وانهما تعتبران سلامة مصر وسلامة مصالح أوروبا بها فى بقائه على كرسى الخديوية

فكانت هذه المذكرة بمثابة اعلان للعالم كله بان فرنسا وانكلترا متفقتان كل الاتفاق فى المسئلة المصرية وانهما تعملان بالاشتراك . ولو كانت فرنسا اتبعت هذه السياسة الى النهاية لكانت سلمت مصر من مخالب انكلترا ولكانت بقيت المصالح الفرنساوية فى مأمن من الخطر . وقد أظهرت الجرائد الانكليزية سخطها على حكومة بلادها لاتفاقها مع فرنسا واشتراكها معها فى ارسال هذه المذكرة . وبالجملة كانت الصحف الانكليزية تلح كل يوم على وزارة انكلترا بالانفصال عن فرنسا والعمل بالانفراد

أما الباب العالى فقد احتج على ارسال هذه المذكرة بكتاب بعث به لسفرائه فى الخارج بتاريخ ١٣ يناير عام ١٨٨٢ مظهرا فيه ان للدولة العلية وحدها حق التداخل فى مصر بصفتها صاحبة السيادة عليها . فضلا عن انه لم يحصل بمصر أقل أمر يحمل فرنسا وانكلترا على ارسال هذه المذكرة

ومن سوء حظ مصر ان وزارة « غمبتا » سقطت فى فرنسا وقتئذ واستبدلت بوزارة « فريسينيه » . وكانت سياسة

« غمبتا » فى المسئلة المصرية واضحة صريحة ترمى الى السير مع انكلترا في كل خطواتها ومشاركتها فى كل عمل وعدم تركها تعمل شيئاً ما بانفرادها . . ولو كان « غمبتا » بقى رئيساً لوزارة فرنسا لكانت اشتركت مع انكلترا في احتلالها مصر وكانتا خرجتا معاً أو لكانت اجتنبت فرنسا وانكلترا ضرب الاسكندرية واحتلال مصر . وعلى أى حال كانت نجت بلادنا العزيزة من الوقوع فى أيدي الانكليز . ولكن بلية الجمهورية الفرنساوية ان وزاراتها قصيرة الاجل

وقد سن مجلس النواب المصرى بعض القوانين ولكنه لم يتفق مع وزارة « شريف باشا » على مسئلة المناقشة فى الميزانيـة المصرية . فشريف باشا كان يرى أنه يسوء فرنسا وانكلترا ان مجلس نواب مصر يتناقش فى كل فروع الميزانية حتى فيما يختص بالديون ويغير ويبدل فيها كيف يشاء مع ان هاتين الدولتين عينتا لجنة مراقبة لتقرير الميزانية مع الحكومة المصرية ومراقبة سيرها . ومجلس النواب المصرى كان يرى انه من أول حقوقه وواجباته دراسة الميزانية والمناقشة فى

موضوعاتها موضوعا موضوعا . وبذلك حصل الخلاف بين المجلس وبين الوزارة الشريفية واضطر (شريف باشا) للاستقالة هو وبقية النظار في يوم ٢ فبراير عام ١٨٨٢ . وقد تعين « محمود باشا سامى البارودي » رئيسا للنظار بدلا منه وتعين « عرابى » وزيرا للحربية وأعطي لقب باشاهو وبعض زملائه من رجال العسكرية . واتفق محمود باشا سامي مع أعضاء مجلس النواب بشأن الميزانية فقرر معهم انتخاب لجنة منهم يكون عددها مساويا لعدد النظار تدرس مع النظار الميزانية وأن يكون تقرير الميزانية باجماع أصوات أعضاء اللجنة والنظار معاً أو بالاغلبية . وانه اذا وقع خلاف بين النظار وبين أعضاء اللجنة أو تساوت الاصوات يعرض الامر على المجلس للفصل فيه

وقد أغضب سقوط وزارة (شريف باشا) سائر الدائنين واعتبرت فرنسا وانكلترا تمسك مجلس النواب المصرى بدراسة الميزانية كلها وتقريرها حسب مرامه اعتداء على حقوق المراقبة الثنائية أى اعتداء على حقوق الدولتين فى

مصر . وقد استعفى وقتئذ المراقبان الفرنساوى والانكليزى .
وكان ولا محالة من الحكمة والصواب ان الحزب الوطنى فى
مصر يقف عند حد محدود فى هذه الاوقات المضطربة
ويرضى بالنتائج السامية التى نالها . وكان من نهاية السداد فى
الرأى والتبصر فى العواقب ان النواب المصريين يرضون بدراسة
الميزانية الا مايختص بالديون فيها . ولكن قضى على رجال
الحزب الوطنى فى مصر يومئذ أن يتمسكوا بأمر أضاع عليهم
التمسك به أتعابهم وجر على الوطن المصرى أشد البلاء . على
أن نيل الحرية والعدالة والمساواة فى أمة لا يكون دفعة
واحدة ولا يأتى في يوم واحد. وانه كان يكفي الحزب الوطنى
أن ينال تشكيل مجلس نواب مصرى ومنح المصريين الحقوق
السياسية والملية التى لسائر الافراد فى الامم المتمدنة . فانها
خير نتيجة يحق لكل مصرى محب لبلاده أن يفتخر بها

ومما زاد فى تخوف الاوروبيين وهلعهم هو تعيين
(عرابى) وزيراً للحربية فانهم كانوا يعتبرونه المحرض لمجلس
النواب المصرى على طلب المناقشة فى كل فروع الميزانية

والمسبب لسقوط وزارة (شريف باشا) والعامل على الاضرار بمصالح أوروبا وبمصالح رعاياها باستلام زمام القوة والسلطة فى مصر

وقد قام المسيو (دلافوس) فى مجلس النواب الفرنساوي في يوم ٢٣ فبراير عام ١٨٨٢ وسأل المسيو (فريسينيه) رئيس الوزارة ووزير الخارجية عن الخطة السياسية التى تنوى فرنسا اتباعها بعد تغيير الوزارة المصرية وحدوث هـذا الانقلاب العظيم. فأجابه المسيو (فريسينيه) بان فرنسا وانكلترا تتخابران مـع أوروبا في الامر وتعملان لاشراك الدول معهما فى مسئلة مصر

ولمـا كانت الدسائس الاجنبية عاملة على تفريق كلمـة المصريين وتقويض أركان الاستقلال المصرى أوعز المفسدون وسماسرة السوء الى جماعة من الجراكسة بالفتك بعرابى وأنصاره والتخلص منهم . ولكن أحد هؤلاء الجراكسة لم يقبل الاشتراك فى هذه الدسيسة وأخبر (طلبه باشا) بأمرها فكتب هذا الاخير الى نظارة الجهادية والى رئاسة النظار والى

سمو الخديو بتفصيل المسئلة وعندئذ تقرر محاكمة الجراكسة
المتهمين بتدبير المكيدة . وقد حوكموا وصدر الحكم عليهم
بالابعاد الى السودان فلما علم المرحوم « توفيق باشا » بالحكم
أرسل تلغرافيا الى الحضرة السلطانية يعرض عليها الامر ويسألها
عما يجب عليه عمله . وقبل وصول الرد السلطاني تداخل قنصل
فرنسا الجنرال وقنصل انكلترا الجنرال وطلبا من الجناب
الخديوى تعديل الحكم بالابعاد الى الشام. فعمل العزيز برأيهما
وسافر الجراكسة الى الشام . وقد نشأ من ذلك نفور بين
العزيز وبين وزارته وكتب قنصلا فرنسا وانكلترا الى دولتيهما
بان «محمود باشا سامى» هدد حياة الخديو وحياة الاوروبيين
في حضرة الخديو نفسه فاتفقت الدولتان على ارسال
أسطوليهما الي مياه الاسكندرية . وبعثتا فى ١٦ مايو عام ١٨٨٢
مذكرة الى الباب العالى أعلنتاه فيها باتفاقهما على ارسال
أسطوليهما الى ثغر الاسكندرية وسألتاه عدم ارسال الاسطول
التركى وعدم الاشتراك معهما . وقد أجاب الباب العالى على
هذه المذكرة بتاريخ ١٧ مايو بان الدولة العلية هى وحدها

دون غيرها صاحبة السيادة على مصر وانه ليس لاحد غيرها حق التداخل فى شؤون هذه البلاد وأرسل فى الوقت نفسه تلغرافا الى وزراء مصر أمرهم فيه بعدم مخالفة أوامر الجناب الخديوى

وبعد ان جاء الاسطولان الفرنساوى والانكليزي الى مياه الاسكندرية رفع وكيلا دولتى فرنسا وانكلترا في ٢٥ مايو عام ١٨٨٢ كتابا الى سمو الخديو ذكرا له فيه ان سلطان باشا رئيس مجلس النواب المصرى رأى ان وطنيته تقضى عليه بان يعرض على (محمود باشا سامي) رئيس الوزارة المصرية الاقتراحات الاتية التى تضمن راحة مصر وسلامتها وهي : اولا ابعاد (عرابى باشا) عن مصر ابعادا مؤقتا مع بقائه فى رتبته العسكرية ونقده مرتبه الشهرى . ثانيا ابعاد (على فهمى باشا) و (عبد العال حلمى باشا) الى داخل البلاد المصرية . ثالثا استعفاء وزارة محمود باشا سامى . وأبان وكيلا دولتى فرنسا وانكلترا لسمو العزيز انهما يعضدان رأى (سلطان باشا) كل التعضيد ويطلبان من الجناب الخديوى

تنفيذ اقتراحاته الثلاثة

وقد دل هذا الكتاب على وجود اختلاف فى الرأى بين الحزب العسكري وبين بعض أعضاء مجلس النواب الذين كانوا يعملون برأى رئيسهم . أما المرحوم (توفيق باشا) فقد قبل كتاب وكيلى فرنسا وانكلترا ورأى رأيهما خلافا لوزرائه . وقد اجتمع النظار عندئذ ورأوا تقديم استعفائهم الى الخديو بعلة أن قبول مطالب وكيلى فرنسا وانكلترا يعتبر اجحافا بحقوق جلالة السلطان فى مصر وتداخلا أجنبيا فى شؤون مصر الداخلية . كأن أعضاء الوزارة المصرية كانوا يجهلون ان فرنسا وانكلترا تداخلتا من قبل فى شؤون مصر الداخلية وان هذه ليست بأول مرة تداخلت فيها الدولتان

ولا ريب أن كل مصرى يخلص الحب لبلاده ويتألم من نتائج الحوادث العرابية الوخيمة يرى انه كان يجب على (عرابى باشا) أن يبتعد عن مصر ويعمل برأى سلطان باشا لتطمئن الخواطر وتزول أسباب التداخل الاجنبي . نعم ان (عرابي باشا) كان يحزنه كثيرا أن يترك مصر بهذه الحالة

ويترك خصومه يعتبرون خروجه من مصر هزيمة معنوية له ولحزبه ولكن رجلا مثله قام بدعوة أمته للحرية والاستقلال الداخلي وتولى رئاسة الحزب الوطني فيها كان يجب عليه ان يقلب نظره في التاريخ ويتذكر ان انكلترا شرعت في أوائل القرن الحاضر في الاستيلاء على مصر وانها تمنى نفسها دائما بهذه الامنية العزيزة وان اضطرابات مصر وقلاقلها لا تفيد الا هذه الدولة الماهرة في السياسة ذات الدسائس القوية والمكائد العظيمة وكان يتحتم عليه (اى على عرابى) أن يخرج من بلاده ويدفع عنها الخطر

وقد أجاب (عرابى باشا) على اعتراض القائلين بضرورة خروجه من مصر وقتئذ بأن خروجه يعتبر من جهة تنفيذا لاوامر فرنسا وانكلترا في مصر وتبريراً لتداخل هاتين الدولتين فى أحوال البلاد الداخلية ويجعل من جهة أخرى أنصاره تحت رحمة اعدائهم وعلى خطر عظيم ولكن هذا الجواب ضعيف جدا فان فرنسا وانكلترا تداخلتا فى أحوال مصر الداخلية فى عهد اسماعيل باشا وهما اللتان عزلتاه

باستمالة الحضرة السلطانية اليهما ومن مبدا الحوادث العرابية تداخلت الدولتان . (وعرابى باشا) نفسه كان يعتقد ان السير « ماليت قنصل جنرال انكلترا هو اول من نصح الخديو فى يوم ٩ ستمبر عام ١٨٨١ — أي يوم مظاهرة الجنود المصرية تحت رئاسة (عرابى) فى ميدان عابدين — بعزل الوزارة الرياضية وقبول طلبات الجيش . أما من حيث الخطر الذى كان يخافه (عرابي باشا) على انصاره بعد خروجه من مصر فهو خطر وهمى . لان (عرابى باشا) كان يعلم جيداً أن فى انصاره رجالا كثيرين يغارون مثله على حقوق بلادهم ويطالبون بحريتها وتسليم زمام أمورها لابنائها . فلو كان (عرابى باشا) خرج من وطنه وتبع رأى (سلطان باشا) لكانت هدأت الاحوال وبطلت دسائس أعداء مصر وفشلت مكائدهم ولكان بقى شريفا جليلا فى أعين العالمين غير متحمل للمسؤلية الكبرى التى يتحملها اليوم أمام الوطن وأمام التاريخ بالرغم من حسن نيته وصدق اخلاصه لوطنه

وقد اجتهدت الوزارة قبل استعفائها فى عقد مجلس

النواب ولكن الخديو لم يقبل اصدار الامر بعقده . بل قبل استعفاء الوزارة واشتغل بتشكيل وزارة جديدة . ولما كانت السلطة العسكرية في قبضة يمين عرابي رأى (سلطان باشا) وأصدقاؤه من أعضاء مجلس النواب أنه اذا لم يتعين (عرابى باشا) وزيرا للحربية كما كان اشتد النفور بينه وبين العزيز واتسع الخرق على الراتق فعرضوا على الجناب الخديوي ارجاعه فى وظيفة ناظر الحربية . فقبل المغفور له (توفيق باشا) ذلك وعين (عرابي باشا) وزيرا للجهادية للمرة الثانية

وعندئذ عرضت فرنسا على كافة الدول الاوروبية ان تسأل معها الباب العالى استدعاء عرابى ورفقائه الى الاستانة للتشرف بمقابلة جلالة السلطان وتلقى أوامره فاشتركت معها الدول فى هذا الطلب ولكن انكلترا نصحت الباب العالى بعدم قبول طلب الدول وبارسال مندوب عثمانى لدراسة الاحوال في مصر . فاتبع الباب العالى نصيحة انكلترا وعمل بها

ولما كانت السياسة الانكليزية فى الحوادث العرابية

سياسة ذات وجهين فقد سحب السير « ماليت » قنصل انكلترا الجنرال بمصر كتابه الذى أرسله لسمو الخديو فى ٢٥ مايو بالاشتراك مع قنصل فرنسا وأرضى بذلك الحزب الوطنى . وقد اعتبر هذا العمل مبدأ انفصال انكلترا من فرنسا فى المسئلة المصرية . وعند ما رأت فرنسا ذلك عرضت على الدول الاوروبية عقد لجنة دولية بالاستانة للمداولة فى مسئلة مصر فقبلت الدول واتفقت على احترام التعهدات الدولية المختصة بمصر واحترام فرمانى عام ١٨٧٣ و١٨٧٩

وقد دارت المناقشة في مجلس النواب الفرنساوى فى أول يونية عام ١٨٨٢ على مسئلة مصر . وكان الرأى العام الفرنساوى وقتئذ ميالا لعرابي وحزبه منتصراً للدعوة التى هم قائمون بها وكان يأبى تداخل فرنسا في مصر تداخلا عسكريا وقد وقف المسيو (دلافوس) على منبر الخطابة وسأل وزير خارجية فرنسا عن السياسة المتبعة لها فرنسا فى الازمة المصرية فأجابه المسيو فريسينيه بان سياسته مقتضاها عدم تداخل فرنسا في مصر تداخلا عسكريا وعدم ترك الدولة العلية ترسل

جنودها لمصر . وكانت حجته في معارضة مجىء الجنود التركية لمصر هى ان تداخل تركيا فى مصر يرفع من شأن الدولة العلية فى أعين المسلمين كافة ويكون سببا لقيام التونسيين والجزائريين فى وجه فرنسا . وقد ندد المسيو (دولافوس) بسياسة المسيو (فريسينيه) وقال ان مصلحة فرنسا تقضى عليها بالاتفاق مع تركيا والعمل على رفع شأنها ليسهل لها حكم المسلمين واستمالتهم نحوها وأثبت أن حل المشكلة المصرية لا يكون الا بتداخل الدولة العلية . وقد ألقي المسيو «غمبتا» فى هذه الجلسة نفسها خطبة طويلة على المسئلة المصرية نصح فيها الوزارة الفرنساوية بعدم ترك انكلترا تعمل بانفرادها وبأن تشترك معها فى كل عمل وأنذرها بسوء العاقبة اذا بقيت على الحياد وتركت مصر لانكلترا

وان السياسة التى اتبعها المسيو (فريسينيه) لسياسة خرقاء فانه أبى التداخل في مسئلة مصر تداخلا عسكريا وعارض الدولة العلية فى ارسال جنودها لمصر . وكانت نتيجة هذه السياسة تداخل انكلترا وحدها وسقوط مصر

فى قبضتها !

وقد جرت مناقشة فى مجلس النواب الانكليزى فى يوم أول يونيه نفسه على مسئلة مصر قال فيها المستر (غلادستون) بصفته رئيسا للوزارة الانكليزية ان (عرابي) يعمل على عزل (توفيق باشا) وتعيين البرنس «حليم» مكانه ولكن الدول متفقة على تعضيد الخديو الحالى «أى توفيق باشا» وانها اذا كانت لا تريد احتلال جنودها مصر فذلك لانها تخاف اشتعال نيران التعصب الدينى فيها وجعل حياة الخديو فى خطر

وهو تصريح من الغرابة بمكان. وما كان يقصد به المستر «غلادستون» الا زيادة استمالة «توفيق باشا» الى الانكليز وثقته بهم واعتماده عليهم

وما علم سواس بريطانيا بتصريحات المسيو «فريسينيه» حتى طاروا بها فرحا وتحققوا أن الجو خلا لهم واهتموا بتدبير الدسائس لاحتلال مصر

وقد رأت انكلترا وقتئذ انها فى حاجة لتعزيز تركيا

وتفهيمها أن نواياها حسنة من جهتها فى مسئلة مصر فأوحت الى المغفور له « توفيق باشا » بان يطلب من الحضرة السلطانية ارسال مندوب عثمانى عال لمصر وعززت هـذا الطلب في الاستانة . فأجابت الدولة طلب الخديو وحضر « درويش باشا » الى مصر حيث وصلها في ٧ يونيو عام ١٨٨٢ وكان للانكليز مصلحتان فى حضور « درويش باشا » لمصر : أولا تفهيم رجال الدولة العلية بانهم يريدون تداخلها فى مصر. ثانيا تشجيع الدولة « بواسـطة درويش باشا » لرجال الحزب الوطنى فى مصر

وكان وكلاء انكلترا فى مصر وصنائعها يعملون وقتئذ على احداث اضطراب عظيم . فكنت ترى السير (ماليت) قنصل انكلترا الجنرال ينصح الانكليز المقيمين فى مصر بالسفر لاوروبا « نجاة من خطر قريب الحدوث » وكنت ترى المستر « كوكسون » قنصل انكلترا بالاسكندرية يفرق بنفسه الاسلحة والذخائر على الانكليز القاطنين بالاسكندرية — وقد أرسلت اليه هـذه الاسلحة والذخائر من الاسطول

الانكليزى الواقف فى ثغر الاسكندرية

وقد وضع المستر « كوكسون » بالاشتراك مع الضابط الانكليزى « ماريوت » خطة للدفاع عن الاوروبيين ضد المصريين وهي تقتضى تسليح ٣٠٠٠ أو ٤٠٠٠ أوروبى بالاسكندرية . وقد أخبر المستر « كوكسون » بهذه الخطة زميله الفرنساوى فى ٧ يونيو عام ١٨٨٢ وأبلغها الوكلاء الدول فى القاهرة غير انهم لما علموا بها صرحوا جميعا بأن هذا التسليح يحدث اضطرابا عظيما فى البلاد وهياجا عاما وأمروا قناصل دولهم فى الاسكندرية بالامتناع عن كل عمل عدائى

ولكن المستر « كوكسون » لم يرضخ لقرار وكلاء الدول بالقاهرة وسلح كل المالطيين وجميع اليونانيين وسائر سفلة الافرنج الموجودين بالاسكندرية مما يدل دلالة صريحة على ان المدبر لمذبحة الاسكندرية والمسبب لها انما هي انكلترا دون سواها

وقد ابتدأت المذبحة بمشاجرة وقعت بين مالطى وحمار

مصرى وأطلقت فيها البنادق من الشبابيك على المصريين واستمرت طول يوم ١١ يونيو المشؤوم . ويحقق الكثيرون بأن المالطي الذى سبب المشاجرة والمذبحة هو شقيق خادم المستر (كوكسون) نفسه

وقد اجتنبت فرنسا وانكلترا انزال عساكرهما الى البر وقت مذبحة الاسكندرية . وذلك بناء على رأى انكلترا التى كانت تخاف اشتراك فرنسا معها في احتلال مصر

ولما انتشر خبر مذبحة الأسكندرية فى أوروبا ادعى كتاب الانكليز وسواسهم ان سبب هذه المذبحة هو التعصب الدينى عند المصريين . ولكن الحقيقة التى لاريب فيها هى أن الانكليز وصنائعهم هم أصل هذه المذبحة المشؤومة وهم الموجدون لها . وقد صرح المسيو (دى فريسينيه) رئيس الوزارة الفرنساوية في ١٢ يونيو أمام مجلس الشيوخ « بأن عدة أسلحة أعطيت للمالطيين قبل المذبحة بأيام قلائل وان نسبة المذبحة للتعصب الدينى خطأ محض » وأثنى المسيو (دى فريسينيه) على خطة حكومة مصر في هذه الحادثة

ولما علمت الحكومة المصرية بمذبحة الاسكندرية أرسلت في الحال (يعقوب باشا سامى) وكيل الجهادية على رأس ألايين من البيادة وبطاريتين من الطوبجية وأورطتين من السواري لحفظ الامن العام في الاسكندرية واعادة السكينة بين أهاليها

وقد أرادت الحكومة المصرية اجراء تحقيق بشأن مذبحة الاسكندرية واظهار الحقيقة فيها وعرضت على فرنسا وانكلترا عقد لجنة مكونة من تسعة أعضاء مصريين ومن تسعة أوروبيين لاجراء هذا التحقيق فرفضت انكلترا ذلك بتاتا

وفي صبيحة مذبحة الاسكندرية أرسلت ايطاليا والنمسا أسطوليهما الى مياه الاسكندرية للمحافظة على حياة رعاياهما وفي ذلك اليوم نفسه وقف اللورد سالسبورى في مجلس اللوردات وعنف الحكومة الانكليزية على عدم احتلالها الاسكندرية وقت المذبحة فأجابه اللورد (غرانفيل) بان الوزارة الانكليزية تركت للاميرال (سيمور) الحرية التامة

فهو يعمل متى رأي لزوما للعمل . ولا شك أن كل سواس بريطانيا كانوا يعلمون ان السبب في عدم تداخل الاسطول الانكليزي وقت مذبحة الاسكندرية وعدم نزول العساكر الانكليزية الى البر هو تخوف الاميرال الانكليزى من اشتراك الاسطول الفرنساوى معه فى الامر

وقد سافر الجناب الخديو و(درويش باشا) والقناصل الى الاسكندرية بعد المذبحة لتطمئن خواطر النزلاء وتعم السكينة المدينة . وتشكلت عندئذ الوزارة المصرية في ١٧ يونيو عام ١٨٨١ تحت رئاسة (راغب باشا) وبقي فيها (عرابى باشا) وزيراً للحربية

ولما شعرت دول فرنسا والروسيا والمانيا والنمسا وايطاليا باشتداد الازمة ألحت على الدولة العلية بضرورة اشتراكها معها في اللجنة الدولية المزمع عقدها بالاستانة ولكن سواس تركيا أصغوا لنصائح الانكليز ورفضوا الاشتراك مع الدول الاوروبية معللين ذلك بان اشتراك تركيا فى اللجنة الدولية يعتبر اعترافا منها بأن حقوقها فى مصر تعادل حقوق الدول

الاخرى. وقد اضطر مندوبو الدول وقتئذ أن يجتمعوا في الاستانة بدون اشتراك سواس تركيا معهم. وحضر هذه اللجنة رسميا اللورد (دوفرين) بصفته مندوبا عن الحكومة الانكليزية وأمضى مع بقية المندوبين في ٢٥ يونيو عام ١٨٨٢ القرار أو (البروتوكول) الآتي:

« تتعهد الحكومات التى يمضى مندوبوها على هذا القرار بانها في كل اتفاق يقع بشأن تسوية المسئلة المصرية لا تبحث على امتلاك شيء من أراضى مصر ولا على الحصول على امتياز خاص بها (أى باحدى الحكومات دون سواها) ولا على نيل أمتياز تجارى لرعاياها يكون غير ممكن لرعايا الحكومات الاخرى نيله »

وهذا التقرير يعتبر تعهداً من دول أوروبا بعدم المساس بحقوق مصر وبعدم الاعتداء عليها. وهو تعهد قبلته الحكومة الانكليزية على نفسها كسائر الحكومات الاوروبية وأمضاه بالنيابة عنها اللورد (دوفرين) أي سياسى من أكبر سواسها ويمكننا أن نعتبر هذا التعهد — بقطع النظر عن تصريحات

جلالة الملكة ووزراء انكلترا بشأن الجلاء — احتجاجا ابديا من أوروبا ضد احتلال الانكليز لمصر ومن انكلترا نفسها ضد عملها فى بلادنا .

وفى أثناء اشتغال اللجنة الدولية فى الاستانة بالمداولة والاتفاق على حل الازمة المصرية كانت انكلترا تجهز سفنها وتستعد لتقوية أسطولها فى الاسكندرية وكانت الجرائد الانكليزية تلح على حكومة بلادها باحتلال مصر وحدها . وقد أثرت كتابات الجرائد الانكليزية على الرأى العام الانكليزى وصار يطالب الحكومة البريطانية بالعمل وحدها حتي أن اللورد « كامبرلي » وزير المستعمرات وقف خطيبا وقال . أن انكلترا بالرغم عن ميلها للسلام واحترامها لآراء أوروبا لا يمكنها أن تترك سلامة قناة السويس للمصادفة أو ان تهمل الدفاع عن مصالحها فى الشرق . وعندئذ أنذر الاميرال « سيمور » الحكومة المصرية بانها اذا عملت أى عمل عدائى ضد أسطوله ضرب الاسكندرية ودمرها .

وقد أهتمت فرنسا بتجهيز سفنها أسوة بانكلترا وعرض

المسيو « فريسينيه » يوم ٨ يوليو عام ١٨٨٢ على مجلس النواب الفرنساوى طلب ثمانية ملايين من الفرنكات لهذا الغرض الا أنه صرح بانه لا يقصد أرسال جيش فرنساوى لمصر وأنه لا يأمر بتداخل فرنسا فى وادى النيل تداخلا عسكريا الا بقرار من مجلس النواب نفسه وأن القصد من تجهيز السفن هو الاستعداد للطوارىء

ولما رأت انكلترا ان من صالح سياستها زيادة التقرب بين (عرابى باشا) وبين الحضرة السلطانية وزيادة النفور بين عزيز مصر وبين جلالة السلطان أشارت على رجال الدولة العلية — الذين لم يسيئوا الظن بالانكليز لحظة واحدة فى الحوادث العرابية كلها — بارسال نيشان لعرابي اظهاراً لرضى جلالة السلطان عنه وامتنانه من خطته وعمله فعمل رجال الدولة باشارة انكلترا وأرسل النيشان المجيدى الاول مع الفرمان الخاص به لعرابى باشا . فكان هذا الانعام تشجيعاً لعرابي وحزبه وتنفيرا للجناب الخديوى من الدولة العلية .

وكان من شأنه أن يحمل عزيز مصر على الالتجاء الى الانكليز

وعند ماتحقق رجال السياسة الانكليزية من أن فرنسا لاتتداخل في مصر تداخلا عسكريا وانها تجتنب ذلك كل الاجتناب أمروا الاميرال الانكليزى (سيمور) بخلق الاسباب الداعية لضرب الاسكندرية. فأرسل هذا الاميرال انذاراً للحكومة المصرية بانها ان لم تكف عن اصلاح الاستحكامات ضرب الاسكندرية لانه يعتبر اصلاح الاستحكامات أو ترميم الطوابي تهديداً للاسطول الانكليزى فأمر الخديوى بناء على أمر الحضرة السلطانية بابطال اصلاح الاستحكامات وعدم ترميم الطوابى . فامتثل رجال الجيش أمره وأبطلوا كل اصلاح وكل ترميم في الاستحكامات والطوابي غير أن الاميرال (سيمور) كان مكلفاً بخلق الاسباب لضرب الاسكندرية فلذلك أرسل انذاراً ثانيا للحكومة المصرية قال لها فيه ان عمالها يقفلون بوغاز الاسكندرية بالاحجار وأنهم ان لم يمتنعوا عن رمي الاحجار أمر أسطوله بضرب الاسكندرية فأجابته الحكومة المصرية بانها لم تأمر مطلقاً باقفال بوغاز الاسكندرية وان عمالها لم يرموا فيه أحجاراً وأن لاحقيقة

البتة لهذه الدعوي . وسمح له وكيل البحرية المصرية بالقبض على كل من يرمى أحجاراً فى البوغاز . ولكن الاميرال (سيمور) لم يقتنع بالحق وأرسل فى يوم ١٠ يوليو عام ١٨٨٢ خطابا آخر للحكومة المصرية ادعى فيه كذبا أنها تشتغل بوضع مدافع جديدة فى طابية صالح والمكس وقائد بك وأنذرها انها أن لم تسلمه جميع المدافع والاسلحة الموجودة فى طوابى الاسكندرية من العجمي الي قائد بك ضرب الاسكندرية !

ولما علم قناصل الدول بالاسكندرية بتهديدات الاميرال (سيمور) للحكومة المصرية كتبوا اليه كتابا سألوه فيه أن يمتنع عن ضرب الاسكندرية لان هذا العمل يضر بمصالح الاوروبيين كافة ويدمر منازلهم وأملاكهم وتعهدوا له بالاتفاق مع الحكومة المصرية على ما يرضيه . فأجابهم الاميرال بأن منازل الاوروبيين وأملاكهم ستكون فى مأمن من الخطر لانه لا يقصد الا تدمير طوابى الاسكندرية . وكان يريد الاميرال (سيمور) بهذا الجواب تطمين خواطر القناصل ولكنه كان يعمل لتدمير الاسكندرية كلها وتكليف الحكومة

المصرية بدفع الغرامات الطائلة

وقد عقد المغفور له (توفيق باشا) مجلسا من الوزراء تحت رئاسته في يوم ١٠ يوليو لتقرير ما يلزم عمله نحو الاميرال (سيمور) وحضر هذا المجلس (درويش باشا) المندوب العثمانى العالى واتفق كل الحاضرين فى المجلس على ارسال ناظر المالية وناظر الخارجية ووكيل البحرية وأحد رجال المعية الى الاميرال (سيمور) ليبلغوه أن طوابي صالح والمكس وقائد بك هي كما كانت في عهد ساكن الجنان (محمد على باشا الكبير) وانه ليس بها أشغال ولم توضع فيها أسلحة ولا مدافع جديدة وان الحكومة المصرية تقبل انه (أي الاميرال سيمور) يطلع عليها . فتوجه الاربعة المذكورون وأبلغوا الاميرال (سيمور) هذا الجواب فلم يقتنع به بل كرر طلبه الاول بشأن تسليمه الاسلحة والمدافع الموجودة فى الطوابى . فلما عرض هذا الطلب على سمو الخديو وعلى النظار أقر رأى الجميع على ان قبوله يكون عاراً كبيراً على مصر وانه اذا أطلقت السفن الانكليزية على

الطوابى أجابتها الطوابى بعد خروج خمس أو ست طلقات من مدافع السفن الانكليزية حتى تقع المسؤولية كلها على الاسطول الانكليزى وأرسلت الحكومة المصرية في مساء ١٠ يوليو عام ١٨٨٢ كتابا الى الاميرال (سيمور) قالت له فيه « انها لم تعمل شيئا ما يستوجب اعتداء الاسطول الانكليزى على ثغر الاسكندرية وانها محافظة علي شرفها ومقامها لا تقبل مطلقا تسليمه الاسلحة والمدافع الموجودة فى الطوابى وانها تلقى مسؤولية النتائج الوخيمة التى ستنتج من ضرب الاسكندرية على الامة التى اعتدت بغير سبب وبدون اعلان الحرب بينها وبين مصر على الاسكندرية مخالفة فى ذلك القانون العام ونواميس الحرب »

ولما علم المسيو (فريسينيه) وزير خارجية فرنسا بالأنذار الاخير الذى أرسله الاميرال « سيمور » للحكومة المصرية . أمر الاسطول الفرنساوى — الذى كان واقفا في مياه الاسكندرية بجوار الاسطول الانكليزى — بالابتعاد عن الأسكندرية والسفر الى بور سعيد. وبذلك قضت فرنسا

على مصالحها فى مصر وخالفت سياسة قرن كامل وارتكبت أكبر خطأ سياسى في تاريخها . ولقد تحمل المسيو « فريسينيه » تبعة هذا العمل وصار مبغوضا فى أمته واتهمه الكثيرون من الفرنساويين بالخيانة وبانه باع شرف فرنسا لانكلترا . ولكن للحوادث العرابيـة ولسياسة الدول فيها أسرار لم يكشفها لنا التاريخ الى اليوم . وعلى كل حال فان المسيو « فريسينيه » اتبع فى الحوادث العرابية سياسية خرقاء وأوجد لبلاده مشكلة لا تنقص عن مسئلة الالزاس واللورين أهمية وخطارة

وقد أرسل اللورد غرانفيل في مساء ١٠ يوليه مذكرة للدول الاوروبية أخبرها فيها « بان ضرب الاسطول الانكليزي للاسكندرية ليس الا دفاعا اقتضته الضرورة وان انكلترا لا تنوى ضد مصر شيئاً آخر » . فما هى الظروف التى اقتضت ضرب الاسكندرية وما هذا الدفاع ؟ ألم يكن الاسطول الفرنساوى واقفا بجوار الاسطول الانكليزى فلم لم يدع أن طوابى الاسكندرية تهدده ؟ ألم

تكن سفن ايطاليا والنمسا واقفة فى مياه الاسكندرية فلم لم تدع أن طوابى الاسكندرية تهددها وانه يجب عليها الدفاع عن نفسها ؟ ألم يعترف قناصل الدول بالاسكندرية بأن الحكومة المصرية اتبعت مع الأميرال (سيمور) تساهلا لا مثيل له وانها لم تهدد أسطوله أبدا ؟ ألم تسمح الحكومة المصرية للاميرال « سيمور » بالقبض على كل من يرمى أحجاراً فى قنال الاسكندرية ؟ ألم تسمح له بتفتيش طوابى الاسكندرية ؟ وهل أطلقت طوابى الاسكندرية مدافعها على الاسطول الانكليزي حتى اضطر للمدافعة عن نفسه ؟

ان هذه الرواية المحزنة لعار كبير على دولة تدعى محبة الانسانية ولفضيحة تبقى حديثا للامم على تعاقب الايام والسنين

وما طلعت شمس يوم الثلاثاء ١١ يوليو عام ١٨٨٢ — وهو أسوء أيام مصر وأشقاها — حتى أطلقت السفن الانكليزية كلها المدافع على الطوابى المصرية وبعد خروج نحو ١٥ كلة من مراكب الاسطول الانكليزى أجابتها الطوابى المصرية واستمر الفريقان على اطلاق الكلل مدة

عشر ساعات متوالية حتى تهدمت الطوابى كلها وتدمر جزء من سراي رأس التين واحترقت منازل عديدة . وقد اجتمع مجلس النظار فى مساء ذلك اليوم العبوس تحت رئاسة سمو الخديو وقرر أنه اذا استمر الاسطول الانكليزى على اطلاق الكلل رفعت الرايات البيضاء علامة على طلب اجراء المخابرات السلمية وفى صبيحة ١٢ يوليو ابتدأت المراكب الانكليزية تطلق المدافع على مدينة الاسكندرية نفسها ثانيا — وليتذكر القارىء أن الاميرال (سيمور) حقق لقناصل الدول بان اسطوله لا يتعرض للمدينة بسوء فرفعت الرايات البيضاء وانقطع بذلك ضرب الاسطول الانكليزى لمدينة الاسكندرية . وذهب طلبه باشا الى الاميرال (سيمور) فقابله أحد ضباط الاسطول وأخبره بان الاميرال الانكليزى يطلب صدور أمر الخديو قبل الساعة الثالثة بعد الظهر بتسليمه طابية العجمى وطابية المكس وطابية العرب لجعلها معسكرا للجنود الانكليزية . فعاد طلبه باشا وأخبر الخديو والنظار بطلب الاميرال الانكليزى . فلما علموا به قرروا ارسال

تلغراف للحضرة السلطانية لعرض الامر عليها اذ لا يمكنهم
تسليم أرض من أراضى مصر لدولة أجنبية بغير امر الدولة
العلية وكلفوا طلبه باشا بتبليغ ذلك للاميرال (سيمور) . غير
أن الوقت الذى حدده الاميرال لانتظار الجواب كان قد
فات وترك مندوب الاميرال في ديوان البحريه المصرية خبرا
بأن الاسطول الانكليزى سيضرب الاسكندرية مرة ثانية
وعندئذ أمر المغفور له الخديو السابق «عرابي باشا» بارسال
الجنود المصرية الى جهة طابية العجم لمنع العساكر الانكليزية
من الخروج الى البر واحتلال ساحل مصر . فلم يتبع (عرابي
باشا) أمر الخديو واعتذر بأن الارض هناك مكشوفة وان
مقذوفات المراكب الانكليزية لاتمكن العساكر المصرية
من الدنو الى البحر

ولما علمت أهالي الاسكندرية بعزم الاسطول الانكليزى
على ضرب المدينة هاجت وماجت وأخذ الكل يهاجرون
واضطربت أحوال الاسكندرية وانتشر السفلة والاشرار
واللصوص في المدينة حتى سلبوا كل شيء في أسواقها ورأت

مدينة الاسكندرية الزاهرة يومئـذ مالم تعهده من قبل في تاريخها . وهكذا قضت بريطانيا المتمدينة ان يضرب اسطولها مدينة آمنة مطمئنة كان الاوروبيون والمصريون يعيشون فيها كالاخوة وان يعود الى ضربها مرة ثانيـة حتى انتشرت الفوضى فيهاوعم الفزع أرجاءها وهاجر منها أهلها وسكانها

وقد كـثر عندئذ تجمع العساكر المصرية حول سراى الخديو بالرمل حتى ظن العزيز أن (عرابى باشا) يريد الفتك به ورأى ان ملجأه الوحيد انما هي انكلترا ! ويقول « عرابى باشا » ان تجمع العساكر حول سراى العزيز كان بقصـد المحافظة على حياة سموه . وبعد ضرب الاسكندرية بأيام قلائل توجه المغفور له (توفيق باشا) الى سراى الاسكندرية تحت حرس انكليزى

أما (عرابى باشا) فقد غادر الاسكندرية وجمع الجيش فى جهة (ايكنجي عثمان) وابتدأت العساكر فى عمل المتاريس وأخذ الاحتياطات اللازمة. وأعلن وقتئذ فى كافة أنحاء مصر أن البلاد صارت فى حالة عرفية لوجودها فى حالة الحرب

وتشكل مجلس حربي في نظارة الجهادية تحت رئاسة وكيلها للنظر في جميع المسائل والقضايا . وفي يوم ١٧ يوليو أرسل الخديو تلغرافا لعرابي باشا يخبره فيه بأن الصلح تم بين مصر وبين الاميرال الانكليزي ويأمره بالسفر لمقابلة سموه بالاسكندرية فطلب (عرابي باشا) تلغرافيا من سمو الخديو أن يرسل اليه بشروط الصلح فلم يجبه العزيز بشيء لعدم اتباعه أمره بالسفر للاسكندرية . وعندئذ أرسل الخديو لجميع مصالح الحكومة ولنظارة الحربية بأن عقد الصلح تم بين مصر وانكلترا وان الاستعداد للحرب غير واجب فاجتمع بنظارة الحربية تحت رئاسة وكيلها مجلس من وكلاء النظارات ورؤساء الدواوين والمصالح والعلماء والاعيان للمداولة في الامر وقرروا ارسال وفد يدعو الخديو للحضور الى القاهرة فسافر الوفد وعاد مخبرا (عرابي) وأعضاء المجلس بأن الخديو لا يمكنه مبارحة الاسكندرية الا باذن خصوصي من الانكليز فازداد حقد العرابيين على المغفور له (توفيق باشا) ونادى بعضهم بعزله . وكان وقتئذ (مصطفى باشا فهمي) — رئيس

الوزارة المصرية الآن — من أشد الناس ميلا لعرابى وأكثرهم مجاهرة بالانتصار لعمله وخطته !

وفي يوم ٢٠ يوليو عام ١٨٨٢ أصدر سمو الخديو اعلانا بعزل (عرابى) بحجة انه لم يتبع أمره ولم يرسل العساكر الى جهة العجمي لمنع الجنود الانكليزية من النزول الى البر وانه أخذ الجيش وتوجه الى كفر الدوار بغير اذن العزيز . وابلغ سمو الخديو تلغرافيا أمره الصادر بعزل (عرابى) الى وكيل الحربية وأمره بابطال التجهيزات العسكرية . فجمع وكيل الحربية مجلسا حافلا حضره بعض أمراء العائلة الخديوية وأغلب العلماء ووكلاء النظارات ورؤساء جميع المصالح ووكلاؤها والمديرون وقضاة المديريات والمفتيون وكثير من أعيان الامة وفضلائها . وكان عدد الذين حضروا هذا المجلس يزيد عن خمسمائة نفس وقد عرض عليهم وكيل الحربية تلغراف الحضرة الخديوية فقرروا بعد المذاكرة والمناقشة أن لا يتبع للخديو أمر وان يكلف (عرابى باشا) بالدفاع عن البلاد وصد الانكليز عنها وقرروا كذلك تشكيل

مجلس ادارى للنظر فى أحوال البلاد وحفظ النظام فيها .
وختموا جميعا هذا القرار وأرسلوه للحضرة السلطانية وأبلغوه
رسميا لعرابى باشا

فكان الخديو وقتئذ مع الانكليز فى الاسكندرية
والامة كلها مع الجيش ضده وضدهم

هـذا ماجرى فى مصر بعد ضرب الاسكندرية إما
فى أوروبا فقـد أحـدث ضرب الاسكندرية اندهاشا عاما
وأرسلت الدولة العلية فى مساء ١١ يوليو نفسه لكافة الدول
الاوروبية احتجاجا ضد عمل الاسطول الانكليزى وسألتها
الاهتمام بالامر . فقرر أعضاء اللجنة الدولية بالاستانة ولم
يخالفهم مندوب انكلترا فى ذلك لعلمه بان سـواس تركيا
سيعملون بنصيحة دولته في ١٥ يوليو عام ١٨٨٢ إرسال مذكرة
للباب العالى يكلفون فيها الدولة العلية باسم أوروبا بارسـال
جنودها لاحتلال مصر على شرط أن الدول تحدد أختصاصات
القائد العثمانى الذى يرسل على رأس الجنود وأن لا يتداخل
هذا القائد فى ادارات مصر وأن لا يكون لهـذا الاحتلال

تأثير على امتيازات مصر الممنوحة لها بمقتضي الفرمانات السلطانية والاتفاقيات الدولية وأن تتفق الدول على نفقة مصر وقد أرسلت هذه المذكرة الى الباب العالى في مساء يوم ١٥ يوليو ولبثت الدول منتظرة الجواب عليها . وكان ولا محالة من مصالح تركيا ومن مصالح مصر أن تقبل الدولة العلية تكليف أوروبا لها باحتلال مصر وترسل جنودها المظفرة الى بلادنا العزيزة ولكن قضى على سواس تركيا أن يتبعوا نصائح الانكليز حتى بعد ضرب الاسكندرية ويجيبوا مندوبى الدول بأن قبول تركيا لتكليف أوروبا لها باحتلال مصر يعد ماسا بحقوق الدولة التى هى صاحبة السيادة على مصر والتى لها الحق فى ارسال جنودها اليها بغير تكليف من أوروبا. ولا يدهش القارىء أن انكلترا كانت ذات وجهين فى سياستها فهذه عادتها ومن القواعد الثابتة عند سواسها أن ارتكاب الامور الدنيئة فى سبيل الوصول الى غرض كبير يعد أمراً شريفاً فسواس بريطانيا كانوا يفهمون تركيا أن أوروبا تريد السوء لها وأنهم لم يشتركوا مع مندوبى اللجنة الدولية بالاستانة الا

ليقفوا على نواياهم ويعرقلوا مساعيهم

وفى هذه الاثناء طلبت الحكومة الفرنساوية من مجلس النواب الفرنساوي تقرير المبالغ اللازمة لتجهيز السفن استعداداً للطوارىء وبقصد حماية قناة السويس عند الحاجة فدارت المناقشة بسبب هذا الطلب على مسئلة مصر وتعاقب الخطباء على منبر الخطابة منددا بعضهم بالوزارة ومصوبا البعض الآخر خطتها وانتهت الجلسة بقبول طلب الحكومة وتقرير المبالغ اللازمة . ولم يكلف المجلس الوزارة باتباع خطة مخصوصة فى مصر كما أنه لم يظهر موافقته على سياستها بل انتظر نتائج هذه السياسة

وقبل ان يبعث الباب العالى بجوابه على مذكرة أعضاء اللجنة الدولية المرسلة اليه فى ١٥ يوليو عرض مندوبا فرنسا وانكلترا على اللجنة تعيين الدولة أو الدول التى يجب عليها المحافظة على قناة السويس . ولكن أعضاء اللجنة انتظروا جواب تركيا على مذكرة ١٥ يوليو . وقد أرسل (سعيد باشا) للجنة الدولية فى ١٩ يوليو جواب الدولة العلية على مذكرة ١٥

يوليو وهو عبارة عن قبول تركيا الاشتراك مع مندوبي الدول فى مداولاتهم بشأن مصر . ولم يذكر شيء ما عن قبول الدولة أو رفضها تكليف الدول لها باحتلال مصر . فهي بعد أن رفضت الاشتراك مع أعضاء اللجنة قبلت الاشتراك معهم وبعد أن كلفتها أوروبا باحتلال مصر أهملت هذا التكليف وأخذت تتناقش مع أعضاء اللجنة ! ومن الاسف الشديد أن يدون التاريخ هذه السياسة التى لم تخدم الا الاغراض البريطانية مع أن سواس تركيا أشتهروا فى كل الحوادث والازمات بالدهاء العظيم

وقد جرت المناقشة حينئذ في يوم ٢٥ يوليو عام ١٨٨٢ فى مجلس الشيوخ الفرنساوى بعد أن جرت فى مجلس النواب. فقبل المجلس تقرير المبالغ اللازمة لتجهيز السفن وتقوية البحرية ولكنه وجه الى الوزارة أشد الملام والتعنيف على سياستها في المسئلة المصرية . وبعد أن أقر مجلس الشيوخ على طلب الحكومة عرض المسيو (فريسينيه) على مجلس النواب الفرنساوى تقرير مبلغ تسعة ملايين ونصف من الفرنكات

لحماية قناة السويس فعين المجلس لجنة للنظر فى هـذا الطلب والمناقشة مع الحكومة وتقديم تقرير للمجلس . وكان المسيو « فريسينيه » مختلفا فى الرأى مع الاميرال « زوريجيبرّى » وزير البحرية بشأن احتلال قناة السويس . فكان هو يرى ان الجنود الفرنساوية يجب ان لاتحتل الا الشاطىء الشمالي للقنال وكان وزير البحرية الفرنساوية يرى ضرورة احتلال الجنود الفرنساوية لمدينة « الزقازيق » . ولما علمت اللجنة التى عينها مجلس النواب لدراسة مشروع احتلال قناة السويس باختلاف الوزيرين فى الرأى وبأن أوروبا لم ترض تكليف فرنسا وانكلترا باحتلال القناة وتركتهما يتحملان مسؤلية أعمالهما رفضت تقرير مبلغ التسعة ملايين ونصف وأظهرت برفضها هـذا عدم موافقتها على خطة الوزارة وسياستها .

ولما دارت المناقشة فى مجلس النواب الفرنساوى يوم ٢٩ يوليو عام ١٨٨٢ على طلب مبلغ التسعة ملايين ونصف قام المسيو « فريسينيه » وشرح سياسته فى المسئلة المصرية ـ التى عرفها القارىء من مبدئها ــ وسأل المجلس اعلان ثقته بالوزارة

فقام الخطباء واحدا بعد واحد وكلهم نددوا بسياسة «فريسينيه»
وبعد انتهاء المناقشة كرر المسيو « فريسينيه » طلب الاقتراع
على الثقة بالحكومة فأقر المجلس بأغلبية ٤١٧ صوتا ضد ٧٥
صوتا على عدم ثقته بالوزارة وسقط بذلك المسيو « فريسينيه »
واعضاء وزارته . ولو كان مجلس النواب الفرنساوى تنبه
لخطأ وزارة « فريسينيه » فى سياستها وأسقطها قبل ضرب
الاسكندرية لكانت نجت مصر من مصائبها وخرجت فرنسا
من الازمة ظافرة . الا أن المجلس ترك المسيو (فريسينيه)
في الوزارة مؤملا سيره على خطة قوية وطريق مستقيم
ولكنه لم يتبع الا سياسة خرقاء خدم بها انكلترا أجل خدمة
وأضر بها فرنسا ومصر الضرر الجسيم

وقد أعلنت الدولة العلية اللجنة الدولية بالاستانة ببلاغ
أرسلته اليها فى يوم ٢٨ يوليو عام ١٨٨٢ — أي قبل سقوط
وزارة فريسينيه بيوم واحد — أنها تقبل ارسال جنودها
لاحتلال مصر ولكنها تشترط جلاء العساكر الانكليزية عنها
عند وصول الجنود التركية اليها . فأجاب اللورد (دوفرين)

على بلاغ الدولة العلية بأن انكلترا لا تقبل احتلال الجنود التركية لمصر الا اذا أصدر جلالة السلطان « اعلاناً بعصيان عرابى » ! فهى بعد أن شجعت عرابى وحزبه وبعد أن أوعزت الى تركيا المرة بعد المرة بتشجيع الحزب الوطنى ورئيسه سألت الدولة العلية أن تعلن عصيان عرابي ! وفى الوقت نفسه كتب الخديو الى الاميرال « سيمور » كتابا سمح له فيه باحتلال قناة السويس وبأخذ كل الاحتياطات الضرورية لمنع العرابيين من الوصول اليه . وكان المسيو « دى لسبس » قد وعد « عرابى باشا » بعدم احتلال الجنود الانكليزية لقناة السويس وعداً صريحاً وطلب منه مقابل ذلك عدم احتلال الجنود المصرية له وعدم الاعتداء عليه فقبل (عرابى باشا) طلب المسيو « دى لسبس » وظن ان الانكليز يجتنبون احتلال القناه وفاء بوعد (دى لسبس) ولكن الانكليز من عاداتهم ان يأتوا كل أمر يفيدهم ولو كان فى ذلك مخالفة وعودهم الصريحة وأيمانهم العلنية !

أما اللجنة الدولية بالاستانة فانها تناقشت طويلا فى

اقتراح قدمه المندوب الايطالى يتضمن كل احتلال دول اوروبا لقناة السويس احتلالا مؤقتا فقبلت المانيا والروسيا والنمسا هذا الاقتراح . وكانت الروسيا أشد الدول ميلا للدولة العلية في المسئلة المصرية واكثرها تقربا منها — وقد جرت في ذلك على السياسة التى أوضحناها فى آخر الفصل السالف من انها تصافي تركيا اذا عادتها انكلترا — فعرضت عليها مساعدتها بكل مافى وسعها وتأجيل قبض الغرامة الحربية المتأخرة من حرب عام ١٨٧٧ لكى ترسل جنودها لمصر

وفى ٢ أغسطس عام ١٨٨٢ احتلت الجنود الانكليزية الآتية من الهند مدينة « السويس » ولم تنفذ دول أوروبا مشروع احتلالها لقناة السويس لان تركيا وعدتها باحتلال مصر . وكانت الحكومة العثمانية تتخابر مع اللورد (دوفرين) في عقد اتفاقية حربية بخصوص الاحتلال المشترك لتركيا وانكلترا . وان اتفاق دول أوروبا عندئذ على احتلال قناة السويس وحمايتها يعد اجماعا منها على رفض الاحتلال الانكليزى وعدم الموافقة عليه

وقد جرت مناقشة فى مجلس العموم الانكليزى يوم ١١ أغسطس عام ١٨٨٢ على المسئلة المصريه فصرح المستر (غلادستون) بأن مقصد انكلترا من احتلال مصر هو اعادة السلام فيها وانه سيعرض المسئلة المصرية على دول أوروبا لتسويتها التسوية النهائيه

وفى يوم ١٩ و ٢٠ أغسطس احتلت الجنود الانكليزية بور سعيد والاسماعيلية وأصدر الجنرال (ولسلى) أمره باقفال قناة السويس فى وجه السفن التجارية ليسهل للسفن الحربية الانكليزية المرور فيها وانزال الجنود على شواطئها وقد احتج المسيو (دى لسبس) على عمل الجنرال (ولسلى) ولكن هـذا الاحتجاج لم يفد شيئا ما . ولما انتشر خبر احتلال الجنود الانكليزية لقناة السويس هاجت الصحف الفرنساوية وسخطت على وزارة (فريسينيه) التى أضرت بفرنسا ضررا عظيما . أما الجرائد الالمانية فكانت لهجتها لهجة تهكم بفرنسا التى قضى شقاقها الداخلى على مصالحها فى الشرق وكانت تصرح بأن ليس لالمانيا مصلحة في مصر سوى رغبتها

فى مساعدة تركيا صديقتها

وقد جرت الحرب بين الجيش المصرى والانكليزى فى « المحسمة » يوم ٢٥ أغسطس عام ١٨٨٢ وقطع الانكليز على المصريين خط الرجعة فانهزمت العساكر المصرية وكان معهم الشهم الصادق (راشد باشا حسنى) — وليعتبر بهذا الشهم المصريون فانه مع كونه جركسى الاصل انضم الى جيش عرابى عند ماعلم بان الانكليز احتلوا الاسكندرية وأنهم عازمون على دخول البلاد المصرية وقام للدفاع عن الوطن العزيز ناسيا كراهة الجراكسة للعرابيين وكراهة العرابيين للجراكسة — وعندئذ اتخذ (عرابى باشا) التل الكبير مركزاً له وتتابع ورود العساكر المصرية من القاهرة

ولم يمض الا أيام قليلة بعد هذه الواقعة حتى انهزمت الجنود المصرية في التل الكبير وسار الانكليز على القاهرة وهذا ما ذكره (عرابي باشا) عن واقعة التل الكبير فى تقريره الذي كتبه بعد دخول الانكليز القاهرة وقبل سفره للمنفى حيث قال :

« ومع ذلك حصلت حركتان حربيتان جهة كوبرى القصاصين ثبت فيهما الجيشان ثباتا عظيما وجرح فى ثانيتهما سعادة راشد باشا حسنى فاستبدل بسعادة على باشا الروبي وقبل أن نتمكن من انشاء المتاربس كما ذكر عاجلتنا العساكر الانكليزية والهندية وهاجمتنا السوارى ومعها الطوبجية السوارى التى تطير معها أينما طارت وعلى حين غفلة في ظلام الفجر اشتعلت نيران الطوبجية والبيادة المهلكة من الطرفين مقدار ساعتين ثم أتت فرقة سوارى وطوبجيتها من وراء الجيش فكان ذلك سببا لخذلانه وتشتته في يوم الاربعاء ٢٩ شوال سنة ٩٩ الموافق ١٣ سبتمبر سنة ١٨٨٢ افرنجية . ولما حصل هذا الخذلان توجهت من الجبل الى بلبيس وسوارى الانكليز على مقربة مني وهناك تقابلت مع سعادة على باشا الروبي فتوجهنا الى محطة انشاص ومن هناك ركبنا وابور السكة الحديدية وتوجهنا الى مصر فوجدنا أعضاء المجلس جميعه فى ديوان الجهادية وحضرات البرنسات أيضا حضروا الى الديوان وبعد المداولة والتيقن بان دولة الانكليز لا تريد

الاستيلاء على مصر تقرر انه حيث الامر كما ذكر فلا يلزم مدافعة بعد ذلك اعتمادا على ان دولة الانكليز موصوفة بحب الانسانية والاعتدال وانها متى تحققت من الامر ووقفت على أفكار أهل البلاد لا شك انها تسعى في تحريرهم وراحتهم وحفظهم .... »

وان الانسان لتستولى عليه الدهشة عند ما يقرأ هذه الفقرة ويتساءل كيف ان (عرابي باشا) بعد مذبحة الاسكندرية وبعد ضرب الاسطول الانكليزى لهذا الثغر العزيز كان يثق بالانكليز ويقول عن دولة انكلترا انها موصوفة بحب الانسانية والاعتدال وان لا لزوم للدفاع عن مصر ما دامت انكلترا هى الداخلة فيها ؟ فهل كان (عرابى باشا) يعتبر مذبحة الاسكندرية عملا لائقا بدولة موصوفة بحب الانسانية والعدل ؟ أو هل كان يعتبر ضرب الاسكندرية دليلا على حسن نوايا الانكليز نحو مصر ؟

لاريب ان الانكليز قد استطاعوا ان يخدعوا بدهائهم تركيا كما قدمنا وان يخدعوا عزيز مصر ورجال الحزب الوطنى !

وفى أثناء اشتعال نيران الحرب بين عساكر مصر وجنود بريطانيا كان الباب العالي يتخابر مع اللورد (دوفرين) فى عقد الاتفاقية الحربية وكان هذا الاخير يبذل جهده فى تأخير سفر الجنود العثمانية ويقدم كل يوم شرطا جديداً ويغير كل يوم مادة من مواد الاتفاقية ويلح على الدولة بضرورة « اعلان عصيان عرابى » . وقد بلغ اللورد (دوفرين) متمناه وأصدر جلالة السلطان فى يوم ٥ سبتمبر عام ١٨٨٢ منشوراً أعلن فيه « عصيان عرابى » وأمر الجنود المصرية وسائر المصريين بعدم اتباعه فى أمر من الامور ولا ينس القارىء ان الدولة العلية عضدت قبل ذلك (عرابى) كثيرا وان الحضرة السلطانية أنعمت عليه بالنيشان المجيدى الاول اظهارا لرضاها عنه !

ولا ريب ان هذا الاعلان ـ الذي صدر قبل واقعة التل الكبير باسبوع واحد ـ كان من شأنه أن يضعف همم الجنود والاهالى فان الجميع كانوا يعتبرون (عرابى) مدافعاً عن حقوق جلالة السلطان في مصر وحائزا لرضى جلالته .

واذا أضفنا الى ذلك ان الخديو السابق كان مع الانكليز ضد (عرابى) وانه كان متفقا معهم على خططهم الحربية وأنه أرسل معهم ضباطا مصريين لارشادهم فى سيرهم أدركنا حرج الموقف الذى صار اليه (عرابي) في آخر الحوادث العرابية وقبل انهزام الجيش الهزيمة النهائية.

وقد كان الباب العالى لايزال يؤمل احتلال مصر والاتفاق مع الانكليز ولكن الجنود الانكليزية دخلت القاهرة فى ١٤ سبتمبر عام ١٨٨٢ وبعد دخولها بثلاثة أيام أعلن اللورد (دوفرين) الباب العالى بأن لاحاجة لسفر الجنود التركية لمصر !!!

وهكذا خدعت انكلترا الدولة العلية. فانها أوعزت اليها بتعضيد «عرابى» عند ما كان من مصلحتها تعضيده وخلق أسباب الشقاق والنفور بين المصريين وبعضهم وبين الحزب الوطنى وسمو الخديو. ولما رأت أن مصلحتها تقضى عليها باعلان الحضرة السلطانية لعصيان «عرابى» سألت الدولة ذلك وأجيب سؤالها. ولما كانت دول أوروبا الدولة

العلية رسميا باحتــلال مصر لم تجبها الدولة لطلبها بل قبلت الاشتراك فى مداولات اللجنة الدولية بالاستانة بعد أن رفضت ذلك . ولما ألحت عليها اللجنة باحتلال مصر وقبلت هذا الاحتلال قضت زمنا طويلا فى مخابرة اللورد «دوفرين» بشأن عقد اتفاقية عسكرية ولم تعجل بارسال جنودها لمصر وتركت سواس انكلترا يخدعونها أكبر خديعة ! وهو درس تاريخي يجب ذكره وتذكره في كل فرصة وفى كل آن . فان انكلترا لاتضر باعدائها الظاهرين مثل ماتضر بمن تتظاهر لهم بالصداقة

وبعد دخول الانكليز القاهرة أصدر الخديو أمراً بالغاء الجيش المصرى وشرع بالاتفاق مع الانكليز فى انشاء جيش جديد يكون تحت أمرة ضباط من الانكليز

وقد رأي الانكليز بعد احتلالهم لمصر أن بقاء المراقبة الثنائية يعوق سيرهم ويضايقهم فى أغراضهم فقرروا الغاءها ولذلك أعلن السير كولفين المراقب الانكليزى في ٣٠ اكتوبر عام ١٨٨٢ الحكومة المصرية « بأنه بناء على أمر وارد اليه

من حكومته لايحضر من ذلك اليوم فصاعداً جلسات مجلس النظار » فكان فى الحقيقة هذا الاعلان الغاء للمراقبة الثنائية لانها كانت زوجية والمراقب الفرنساوى وحده لايستطيع تكوينها . وبذلك اعتدت انكلترا على نفوذ فرنسا فى مصر وابتدأت فى أعمالها العدائية ضدها

وقد سلم (عرابى باشا) ورفقاؤه أنفسهم الى الجنرال (لو) بعد دخول الانكليز القاهرة وجرت محاكمتهم أمام مجلس عسكرى وكان المدافعون عن (عرابى) محامين من الأنكليز . وجرت المحاكمة بغاية السرعة وبعد أن حكم على (عرابى) وزملائه بالاعدام صدر أمر الخديو بتغيير الحكم بالنفى المؤبد. وكان دولتلو (رياض باشا) وزيرا للداخلية وقتئذ فلما رأي أن المحاكمة جرت بغاية السرعة ولم تظهر المسؤولية الحقيقة فى الحوادث العرابيه خلافا لرأيه قدم استعفاءه واعتزل الوزارة

وبذلك أنتهت الحوادث العرابية المحزنة وخابت آمال المصريين وأفلح الانكليز فى سياسة الخداع والكذب

والافتراء التي أتبعوها لاحتلال مصر وبلوغ غاياتهم وتحقيق مآربهم

*
* *

لقد أختلف المصريون والناس كافة في الحكم على الحوادث العرابية وتوزيع المسؤلية على الاشخاص الذين كان لهم يد فيها . فمن قائل أن (عرابى باشا) كان متفقا مع الانكليز علي تسليمهم مصر أي أنه كان خائنا لوطنه فاقد الذمة والشرف وهو قول أراه غير صحيح بالمرة فان الرجل كان سليم النية وغاية ما يؤخذ عليه أنه تعجل كثيراً وأنخدع كثيراً . ومن قائل أن (توفيق باشا) كان متواطئا مع الانكليز من بادىء الامر وكان يتظاهر بأنه لم يجد حيلة للتخلص من الحزب العرابي الا بدعوة الانكليز لاحتلال مصر . وهو قول غير صحيح أيضا فان (توفيق باشا) كان يعلم أن مصيبة الامم هي تداخل الاجانب في أمورها وكان يود لو لا محالة استقامة الاحوال بغير تداخل أجنبي ولكنه أفهم بعد ضرب الاسكندرية أن العرابيين يريدون خلعه أو الفتك به وأن الدولة العلية مساعدة

لهم على ذلك فلما لم يجد نصيراً من قومه ينصره ضد العرابيين ألقى بنفسه بين أيدى الانكليز محافظة على ملكه وعلى حياته.
ولا ريب أن المغفور له (توفيق باشا) كان متألما من الاحتلال الانكليزى غاية التألم والذين سمعوه يشكو منه يمكنهم أن يشهدوا بذلك أمام التاريخ. والا فهل يعقل أن أميراً من سلالة (محمد علي) يرضى عن طيب خاطر بتسليم ملكه وبلاده لدولة أشتهرت بالشره والاطماع؟ وإنما غاية ما يؤخذ به على المغفور له (توفيق باشا) فى كل حياته هو أنه كان كثير الميل للتسلم حتى أنه كان يضعف فى بعض الظروف ويظهر مستسلما. ولا شك أنه لو كان شديد الحزم قوى الارادة لكانت نجت مصر من أخطار كثيرة

ومع ذلك فانه يتعذر على المؤرخ أن يقدم لقرائه حكما صريحا على الحودث العرابية وعلى الاشخاص الذين كان لهم شأن فيها. فان هنالك أسراراً كثيرة لا تزال مستورة لو ظهرت وانكشفت لتغير الحكم على أمور جمة وعلى أشخاص عديدين
وعلى كل حال فان العبرة التاريخية التى تظهر للعيان من

الحوادث العرابية هى أن الشقاق سبب ضياع الامم وسبب دمارها فلولا الشقاق بين الحزب العرابى والجراكسة ما أوجدت الحوادث العرابية . ولولا الشقاق بين الحزب العرابى والمغفور له (توفيق باشا) ما كبرت الحوادث وتجسمت وتداخلت انكلترا فى الامر. ولولا الشقاق بين جلالة السلطان والخديو السابق ما وثقت الدولة العلية بانكلترا وما شجعت الحزب العرابى وما لجأ المغفور له (توفيق باشا) الى الانكليز وبالجملة لولا ذلك الشقاق المشؤوم ما احتل الانكليز مصرنا العزيزة

فيجب أذن على سائر المصريين أن يتحدوا كل الاتحاد فيما بينهم وأن لا يتركوا للاجانب والدخلاء وسماسرة السوء والفساد سبيلا لالقاء بذور الشقاق بينهم وبين بعضهم. فنحن اليوم أمام أعداء كبار يعملون بالاتحاد بالرغم عن قوتهم فكيف بنا ونحن أقل منهم قوة ؟ انه ليجب على كافة أبناء مصر أن يتعلقوا بسمو الخديو المعظم أشد التعلق وان يدافعوا عن أريكته ولو ماتوا عن آخرهم فى سلامة الخديوية الجليلة

سلامة الوطن العزيز وكل سوء يمس عزيز مصر يمس مصر نفسها . وليس الحزب الوطني في مصر الآن ذا أميال مناقضة لاميال العزيز بل الرئيس الحقيقي لهذا الحزب — أى للامة كلها — هو سمو الخديو (عباس حلمى باشا الثاني) الذى أيقظ العواطف الوطنية في بلاد مصر ونبه الامة عن بكرة أبيها الى حقوقها المقدسة

ويجب على المصريين فوق ذلك أن يتمسكوا أشد التمسك بالرابطة الاكيدة التى تربطهم بالسلطنة العثمانية. وقد أدرك سمو الخديو المعظم هذا الواجب قبل كل انسان فجدد أكيد الصلة بين مصر والدولة العلية وملأ بذلك قلوب المصريين أملا في المستقبل وفي نجاة الوطن العزيز

*
* *

ما احتلت انكلترا مصر حتى أعلن سواسها ووزراؤها ان هذا الاحتلال مؤقت لا تريد به الدولة البريطانية سوأ لمصر وانها أرسلت جنودها الى وادى النيل لتوطيد دعائم العرش الخديوى ولترقية شأن الامة المصرية وانها متى أتمت

مأموريتها تركت البلاد لاهلها يديرون أمورها بغير سلطة أجنبية وبدون تداخل أجنبي. وان الكاتب لو أراد أن يسرد تصريحات وزارة انكلترا وسواسها بشأن مصر ووعودهم العلنية بالجلاء عن بلادنا العزيزة لملأ الصحف بهذه التصريحات وبهذه الوعود . فكم من مرة قام اللود « سالسبورى » وأمثاله ونادوا على مسمع من أمتهم ومن أمم العالم كلها بأن شرف انكلترا يقتضى الجلاء عن مصر وان هذا الشرف الرفيع لا يسلم الا باعطاء المصريين بلادهم وتسليمهم زمام الامور فيها . وكم من مرة وقف رجال الحكومة البريطانية وأشهدوا العالمين على انهم انما يخدمون المدنية والانسانية فى مصر وأن الجلاء أمر مقرر . وكم من مرة أقسم ساسة بريطانيا بالشرف البريطانى وبتاج جلالة الملكة أن مآل مصر للمصريين وان الجنود الانكليزية خارجة من بلاد النيل بعد استتباب الامن فيها وتوطيد مركز الامير . وكم من مرة قال المستر (غلادستون) بصوته الرنان « ان امتلاك مصر شىء جميل ولكن الوفاء بوعود بريطانيا أشرف وأجمل »

وآخر تصريح من هاته التصريحات الجميلة هو الكتاب الذي بعث به الى المستر (غلادستون) فى يناير عام ١٨٩٦ وقال فيه :

« أما آرائى فانها لم تتغير قط وهي دائما انه يجب علينا ان نترك مصر بعد أن نتمم فيها بكل شرف وفى فائدة مصر نفسها العمل الذي من أجله دخلناها

وان زمن الجلاء عن مصر على ما أعلم قد وافى منذ سنين

ولما كنت فى منصبي أخيرا أملت مساعدة الحكومات الاخرى توصلا الى تسوية هذه المسئلة (المصرية) المهمة . والسلوك الذى اتبعه المسيو وادنجتون (سفير فرنسا بانكلترا وقتئذ) في عام ١٨٩٢ شجع أملي غير ان المخابرات لم تخط خطوة واحدة مع عظم ماأملنا اذ ذاك . ولست أدرى لاي سبب . . . »

فاعترف المستر (غلادستون) بنفسه فى هذا الكتاب بان زمن الجلاء قد وافى أى أن العمل الذي من أجله دخلت انكلترا مصر قد تم مند سنين . فلماذا لم تسحب

انكلترا عساكرها من مصر ؟ ؟

وقد اغتر الكثيرون من المصريين ومن سواس أوروبا أنفسهم في مبدأ الاحتلال بهذه التصريحات الجميلة والوعود الصريحة وظنوا أن انكلترا التي دبرت مذبحة الاسكندرية بأسفل الوسائل والتي ضربت الاسكندرية بطريقة يأباها التاريخ وتعافها نفوس الامم كافة والتي لطخت شرفها في الحوادث العرابية بدسائسها وخداعها ونفاقها أرادت أن تقدم للنوع البشري بعد الذي عملته ضد مصر مثلا من أمثال مدنيتها وبرهانا على صدقها في وعودها واحترامها لشرفها

ولكن أعمالها في مصر برهنت على أن وعودها الصريحة وعهودها العلنية لم تكن الا ستارا لاطماعها ورمادا القته في أعين سواس أوروبا وفي أعين المصريين ودلت خطتها في بلادنا الاسيفة على أن عبارات (الشرف البريطاني) و (تاج جلالة الملكة) و (مقام الامة البريطانية) التي كنا نحسبها مقدسة يصح لسواس بريطانيا أن يستعملوها للتعمية والتغرير ! فلقد اتبعت انكلترا في مصر سياسة واحدة ثابتة

هـذه مبادئها : أولا . هدم كل سلطة أوروبية وقتل كل نفوذ أجنبي « غير انكليزى » فى مصر

ثانيا . قتل النفوذ المعنوى لجلالة السلطان الاعظم فى مصر وقطع الروابط التى تربط مصر بالدولة العلية شيأ فشيأ

ثالثا . سلب الجناب الخديو سلطته والاستيلاء على الادارات المصرية وطرد المصريين من الوظائف السامية وتعيين الانكليز مكانهم

رابعا . خلق الاضطراب فى مصر وايجاد الاسباب الموجبة لدوام الاحتلال

خامسا . نشر النمائم والاكاذيب فى أوروبا على المصريين

فلقد اعتدت انكلترا على حقوق فرنسا فى مصر وطاردت الفرنساويين فى المصالح بكل قوتها وعملت على اضعاف اللغة الفرنساوية فى المدارس ونشر اللغة الانكليزية ولم يكفها الاعتداء على نفوذ فرنسا بل اعتدت كذلك على كل حقوق أوروبا وأعمالها الحديثة فى صندوق الدين واظهرت لكل الدائنين وحملة القراطيس انها اذا استولت على مصر

(لاقدر الله) بصفة نهائية قضت على حقوقهم ومصالحهم أشد قضاء. وخطتها فى الهند وفى سائر مستعمراتها تبين جليا انها اذا صارت صاحبة الكلمة الوحيدة فى مصر قتلت تجارة أوروبا ووارداتها فى بلادنا وحرمت كل اوروبي المعيشه و التكسب على شواطىء نهر النيل. وهو أمر يعرفه كل الاجانب فى مصر وقد كانت انكلترا في السنين الاولى للاحتلال معتمدة كل الاعتماد في المسئلة المصرية على المانيا ولكن هذه الدولة عرفت فى الايام الاخيرة ان انكلترا هي أكبر عدو لها وقد قضت عليها مصالحها الصناعيه والتجارية ان تنافسها فى كل بلد وفي كل ثغر وان تقدم المانيا فى الاستعمار لحادث من أهم حوادث السياسة العصرية فانه سيجعل العداوة بين انكلترا والمانيا في مصر قوية شديدة مستمرة. ومن يعش ير

فلم يبق اليوم أحد من الاوروبيين يعتقد ان انكلترا تخدم فى مصر المصالح الاوروبية وان بقاءها في بلادنا وازدياد نفوذها وسلطتها لا يضران بأوروبا

وكما ان الانكليز وجهوا عنايتهم لقتل نفوذ أوروبا فى

مصر فانهم عملوا مافي استطاعتهم لتنفير المصريين من الدولة العلية ومن جلالة السلطان الاعظم . فأوعزوا الى فئة من الدخلاء الذين لا وطن لهم ولا شرف ولا عقيدة بالطعن على جلالة الخليفة الاكبر والسلطان الاعظم وتشويه أعمال الدولة العلية وأحوالها . ولم يسمحوا بمحاكمة هؤلاء الطاعنين الذين يسبون الامة المصرية وعقيدتها أعظم السباب بطعنهم على خليفة الاسلام وسلطان مصر

ولكن الانكليز لم يفلحوا ولن يفلحوا أبداً فى تنفير المصريين من الدولة العلية . فحب بنى مصر للدولة العثمانية ولسلطانها المعظم حب صادق امتزج بالدم وبالحياة ولا يخرج من قلوبهم الا مع الارواح يوم ترد لخالقها جل شأنه . وقد وهب الله المصريين فى سمو العباس أميراً عالى الذكاء بعيد النظر فقوى دعائم الصلة بين مصر والدولة العلية وحقق بذلك أمانى المصريين عن بكرة أبيهم وبغية العثمانيين أجمع . وما أظهر العباس إخلاصه لسلطانه العلى الشأن حتى حنق الانكليز عليهما ودسوا الدسائس ضد الدولة في كل بلادها وخلقوا المسئلة

الارمنية وأوحوا الى سماسرتهم في الاستانه ببذر بذور الشقاق والبغضاء بين العباس وبين جلالة السلطان الاعظم . ولكن حكمتهما أحبطت المساعي الانكليزية وخرجت انكلترا من المسئلة الارمنية بالفشل والخذلان بفضل السياسة الحميدية النبيلة

والمجهودات العظيمة العديدة التى بذلتها انكلترا للتفريق بين مصر والدولة العلية وتكدير صفاء العلائق بين سمو الخديو المعظم وجلالة السلطان الاعظم هى دليل ساطع على أن فى الاتفاق بين مصر والدولة العلية سلامة مصر وخيبة انكلترا .

ولقد أدعت انكلترا قبل الاحتلال الانكليزي وبعده أن جل أمانيها تقوية السلطة الخديوية فى مصر وترقية المصريين وجعلهم كفوءا لان يحكموا بلادهم بأنفسهم . ولكنها لما أحتلت مصر جرت على نقيض ذلك فعملت على هدم السلطة الخديوية ودك أركانها وملات المصالح والادارات بالانكليز وطردت المصريين من الوظائف السامية . وقد ظهرت أعمال الانكليز فى مصر ونواياهم ظهور الشمس فى رائعة النهار فى عهد سمو

الخديو الحالى (عباس حلمى باشا الثاني) حيث جاء مطالبا
بحقوقه الشرعية متمسكا بحقوق أمته وأستقلالها فعارضته
انكلترا ووجهت اليه على لسان جرائدها وصنائعها الطعن القبيح
وصار الانكليز في مصر يقربون منهم كل دخيل أو كل خائن
يتظاهر بكراهة الامير المحبوب وبمخالفة آرائه واحساساته
ويبعدون عنهم ويعاقبون كل مخلص لسموه . وأصبحت القاعدة
الاولى للتوظف فى بلادنا التعسة هى الجحود للوطنية وكراهة
العزيز . فليكن طالب الوظيفة جاهلا ما استطاع وليكن
غير كفؤ ما أراد فانه يعين ويقدم ويساعد من الانكليز
متى كان جاحداً للوطنية عدوا للعزيز . وهكذا قام الانكليز
بوفاء وعودهم وعملوا على تقوية السلطة الخديوية وتوطيد دعائم
العرش الخديوى

ولكن مصالح الامة المصرية صارت اليوم متفقة مع
مصالح الخديوية وصارت آمال الامة وأمانيها متفقة مع
آمال سمو الخديو وأمانيه فيستحيل على بنى مصر أن يبتعدوا
عن سمو العزيز (عباس حلمي باشا) لحظة واحدة بل انهم

سيحافظون على ولائه أبد الدهر وسيكونون على الدوام أنصاره وأعوانه . وكلما اعتدي الانكليز على حقوق سموه وأظهروا كراهتهم لمقامه العالى ازداد تعلق المصريين بعرشه وتمكن من افئدتهم الاخلاص لجنابه الرفيع

ولما رأت انكلترا ان اعادة الامن والسلام الى ربوع مصر لاتحتاج لزمن طويل وان أوروبا ستطالبها بعدالاحتلال بالجلاء خلقت المسئلة السودانية ليطول احتلالها فى مصر وليبقى السودان خزان الاضطرابات والقلاقل . وقد عرف القارىء من أول هذا الفصل ان (اسماعيل باشا) قد عين بعض الانكليز حكاماً على السودان فكانت وظيفتهم تنحصر في ايجاد دواعي الاضطراب وتنفير السودانيين من المصريين ومن حكومة مصر. فألقوا بأيديهم بذور الثورة والهيجان في السودان بمال مصر نفسها حتي قامت الثورة العرابية واختلت أحوال بلادنا ودخلها الانكليز فرفع السودان راية العصيان في وجه مصر كما ابتغت انكلترا . ولما كان في مصر كثير من الجنود المصرية الاشداء وقت احتلال الانكليز لبلادنا

العزيزة رأي سواس بريطانيا ان أول واجب عليهم هو اعدام هؤلاء الجنود وحرمان مصر من أعز أبنائها فأرسلوا الحملات الى السودان ودبروا هزيمتها حتى هزمت وفقدت مصر فى ثلاث سنين أكثر من ستين ألفا من جنودها الاعزاء والذين نجوا من هاته الحملات المشؤومة يصرحون جهاراً بان الخطة التى سار عليها القواد الانكليز للجيش المصري تدل دلالة لاريب فيها على انهم كانوا يقصدون الهزيمة وسقوطه فى قبضة الدراويش

وقد طلب الانكليز من الحكومة المصرية تقرير سلخ السودان عن مصر فى يناير عام ١٨٨٤ حيث كانت مصلحتهم تقتضى ذلك وقتئذ فرفض (شريف باشا) قبول هذا الطلب بكل شمم ورفعة نفس وقدم استعفاءه تاركا المنصب للوزير الارمنى (نوبار باشا) الذى قرر فصل السودان عن مصر. ولما اقتضت المصلحة الانكليزية تسيير حملة على السودان استصدر الانكليز أمراً عالياً بذلك وأشركوا الجنود الانكليزية مع جنود مصر لتزداد المسئلة السودانية والمسئلة

المصرية اشكالا وتعقيداً

وبالجملة فان انكلترا جعلت السودان خزاناً لسياستها في مصر تخرج منه القلاقل والاضطرابات كلما رأت ضرورة لذلك وكلما نوديت بأن الامن أستتب في مصر وأن لا لزوم للاحتلال الانكليزي

ولما كان سلاح أوروبا ضد المسلمين هو مسئلة الدين وكانت انكلترا تهول دائما على أوروبا بأن المسلمين متعصبون في الدين كلما اقتضت ذلك حاجتها فانها أذاعت في كل أوروبا بأن المصريين متحفزون للقيام بالثورة ضد المسيحيين وان سلامة الاوروبيين في مصر متعلقة بدوام الاحتلال الانكليزي . وهي وشاية سافلة ينفيها تاريخ مصر ويدحضها مااشتهر عن المصريين من التساهل والاعتدال واكرام الغرباء والنزلاء . ومذبحة الاسكندرية التي تذكرنا بها الصحف الانكليزية ليست بنت التعصب الديني عند المصريين بل هي ثمرة دسائس انكلترا نفسها وانه يستحيل على التاريخ أن يلقي على المصريين مسؤولية هذه المذبحة بل المسؤول عنها

انما هى انكلترا دون غيرها

وكذلك أشاعت انكلترا فى كل أوروبا أن المصريين قوم لا يصلحون لاستلام زمام أمور بلادهم وليسوا بأكفاء لان يحكموا أنفسهم بأنفسهم وانهم فى حاجة لمعونة ومساعدة الاحتلال الانكليزى . أى ان انكلترا لشفقتها على المصريين تركت أبناءها فى مصر يديرون أمورها ويطردون المصريين من الوظائف والادارات ! وان تاريخ مصر فى عهد العائلة الخديوية لملىء بالبراهين الداحضة لدعوى عدم كفاءة المصريين فان أبناء مصر هم الذين نظموها ورتبوا اداراتها وقادوا زمامها قبل الاحتلال الانكليزى . والذين تعلموا وتهذبوا من أبناء مصر هم ولا محالة أكثر بكثير من الذين كانوا متعلمين من أبناء بلغاريا وصربيا يوم فصلت أوروبا هاتين الامارتين من الدولة العلية وأعلنت استقلالهما . وقد بنى الانكليز على دعوى عدم كفاءة المصريين أن مصالح الدائنين تكون في خطر اذا سلمت مصر لابنائها وان فى الاحتلال الانكليزى خير كفالة وأحسن ضمانة لرعاية هذه المصالح .

وهو قول تكذبه الشواهد والحقائق فان المصريين لا يرفضون قبول المراقبة الدولية على المالية المصرية. والحزب العرابى نفسه كان يعلن في كل فرصة انه لا يريد المساس بحقوق الدائنين وانه يقبل المراقبة الثنائية . واذا كان هناك خطر على مصالح الدائنين فهو فى بقاء انكلترا فى مصر فان أطماعها وأغراضها سولت لها وضع يدها بواسطة الحكومة المصرية على جزء من أموال صندوق الدين للانتفاع به في الحملة السودانية واضطرت أن ترده ثانية عند ما حكمت عليها المحاكم المختلطة . ولكن بعد ان تحقق الدائنون وحملة القراطيس من ان انكلترا لا تخدم فى مصر سوى مصالحها وانها تضحى مصالحهم فى سبيل سياستها ومآربها

*
* *

رأى القارىء مما سبق ان انكلترا دبرت مذبحة الاسكندرية وتركت هذه المدينة الزاهرة ميدانا للاشرار واللصوص فنهبت المخازن والاسواق واضطرت الحكومة المصرية لدفع التعويضات الطائلة بعد دخول الانكليز فى

مصر . ولما رأت الحكومة المصرية انها في عوز شديد للمال اقترضت في عام ١٨٨٥ مبلغ تسعة ملايين من الجنيهات ودعت الحكومة الانكليزية الدول الاوروبية للاشتراك معها في تقرير المسئلة المالية في مصر . فاجتمعت لجنة دولية بلوندرة وقررت في ١٧ مارس عام ١٨٨٥ جعل مصاريف الادارات المصرية فى كل عام خمسة ملايين من الجنيهات

واتفقت الدول على عقد لجنة دولية اخرى بباريس فى ٣٠ مارس عام ١٨٨٥ نفسه لتقرير جعل قناة السويس على الحياد وتقرير حرية المرور فيها لكل دولة وفى كل وقت.فاجتمعت اللجنة الدولية في باريس وتداولت فى المسئلة واتفقت على جعل قناة السويس على الحياد وختمت جلساتها في ١٣ يونيو عام ١٨٨٥ ولكنها لم تتفق على نقطة واحدة وهى طريقة تنفيذ قرارها . فمندوب فرنسا عرض على اللجنة اناطة تنفيذ هذا القرار بلجنة مشكلة من مندوبين من كل الدول العظمى ومن مندوب مصرى يكون له رأى استشاري وجعل هذه اللجنة تحت رئاسة مندوب عثماني.ولكن مندوب

انكلترا رفض هـذا الاقتراح وعرض على اللجنة تكليف الحكومة المصرية (التى للانكليز فيها الكلمة النافذة) بتنفيذ هذا القرار الدولى المختص بقناة السويس

وهذا الاختلاف فى طريقة تنفيذ القرار الدولى جعل عمل اللجنة ملغيا بالمرة لان المسئلة وقفت عند هذه النقطة . ويتضح للقارىء جليا من اقتراح المنـدوب الانكليزى في اللجنة الدولية أن انكلتر تريد مد سيطرتها على قناة السويس وجعلها ترعة انكليزية واستعمالها وقت الحرب ضـد الدولة أو الدول التى تكون فى حرب معها. وما عملته انكلترا فى قناة السويس أيام الحوادث العرابية مع وعدها السابق لمسيو (دي لسبس) بعـدم مساسها وعدم ارسال جنودها اليها يدل بأوضح بيان على ان انكلترا لا تحترم عهدا ولا ترعى ميثاقا متى اقتضت مصلحتها انتهاك حرمة العهد والميثاق

وانه لا يمكن للدول الاوروبية ان تأمن خطر استئثار الانكليز بقناة السويس الا اذا حررت مصر وسلمتها لابنائها وجعلت « حياد قناة السويس وحرية المرور فيها لكل دولة

وفى كل وقت » تحت رعاية الحكومة المصرية الاهلية الحرة
لا تحت رعاية حكومة مصرية زمامها بأيدى الانكليز .
فمسئلة قناة السويس هى من أهم المسائل التى تحتم على أوروبا
الالتفات لمسئلة مصر والعمل على حلها . وان تقدم المانيا فى
الاستعمار وانتشار تجارتها فى الشرق الاقصي لمن الامور التى
تحتم على هذه الدولة فى المستقبل ان تكون أول الدول اهتماما
بمسئلة مصر وأكثرها عملا على تخليص بلادنا العزيزة من
تحت نير الانكليز

*
* *

لقد عمل الانكليز فى عام ١٨٨٥ على أن يخدعوا تركيا
مرة جديدة وينتفعوا بها ضد الروسيا بدون ان ينفعوها .
وذلك انه لما اشتد الخلاف بين انكلترا والروسيا بسبب
مسئلة الافغانستان أرسل اللورد سالسبورى الى الاستانة
السير (درومندولف) بحجة عقد اتفاق مع الباب العالى
بشأن مصر تحل فيه عقد المسئلة المصرية . وكان المقصد
الحقيقى من مأمورية السير (درومندولف) هو استمالة تركيا

الى انكلترا والعمل على عقد اتفاق معها ضد الروسيا وتغريرها بأن انكلترا مستعدة للجلاء عن مصر حتى تقبل عقد هذا الاتفاق . ولكن الخلاف بين الروسيا وانكلترا سوّى فى لوندرة أثناء وجود السير (درومندولف) بالاستانة واتفقت الدولتان في ١٠ سبتمبر عام ١٨٨٥ على استيلاء الروسيا على « البندجية » وترك « ميروسحاق » و « ذي الفقار » الى الافغانستان . فانتهت بذلك مأمورية السير (درومندولف) في الاستانة ولكنه بقى فى العاصمة العثمانية زمنا لكى لاتظهر حقيقة أغراض انكلترا . وقد اتفقت معه الحكومة العثمانية على ارسال مندوب عثمانى عال بصحبته الى مصر لدراسة أحوالها معاً ووضع اتفاقية بالاشتراك تعرض بعدئذ على تركيا وانكلترا للتصديق عليها . فسافر الى مصر دولة الغازى (مختار باشا) وأخذ يماطله طول عام ١٨٨٦ بدون فائدة ثم عاد فجأة الى لوندرة وترك المندوب العثمانى وحده . وقد وضع عندئذ دولة الغازى (مختار باشا) تقريرا جليلا على تنظيم الجيش المصرى واسترداد السودان

ولما علمت الحكومة العثمانية والحكومة الفرنساوية بسفر السير (درومندولف) الى لوندرة سألتا الحكومة الانكليزية عن سبب هذا السفر فأجابتهما وزارة لوندرة بارسال السير (درومندولف) الى الاستانة للمخابرة مع الحكومة العثمانية مباشرة . ولما وصل السير (ولف) الى الاستانة — وكان ذلك فى عام ١٨٨٧ — عرض على الحكومة التركية مشروع اتفاقية بشأن مصر تتضمن انجلاء العساكر الانكليزية منها بعد ثلاث سنين من عام ١٨٨٧ (أى فى ١٨٩٠) ولكن على شرط انه لو حصل قبل انجلائها اضطراب فى مصر يدعو الى استمرار الاحتلال بقيت الجنود الانكليزية وأطيل أمد الاحتلال وانه اذا حصل في مصر بعد خروج العساكر الانكليزية منها اى هيجان او اى اضطراب يكون لانكلترا وحدها دون سواها الحق في ارسال جنودها الى مصر

وقد قبلت الدولة العلية هذه الاتفاقية وامضي عليها الصدر الاعظم فى ٢٢ مايو عام ١٨٨٧ ولم يبق الا تصديق

جلالة السلطان الاعظم عليها . ولكن فرنسا لما علمت بها عارضت فى تصديق جلالة السلطان عليها كل المعارضة واستعانت بالروسيا على مساعدتها لدى الحضرة السلطانية . وهذه هى المرة الاولى التى اتفقت فيها فرنسا والروسيا على مسئلة سياسية بعد مؤتمر برلين .

وقد ارسل المسيو (فلورانس) وزير خارجية فرنسا وقتئذ منشورا لسفراء فرنسا في الخارج أبان لهم فيه أن اتفاقية (در ومندولف) تجعل احتلال انكلترا لمصر احتلالا أبديا اذ أنه يمكنها خلق الاضطرابات والقلاقل متى شاءت خصوصا وان المسئلة السودانية لاتزال قائمة . وأبان أن هذه الاتفاقية من شأنها محو سلطة الدولة العلية عن مصر . ومما جاء فى هذا المنشور قول المسيو (فلورانس) !

« واننا (اى فرنسا) بصفتنا دولة اسلامية فى البحر الابيض المتوسط لانقبل أبداً المساس بحقوق جلالة السلطان الاعظم . فان هذا المساس يكون ذا نتيجة خطرة جدا » . فكانت سياسة المسيو (فلورانس) ترمى الى احترام حقوق الحضرة

السلطانية واستمالة المسلمين الخاضعين لفرنسا بالتقرب من جلالة السلطان وباحترام حقوق الدولة العلية

وقد نجحت فرنسا والروسيا في اقناع جلالة السلطان الاعظم بسوء نية انكلترا وباضرار معاهدة (درومندولف) فرفض جلالته التصديق على هذه المعاهدة وغادر المندوب الانكليزى الاستانة عائدا الى لوندرة

ولم تحدث بعد ذلك مخابرات بشأن مصر الا فى عام ١٨٩٠ ولكن اللورد سالسبوري رفض صراحة فى هذه المرة تحديد أجل الجلاء عن مصر

*
* *

لقد أعتمدت دائما انكلترا فى سياستها فى المسئلة المصرية على ألمانيا والنمسا وأيطاليا أى على دول التحالف الثلاثى. وقد صرح اللورد (غرانفيل) بعد احتلال الانكليز لمصر بأن البرنس (بسمارك) هو الذى نصح انكلترا بارسال جنودها الى وادى النيل. فالبرنس (بسمارك) كان يرى أن احتلال الانكليز لمصر يشغل فرنسا عن مسئلة الالزاس واللورين

ويخلق العداوة بينها وبين انكلترا ويجبر الدولة العلية على مصافاة ألمانيا والعمل على أستمالتها ضد انكلترا. ولذلك ساعد الانكليز في مصر كثيرا وبقيت دول التحالف الثلاثي زمنا طويلا عضداً قويا لانكلترا في مصر . وكان من دهاء سواس بريطانيا أنهم خدعوا ايطاليا وأظهروا لها المودة والمحبة وسلموها بعض شواطيء البحر الاحمر وأوقعوها في شباك الاستعمار فاضطرت لمساعدتهم في مصر. ولما انهزمت جيوشها أمام الاحباش استغاثت بانكلترا وتوسلت اليها بألمانيا فاهتمت انكلترا بالامر وتظاهرت بالميل لمساعدة الايطاليين وانقاذهم وجبرت الحكومة المصرية على أرسال حملة دنقلة بحجة نصرة ايطاليا وتخليصها من أيدي الاحباش والدراويش ! ! !

وبدهاء السياسة الانكليزية أفلحت انكلترا في الاعتماد على ألمانيا ودولتي النمسا وايطاليا حليفتيها في مسئلة مصر وحققت كثيراً من أمانيها . وقد أفهم سواس بريطانيا رجال السياسة الالمانية أن فرنسا تنوى الاستيلاء على مصر وأن جنودها تحتل مصر اذا خرجت هي منها . فانخدع لهذه الاباطيل

سواس ألمانيا واعتقدوا — أو تظاهروا بالاعتقاد — بأن المسئلة المصرية مسئلة فرنساوية وأن السعى فى الجلاء يكون خدمة لفرنسا . وما تحادثت مع سياسى ألمانى في برلين الا وصرح لى بأن المانيا تعتبر المسئلة المصرية مسئلة فرنساوية وانها لذلك تفضل مساعدة انكلترا على مساعدة فرنسا

وهذا الاعتقاد الفاسد الراسخ فى أذهان الكثيرين من الالمانيين هو ولا شك من أهم أسباب مساعدة المانيا لانكلترا فى مصر . فبينما نرى السياسة الالمانية تعضد الدولة العلية كل التعضيد وتساعدها على أحباط مساعي انكلترا ودسائسها في أرمنيا وكريد واليونان نري هذه السياسة نفسها نصيرة لانكلترا فى مصر !! كأن المسئله المصرية غير مرتبطة بالمسئلة الشرقية وكأن مصر ليست بجزء من الدولة العثمانية !

ولكنه يمكننا أن نجزم بأن السياسة الالمانية لاتخدم المصالح الانكليزية فى مصر الى النهاية . فان علاقات المانيا مع انكلترا تكدرت كثيراً عن ذي قبل والمنافسة تزداد كل يوم بين الدولتين فى التجارة والاستعمار . ولا ريب عندي أن

السياسة الحميدية النبيلة تجذب اليها ألمانيا في المسئلة المصرية كما جذبتها نحوها فى المسئلة الشرقية . ولكن بلوغ هذه الغاية لا يكون الا اذا جاءت الظروف المناسبة وحانت الفرص . وفضلا عن ذلك فان مستعمرات ألمانيا فى أفريقيا وفى آسيا تقع تحت خطر عظيم اذا وقعت بلاد النيل في قبضة انكلترا وصارت ملكا لها . فان مصر مفتاح افريقية وآسيا وماضيها وحاضرها ينذران الامم كافة بأن الدولة الحاكمة لها تكون أقوى الدول بطشا ويكون فى استطاعتها أن تضر بمصالح العالمين

فمسئلة مصر ليست كبقية المسائل الافريقية والاسيوية بل هى المعضلة الكبرى فى سياسة هذا العصر . ولا يغرن القراء تقدم انكلترا فى مصر وازدياد سلطتها فيها وفى حكومتها فذلك لا يؤثر مطلقا على جوهر المسئلة المصرية نفسها . وسواء كان الانكليز فى مصر ثلاثة أشخاص أو ثلاثة ملايين وسواء كانوا بغير سلطة أو أصحاب السلطة كلها فالمسئلة واحدة لا يؤثر عليها قلة عدد الانكليز فى مصر أو كثرته .

وكما ان مصر كانت فى الماضى كنانة الله في الارض فهى كذلك لاتزال قبرا للامم الطاغية . وافراد الانكليز الذين يحكمون على المستقبل بالماضي ويعرفون أن أدوار التاريخ تتجدد ولاتتغير حكموا صريحاً بأن دوام الانكليز فى مصر خطر على الدولة البريطانية وأنه يكون سببا لدمارها . ولقد قال اللورد (سالسبورى) أخيراً فى احدى خطاباته « ان سياسة الطمع هي سبب خراب الممالك العظمي » فليعتبر هو نفسه وليعتبر سواس بريطانيا جميعا بهذه الحكمة العالية . فان سياسة بريطانيا فى مصر سياسة طمع وشره لامثيل لهما. كيف لا وهي ترمى الى تأسيس مملكة أفريقية تبتدىء من الاسكندرية وتنتهي عند رأس الرجاء الصالح وتعمل لهذا الغرض غير ملتفتة الى حقوق الامم التى تستعبدها ولا الى المصائب التى تسقطها عليها ولا الى الدماء التى تسيلها فيها ؟؟؟

ولقد أبنا في رسالة (اخطار الاحتلال الانكليزى) النتائج الخطيرة التى تنتج عن بقاء الانكليز فى مصر وأوضحنا ان وراء المسئلة المصرية جملة مسائل سياسية من الخطارة

والاهمية بمكان . فوراءها مسئلة تجارية دولية . ومسئلة البحر الابيض المتوسط . ومسئلة افريقية . ومسئلة اسيوية . ومسئلة مسيحية . ومسئلة اسلامية

فاذا استولت انكلترا على مصر صار من المتحيل على الاوروبيين القاطنين بها أن يعيشوا فيها فان انكلترا تضيق عليهم مسالك الحياة لينفرد أبناؤها بمكاسب مصر وخيراتها ولتكون أبواب مصر مفتوحة للتجارة الانكليزية دون سواها . وهذه سياسة انكلترا فى كل بقعة ترفع عليها رايتها ويقضى عليها سوء الحظ بالوقوع فى قبضتها . ذلك فضلا عن ان التجارة الاوروبية يستحيل عليها عندئذ ان تصل الى السودان أو الى أواسط أفريقيا فان طريق النيل البديع يكون احتكاراً للانكليز والتجارة الانكليزية ليس الا . فامتلاك انكلترا لمصر هو في الحقيقة موت للتجارة الاوروبية فى مصر وفى السودان وفى أفريقيا الوسطى وقضاء على الاوروبيين القاطنين بمصر

واذا امتلكت انكلترا مصر صار البحر الابيض المتوسط

بحيرة انكليزية وضاعت الموازنة بين الدول الاوروبية . فان
انكلترا يمكنها بواسطة جبل طارق ومالطه وقبرص ومواني
مصر وقناة السويس ان تدمر بحرية كل دولة وتبقى وحدها
سيدة البحر الابيض المتوسط . وهو خطر لا محالة عظيم على
الدول الاوروبية لا يمكن لها دفعه بغير تحرير مصر وتركها
مستقلة فى ادارتها مستظله بالسيادة العالية للدولة العلية

وامتلاك انكلترا لوادى النيل يجعل مستعمرات الدول
الاوروبية بأفريقيا عديمة النفع ويضيع التوازن الدولى من أفريقيا .
فان بقية المستعمرات الدولية منفصلة عن داخل أفريقيا بصحارى
واسعة وجبال صخرية وعرة لا كواد النيل يجرى فيه نهر
عظيم يوصل التجارة وأصحابها الى أواسط أفريقيا ويسهل
لاصحابه الوصول الى أى جهة من الجهات الافريقية

وكما ان الموازنة بين الدول فى أفريقيا تضيع تماما
باستيلاء الانكليز على مصر فان هذه الموازنة تضيع أيضا
من آسيا اذا تمت لانكلترا الكلمة في وادى النيل . فان
السياحة فى الشرق الاقصى وفى المياه الاسيوية تكون متعلقة

باهواء انكلترا ورغائبها ومستعمرات الدول فى أسيا تكون
تحت رحمة انكلترا. فبريطانيا التى أنزلت جنودها على شواطىء
قناة السويس في عام ١٨٨٢ واستأثرت بمنافع القناة وقتئذ
هى بعينها بريطانيا التى يمكنها متى اقتضت حاجتها ذلك أن
تقفل قناة السويس فى وجه الدول كافة وتفصل بينها وبين
مستعمراتها الاسيوية

وقد علم القارىء مما كتبناه عن (مسئلة الشام بين مصر
والدولة العلية) أن المغفور له (محمد على باشا) كان يريد
الاستيلاء على الشام لتقوية ملكه فى مصر عملا برأى نابليون
من أن الشام ضرورية لمصر ومصر ضرورية للشام . فاذا
استولت انكلترا على مصر هل تكون الشام وقتئذ فى مأمن
من اعتداء الانكليز عليها ؟ وفي أية حالة تكون الدنيا اذا
صار بيت المقدس والاماكن المقدسة فى أيدى بريطانيا
البرتستانتينية ؟ وماذا يعمل الكاثوليكيون والارثوذكسيون
حين ذلك ؟ بل وماذا يعمل المسلمون ؟

ان استيلاء انكلترا على مصر لخطر عظيم على العالمين

وحادث يجر على بنى الانسان أكبر المصائب وأشد النوائب
وقد يقول بعض الناس باستحالة تحقق هذه النتائج التى أتينا
عليها أو يبعد امكانها ! ولكن رجال السياسة يجب عليهم أن
ينظروا الى النتائج البعيدة وأن يتداركوا الاخطار الآتية
ولو كان وقوعها بعد قرن أو بعد قرون

وقد قلنا ان وراء المسئلة المصرية مسئلة اسلامية وأوضحنا
فى مقدمة هذا الكتاب ان انكلترا تعمل من يوم احتلالها
لمصر على تقسيم الدولة العليـة ولا ترى لوجودها فى مصر
سلامة الا بهدم السلطنه العثمانية ووضع يدها على مصر بصفة
نهائية وضم بلاد العرب اليها وجعل الخلافة عربية في قبضة
رجل يكون آلة لها . فلذلك كانت مسئلة مصر روح المسئلة
الشرقية وكان وجود الانكليز في مصر خطرا كبيرا على
المملكة العثمانيه

ولذلك يجب على سواس الدولة العلية ان يهتموا بمسئلة
مصر أشد الاهتمام وأن يجعلوها فى مقدمة المسائل الحيوية
للدولة والملة . وكما أن انكلترا خدعتهم فى الحوادث العرابية

أعظم خـديعة دونها التاريخ فانه يجب عليهم ان يعملوا على اخراجها من مصر ارضاء لشرف الدوله العلية وانقاذاً لها من أشد الاخطار

ولا ريب ان أنظار المسلمـين في سائر أنحاء الارض موجهـة الى مصر فهي بعد الحجاز البـلاد التي يحج اليهـا المسلمون اكثر من سواها . ولقـد ذكرت بلادنا العزيزة في القرآن الشريف ثـلاثا وثلاثـين مرة استلفاتا لأنظار المسلمين اليها ودلالة على أهميتها الخاصـة بها بين البـلاد الاسلامية . وسماها الرسول عليه الصـلاة والسلام « بالرباط الاكبر » لانه بواسطتها يمكن للخلافة الاسلامية أن تدافع عن المدائن المقدسة (بيت المقدس ومكة والمدينة)

وقد اعتبر المسلمون من عهد النبي الـكريم أن بلادالشام وبلاد مصر وبلاد العرب يجب أن تبقى الى الابد ملـكاً للاسلام . فهذه البلاد هى التى سكنتها سلالة سـيدنا الخليل (ابراهيم) عليه السلام الذى جرى رسولنا الـكريم على سنته وجاء متمما لدينه وشريعته . ولما دخل الصليبيون الشام أيام

الحروب الصليبية قام المسلمون أجمعون لاسترجاعها وماهدأت أحوال العالم الا برجوعها فى قبضة الاسلام . فكذلك مصر لا يطمئن المسلمون بها وباحوالها الا اذا خرج الانكليز منها وعادت تحت السلطة الاسلامية الحقيقة

واذا أضفنا الى ما تقدم أن مصر مشرق الانوار بين المسلمين ومهد العلوم والعرفان وأنها محط رحال الذين يريدون التعلم والتحصيل علمنا مقدار اهتمام العالم الاسلامى بأحوال بلادنا المحبوبة وعلمنا خطارة المسئلة المصرية بالنسبة للمسلمين خصوصا

ولا غرابة اذا تكلمنا على المسئلة المصرية من الوجهة الدينية الاسلامية فان السياسة لا انفصال لها عن الدين . وبالاحساسات الدينية تقاد الامم أسهل مما تقاد بالاعتبارات السياسية . وقد أرتنا أمم أوروبا المتمدنة نفسها أن الدين أساس السياسة وانها مهما بلغت من الحضارة والمدنية فان الشعائر الدينيه هي عامل من أهم العوامل فى حياة الامم بل أهمها وأعظمها . وأوضح دليل على ذلك تداخل أوروبا فى شؤون

الدولة العلية باسم الدين ومعاداة المسيحيين لليهود في كل بلاد أوروبا وتظاهرهم ضدهم في مجالس النواب وفي الشوارع وفي المنتديات

وبالجملة فمسئلة مصر تعتبر أول مسئلة حيوية للدولة العلية وللخلافة الاسلامية . ودسائس انكلترا ضد الدولة في المسئلة الارمنية وفي غيرها من المسائل تظهر للقارىء بأجلى بيان أهمية المسئلة المصرية وضرورة اهتمام العالم كله بها

واذ كانت مسئلة بلادنا بهذه الاهمية وكان خروج الانكليز منها مما لابد منه عاجلا كان أو آجلا فيجب على سائر المصريين أن يتمسكوا بحقوقهم المقدسة أشد التمسك وأن يطالبوا بها بكل الوسائل وفي كل وقت وآن . فأصحاب الحقوق في مسئلة مصر عديدون ولكن اكثرهم حقوقا واكبرهم نصيبا هم ولا محالة المصريون

وقصارى القول أنه يجب علينا أن نعمل لتقريب ميعاد الجلاء وأن ننشر المعارف في انحاء البلاد وفي سائر القرى حتى يعرف كل مصري حقوقه وواجباته نحو الوطن والامة

وحتى لا يعتدى لصوص الحرية على بنى الوطن العزيز

وأن الوطنى الحقيقي هو الذى يظهر وطنيته فى وقت الشدائد ويقول ويعمل بهذا القول : « أنى لو استطعت أن أغير وجه البسيطة لانقاذ بلادى لغيرته بدون تردد »

الازمة السادسة

(المسئلة البلغارية والمسئلة اليونانية)

من عام ١٨٨٥ الى عام ١٨٨٧

علم القارىء مما سلف ان الروسيا اسالت دماء ابنائها في حرب عام ١٨٧٧ مع الدولة العليـة وصرفت الاموال الطائلة لاخراج بلغاريا من تحت سلطة الدولة وتشكيلها امارة قائمة بنفسها وانها فى معاهدة سان اسطفانوس اشترطت جعل البلاد التي يسكنها البلغاريون امارة واحدة اى عـدم تقسيم بلاد بلغاريا الى قسمين . وعلم القاريء ايضا ان مؤتمر برلين قرر فصل الاراضى البلغارية الى قسمين وتسمية القسم الجنوبى بالروملى الشرقى وجعله تحت سلطة تركيا مباشرة . وقد ابنا ان الروسيا بذلت غاية جهدها في تحريض اهالي الروملى الشرقى على رفع راية لواء العصيان فى وجه الدولة العلية والانضمام الى بلغاريا . وكان ذلك عقب مؤتمر برلين أى لما كانت الروسيا تؤمل استعمال بلغاريا آلة لها فى البلقان

وتسيير أمورها حسب مرامها . ولكن البرنس (بسمارك)
أوجد الشقاق بين الروسيا والنمسا فى بلاد البلقان وعلى
الخصوص فى بلغاريا حيث استمال هذه الامارة الناشئة الى
النمسا وجعلها في دائرة نفوذها

ولما كانت العداوة بين الروسيا وانكلترا شديدة
وكانت الروسيا تتقرب من فرنسا رأى سواس بريطانيا أن
خير وسيلة تضمن لهم استمرار الاحتلال الانكليزي في مصر
هى خدمة التحالف التلاثى فى البلقان ومساعدة النمسا ضد
الروسيا . فلذلك أرسل اللورد سالسبري الى البرنس (الكسندر
دى باتنبرغ) أمير بلغاريا رسائل التودد وأظهر له الميل الشديد
حتى جعل هذا البرنس وجهته انكلترا وارتبط بالعائلة المالكة
الانكليزية ارتباطاً أكيداً وعقد قران شقيقه البرنس (هنرى
دي باتنبرغ) على البرنسيس (أليس) أحدى بنات ملكة
الانكليز . ومن ذلك الحين صار أمير البلغار آلة في أيدى
سواس انكلترا والنمسا . فأوعزوا اليه باحداث انقلاب فى
الروملى الشرقى يكون بالقبض على الحاكم العثمانى وأعلان

انضمام الروملي الى بلغاريا تحت امارته . فعمل بهذه الآراء والايعازات . وفى يوم ١٨ سبتمبر عام ١٨٨٥ قبض رجال الشرطة فى الروملى الشرقى على (جافريل باشا) الحاكم العثمانى وتشكلت لجنة ثورية دعت الامة للانضمام الى بلغاريا فأجابت الامة الدعوة وفى ثاني يوم لهذه الثورة ذهب البرنس (ألكسندر) الى (فيلبوپوليس) وأعلن انضمام الروملى الشرقي الى بلغاريا وتولي زمام الأمور .

وفى يوم ٢٤ سبتمبر أرسل البرنس (ألكسندر) مذكرة رسمية لكافة الدول الاوروبية أخبرها فيها بحادث ١٨ سبتمبر وسألها اعتبار الروملى الشرقى جزأً من بلغاريا والتوسط لدى الدولة العلية لكى تعترف بهذا الانقلاب الجديد

وما أنتشر خبر انضمام الروملى الشرقى الى بلغاريا فى أوروبا حتى ظن الكثيرون ممن يجهلون أسرار السياسة فى البلقان أن الروسيا هي المحرضة على هذا الانقلاب وأنه يسرها أن ترى كل البلغارين تحت حكومة واحدة وان تؤسس (بلغاريا الكبرى) . ولكن الحقيقة مناقضة لذلك فان

الروسيا رأت بعين السخط انضمام الروملي الشرقي الى بلغاريا وساءها تأسيس (بلغاريا الكبرى) لانها كانت تود تأسيسها وهي ربيبة لها لا وهي عدوة تعمل بآراء النمسا وانكلترا . فلذلك احتجت على هذا الانقلاب واستعفى ضباطها الذين كانوا في الجيش البلغاري وطلبت من أوروبا عقد لجنة دولية بالاستانة للنظر في مسئلة بلغاريا لما في انضمام الروملي الشرقي اليها من مخالفة قرارات مؤتمر برلين فأجابت الدول سؤلها وقررت عقد لجنة دولية بالاستانة

أما الدولة العلية فقد رأى وزراؤها انها مضطرة لقبول قرارات أوروبا وانه لا يمكنها استرداد الروملي الشرقي بالقوة . ولكن جلالة السلطان الاعظم كان يرى ضرورة استعمال القوة والمحافظة على حقوق الدولة بكل الوسائل فأسقط وزارة (سعيد باشا) وأمر (كامل باشا) الذي كان وقتئذ سفيرا للدولة العلية في سان بطرسبورغ بتشكيل وزارة جديدة وعينه صدرا أعظم . وقد كان جلالة السلطان الاعظم يؤمل مساعدة الروسيا له ضد دول التحالف الثلاثي وضد

انكلترا غير ان رجال السياسة الروسية أفهموا (كامل باشا) أنهم لا يرون بداً من الانصياع لقرارات اللجنة الدولية المزمع عقدها بالاستانة . فاضطرت الدولة العلية لقبول تعيين مندوب من قبلها لحضور هذه اللجنة

ولقد كانت نتيجة انضمام الروملى الشرقى الى بلغاريا ان اليونان وصربيا قامتا . طالبتين بنصيبهما من أملاك الدولة العلية مقابل ما نالت بلغاريا وأخذت كل واحدة من هاتين المملكتين تجهز جنودها وتستعد للحرب وقد حشدت بلغاريا كذلك جيشها على حدود صربيا وعلى حدود الدولة العلية وكان يتخيل لكل انسان وقتئذ ان نيران الاضطراب فى البلقان ستمتد الى أوروبا وتشعل الحرب فيها . فلما رأت ذلك دول أوروبا أرسلت فى ١٥ أكتوبر عام ١٨٨٥ مذكرة الى الدولة العلية والى بلغاريا أبانت فيها انها غير موافقة على عمل بلغاريا وانها تحترم معاهدة برلين وحقوق جلالة السلطان ونصحت فيها بلغاريا بعدم حشد جنودها على الحدود التركية

وقد اجتمعت اللجنة الدولية فى ٥ نوفمبر وبعد اجتماعها

بتسعة أيام أعان (ميلان) ملك الصرب الحرب على بلغاريا.
ولما وصل اعلان الحرب الي البرنس (ألكسندر) أمير
بلغاريا استغاث هـذا الامير بالدولة العليـة بصفتها صاحبـة
السيادة العالية على بلغاريا واستأذنها فى رد الصربيين عن بلاد
بلغاريا . وبعـد اصـطلاء نيران الحرب بزمن قليـل انتصر
البلغاريون على الصربيـين فى (سليفنيتزا) وردوهم على
أعقابهم خاسرين . وقد هاجت أوروبا لهذه الحرب وخافت
عواقبها فأرسلت فى ٢٤ نوفمبر عام ١٨٨٥ مذكرة الى الحكومة
الصربية طلبت منها أن تسأل بلغاريا عقد الهدنة وعدم الاستمرار
على أسالة دماء « الاشقاء » أى الصربيين والبلغاريين .....
فقبلت الصرب ذلك ولكن بلغاريا لم تقبل بحجة أنها المعتدى
عليها وأنها مضطرة لطرد الصربيين خارج حدودها . فاستمر
البرنس (الكسندر) يحارب الصربين وينتصر عليهم حتى
وصل مدينة (بيرو) وعندئذ أنذرته النمسا بعدم التقدم الى
الامام فوقف وقبل عقد الهدنة

أما الروسيا فقد بقيت على الحياد أثناء الحرب ولكنها

بالرغم من احتجاجها ضد ضم الرومللى الشرقى الى بلغاريا هنأت البلغاريين على انتصارهم وشكرت شهامتهم . وهذا يدل على أن العواطف الدينية تتغلب دائما على اميال السياسة وان الدين هو فى أغلب الظروف رائد الامم والدول في سياستها

وقد استمرت اللجنة الدولية بالاستانة فى مناقشاتها ولكن المندوب الانكليزى اجتهد فى جعل هاته المناقشات بغير نتيجة فرفض تعيين حاكم عثمانى للرومللي الشرقى واجبار البلغاريين على احترام معاهدة برلين

ولما رأت أوروبا أن جيش بلغاريا لايزال واقفا أمام الجيش الصربى قررت ارسال لجنة دولية مشكلة من بعض رجال العسكرية فى أوروبا لفصل الخلاف بين المتحاربين فسافرت اللجنة الدولية وقررت انجلاء العساكر الصربية من ضواحى (فيدين) - وهى مدينة ببلغاريا — قبل انجلاء العساكر البلغارية من (بيرو) بيومين

وقد أرسلت الدولة العلية مندوبين الى الرومللى الشرق لدراسة أحوالها واستمالة الاهالى الى الدولة ولكنهما لم يفلحا

فى مأموريتهما. وبعث كذلك مندوباً عالياً الى البرنس (الكسندر) ليرشده في مخابراته بشأن عقد الصلح مع الصرب. وكانت انكلترا فى ذلك تظهر لتركيا المحبة والولاء وكان السير (درومندولف) في الاستانة يفهم رجال تركيا بأن بريطانيا ترغب الاتفاق مع الدولة العثمانية وتقرير الجلاء عن مصر معها. فانخدع رجال السياسة التركية لاقوال السير (ولف) وازداد نفوذ انكلترا فى تركيا وقتئذ ازديادا عظيما. وكانت نتيجة هذا النفوذ غبن تركيا في مصر وفى الروملى الشرقى غبنا فاحشا. فان الدولة العلية رضيت أن تضحى الروملى الشرقى فى سبيل خروج العساكر الانكليزية من مصر وتساهلت مع انكلترا فقبلت طلبها بشأن تعيين البرنس (الكسندر) أميرا بلغاريا حاكما على الروملى الشرقي

*
* *

وقد أخذت اليونان تجهز معدات الحرب وتسلح جنودها وتستعد لمحاربة الدولة العلية. وفى ٣١ دسمبر عام ١٨٨٥ أرسلت الوزارة اليونانية — التي كان يرأسها وقتئذ

المسيو (دليانيس) - منشورا لوكلائها لدى الدول الاوروبية أمرهم فيه بتبليغ هاته الدول بان اليونان لم تستول على كل ما قررته لها اللجنة الدولية بالاستانة في عام ١٨٨١ وانها مستعدة لاخذ نصيبها من أملاك تركيا بالقوة والسلاح . فنصحتها أوروبا كما نصحت صربيا وبلغاريا بالقاء السلاح وبالكف عن حشد الجنود فلم ترضخ لنصيحة الدول واستمرت على غيها . ولما رأت أوروبا ان الحرب اذا قامت بين اليونان وتركيا كانت الطامة الكبرى على اليونان عملت على انقاذ هذه المملكة بالرغم منها وقررت ارسال سفنها وأساطيلها في مياه اليونان لارهابها واجبارها على الخضوع والامتثال لارادتها. وقد تجنبت فرنسا الاشتراك مع بقية الدول فى هذه المظاهرة البحرية لما لليونانيين من المكانة في قلوب الفرنسويين

أما صربيا وبلغاريا فقد أنذرتهما أوروبا بمذكرة تاريخها ٣١ يناير عام ١٨٨٦ بانه اذا اعتدت احداهما على الاخرى ساعدت أوروبا المعتدى عليها ولا تسمح للملكة المعتدية

بالاستيلاء على شيء ما من أراضي المعتدى عليها . وقد كان البرنس (كاراجورجفيتش) صهر أمير الجبل الاسود يطوف وقتئذ عواصم أوروبا ويعمل لخلع الملك (ميلان) وتوليته مكانه ملكا على صربيا فاضطر الملك ميلان الى عقد الصلح مع بلغاريا بمدينة (بوخارست) فى ٢ مارس عام ١٨٨٦ لكى لا تتغير عواطف أوروبا من جهته

وقد طلبت الروسيا من دول أوروبا النظر فى المسئلة البلغارية وجعل تعيين البرنس (الكسندر) حاكما على الروملي الشرقى لمدة خمس سنوات فقط كما تقتضيه قرارات مؤتمر برلين . فرفض البرنس قبول هذا الطلب وعزم على معارضة الروسيا غير حاسب لنتائج هذه المعارضة حسابا . ولكن الروسيا توصلت الى تحقيق ما عرضته على أوروبا فقررت اللجنة الدولية بالاستانة فى ٥ ابريل عام ١٨٨٦ جعل تعيين البرنس (ألكسندر) حاكما على الروملى الشرقى لمدة خمس سنوات وتعيين لجنة مشتركة من مندوبين من الدولة العلية ومن مندوبين من أمارة البلغار لدراسة أحوال الروملى الشرقى

والوقوف على احتياجاتها وعرض النظام الذى يتفق عليه المندوبون على اللجنة الدولية . فرضخ البرنس (ألكسندر) لقرار اللجنة الدولية بالاستانة وشكل مجلساً أهليا مشتركا من مندوبى الروملي الشرقى ومن مندوبى بلغاريا جعله بمثابة مجلس نواب

ولم تنكف اليونان فى هذا الاثناء عن حشد جنودها على حدود تركيا ومعاداة الدولة العلية . فلما رأى الباب العالى ان هذه الحالة التى ليست بالسلم وليست بالحرب تضر بالدولة كثيرا وتحملها النفقات الباهظة والمبالغ الطائلة سأل الدول الاوروبية أن تجبر اليونان على سحب جنودها من الحدود أو ان تترك الدولة العلية تؤدبها بالحرب . فاهتمت أوروبا بالامر وقررت منع الحرب بين الدولة واليونان بكل الوسائط الممكنة وأرسلت لهذا الغرض انذاراً للحكومة اليونانية بالقاء السلاح والكف عن الاعتداء علي حدود تركيا والخضوع لرغائب أوروبا وأخبرتها فى هذا الانذار بأنها تجبرها على احترام رغائبها بالقوة ان لم تحترمها من نفسها وبمحض ارادتها

وقد أظهرت فرنسا من بادىء الامر ميلها لليونان ولم ترض الاشتراك مع بقيـة الدول فى عمل مظاهرة بحـرية . فلما أنذرت الدول اليونان رأت من واجباتها ان تنصحها بصفتها نصيرتها الوحيدة بالرضوخ لاوامر أوروبا . فتقدم الوكيـل السياسى لفرنسا فى أتينا مذكرة للمسيو (دليانيس) بتاريخ ٢٣ ابريل عام ١٨٨٦ نصحه فيها بعـدم اعلان الحرب علي تركيا و بعدم مخالفة رغائب الدول الاوروبيـة فتظاهر المسيو (دليانيس) بقبول هذه النصيحة وفى ٢٥ ابريل من السنة نفسها بعث الى وكيل فرنسا بأتينا يخبره بأنه قبـل نصيحة الحـكومة الفرنساوية وأنه سيعمل بها

ولكن الدول الاوروبية لم تقتنع بهذا الجواب لعلمها بان اليونانيين لا يصدقون في أقوالهم وأنهم يريدون اصطلاء نيران الحرب فى كل بلاد البلقان ليختطفوا شيئا من أملاك تركيا فأرسلت الى الحـكومة اليونانيـة فى مساء ٢٦ ابريل عام ١٨٨٦ انذاراً شديد اللهجة طلبت منها اعادة عدد الجيش الى ما كان عليه من قبل والـكف عن كل عمل عدائى ضد

تركيا والقيام بتنفيذ ارادة أوروبا فى مدة لا تزيد عن أسبوع واحد. ولا ينس القارىء أن أوروبا كانت تعمل لخير اليونان ومصلحتها فان الدولة العلية كانت تهزم اليونان شر هزيمة لو كانت أعلنت الحرب فلذلك كان تهديد أوروبا لليونان بمثابة انقاذ لها من الوقوع فى مهواة الخطر والاضمحلال .

وقد رفضت اليونان قبول الانذار الدولى وسافر وكلاء الدول بأثينا من عاصمة اليونان الا وكيل فرنسا فانه بقى بها بعدهم قليلا ثم غادرها بحجة أنه يريد المداولة فى الامر مع المسيو (فريسينيه) وزير خارجية فرنسا . ولما رأت الدول أن اليونان تظهر الكبرياء والترفع عن الانصياع لرغائبها أمرت قوادأساطيلها في مياداليونان بمحاصرة الثغور اليونانية محاصرة شديدة حتى تمتثل الحكومةاليونانية لأوامرأوروبا الشفوقة عليها . فحوصرت الثغور اليونانية واضطرت وزارة (دليانيس) للاستقالة فى ٢١ مايو عام ١٨٨٦ واستلم المسيو (تريكو بيس) مقاليد الوزارة اليونانية فأعلن الدول الاوروبية بأنه مستعدللرضوخ لامرهاولكنه في أثناء ذلك

أوعز الى فرقة من الجيش اليونانى بالهجوم على طليعة الجيش التركى وادعى ان جيش جلالة السلطان هو المعتدى على جيش اليونان لتساعده الدول ضد الدولة العلية وترفع الحصار عن الثغور اليونانية. ولكن الدول تنبهت للحيلة وطالبت الحكومة اليونانية بالقاء السلاح واعادة عدد الجيش الى ما كان عليه من قبل وسحب الجنود من الحدود . فامتثل اليونانيون للامر وفي ٨ يونيو عام ١٨٨٦ رفعت الدول الحصار عن ثغور اليونان .

وان استعداد اليونان للحرب وتظاهرها بالعداء لتركيا فى عام ١٨٨٦ ليدلان جلياً على ان هذه المملكة كانت تستعد من عهد بعيد لمحاربة تركيا وأنها لم تغفل لحظة واحدة عن تسليح جنودها وتجهيز جيشها . فانهزامها فى الحرب الاخيرة دواء شاف لها من مرض غرورها . ولا أقول انه يشفيها الى الابد فان المرض كامن في النفس وعداوتها للعثمانيين والمسلمين قوية لدودة. ولكن انتصارات (أدهم باشا) تشفيها من غرورها زمنا طويلا

وقد اجتهد في ذلك الحين البرنس (ألكسندر دى باتنبرغ) أمير بلغاريا فى تحقيق انضمام الروملى الشرقى الى بلغاريا فأنشأ الجمارك على حدود الروملي أمام حدود تركيا وصارت البضائع التركية لا تدخل فى هذه المقاطعة التركية الا اذا دفعت رسوم الجمارك . وصرح أمام الجمعية العمومية التى شكلها كمجلس نواب لبلغاريا والروملي بان الوحدة البلغارية تكوّنت وانه لايستطيع انفصامها . فلما علمت بذلك الروسيا ازداد حنقها على بلغاريا وأميرها وأرسلت في آخر يونيه عام ١٨٨٦ مذكرة الى الباب العالى سألته فيها أن يؤدب بلغاريا ويوقفها عند حد محدود فأجابها الباب العالى معتذرا بان بلغاريا معضدة من أغلب دول أوروبا . فعند ذلك أعلنت الروسيا أنها عازمة على جعل ثغر (باطوم) ثغرا حربيا روسيا لا ثغرا حرا . ولا يخفى ان ذلك يخالف المادة ٥٩ من معاهدة برلين ولكن الروسيا لما رأت ان معاهدة برلين غير محترمة من البلغار أرادت أن تنتقم من الدول المعضدة لها وعلى الخصوص من انكلترا بجعل ثغر (باطوم) غير حر للتجارة . وقد

احتجت انكلترا على عمل الروسيا ولكن احتجاجها لم يفد شيئاً مذكورا

وقد اجتمع مندوبو تركيا مع مندوبي أمير البلغار للنظر فى شؤون الروملي الشرقى للاتفاق على وضع دستور لها ولكن الخلاف استحكم بينهم بشأن تابعيتها فمندوبو تركيا كانوا يطالبون جعلها كما كانت تابعة مباشرة للدولة العلية مع جعل البرنس (ألكسندر) حاكما عليها ومندوبو البلغار كانوا يطالبون بضمها تماما الى بلغاريا

ولما كانت كراهة الروسيا للبرنس (ألكسندر) تزداد كل يوم فان هذه الدولة دبرت له دسيسة عظيمة وعملت على خلعه من أمارة بلغاريا . وذلك انها أوحت الى صنائعها فى صوفيا أن يلقوا القبض عليه ويخرجوه من بلغاريا ويؤسسوا حكومة مؤقتة . فعملوا بايعاز الروسيا وفى يوم ٢١ أغسطس عام ١٨٨٦ تمت المكيدة وقبض على البرنس (ألكسندر) وأرسل على باخرة لجهة غير معلومة. وزج المسيو (كارافلوف) وزيره الاول فى السجن وأسس أصحاب المكيدة لجنة منهم

للنظر فى الامور لحين تعيين أمير جديد لبلغاريا . ولاشك ان هذا الحادث الخطير كان ضربة قاضية على سياسة انكلترا فى الشرق وكان من شأنه ان يزيد في النفور بينها وبين الروسيا وقد حسبت انكلترا أنه يمكنها مقاومة الروسيا فى بلغاريا بمساعدة ألمانيا والنمسا واعادة البرنس (ألكسندر) أميراً على بلغاريا ولكن ألمانيا التى كانت بيدها سياستها وسياسة النمسا تخوفت من معاداة الروسياالى هذا الحدوتركت مسئلة البرنس (ألكسندر) للظروف والحوادث. وكان الكثيرون من رجال السياسة يحسبون الامة البلغارية تقابل خلع البرنس (ألكسندر) بغير حراك وتمتثل لارادة اللجنة الثورية التى خلعته بايعاز الروسيا ولكن الامة البلغارية كانت متعلقة بالبرنس (الكسندر) ولم تنس انه نصرها على صربيا نصراً مبينا وأنه ضم الى بلغاريا (الروملي الشرقى فهاجت وماجت وتظاهرت فى الشوارع والمنتديات العمومية بالميل للبرنس (ألكسندر) طالبة اعادته أميراً عليها. وفى يوم ٤ أغسطس عام ١٨٨٦ أي بعد ثلاثة أيام من خلع البرنس (الكسندر)

قبض الاهالى على أعضاء اللجنة التى خلعت البرنس وزجوهم في السجن وشكلوا لجنة مكونة من المسيو (ستامبولوف) والمسيو (مارافلوف) ومن آخرين بهيئة حكومة مؤقتة وكلفوهم باجبار البرنس (الكسندر) رسميا بأن الامة البلغارية تريد رجوعه أميرا عليها . فأخذوا يبحثون عن مقر البرنس حتى علموا أنه فى المانيا فأخبروه تلغرافيا بالامر ودعوه للعودة الى صوفيا فسافر فى ٢٩ أغسطس عام ١٨٨٦ واستلم من الحكومة المؤقتة زمام الامور

وقد احتفلت أهالى بلغاريا بعودة البرنس (الكسندر) الاحتفالات العظيمة ولكن الروسيا بقيت على نيتها الأولي فلما رأى البرنس ان سلامته وسلامة ملكه في يد الروسيا أرسل الى القيصر تلغرافا عرض عليه فيه خضوعه لاوامره واستعداده لقبول كل مطالبه فأجابه القيصر بأنه لايعتني بأمور بلغاريا الا اذا غادرها هو (أى ألكسندر) فكانت نتيجة اتباع هذا الامير لارشادات انكلترا تعصب الروسيا ضده وعدم مساعدة المانيا والنمساله وابتعاد انكلترا نفسها عنه

كل الابتعاد حتى أن وكيل وزارة الخارجية الانكليزية صرح فى ٦ سبتمبر عام ١٨٨٦ أمام مجلس العموم بأن انكلترا لم تتعهد بشيء نحو بلغاريا وان ليس لها مصالح فيها

فلم يبق بعد ذلك كله للبرنس (الكسندر) الا أن يتنازل عن أمارة بلغاريا. وقد تنازل بالفعل رسميا فى ٦ سبتمبر عام ١٨٨٦ وغادر فى ذلك اليوم نفسه صوفيا تاركا زمام الامور لمجلس مكون من المسيو (ستامبولوف) والمسيو (كارافلوف) والمسيو (موتكوروف). وقد تخوف هؤلاء الاعضاء من احتلال الروسيا لبلغاريا احتلالا عسكريا فاستلفتوا أنظار الدولة العلية للامر بصفتها صاحبة السيادة على بلغاريا فخابرت الدولة دول أوروبا ولما تحققت من أنها لا تسمح لاية دولة باحتلال بلغاريا أخبرت الحكومة البلغارية المؤقتة بأن لا خوف على الامارة من احتلال الروسيا لها

وقد أرسلت الروسيا الى صوفيا بعد تنازل البرنس (الكسندر) الجنرال «كولبار» بصفته مندوب من قبلها لدراسة أحوال بلغاريا وارشاد الحكومة المؤقتة فى سيرها .

وما وصل الجنرال (كولبار) الى عاصمة بلغاريا حتى عامل الحكومة المؤقتة والامة البلغارية معاملة الاميرلرعاياه فطلب من الحكومة المؤقتة : أولا الافراج عن أعضاء اللجنة التى قبضت في ٣٢ أغسطس على البرنس (الكسندر) وخلعته من أمارته . ثانيا أبطال الحالة العرفية . ثالثا تأجيل عقد مجلس النواب — الذى كان يجب أن يجتمع فى ١٠ اكتوبر عام ١٨٨٦ لانتخاب أمير جديد — الى أجل غير محدود

وفى أثناء هذه الحوادث كلها كان الناس كافة يتساءلون في أوروبا عن سبب مساعدة البرنس (بسمارك) للروسيا فى بلغاريا بعد مساعدته للنمسا وانكلترا فيها . وقد اختلفت العلل التى نسبوها لمساعدة البرنس (بسمارك) للروسيا ولكن الحقيقة هي أن رجل السياسة الالمانية رأى أن الروسيا مستعدة لمحاربة النمسا اذا عارضتها هذه الدولة في البلقان وان المانيا تكون مضطرة لمساعدة النمسا اذا قامت الحرب فعمل على تأييد السلام . هذا فضلا عن أن الروسيا كانت تتحبب الى فرنسا وكان البرنس (بسمارك) يخشى أنه اذا ساعد النمسا

في بلغاريا ضد الروسيا تحالفت هذه الدولة الاخيرة مع فرنسا

وقد بذل الجنرال (كولبار) غاية جهده في استمالة البلغاريين اليه ضد الحكومة المؤقتة فصار يطوف البلاد والقرى ويخطب في كل نادولكنه لم يفلح ورفضت الحكومة طلباته وحاكمت الذين قبضوا علي البرنس (الكسندر) في ٢١ أغسطس ولم تؤجل ميعاد انتخابات أعضاء مجلس النواب الذي كان محددا في يوم ١٠ اكتوبر عام ١٨٨٦ كما قدمنا . ولما جاء هذا اليوم جرت الانتخابات ففازت الحكومة المؤقتة بأغلبية ٤٥٠ صوتا ضد ٥٠ صوتا وقررت عقد المجلس في آخر شهر اكتوبر بمدينة (تيرنوفا) العاصمة القديمة لبلغاريا : اما الجنرال (كولبار) فانه اعتبر الانتخابات لاغية بدعوى ان الحكومة المؤقتة لم تترك الحرية التامة للاهالى وأعلن أعضاء الحكومة بأن الروسيا تعتبر محاكمة الذين قبضوا على البرنس (الكسندر) بمثابة اهانة لها . وقد عمل الجنرال (كولبار) على خلق الاضطرابات في بلغاريا ليوجد سببا لتداخل الروسيا فيها تداخلا عسكريا فحرض الروسيين المقيمين ببلغاريا على مشاحنة

البلغاريين ومخاصمتهم فحصلت بسبب ذلك مشاجرات كثيرة أفضت الى زيادة النفور بين الجنرال الروسى وأعضاء الحكومة المؤقتة. ولم يقبل أعضاء الحكومة المؤقتة الا طلباً واحدا من طلبات الجنرال (كولبار) وهو منع مجلس النواب من اعادة انتخاب البرنس (ألكسندردى باتنبرغ) أميرا على بلغاريا

وقد اجتمع مجلس النواب البلغارى فى ٣١ أكتوبر عام ١٨٨٦ وانتخب فى ١١ نوفمبر البرنس (فالدماردي دانمارك) أميرا على بلغاريا. وكان هذا الانتخاب موافقا لمصالح بلغاريا وغير مخالف لرغائب الروسيا فان هذا البرنس هو شقيق قيصرة الروسيا (زوجة القيصر اسكندر الثالث ووالدة القيصر الحالى) ولكن ملك الدانمارك رفض بتاتا قبول تعيين نجله أميرا على بلغاريا فاضطر مجلس النواب البلغارى لتعيين المسيو (جيفكوف) حاكما مؤقتا لبلغاريا

ولا ريب أن الروسيا كانت تود احتلال بلغاريا وجعلها فى قبضة يمينها ولولا ذاك لكانت سألت ملك الدانمارك أن

يقبل تعيين ابنه أميرا على بلغاريا . ولما عرفت انكلترا رغبة الروسيا ونواياها الحقيقية سعت لدى النمسا للاتفاق معها ضد الروسيا وسافر لهذا الغرض اللورد (راندولف ترشل) الى فينا بعد أن زار برلين . وفى ٩ نوفمبر عام ١٨٨٦ وقف اللورد سالسبورى في لوندرة خطيبا ووجه الملام الشديد الى الروسيا وانتقد علي سياستها وخطتها فى بلغاريا وأعلن ان انكلترا مستعدة للاتفاق مع النمسا فى المسئلة البلغارية . فهاجت الجرائد الروسية وقابلت مطاعن الوزير الانكليزى بمثلها وطلبت من الحكومة الروسية قطع العلائق مع انكلترا واستدعاء السفير الروسى من لندرة

وفى هذه الاثناء قطعت الروسيا علائقها مع بلغاريا لمخالفة الحكومة المؤقتة لرغائبها وفى ٢٠ نوفمبر عام ١٨٨١ غادر الجنرال (كولبار) صوفيا واستصحب معه كل قناصل الروسيا بعد ان علق فى الشوارع احتجاجا ضد أعمال الحكومة المؤقتة التي سماها بحكومة «اللصوص» وترك الرعايا الروسيين في بلغاريا تحت حماية قنصل ألمانيا وفى الروملي الشرقي تحت

حماية قنصل فرنسا

وقد عرض الباب العالي فى ٣ ديسمبر عام ١٨٨٦ على الدول الاوروبية تعيين البرنس (دى منجريلي) أميرا على بلغاريا ولكن الدول رفضت تعيينه بحجة أنه مبغوض من البلغاريين ومحبوب من الروسيا. ولما طال الامر وطال انتظار البلغاريين لتعيين أمير لهم أرسلت الحكومة البلغارية المؤقتة لجنة الى عواصم أوروبا لسؤال الدول التعجيل بالاتفاق على تعيين أمير لبلغاريا. فسافرت اللجنة الى فيينا حيث قوبلت فيها باحترام عظيم ثم قصدت برلين ولكنها لم تقابل فيها بمثل ذلك الاحترام وبعد ذلك سافرت الى باريس ولوندره. ومن المصادفات الغريبة أنها تقابلت فى محطة (كولونيا) مع البرنس (ألكسندر دى باتنبرغ) فحيته أجل تحية وأبلغته بقاء الامة البلغارية على ولائها له ولكن البرنس كان يعلم أن عودته الى بلغاريا صارت أمرا مستحيلاً. وبعد ان أتمت اللجنة رحلتها قصدت الاستانة العلية ورفعت الى مقام جلالة السلطان الاعظم فروض التابعية وأخذت تتخابر في عاصمة الدولة

مع رجال تركيا ومع سفير الروسيا ولكن الاتفاق لم يحصل بينها وبين السفير الروسى . (فارسلت عندئذ الدولة العلية فى آخر شهر مارس عام ١٨٨٧ رضا بك) الى صوفيا بصفة مندوب عال من قبلها لايجاد الاوفاق بين الاحزاب البلغارية وبعضها وبعثت بمذكرة للدول الاوروبية أبانت لها فيها ان بقاء بلغاريا بهذه الحالة مضر بها وان التعجيل بحل المسئلة صار واجبا

ولما يأس البلغاريون من اتفاق الدول الاوروبية على تعيين أمير لهم عرضت الحكومة المؤقتة على مجلس النواب البلغارى انتخاب البرنس (فرديناند دى ساكس كوبور) فانتخبه المجلس فى يوم ٧ يوليو عام ١٨٨٧ أميرا على بلغاريا وأبلغه ذلك بصورة رسمية فأرسلت عندئذ الدولة العلية لدول أوروبا تسألها رأيها فى الامر فأجابت كل دولة على حدتها بانها تقبل تعيين البرنس (فرديناند) اذا وافق ذلك رغبة الدول كلها . الا الروسيا فانها أجابت بانها لا تقبل أى قرار يصدره مجلس النواب البلغارى . فامتنع بذلك اجماع

الدول على تعيين البرنس (فرديناند) . أما البرنس نفسه فانه بعد ان بقي متردداً بين القبول والرفض بضعة أيام قبل امارة بلغاريا وسافر الي صوفيا فى ١٠ أغسطس عام ١٨٨٧ وعند وصوله اليها أرسل للحضرة السلطانية تلغرافا أعرب فيه عن صدق اخلاصه وعن أمله في مساعدة الدولة العلية له . وفي ١٤ أغسطس أدى امام مجلس النواب البلغارى يمين الاخلاص للامة البلغارية والعدل فى الاحكام . وفى ١٨ أغسطس زار مدينة (فيليبوبوليس) عاصمة الروملي الشرقي مظهراً بذلك انه لا يرضى بترك هذه المقاطعة للدولة العلية . وقد شكل الوزارة البلغارية بعد ذلك تحت رئاسة المسيو (ستامبولوف) أشد أعداء الروسيا فى بلغاريا

وقد سأل الباب العالى الحكومات الاوروبية عن رأيها بشأن جلوس البرنس (فرديناند) على كرسى امارة بلغاريا فأجابت الروسيا بان الدولة العلية يجب عليها التداخل في بلغاريا وطرد البرنس منها وأجابت بعض الدول الاخرى بضرورة الاتفاق مع الروسيا فى الامر . فعرضت الروسيا

على الدولة العليـة ارسال الجـنرال الروسى (ارنروت) الى بلغاريا لتوطيد الامن فيها وخلع البرنس (فرديناند) فقبلت الدولة العلية ذلك ولكنها اشـترطت على الروسيا اشـتراك مندوب عثمانى مع (ارنروت) فى مأمورية وفى هذه الاثناء كافت انكلـترا والنمسا وايطاليا قناصلها فى صوفيا بمقابـلة البرنس (فرديناند) واعتباره أميرا على بلغاريا . فـكان هذا العمل بمثابة اعتراف من هذه الدول الثلاث بتعيين البرنس (فرديناند)

ومن حسن حظ البرنس (فرديناند) ان المخابرات لم تنجح بين الدولة العليـة والروسيا وبقيت الحالة على ماهى عليه وسارت بلغاريا في عهـد وزارة المسيو (ستامبولوف) على سياسة مناقضة لسياسة الروسيا بالمرة . ولم تعتدل سياستها وتتحسن علاقاتها مع الروسيا الا بعد سقوط (ستامبولوف) وقتـله واعتناق البرنس (بوريس) ولي عهـد بلغاريا وابن البرنس (فرديناند) للـدين الارثوذكسى فى هـذه السنين الاخيرة . ولم يعترف جلالة السلطان الاعظم بتعيين البرنس

(فرديناند) أميراً على بلغاريا الا بعد تحسن علاقاته مع الروسيا. وقد دل ذلك على ان بين الروسيا والدولة العلية ألفة ومودة . وبعد اعتراف الحضرة السلطانية بتعيين البرنس (فرديناند) أميراً على بلغاريا اعترفت به الدول جمعاء . وبذلك انتهت المسئلة البلغارية

ومن الامور المحزنة ان كل أزمة من أزمات المسئلة الشرقية تنتهي بسلخ جزء أو أجزاء من املاك الدولة العلية فقد فقدت الدولة فى هذه الازمة الروملي الشرقي وأضاعت نفيس أوقاتها في مخابرات لا نفع فيها ولا جدوي

﴿ الأزمة السابعة ﴾

(المسألة الأرمنية)

لقد اعتقد بعض سواس الدولة العلية زمناً طويلا أن الدولة الوحيدة التي يجب مصافاتها والتقرب منها والعمل بارشاداتها هي دولة انكلترا دون سواها من الدول الاوروبية. ورسخ هذا الاعتقاد في أذهان الكثيرين حتى أنه كان يستحيل على أحد سواس الدولة العثمانية أن يتنبأ بمصير هذه المودة الانكليزية القديمة وبالعداوة الشديدة التي أصبحت تجاهر بها انكلترا نحو الدولة العلية . ومن يطلع على مذكرات وزراء تركيا السالفين ووصاياهم يجد أن أكثرهم كانوا ينصحون سلاطينهم باخلاص الود للدولة الانكليزية وباتخاذها الصديقة الوحيدة بين دول أوروبا . ولا ريب أن ثقة الدولة العلية بانكلترا أضرت بها ضرراً بليغاً وكانت سبباً لحروب عديدة فقدت فيها تركيا المال والرجال والبلدان . ومن كل عارف بتاريخ انكلترا وبسياستها في ماضيها وحاضرها لا يرتاب لحظة

واحدة في أن الدولة الانكليزية لاصديق لها وأن صداقتها المزعومة للدولة العلية لم تكن الا سلاحا للاضرار بالدولة العلية نفسها وآلة تكسبها من المكاسب بقدر ما تجر على تركيا من الخسائر

وما السياسة في عرف الانكليز الا علم الكذب والنفاق والحيل فهم لا يعرفون مع السياسة شرفا ولا يحترمون عهداً ولذلك كانوا فى الحقيقة ألد أعداء الدولة التى يتظاهرون لها بالصداقة والولاء وكانت الدولة المعادية لهم سالمة من مكائدهم ومن خداعهم

ولم يرتفع الستار تماما وتنكشف حقيقة أميال الانكليز نحو الدولة العلية الا فى عام ١٨٩٣ عندما أظهر سمو العباس أنه لا يعرف له متبوعا غير الحضرة السلطانية ويمم دار السعادة لتأدية فروض التابعية والاخلاص لصاحب الخلافة العظمى . فان الانكليز ما دخلوا مصر الا بسبب الشقاق بين المتبوع الاعظم والتابع وما توطدت سطوتهم فيها الا بذلك الشقاق المشؤوم. فكان من الامور البديهية ان تقرب عزيز مصر من الحضرة السلطانية يضر بمصالحهم فى مصر ويحرج مركزهم فيها ويلبس

المسئلة المصرية ثوبا جديدا في أعين الناس كافة . ولذلك هم
بذلوا الجهد الجهيد فى تنفير سمو العزيز من السلطنة السنية
ولما لم يفلحوا أخذوا ينفرون صاحب الخلافة من أمير مصر
فخبطت كذلك مساعيهم فى هذا السبيل . وبعد زيارة سمو
الخديو للاستانة فى المرة الاولى انتشرت الاشاعات فى كل
دوائر أوروبا السياسية بأن الانكليز يسعون لدى الدولة العلية
فى خلع سمو الخديو الحالى وان جلالة السلطان الاعظم يقابل
هذه المساعي بزيادة الانعطاف نحو أمير مصر وزيادة اظهار
الرعاية له ولشعبه ولبلاده . وقد تكررت هذه الاشاعات
وأكدها الكثيرون من رجال السياسة الاوروبية وانتظر
الكل عندئذ حصول فتور وجفاء فى العلائق بين الدولة
العثمانية ودولة بريطانيا . الا انه لم يكن يخطر على بال أحد
وقتئذ ان انكلترا تعمل على هدم السلطنة العثمانية انتقامها
وتخلق الاضطرابات والثورات فى قلب المملكة التركية تشفياً
من صاحب الخلافة الاسلامية . ولكن انكلترا اشتهرت
بانها لا تقف أمام عائق لبلوغ غايتها وادراك بغيتها فقد سلحت

الارمن البروتستانت وألقت عليهم التعليمات باحداث هيجان عام في كافة انحاء المملكة العثمانية والاعتداء على المسلمين في كل بلد عثمانية ووعدتهم بالمساعدة والتداخل وايجاد مملكة أرمنيه مستقلة . وبالجملة لم تجد انكلترا وسيلة لوضع يدها نهائيا على وادى النيل سوى خلق المسئلة الارمنية

وكان لانكلترا فى الثورة الارمنية جملة مقاصد . فهى كانت تريد قبل كل شيء زعزعة أركان الامن والسلام فى تركيا واضعاف سلطة الحكومة العثمانية وارهاب جلالة السلطان الاعظم واجباره علي الخضوع لرغائبها والعمل بأوامرها . وكانت انكلترا تعلم علم اليقين ان اضطراب الاحوال فى تركيا وقيام المسيحيين ضد المسلمين والمسلمين ضد المسيحيين وما شاكل ذلك من الامور يدعو حتما الى تداخل أوروبا فى الامر وتحزبها ضد الدولة العلية اذ الحقائق تنشر فى أوروبا مقلوبة وطالما اعتدى المسيحيون على المسلمين وادعت جرائد أوروبا ان المسلمين هم المعتدون وانهم وحدهم المقترفون لكل الآثام . وكان الانكليز يعلمون أيضا ان تداخل أوروبا فى

مسائل تركيا وتحزبها ضدها يملآن قلوب المسلمين غلا وكراهة ضد المسيحيين ويشجعان المسيحيين على الاستمرار في خطتهم الثورية فيزداد بذلك البلاء ويعم الدمار والفناء وتنزل المصائب على تركيا وتحل البلايا بالسلطنة العثمانية. وازدياد كراهة المسلمين لاوروبا كان من شأنه أن يجعل المصريين في يأس من نجاة وطنهم وتداخل الدول في صالحهم فيستسلمون للانكليز ويعتدل سمو الخديو مع المحتلين وهذا جل ما كان يتمناه الانكليز من تحزب أوروبا ضد الدولة وضد الاسلام

وغير ذلك فان انكلترا كانت تعمل بتحزبها لاوروبا ضد الدولة العلية وضد الاسلام على تفهيم المسلمين كافة بانها القائدة لزمام أوروبا وانها صاحبة الامر والنهي في سياسة الدول ليمتلئ بذلك المسلمون رهبة منها وتزداد سيطرتها في العالم الاسلامي. وكانت السياسة البريطانية ترمي الى أحد أمرين أما ارهاب جلالة السلطان الاعظم وتسييره حسب أهوائها واغراضها وأما خلعه وتولية من يكون بالطبع صنيعة لانكلترا وأسيراً لها. ولا ريب أن خلع جلالة السلطان الاعظم كان

يكون سببا لقلاقل لاعدادلها وداعيا لاضطراب عام في كافة انحاء العالم العثمانى والاسلامى . فمن ذا الذى كان يرضى من العثمانيين أن تسقط أوروبا السلطان العثمانى وتتداخل في شؤون الدولة العلية لهذا الحد ؟ ومن ذا الذى كان يرضى من المسلمين ان تنزل أوروبا المسيحية خليفة الاسلام عن عرش خلافته ؟ ومن ذا الذى كان يرى من العثمانيين والمسلمين هذا الامر الخطير بعين الرضا والسكون؟ومن ذاالذى كان يقبل الخضوع لسلطان عينته أوروبا وللخليفة أجاسته على عرش الخلافة دول المسيحية بعد ان خلعت السلطان الخليفة ؟ بل وماذا كان يعمل الكاثوليكيون لو توصل جلالة السلطان الاعظم الى خلع حضرة البابا ؟ ... أى الى عمل ما تريد انكلترا أن تعمله معه

أن تحقيق أمنية انكلترا بخلع جلالة السلطان الاعظم كانت تكون تحقيقا للشرور والمصائب والبلاياالتى لم ير النوع البشرى مثيلا لها في تاريخه

وقد أوضحنا فى مقدمة هذا الكتاب أن انكلترا تريد

هدم السلطنة العثمانية وتقسيم الدولة العلية ليسهل لها أمتلاك مصر وبلاد العرب وجعل خليفة الاسلام تحت حمايتها وآلة في يديها . وهي تقصد بتقسيم الدولة العلية غير ذلك احداث حرب عمومية في أوروبا وأضعاف فرنسا والروسيا . فان الموازنة الاوروبية لا تتم الا ببقاء الدولة العلية وسلامتها . واذا قسمت هذه الدولة (لا قدر الله) قامت الثورات في كل انحاء الشرق وهاجت أمم البلقان وصار كل يطالب بشيء فيعم الهيجان وتقوم الحرب العمومية ولا محالة . وبما ان الانكليز كانوا يؤملون نيل مصر وبلاد العرب فانهم كانوا يرضون بترك الشام لفرنسا والاستانة للروسيا ولا يخفى ان أستيلاء فرنسا على الشام والاماكن المقدسة من شأنه ان يقيم في وجهها كثيرا من الامم المسيحية ويثير المسلمين كافة ضدها ويجعل مستعمراتها الافريقية والاسيوية التي أهلها مسلمون مشتعلة نيران الثورة في سائر أنحائها . كذلك استيلاء الروسيا على الاستانة فانه كان يغير بالمرة وجه الوجود وينقد الموزنة الاوروبية ويقيم ضد الروسيا كل المسلمين التابعين لها وغير التابعين . فان

الاستانة تعتبر فى نظرنا معاشر المسلمين قلعة الاسلام وحصنه الحصين والمدينة التي يجب المحافظة عليها أكثر من سواها بعد مكة والمدينة . فقد وعد الرسول عليه الصلاة والسلام الفاتح لها بالجنة دليلا على مالها من الشأن والاهمية

ومن ذلك يرى القاريء ان انكلترا عملت بايجادها للمسئلة الارمنية على تدمير ملك آل عثمان وضعضعة السلطة الاسلامية واذلال العثمانيين والمسلمين واحداث حرب عامة فى الغرب وفى الشرق

*
* *

وقد والت انكلترا الارمن بالتشجيع والتحريض على متابعة الثورة والهيجان ومافتئت ترسل اليهم الذخائر والاسلحة وتحضهم على الاسترسال في التمرد والعصيان فعملوا بتحريضها وتلطخوا بدماء الجرائم والفظائع متسلحين فى كل أعمالهم بالاسلحة الانكليزية . ورأى العالم هذه الطائفة التي كانت عائشة في بحبوحة السعادة والرفاهية والتى كان يسميها العثمانيون « بالملة الصادقة » والتى لها فى مناصب الحكومة والادارات

وفى التجارة والصناعة الشأن الاول تثور ضد الدولة العلية هذه الدولة العادلة المعتدلة التى أراد أحد ملوكها اجبار المسيحيين على اعتناق الدين الاسلامي فعارضه العلامة أبو السعود وأرجعه عن عزمه . هذه الدولة التى تركت للأرمن وغيرهم حرية دياناتهم وتقاليدهم واحترمت رجال دياناتهم كعلماء المسلمين . . . . .

ولما جرت محاكمة ثوار الارمن فى عام ١٨٩٣ أمام محاكم (انقره) ظهرت الحقيقة التى لا ريب فيها وتبين للعالمين ان انكلترا هي الموعزة لهم بالثورة والمحرضة لهم على شق عصا الطاعة للدولة العلية . فقد ضبط رجال البوليس العثمانى كاتب أسرار الجمعية السرية المدبرة لحركة الثورة وبين يديه أوراقه المشتملة على أكثر أسماء الاعضاء واتضح أن الارمن البروتستانت هم وحدهم القائمون بالثورة دون الكاثوليك وان لهم جمعيات سرية داخل الدولة العلية وخارجها وان هذه الجمعيات تمد بالمال الجرائد الارمنية الثورية وعلى الخصوص جريدة (هنتشك) التى هى أهمها . وقبض كذلك

رجال البوليس العثمانى على بعض المبعوثين الامريكان البروتستانت الذين كانوا يشتركون مع الارمن فى تدبير الدسائس فاحتج سفير الولايات المتحدة على القبض عليهم وطلب الافراج عنهم فتعطفت الحضرة السلطانية وسمحت له بارسال مندوب مَن قبله للتحقيق فى أماكن الواقعة فسافر المندوب ولما عاد قدم تقريرا قال فيه ان التحقيقات التى أجراها الحكام العثمانيون منطبقة على العدل وان الذين قبض عليهم من مبعوثى البروتستانت لايستحقون المساعدة ولا الرأفة

وقد أبان التحقيق فى قضية ثوار الارمن أمام محاكم (أنقره) أنهم كانوا يجمعون الاموال باسم المستشفيات المراد انشاؤها وكانوا ينفقونها على شراء الاسلحة ونشر الافكار الثورية وترويجها بين سفلة الارمن وان رجال الدين من الارمن والرهبان كانوا يساعدونهم ويسكنون بعضهم في الكنائس وان مدينة (مرسيوان) جعلت مركزاً لاكبر جمعية. واستدل من التحقيق على ان بعض رجال السياسة الانكليزية

كالمستر غلادستون شجع سراً بكتابات خصوصية بعض رجال الدين من الارمن على الثورة واحداث القلاقل فى تركيا ووعدهم بمساعدة انكلترا وتعضيدها وتشكيل امارة أرمنية مستقلة

وأبان التحقيق كذلك أن ثوار الارمن كانوا يخطبون فى جمعياتهم السرية ضد الدولة العلية ويحرضون سفلة قومهم على السلب والنهب وقطع الطريق وارتكاب الفظائع والجرائم حتى تعتقد أوروبا ان الارمن أمة حية وتعمل لاخراجها من تحت سلطة الدولة العلية . وأبان التحقيق أيضا انهم كانوا متفقين على رموز واشارات للتعارف بها كرفع الشوارب ومس الآذان وتغطية الوجه وما شا كل ذلك وانهم كانوا يتزيون بزى الاتراك والاكراد والجراكسة ويفتكون بالمسلمين وبعض الارمن أنفسهم لتشيع الجرائد فى أوروبا ان المسلمين متعصبون وأن الارمن يقاسون العذاب اشكالا وألوانا . واتضح من التحقيق أن ثوار الارمن كانوا يسرقون الخيول ويسلمونها لراهب اسمه (دانيال) اشتهر بالمهارة الفائقة فى

صبغ الخيول وتغيير ألوانها ثم يبيعونها بعد ذلك وانهم كانوا يهددون من لا يريد الانخراط فى سلك جمعياتهم بالقتل وكانوا يقتلون كل من يفشى أسرارهم

وأثبت التحقيق جليا ان ثوار الارمن كانوا ينشرون فى انحاء المملكة العثمانية اعلانات باسم المسلمين تحرض الامة على اشهار العداوة لجلالة السلطان الاعظم والمناداة بخلعه . وقد عثر المحققون في هذه القضية المهمة على نصوص هذه الاعلانات مطبوعة فى جريدة (هنتشك) الارمنية التى تطبع في لوندرة

وقد جرت المرافعات فى هذه القضية أمام محاكم أنقره وأظهر حضرة المفضال محمد عارف بك المدعي العمومي بأجلى بيان أن المحرك لهذه الفتنة هم أعداء الدولة العليـة وانه يجب القصاص من هؤلاء الثوار المجرمين الذين خانوا عهـد الدولة العلية والوطن. ومن أصدق العبارات التى قالها في مرافعته قوله:

« ان رعايا جلالة مولانا السلطان من الارمن الذين هم من مدة ستمائة سنة مغمورون في بحار تفضلات الدولة العلية واحساناتها والذين هم برعاية مولانا العادل ممتعون بالراحـة

والعدل محافظون مثل بقية الرعايا العثمانية المخلصة على وطنيتهم وحريتهم الدينية وآدابهم ولغاتهم وظلوا كل هذه القرون لم يتعرض لهم أحد بسوء لا لاخلاقهم ولا لحيثياتهم المدنية ولا لاموالهم ولهم فى كافة الولايات والمدن والنواحى كنائس كبرى شائقة شاهقة ومدارس عليا آهلة عامرة ومجالس روحانية حرة . فنحن بغاية الاسف نرى أشخاصا منهم ينصاعون للتأثيرات الشيطانية التى يلقيها عليهم أعداء المملكة فيرتكبون من وقت الى آخر وفى كثير من الجهات والنواحي جرائم لاتوافق شروط الامانة والصداقة

وهذه الاعمال الفظيعة التى يراها الرأى العام منافية الانسانية وشريعة المروءة ومن نتائج الكفران بالنعم ونكران الجميل استوجبت بالطبع تنبه الحكومة الشاهانية وتكدر جلالة السلطان الاعظم وأثارت عواطف الاسف والحزن بل والخجل عند جميع العقلاء من طائفة الارمن »

وقد صدرت على المجرمين أحكام مختلفة فحكم على أحدهما بالاعدام وحكم على البعض الاخر بالسجن . وصاروا عبرة

لغيرهم من الاشرار والمفسدين . ولا يحيق المكر السيء الا بأهله

وقد تلطف جلالة السلطان الاعظم وعفا عن بعض المجرمين وعدل الحكم على الاخرين فكان ذلك منه منتهي الرحمة والاحسان ودليلا ساطعا على ان خليفة المسلمين رؤوف بكل رعاياه على السواء لا كما يدعيه كتاب الانكليز وخطباؤهم زورا وبهتانا

وان فى قضية (انقره) لموعظة كبرى لسائر المسلمين فهى تبين مقدار عداوة الانكليز للدولة العلية وللاسلام وتظهر خبايا السياسة البريطانية وتكشف النقاب عن حقيقة الصداقة المزعومة التى كانت تتظاهر بها انكلترا نحو الاتراك والمسلمين فلم يبق بعد هذه القضية الشهيرة شك ولا ريب فى ان الانكليز يعملون على تدمير المملكة العثمانية واثارة عواطف المسيحيين فى كل بقاع الارض ضد المسلمين أى انهم يعملون لارجاع أزمان الحروب الصليبية فليتذكر من يريد أن يتذكر من بنى الدولة العلية ومن بنى الاسلام

*
* *

مذ ارتفعت نيران الثورة الارمنية وقام الارمن باظهار ثمرات تدبيراتهم وثمرات التلقينات الانكليزية حتى هبت الجرائد البريطانيـة موجهة الى الدولة العثمانية سهام الشتائم والقبائح طاعنـة على جلالة الخليفة الاعظم الطعن السافل البذئ مدعية كذبا ان جـلالة الخليفة هو الموعز للاكراد بالفتك بالارمن وقتلهم هم ونساءهم وأطفالهم. وهي أكذوبة لم ير التاريخ لها مثيلا . فان كتاب الانكليز الذين كانوا يسطرون هـذه الشتائم والمطاعن الساقطة كانوا يعلمون حق العلم ان رجال السياسة البريطانية هم الموعزون للارمن بالثورة وان الارمن هم المعتدون . وفي أغلب الاحيان كان كتاب الانكليز الذين يطعنون على الدولة العلية وسلطانها الاعظم هم أنفسهم من الموعزين للارمن بالثورة ومن المحرضين لهم على الاسترسال فى شق عصا الطاعة والعصيان. وهى رواية غريبة فى بابها يجب على التاريخ أن يدونها بغاية الاعتناء ليعرف الاعقاب كيف تخدم انكلترا الانسانية وكيف تحمي المسيحيين

فى الشرق . . . . .

ولم تكن حركة الخواطر في انكلترا بشأن الارمن الا حركة سياسية وحركة دينية فى آن واحد . فرجال السياسة كانوا يؤملون الوصول بالثورة الارمنيـة الى هدم المملكة العثمانية والاستيلاء بصفة نهائية على مصر بلاد العرب. وبما انه كان يستحيل عليهم أن يفهموا العامة من قومهم هذه الغاية البعيدة فقـد هاجوا خواطر الشعب الانكليزى بعوامـل الدين . فكنت ترى الكنائس ميدانا لاعداء تركيا واعـداء الاسلام وكانت منابرها مهبطاً لادنى الشتائم الموجهة للدين الحنيفى والخليفة المسلمين وكان رجال الدين البروتستانتى من أكبر العاملين على هياج الافكار فى مسئلة الارمن وكانت أغلب المجتمعات التى تعقد لمساعدة الارمن تعقد تحت رئاستهم حتى انه كان يخيـل للانسان ان الامـة الانكليزية بسواسها ورجال دينها ليست من أمم القرن التاسع عشر بل أمـة من أمم المسيحية أيام الحروب الصليبية بعثت لتذكير المسيحيين بوجوب معاداة المسلمين ومطاردتهم . . . .

ومن اكبر الدلائل على تعصب الانكليز ضد الدولة العلية وضد الاسلام ان المستر (غلادستون) زعيم حزب الاحرار فى انكلترا قام نصيرا للارمن وطعن على صاحب الخلافة الاسلامية الطعن المر واتهمه بأنه هو السافك لدماء الارمن الآمر بقتلهم وبالفتك بهم وكان فى كل خطاباته يعلن بصوته الرنان انه لا ينتصر للارمن بصفتهم مسيحيين بل انه ينتصر لهم بصفتهم من النوع الانسانى ويصرح جهارا بأنه يخطب فى صالح المسلمين اذا لم ينصف المسيحيون المسلمين فى بقعة من بقاع العالم . ولما كان بعض السذج من المسلمين الذين يعجبون بكل شيء في أوروبا حتى بسياسة دولها ضد العثمانيين وضد المسلمين يظنون ان المستر (غلادستون) صادق في دعواه فقد كتبت الى هذا السياسى الانكليزى العظيم فى صيف عام ١٨٩٦ كتاباً ذكرته فيه بأنه كتب لي فى يناير عام ١٨٩٦ نفسه « ان زمن الجلاء عن مصر قد وافى منذ سنين » وبأنه صرح في كل خطاباته بأنه مستعد لمساعدة المسلمين وللدفاع عنهم اذا رآهم فى حاجة لمساعدته ولدفاعه وسألته القاء خطبة فى

انكلترا على مسمع من سواس بريطانيا وكتابها لتذكير بنى قومه بضرورة الجلاء عن مصر والوفاء بالوعد واحترام شرف جلالة الملكه وشرف التاج الانكليزى فاجابنى المستر (غلادستون) بجواب مدهش للغاية وهو «انى نصير للجلاء عن مصر ولكنني لا أستطيع التداخل فى مسئلتها لاني لا سلطة لى فى بلادى ولست الا أحد أبنائها الخصوصيين»

فكيف يدعى المستر غلادستون انه عديم السلطة فى بلاده عند ما يطالب بالدفاع عن المصريين وبمطالبة انكلترا بالجلاء عن مصر وهو بعينه المثير لعواطف الانكليز ضد الدولة العلية وضد المسلمين؟ أيكون قوى السلطة عالى الصوت فى مسئلة الارمن وعديم السلطة خافت الصوت في مسئلة مصر؟ أين اذن صدق المستر (غلادستون) فى قوله انه «مستعد للدفاع عن المسلمين اذا رآهم في حاجة للدفاع عنهم»؟ أوليس الواجب على المستر (غلادستون) ان يذكر حكومة بلاده بوجوب احترام التعهدات العلنية الصريحة والمعاهدات الدولية المختصة بمصر قبل ان يطالب الحكومة العثمانية باحترام المادة (٦١)

من معاهدة برلين ؟ ألا يعلم المستر (غلادستون) انه يجب على انكلترا أن تحترم وعودها وعهودها قبل أن تطالب الحكومات الاخرى باحترام مادة من مواد معاهدة دولية؟ أو ليس رفض المستر (غلادستون) قبول المدافعة عن مصر والمطالبة بالجلاء عنها بمثابة اعلان لتعصبه ضد الدولة العلية وضد المسلمين ؟ ألا يدل هذا الجواب الذى بعث به الى المستر (غلادستون) دلالة صريحة على أن سواس بريطانيا يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم ؟

ان تعصب المستر (غلادستون) وأصحابه ضد الدولة العلية وضد المسلمين واضح لا ريب فيه. وقد أظهره لاوروبا بعض الكتاب المنصفين . ولكن أجدر هؤلاء الكتاب بالذكر هو (الفيكونت دي كورسون) الفرنساوى فانه وضع رسالة (١) أبان فيها دسائس الانكليز فى المسئلة الارمنية وأعمال ثوار الارمن وفظائعهم . وانا نقتطف من هذه الرسالة الجليلة بعض شذرات للاستشهاد بها فى هذا المقام :

(١) وقد عني بتعريبها حضرة الفاضل محمد افندى مسعود

أوضح الكاتب فى أول رسالته أن الجرائد الانكليزية كانت تتنبأ بكل الحوادث الارمنية وقال في صحيفة (٦) بهذا الصدد:

« والواقف على مسئلة الارمن بحذافيرها يتحقق لديه أنه ما من حادثة وقعت فى البلاد التى اصطلح الانكليز على تسميتها بارمينيا الا وتكون الجرائد الانكليزية فى لندره قد أنبأت بها قبل حدوثها بزمن طويل جداً فتراها تبين لقرائها نوع الحادثة التى ستقع ومكان وتاريخ وقوعها كما فعلت فى حادثة وادى (تالورى)ولا يجدر بالعاقل أن يتخذ هذا الانباء بالمستقبل ضربا من ضروب التبصر الذى امتازت به الجرائد الانكليزية بل لابد أن يذهب في تفسير معناه الى ما فسره به من قال ان الثورة الارمنية أشبه شيء ببضاعة جهزها الانكليز في مجتمعاتهم السياسية وأخذوا فى تصديرها حسب الطلبات الى جهات معلومة »

واستدل الكاتب على كذب الجرائد الانكليزية بأقوال بعضها حيث كتب فى صحيفة (١٠) :

« ولقد اعتنينا اعتناء تاما بجمع مانشرته الجرائد المشار اليها

في هذا الموضوع وثابرنا على هذا العمل مدة طويلة ثم أمعنا النظر فيه وضاهينا بين أجزائه فظهر لنا من المناقضات بين أقوال الجريدة الواحدة ومن الاختلاقات الواضحة مايدع القارىء فى ذهول واستغراب. مثال ذلك أن بعض الجرائد كانت ترثى لحال الارمن وتصف مانابهم من الذل والهوان وما حاق بهم من المصائب والنوائب بعبارة يضطرب لها ذوو الشفقة والحنان ثم تورد عقب هذا الوصف أشعارا حماسية قديمة هى عين الذى نشر حينما استقلت بلاد اليونان اثارة للخواطر وتهييجاً للنفوس . أما الجرائد الاخرى وفى مقدمتها جريدة (الفلوب) فكانت تنسب الى زميلاتها الغش وتضليل الرأى العام بما تنشره من الاكاذيب بشأن المسئلة الارمنية وقد قالت في بعض اعدادها الصادرة فى شهر يناير سنة ١٨٩٥ بالحرف الواحد مايأتى :

« ان الفظائع التى اسند الى الاتراك اقترافها ضد الارمن هى اكبر ماغشت به الجرائد الانكليزية الرأى العام الانكليزى »

وأثبت الكاتب أن عقلاء الارمن سخطوا على انكلترا

واعتبروها عدوتهم الحقيقية التى ألقت بهم فى مهواة الهلاك
وكتب بهذا الشأن فى صحيفة (١٢) :

« واننا لم نكلف خواطرنا ابراز الحقائق من مكامنها
الا اشفاقا بأرمنيي الاقاليم الآسيوية الذين أذعنوا لايعاز
الاجنبى لهم بشق عصا الطاعة فسببوا بذلك ضياع حياة
الكثيرين منهم وانتشار الفقر والفاقة فى جميع أنحاء البلاد
الارمينية واستيلاء الوساوس والقلق على قلوب الافراد
وعقولهم . وفى يقيننا أن العقلاء منهم أخذوا الآن يعضون
على الاصابع ندما على مافرطوا فيه ويسخطون على الذين
بتغريراتهم الخبيثة كانوا سبب وقوعهم فى هاوية لاقرار لها
وما ذلك الا لكون أولئك العقلاء يعلمون علم اليقين أن
دعوة الحكومة العثمانية لاصلاح شؤون الارمن وترتيب
أحوالهم لاتكون بالقيام عليها وتمهيد الطريق لتداخل
الاجنبى فى أمورها الداخلية كما يعلمون أن الثورة تستدعى
الحكومة الى اتخاذ الوسائل اللازمة لقمعها وهو مايستغرق
زمنا طويلا يمكن اعتباره عقبة فى طريق التقدم وحائلا دون

ارتقاء العمران »

وقد أبان (الفيكونت دي كورسون) ان المسيحيين فى الدولة العلية ممتعون بجميع الحقوق التى يتمتع بها المسلمون وأنهم ممتازون عنهم بعدم دخول العسكرية . ومما كتبه فى هذا الموضوع قوله :

« تقضى قوانين الحكومة التركية ونظاماتها العمومية على التركى المسلم بمهاجرة بيته ومفارقة أهله وخلانه للانتظام فى سلك العسكرية حيث يلبث ضمن العاملين في الجيش ست سنوات متوالية وثمان سنوات فى الجيش الاحتياطى ريثما يكون صاحبه أو رفيقه أو جاره الارمنى أثناء كل تلك السنوات متمتعاً بحريته المطلقة قائما بأعماله المعيشية عاملا على ترقية نفسه فى سلم الهيئة الاجتماعية لانه يكون قد أعفى من الدخول فى الجيش بدفع بدل نقدى طفيف لا يجوز للمسلم أن يفدى نفسه به ولا بأمثاله أضعاف الاضعاف

وبديهي أن هذا الامتياز الممنوح للمسيحيين دون غيرهم من الاهالى قد ألحق بالمسلمين أضرارا كثيرة أقلها

تناقص النسـل وعدم التأهل لتولى الوظائف والمناصب فى الحكومة »

وأثبت الـكاتب كذلك بالبرهان الدامغ والحجة القاطعة أنه يستحيل تشكيل مملكة أرمنية. وقال فى هذا الصدد ما تعريبه :

« أيجهـل الانكليز الذين تداخـلوا فى المسئلة الشرقية وقالوا بضرورة انشاء مملكة أرمنية تكون بلا شـك تحت رعايتهم وفى ظل حمايتهم أن الاكراد هم بلا جدال ولا ارتياب أصحاب البلاد بالنظر لكونهم أكثر عدداً من جميع الامم التي تعيش فيها . وهـذه احصائية صريحة لسكان الولايات الاثنى عشر التى يسكنها الارمنيون والاكراد منقولة عن كتاب (تركية آسيا) للمسيو (فيتال كينيه)

	مسلمون	أرمن	غيرهم	المجموع
ادانه	١٥٨٠٠٠	٩٧٤٥٠	٧٤٩١٨٠	٤٠٣٤٣٠
حلب	٧٩٢٤٥٠	٤٩٠٣٠	١٥٤٢٧٠	٩٩٥٧٥٠
أنقره	٧٦٣١٢٠	٩٤٢٩٠	٣٥٤٦٣	٨٩٢٨٧٠
بتليس	٢٥٤٠٠٠	١٣١٣٩٠	١٣٢٣٠	٣٩٨٦٢٠
ديار بكر	٣٢٨٦٤٠	٧٩١٣٠	٦٣٦٨٠	٤٧١٤٥٠

ارضروم	٥٠٠٧٨٠	١٣٤٠٦٠	٩٩٥٠	٢٤٥٦٩٠
قونيا	٩٨٩٢٠٠	٩٨٠٠	٨٩٠٠٠	١٠٨٨٠٠٠
معمورة العزيز	٥٥٤٤٠	٦٩٠٢٠	٦٥٠	٥٧٥١١٠
الموصل	٢٤٨٣٨٠	—	٥١٩٠٠	٣٠٠٢٨٠
سيواس	٨٣٩٥١٠	١٧٠٤٣٠	٧٦٠٦٠	١٠٨٦٠٠٠
طربزون	٨٠٦٧ ٠	٤٧٢٠٠	١٩٣٨٠٠	١٠٤٧٧٠٠
وان	٢٤١٠٠٠	٨٠٠٠٠	١٠٩٠٠٠	٤٣٠٠٠٠
المجموع	٦٤٢٧٢٢٠	٩٦٢٠٠٠	٩٤٤٩٨٠	٨٣٣٤٩٠٠

وقدر المستر اكزمنيس عدد الاكراد الحقيقيين ٨٦٠؛١٦٤ فيكون مجموع المسلمين فى الولايات الاثنتى عشرة غير الاكراد ٤٧٨٢٣٦٠ والاكراد وحدهم ١٦٤٨٦٠ والارمن من غريغوريانيين وكاثوليك وبروتستانت ٩٦٢٠٠٠ والاقوام الاخر من يونانيين ولاتين وكلدانيين وأقباط ويزيدية ٩٤٤٠٨٠

أما فى الولايات السبعة وهى طرابزون وسيواس وارضروم وأنقره ووان وديار بكر وبتليش التى تأمل الجرائد الانكليزية تأليف المملكة الارمنية منها فيبلغ عدد سكانها كما يأتى:

مسلمون	٣٧٣٣٧٥٠
أرمن غريغوريانيين	٨٤٧٧١٠
بروتستانت	٦٠٧٣٤
كاثوليك	٥٨٤٧١
يونان ارثوذكس	٣٥٢٥١٢
متحدون	٣٨٠
نسطوريون	٩٢٠٠٠
كلدانيون	٤١٤٤٠
يعقوبيون	٥١٢٩٨
سوريون	٩٩٨٠
يزيديون	٩٠٤٦٢
اقباط	٣٧٢
مجموع المسلمين	٣٧٣٣٧٥٩
أرباب الديانات الاخرى	١٤٩٧٣٥٩

أى أن نسبة مجموع المسلمين في الولايات السبع السالفة لذكر الى عدد الاهالى الكلى كنسبة ١١ الى ١٥ وعليه

فتكون نسبة المسيحيين اليه هى ٤ الى ١٥ ليس الا والارمن نصف هؤلاء فتكون نسبتهم الى عدد الاهالى الكلي كنسبة ٢ الى ١٥

فكيف يمكن والحالة هذه انشاء مملكة أرمنية يكاد العنصر الارمنى فيها أى الذى سيقبض على أزمة الوظائف فى الحكومة لا يوازى الثمن من مجموع عدد الاهالى . لا ريب ولا شك فى أنه اذا تحققت أمانى القائلين بانشاء تلك المملكة تمزقت أحشاؤها وتكسرت ضلوعها بتواتر المنازعات الملية والحروب الاهلية . والا فكيف يتصور عاقل منصف أن الامن يكون سائداً والطمأنينة موطدة الدعائم فى فرنسا مثلا اذا كان لا يوجد فيها من الفرنسويين سوى ستة ملايين ومن الالمانيين والانكليز الذين هم أشد أعداء فرنسا لدادة وخصومة نحو ٣٠ مليونا

يؤخذ بالبداهة مما سبق بيانه أن مسئلة انشاء مملكة أرمنية يقوم بأمرها أحد أبناء البلاد هى أمنية يرقشها الانكليز بألوان تجذب قلوب الارمنيين اليهم . وليس يبرح

عن أذهان القراء الواقفين على ماوقع من الحوادث أثناء انعقاد
مؤتمر برلين أن مندوبي الكنيسة الارمنية عرضا على نواب
الدول في هذا المؤتمر بارشاد والهام (نوبار باشا) مشروعا
يؤخذ من مغزاه طلب تعيين «حاكم عام أرمني» لبلاد أرمينيا
أى للولايات السبع التى سبق بيان أسمائها وتحديد شروط
تعيين الموظفين فيها وانتخاب المجالس العمومية وتشكيل عساكر
الجندرمة الى غير ذلك من المطالب التى تعتبر كافلة لاستقلال
أرمينيا استقلالاً مطلقا وبعبارة أخرى لجعل ٣٧٠٠٠٠ نفس
من المسلمين تحت سيطرة ٨٠٠٠٠ أرمنى مسيحى . أما
الحاكم العام الذى كان يريد المندوبان الارمنيان تعيينه فهو
كما يتبادر لذهن القارىء «نوبار باشا» الذى كان عنيه الانكليز
بتغيير لقبه وتحويله من حاكم عام الى والى أو أمير (برنس)
وهذا هو السر فى كونه لبث نحو ستة عشر عاما يوالى الانكليز
بخدماته ومساعيه ويجعل نفسه آلة لهم يستعينون به على قضاء
مآربهم ونيل أغراضهم فى البلاد الشرقية وكونه وضع القطر
المصرى فى قبضتهم وساعدهم على الاستئثار بالسلطة والاحكام

فيه شيئا فشيئا بالرغم عن أميال سمو الخديو الشاب وعواطفه الوطنية

ومما لا بد من تذكير القارىء الكريم به هو أن بين المسئلة المصرية والمسئلة الارمنية علاقة أكيدة ورابطة وثيقة تاه عنها كتاب الجرائد الاوروبية ورجال السياسة فان (نوبار باشا) طامح الى الجلوس على منصة الامارة الارمنية الموهومة وقد اتخذ الانكليز هذا الطموح وسيلة لبلوغ مرامهم من وضع البلاد المصرية تحت حماية دولتهم وليست الحوادث الأخيرة التى كانت بلاد الاناضول ميدانا لها الا حجابا كثيفا يستر مقاصد الانكليز من الاستئثار بالسلطة فى وادى النيل ويخفى مساعيهم ودسائسهم المقصود بها وضع هذا الوادى فى طىّ أملاكهم الشاسعة الاطراف

وقد شعر المؤتمر البرلينى بما كان يحاول الحزب الارمنى الحصول عليه منه ألا وهو الاقرار بتعيين (نوبار) حاكما عاما على أرمينيا فاحترز أعضاؤه من الوقوع فى حبائل ذلك الحزب بتحرير ما كان موضوعا للمادة الحادية والستين من

العهدة البرلينية وهـذا نصه « يتعهد الباب العالى بأن يجرى
بلا ابطاء ولا تأخير التعديلات والاصلاحات التى تستلزمها
الحاجات المكانية والضرورات المحلية فى الاقاليم والولايات
التى يسكنها الارمن وبأن يكفل لهم الارمن الطمانينة من
الجراكسة والكرد . ويتعهد كذلك بأن يوافي الدول من
وقت الى آخر بما يتخذه من الوسائل اللازمة لذلك كى تراقب
تنفيذها »

والمتأمل في ظاهر هذه المادة يجده مناقضا لما كان يخالج
صدور (نوبار باشا) واصحابه الانكليز من الامانى والآمال
ولكن الدولة الانكليزية تمكنت بواسطة هذه المادة من
احتلالها القطر المصرى ومن الحصول على جزيرة قبرص ومن
التداخل في شؤون آسيا الصغرى

ولقد نشر الماجور (عثمان بك) فى جريدة غازت
مورنيخ العمومية مقالة شائقة أماط فيها اللثام عن أسرار
الاجتماعات التى حصلت فى شهر سبتمبر سـنة ١٨٨٧ بمدينة
جنيفة « جنيره » قاعدة بلادسويسره بين (نوبار) باشاو (لوريس

ميليكوف) و(تكران باشا) و(بوغوص) باشا وكان نوبار باشا .
عائدا وقتئذ من لوندره حيث تهاطلت عليه الوعود من
أصدقائه الانكليز بمعاونته وشد أزره في مشروع انقاذ البلاد
الارمنية من الاحكام العثمانية الصارمة فقرروا بينهم ارسال
جماعة ممن لاشأن لهم سوى اثارة الخواطر وغرس بذور
الفتن ورفع لواء العصيان والاضطراب الى بلاد الاناضول
وأوعزوا اليهم أن لايتوانوا عن السلوك فى هذا المسلك حتى
تضطرب الاحوال ويختل نظام الامن وتجد الدولة البريطانية
فرصة للتداخل بحجة المراقبة والاشراف على تنفيذ مضمون
المادة الحادية والستين من عهدة برلين . وتم الاتفاق أيضاً
على أن الجرائد الانكليزية فى لوندره والمبعوثين البروتستانت
فى أرمينيا يوالون زعماء هذا الاضطراب بالمساعدة والتعضيد
مبالغة فى الحض وزيادة فى التنشيط

ولمناسبة ذكر المبعوثين البرتستانت، نقول ان المرسلين
الدينيين فى البلاد التى يخترقونها أو يقيمون فيها هم رواد التدابير
السياسية والممهدون للدسائس القنصلية ولهذا ترى أن مساعيهم

نجحت بين الارمن وبلغ عدد الذين اعتنقوا المذهب البرتستانتى من هؤلاء أكثر من ٦٠٠٠٠ نفس وقد استعمل القسوس للوصول الي هذه الغاية الفريدة وسائل وأساليب غريبة منها أنهم كانوا يغرون الارمن بقولهم انكم اذا اعتنقتم هذا الدين شملتكم الحماية الانكليزية التى تمتد بلا مراء على جميع الامم البروتستانتية وأمكنكم حينئذ أن تهزؤوا بموظفى الحكومة العثمانية اذا حاولوا تشديد الوطأة عليكم وتتخلصوا من دفع الضرائب والرسوم الفادحة التى أثقل بها كاهلكم »

وقد أتى الكاتب على أسماء اللجنة الانكليزية التى شكلت لمساعدة الارمن حيث قال :

« ونذكر من الانكليز الذين شدوا أزر هؤلاء الاخلاط وعاونوهم على نيل مطامعهم المستر ستفنسون أحد أعضاء البرلمان ورئيس اللجنة الارمنية الانكليزية والمستر اتكين أمين صندوق اللجنة والمستر برايس أحد أعضاء البرلمان ووكيل احدى الوزارات فى وزارة المستر غلادستون والدوق درجيل والدوق دى وستمنستر واللورد روندل

واللورد كمبرلى « وزير خارجية انكلترا » والسر هاتير والمستر شفون والسر سيتول والسر جون كينافاى والمستر شانيغ وجميعهم من أعضاء مجلس البرلمان والمستر ستنن غلادستون مدير مدرسة هواردن والقس ماكول والمستر جون كايفورد الخ الخ

ولا حاجة الى اعادة القول فى هذا المقام بان المستر غلادستون المشهور بحقده المزمن على تركيا وضغنه للاتراك هو المدير الاعظم للحركة الارمنية وأنه لم يدع فرصة تفوت بدون أن يجاهر فيها بعداوته للدولة العلية وتحريض الجمهور على كراهتها والسعي فى هدم أركانها »

وأوضح الكاتب السالف الذكر تاريخ اللجنة الارمنية الثورويةالهنتساكية فقال :

« وفى سنة ١٨٨٧ شكل الفوضويون من الارمن وهم روبن‌ها اسديان الملقب بكمبور ونيشان مجاوريان وهمايانك كوشبازيان جمعية سرية منسوجة على منوال الجمعيات العمومية الروسية (نهلست) جعلوا مقرها حارة هفلبان بمدينة تفليس

وقد سميت هذه الجمعية باسم هنتشاك ونيط بها انشاء جريدة بهذا العنوان عهد بادارتها وتحريرها الى نزاربكيان ليرن الذى كلف بالعودة الى مدينة جنيفة (جنبرة) حيث ابتدأ فى نشر هذه الوريقة الثورية . وبعد مدة طائلة نقل ادارة الجريدة الى مدينة أثينا لكى تتوفر لديه الطرق والوسائل اللازمة لادخالها فى البلاد العثمانية بالنظر لقرب تلك المدينة منها غير أن الحكومة اليونانية لم تستطع بقاء جريدة فاسدة المبادىء في بلادها وتحت حمايتها فطردت محررها وأربابها الذين هاجروا عاصمة اليونان قاصدين مدينة لوندره ولا يزالون فيها الى اليوم ينشرون تلك الصحيفة الثورية

ولكى يقف القارىء وقوفا تاما على الغرض الذي يسعى أعضاء لجنة هنتشاك لنيله لا نرى بداً من ترجمة بعض لوائحهم ومنشوراتهم ترجمة حرفية نراعي فيها مطابقة الاصل من جميع وجوهه وللقارىء أن يستنتج من خلال معانيها ما يلائم الصدق من الاحكام الصائبة فنقول : نشرت لجنة هنتشاك فى سنة ١٨٨٩ بمدينة لوندره رسالة قسمتها شطرين

الاول منهما عنوانه « التيار الجديد » والثانى «خطاب مفتوح »
يقع نظر القارىء فيها بالصفحة ١٩ على ما يأتي :

« من الواضح قبل كل شيء اننا فوضويون وان لنا
رغبة وطيدة مبينة في لوائحنا ألا وهي نشر مبادىء الفوضى
فى بلاد الاناضول. هذا هو الغرض الاساسى وللوصول اليه
قد عقدنا الخناصر على انشاء حكومة وطنية مستقلة في تلك
البلاد وأحداث الاضطراب بلا توان ولا امهال للحصول على
الحرية السياسية الواسعة النطاق »

وقد أورد هذا الكاتب الجليل مواد لائحة الجمعية
الهنتشاكية واننا نأتى على ترجمة بعضها :

المادة ٦ هى : من الغرابة بمكان وهذا نصها « يجب
على كل لجنة أن تعين رئيسا للجواسيس من بين أعضائها على
شرط ان يكون من موظفى الحكومة أو تكون له رابطة
وعلاقة بموظف أرمنى فى الحكومة ليتمكن من نقل اسرارها
ونياتها الى اللجنة ويشترط فى تعيين ذلك الرئيس ان يكون
من ذوى الشهامة والقدرة على كتمان الاسرار . وينبغى ان

يكون تحت ادارته عشرة جواسيس ينتخبون من أصدق رجال الجمعية ليقوموا باخبارها أولا بأول بما يكتنفها من المخاطر وعليهم أن يدخلوا فى كل مكان متنكرين بحيث يكون زى التنكر للواحد منهم مختلفا عنه للآخر ويهيئوا مشروعاتهم فى الخفاء وتكون المداولات المختصة بهم منحصرة بين اللجنة وبين رئيسهم »

« وتقضى المادة السابعة بتعيين خطباء يخطبون بين الجمهور لحضهم على الثورة والاضطراب . أما المادة الثامنة فاليك نصها : « يجب ان يكون لكل لجنة منفذ يكون تحت امرته جماعة من المساعدين . الواجب المفروض على هذا المنفذ وعلى مساعديه أن يقوموا باعدام من ترى فيهم اللجنة أنهم يضرون بها سواء كانوا من الحزب أو من الاجانب وذلك متى صدر قرار اللجنة قاضياً باتخاذ هاته الوسيلة . وانواع العقاب ثلاثة التوبيخ والضرب بالعصي والاعدام وهذا النوع الاخير ينفذ اما بالخنجر أو بالرفاص واما بالخنق واما بالسم . ولاجل نسف المنازل والمبانى على العموم يجب استعمال : أولا القنابل الديناميتية ثانيا . الديناميت السائل . ثالثا . قنابل

الحريق المملوءة بالبارود»

« المادة ٩ : يجب أن يكون لدى اللجنة واحد تنحصر اختصاصاته فى غرس بذور الفتن وتحريض الضعفاء على الاقوياء حتى تعم الفتنة وينتشر الاضطراب وليس لهذا الشخص أن يعمل الا بأوامر اللجنة وارشاداتها »

« المادة ١٠ : ينبغى ان يوجد حارس على الاسلحة موصوف بالنباهة والشهامة اذ لا يخفى ان هذه الوظيفة أهم الوظائف وأخطرها والواجبات التى ينبغى عليه مراعاتها هى العناية بحراسة الاسلحة والخرطوش والبارود وعدم اطلاع أحد علي مكامنها ويجب ان يكون بين يديه دفتر ليسهل بواسطته عمل المراقبة كل ثلاثة او أربعة شهور كما يجب أيضا ان لا يوضع مكان الاسلحة والذخائر على أكثر من مسيرة ساعتين أو ثلاث من المدينة وأن تكون العناية بحراستها شديدة جداً كى لا تقع بين أيدى الحكومة »

وقد أفاض (الفيكونت دى كورسون) في رسالته الفريدة في الكلام على دسائس الارمن وفظائعهم وتكلم عن

حادثة (كوم قبو) التى حدثت قبل محاكمة الارمن بانقره وقبل اشتغال الرأى العام الاوروبى بالمسئلة الارمنية . ومن ضمن ما كتبه بشأن دسائس الارمن ما تعريبه :

« وقد تبين للقارىء ان الغرض من احداث الاضطرابات انما هو اثارة خواطر الارمن الذين كانوا ليوم وقوعها مخلدين الى السكينة راغبين عن مشاركة اللجنة الهنتشاكية فى أعمالها الثورية الخبيثة والانتقام ممن اشتهروا بتقبيح هذه الاعمال وتشنيعها . وعملا بهذا المبدأ قتلوا هتشك افندى أحد معتبرى المحامين الارمن أمام محاكم الاستانة العلية وقد اعترف القاتل له وهو أرمناك الذى لا يتجاوز عمره ١٨ ربيعا ان همبرسوم بوياد جيان رئيس اللجنة الهنتشاكية فى الاستانة العلية والمسبب الاصلى لواقعة كوم قبو قد أعطاه خمس ليرات عثمانية أجرة قتله لذلك الرجل المستقيم . وكثيرا ما كاد قسوس الكنيسة الارمنية والبطريق أرشكيان نفسه يقعون فى مخالب الثورويين لولا اسعاف العناية الربانية لهم وتيقظ رجال الحفظ لحركات الاشقياء الذين قبض على البعض منهم فاعترفوا صراحة

بأنهم وكلاء اللجنة الهنتشاكية

وقتل الثائرون أيضاً أحد أغنياء المضاربين من بنى جلدتهم واسمه سيمون بك مكسود وقد قبضت الحكومة على المجرمين وهم استبان أحد تجار الجوهرات وهمبرسوم القهوجى وكاروك وتانيوس فاعترفوا صراحة بأنهم لم يأتوا ذلك الجرم الا باغراء دكران أحد صناع الاحذية المنتظم بصفة عضو فى اللجنة الثورية . وقد حصل حديثاً (فى ٢٦ يونيو سنة ١٨٩٥) ان اثنين من أعضاء تلك اللجنة تجاسرا على قتل أرمنى اسمه توتونجيان موظف فى قلم المطبوعات

وقد تمكن كل من همبرسوم بويادجيان ومهران دماديان من مغادرة الاستانة عقب تلك الحوادث التى تقشعرّ من ذكرها الابدان قاصدين مدينة جنيفه حيث كانت تنشر وقتئذ جريدة هنتشاك التى نقلت فيما بعد الى مدينة أثينا وقد تمكن بعدئذ بويادجيان بالتنكر والتخفى من الدخول في بلاد الاناضول حيث التقى باخيه مرديروس جراير المشهور باسم موروك وبالاشتراك مع بعضهما أحدثا الاضطراب فى

يوزجات وموش وتلورى

وعقب سفر بويادجيان استلم رئاسة اللجنة الهنتشاكية في الاستانة العلية شخص روسى الانتماء يدعى وارد برادر يكون ولكنه لم يلبث فى الرئاسة زمنا طويلا حتى قبضت عليه الحكومة وفتشت منزله بحضور مندوب من قنصلية الروسيا الجنرالية فى دار السعادة واستولت على ماوجد فيه من الاوراق واللوائح والمنشورات المتعلقة باللجنة الهنتشاكية وبعد ان سجلت سفارة الروسيا عندها بيان هذه الاوراق وختمت عليها بطابعها أرسلت الى المحاكم النظامية لمحاكمة المتهمين قضائياً !

وبعد أن أتى حضرة الكاتب الفرنساوى بالدلائل البينة التي تثبت ارتكاب الارمن لاسفل الفظائع استشهد بأقوال بعض أماجد الكتاب الاوروبيين على اختلاق الجرائد الانكليزية للاخبار الكاذبة ونشرها الخزعبلات عن أحوال تركيا فكتب في صحيفة (٦٤) من رسالته البديعة ماتعريبه :

« وكتب المسيو دانوسو الذى أمضى ثلاثة شهور ببلاد

أرضروم فى رسالة مهمة بتاريخ شهر مايو سنة ١٨٩١ أن حماية الدولة العلية شاملة للارمن والمسلمين بدرجة واحدة وأن لاتفاوت فى الحرية الممنوحة للطرفين . الى أن قال : ولرجال الثورة فى أرمينيا زعماء تردلهم الاوامر من رؤسائهم بالاستانة العلية طبقاً لما يتوارد على هؤلاء من لوندرة من التعليمات الخصوصية المهيأة فى ذخل ادارة جريدة الدالي نيوز . وقال فى الختام ولقد اندهشت من تماثل الحوادث وتشابه الوقائع فى أرمينيا وكريد فالذين يدعون أنهم أصبحوا فريسة لظلم الدولة العلية واجحافها بحقوقهم نراهم يتمتعون فى كلا البلدين بامتيازات لم يفز بها مواطنوهم المسلمون أقلها عدم دفع الضرائب والاعفاء من الخدمة العسكرية ولا يسعنا تلقاء هذا التماثل سوى الحكم بأن اليد التى أثارت الفتنة فى أحدهما هي التى أثارتها فى الآخر »

وكتب في صحيفة ٦٧ و٦٨ ما تعريبه :

« أما اللجنة الارمنية الانكليزية فى لوندره فقد انتهزت فرصة ذلك الانقلاب السياسى وبعثت بعض نصرائها الى

آسيا الصغرى وأوعزت اليهم تفريق منشورات يدعون فيها الاهالى علناً الى الثورة والاضطراب وقد جعلوا مرسيوان ميدان دسائسهم التى امتدت منها الى قيصرية ويوزجات وتشورن وجمشخانه وعزيزيه وغيرها من الاماكن وقد توجه رجل اسمه (الدون رشتونى) أحد أعضاء لجنة لوندره الى قيصريه لايقاظ الفتنة فيها فلما قبضت عليه الحكومة وجدت معه منشورات ولوائح جمعية هنتشاك الثوروية وطابع الجمعية وفتشت الحكومة بارشاد أحد المجرمين فى كنيسة ديفونيك القريبة من (قيصرية) فوجدت كمية وافرة من الاوراق كان رشتونى السالف الذكر وضعها عند أحد القسوس ومن مطالعة هذه الاوراق علم ان للشخصين المسميين طومايان وكايايان الارمنيين البروتستانتيين المعلمين فى مدرسة مرسيوان البروتستانتية ضليعاً فى تلك الحوادث وانهما أسسا مطبعة سرية فى داخل تلك المدرسة واستغرقا الوقت فى تعليم التلامذة مبادىء الفوضى وقواعدها

أما حوادث يوزجات وقيصرية فكانت ثمرة دسائس

مرديروس جراير المشهور باسم موروك شقيق همبرسوم بويادجيان وتوضيحها أنه دعا الى الحضور بجهة ببك جملة من الارمن وبعد ان وزع عليهم الاسلحة والنقود الواردة برسمهم من انكلترا أمرهم بالاستعداد عند أقل اشارة لنهب القرى التى يسكنها المسلمون وذبح هؤلاء وقد ارتكبوا جملة جرائم بجهات مختلفة وعلى الخصوص فى قيصرية وكلها أفضت الى القبض على المذنبين ومحاكمتهم بمحكمة أنقره التى صدر حكمها بالاعدام على ١٧ من المتهمين وبالاشغال الشاقة لمدة ١٥ سنة على ستة منهم وبها لمدة سبع سنوات على عشرة منهم وبرأت ساحة ١٤ متهما ولكن أبت مكارم الحضرة الشاهانية الا الشفقة على أولئك المذنبين اذ أصدر السلطان أمره الكريم بابدال عقاب الاعدام بالطرد من بلاد الدولة العلية . وبالرغم عن هذه العواطف الكريمة التى قل أن تتوفر فى أمير من أمراء أوروبا أو فى حكومة من حكوماتها فان الجرائد الانكليزية أسرفت فى الطعن والسب فى مقام جلالته ولم تدع نعتاً من النعوت القبيحة الا ألصقته باسمه وامتازت

الجرائد البروتستانتية على غيرها فى انتهاج هذه الخطة وذلك لكون طومايان وكايايان هما من الارمن الذين اعتنقوا الديانة البروتستانتية وبمجرد صدور الامر الكريم بتخفيف تلك العقوبات بادر كل منهما الى مبارحة بلده لانهما كانا من ضمن المحكوم عليهم بالاعدام . أما طومايان فقد ذهب مباشرة الى لوندره حيث صار من أكبر أعضاء اللجنة الارمنية الثورية وأكثرهم نفوذاً وهو الذى كان الانكليز يعرضونه على الانظار فى المجتمعات وفى ادارات الجرائد بمثابة مثال من الامة التي وقع عليها الضغط والظلم من الحكومة العثمانية

وكان بطريق الارمن بالاستانة العلية فى هذه الاثناء يبعث بالمنشورات تباعا الى الاساقفة واكابر القسوس (مارس سنة ١٨٩٥) كى يحرضهم على منع الاجانب من التغرير بالاهالى الداخلين فى دائرة اختصاصهم الدينى وقد جاء بأحد تلك المنشورات ما يأتى :

« محضوا النصح للطبقة الجاهلة من رعاياكم كى لا يقعوا

في شرك المهيجين أما الذين ينشرون عن الطاعة ولا يأتمرون بأوامر الحق فالتمسوا العفو والصفح لاجلهم لدى الحكومة باعتبار انكم المدافعون عن وحدة الصداقة الوطنية »

وهي عبارة غاية في الحكمة والصواب ولكن لم يكن لها ذرة من التأثير على العقول تلقاء ما تنشره الجرائد الانكليزية والارمنية التي تصدر بمدينة لوندره من التحريض واثارة الخواطر وشرح المواقع « التي فاز فيها الثائرون الارمن بالانتصار على الجيوش العثمانية » الى غير ذلك مما أفضى الى مذبحة ساسون التي تقشعر الابدان من ذكرها

ومن الخطأ المبين أن يعتقد القارئ بحصول هذه المذبحة عفواً وجزافا فلقد ثبت أن الانكليز هيؤها منذ زمن طويل كما يتضح صراحة من تلاوة الشذرة الآتية المقتبسة من جريدة (الكونجريجاسيونالست) الصادرة في ٢٣ دسمبر سنة ١٨٩٣ بمدينة بوستن من أمريكا بقلم المستر هبروس همان أحد المبعوثين البروتستانت وهي : « اكد لي شاب من الارمن ظهر عليه مخائل الذكاء والنباهة ويتكلم الانكليزية

بنفس السرعة التى يتكلم بها اللغة الارمنية وهو من أفصح
المدافعين عن مبدأ الثورة بان الحزب الثورى يأمل الاتيان
بعمل يمهد لاحدى الدول الاجنبية وسائل الدخول فى آسيا
الصغرى والاستيلاء عليها . فلما سألته عن كيفية ذلك أجاب
قائلا : تألفت عصابات من الهنتشاكيين فى جميع انحاء الدولة
العلية وهى تترقب الفرص المناسبة لقتل الاكراد والترك
واحراق قراهم ومساكنهم ثم تعتصم بعدئذ بالجبال فينشأ
عن ذلك وقتئذ ان المسلمين يتملكهم الغضب فينقضون على
الارمن ويفتكون بهم فتكا ذريعاً تضطر معه احدى الدول
الاجنبية الى التداخل في أمور آسيا الصغرى والاستيلاء
عليها باسم «الانسانية والتمدن المسيحى» . فقلت له ان هذا
المشروع وحشى وفي أقصى درجات القسوة فأجابنى بكل
سكينة : لاريب فى أنه يبدو لك كما تقول ولكننا معشر
الارمن قد وطنا النفس على نيل الحرية . فلقد تحركت
عواطف أوروبا لفظائع بلغاريا فمنحتها الحرية وهى لابد أن
يصل اليها نداؤنا فتمنحنا أيضاً هذا الامتياز»

وبعد نشر هـذه المحادثة فى الجريدة المشار اليها بسنة تقريبا وقعت فتنة بوادى تالورى (ساسون) واتضح ان المحرك لها هو همبرسوم بويادجيان الذى تمكن من العودة الى الاناضول بعد أن سمي نفسه مراديان ووطد رابطة العلاقة بينه وبين الارمن البروتستانت فى ولايات بتليس ووان وأنقره وأدرنه وكان ذلك الرجل يغرر بعقول ذوى الاحلام الطائشة بدعوتهم الى حمل السلاح ومهاجمة المسلمين ويمنيهم بمساعدة انكلترا وتداخلها فى شؤونهم بالقوة الحربية ولكى يموه عليهم بهذه الاكاذيب كان يبرزلهم خطابات ادعى انها واردة اليه من أكابر رجال السياسة فى لوندره . دقد طبع منشوراً فى هذا المعنى أرسله الى أعضاء الاكليروس الارمنى القس وهابديان رئيس أساقفة ادرنه سابقا وقد نشرته فى شهر مارس سنة ١٨٩٥ أغلب الجرائد الفرنساوية

وقد قال المستر اكزمنيس الذى سلف ايراد أقواله مرارا فى أوائل هذه الرسالة ما يأتى : « ان الباحث على حصول الاضطرابات المذكورة هو رجل اسمه بويادجيان

أحد تلامذة المبعوثين الاميركان . وهو الذى كان له ضلع في حادثة كوم قبو وصدر أمر جلالة السلطان الاعظم بالعفو عنه. ويقول الارمن ان هذا الرجل قد حضهم على الثورة بعد ان أقنعهم بمساعدة انكلترا لهم واسعافها أياهم بعساكرها وانهم سألوه كيف تتمكن العساكر الانكليزية من الوصول الى هذه الجهات البعيدة عن الشواطىء فضلا عن تعذر السير فيها فأجابهم بان أولئك العساكر سيصلون الى هذه الجهات بواسطة بالونات (قباب طيارة) جسيمة الحجم حمراء اللون وهي آخر اختراع فى العلوم العسكرية الجديدة . واعتقاد الاهالى بهذا الكذب الفاحش دليل على مقدار سذاجتهم وسرعة تصديقهم وبساطة فطرتهم وقد اتخذ بودجيان هذه الفرصة الطبيعية آلة لاستمالة سكان الاحدى عشرة قرية المكون منها مركز ساسون وكانوا يبلغون ثلاثة آلاف نسمة تقريبا فتحصنوا فى جبال انطون داغ بعد ان تسلحوا بالبنادق المتكررة الطلقات الوارة اليهم من لوندره وتفليس »

وكتب (الفيكونت دى كورسيون) في صحيفة ٧٢ وما

بعدها من رسالته الجليله ما ترجمته :

« اما الحادثة نفسها فنحتمي عن ايراد شرحها بمقتضى ما وصل الى علمنا من الاخبار والمعلومات بل نقتنع بنقلها عن جريدة النيويورك هرالد التي لا يجسر أحد على أتهامها بالتحيز للاغراض أو الميل للاتراك

وها هي :

« أن الثائرين الارمن الذين ظهروا فى جبال تالورى الواقعة بين ساسون فى الجنوب الشرقى من موش (ولاية بتليس) وبين مركز كال (من متصرفية جوانج) قد اجتمعوا فى تلك الجهة بارشاد وتحريض شخص اسمه همبرسوم أومراديان لاثارة الفتنة بها . وهمبرسوم هذا ولد ببلدة هاجين (ولاية اذنه) وتفرغ لدراسة الطب بمدرسة الحكماء فى الاستانة العلية مدة ثمان سنوات وكان له اصبع فى حادثة كوم قبو ثم فر الى الاستانة ومنها الى جنيفة وبعد أن قام بها مدة تنكر باحد الابرياء وانتحل اسما غير اسمه الحقيق ثم عاد الى ولاية بتليس عن طريق اسكندرونه وديار بكر

وأخـذ فيها يحرض الجمهور على الثورة والاضطراب وكان
يساعده على هـذا الفساد خمسة آخرون من بنى جنسه وكان
همبرسوم يؤكد للاهالي بأن الدول الاوروبية قـد أناطت به
مأمورية مهمة وهى دك أركان النفوذ العثماني ودأب على الـكلام
بهذا المثال حتى استمال اليه قلوب الارمن القاطنين في قرى
سينروسماى وجللى جوزات وآهى وهدنك وسنانك وسكند
ويغار وموسون وايتك وا كجسر وقرية قالورى التى تشتمل
على اربعة محلات . وفى أواخر شهر يوليو سنة ١٨٩٤ بارح
أولئك المغرورون بلادهم بعـد ان وضعوا نساءهم وأولادهم
وأموالهم في جهات أمينة والتقوا بالثائرين الآتين من موش
ومحلتى كال وسلفان في جبل اندوك داغ وهناك تم الاتفاق
على ان خمسمائة أو ستمائة منهـم يهجمون على بلدة موش
فزحفت هـذه الفرقة على قبيـلة دليكان المستقرة بالقرب
من سفح جبـل كورلنـك الـكائن جنوبى موش فسلبت
أموالها وقتلت كثيراً من رجالها واستعملت فى قتل المسلمين
منهـم أساليب التعذيب التى لا ترد على خواطر المتوحشين

والبربريين وذلك بعد ان شهرت بدين الاسلام وطعنت فيه
امامهم ثم هاجت بعد ذلك العساكر العثمانية النظامية ولكنها
لم تتمكن من تنفيذ مشروعها الاول ألا وهو الولوج فى مدينة
موش وذلك لاهمية الحرس العسكرى الذى كان مقيما فيها.
أما بقية الثائرين الذين لبثوا في جبل اندوك داغ فقد انقسموا
فرقا متعددة قصدت كل فرقة جهة معلومة للهجوم عليها.
وقد اتصل بنا من اخبارها أنها أحرقت ابن أخى عمر أغا
حياً وانتهكت حرمة النساء المسلمات الساكنات فى قرية
جولى جوازات وعذبت المسلمين وألحقت بهم النكال
وأكرهتهم على تقبيل الصليب وسملت عيونهم وجدعت
أنوفهم وصلمت آذانهم وأذاقتهم من العذاب ألوانا وأشكالا.
وفي أول شهر أغسطس هجم أولئك الثائرون على قبائل
فانينار وبكيران وباديكان واقترفوا أفظع من تلك الآثام مع
أهلها واقتدى بهم الثائرون في قريتى اليغرنك ويرموش
الواقعتين بقسم جنيان فانهم هجموا على أكراد تلك الناحية
وأوقعوا بأهالي كيسر وشتشت وهجم الارمن فى آخر شهر

أغسطس على الاكراد المقيمين بالقرب من مدينة موش فأحرقوا ثلاثة من القرى. أما الثائرون فى تالورى فقد فتكوا بالمسلمين والنصارى معا طلبا للغنائم والسلب ولما وصلت الجيوش الشاهانية لمطاردتهم طلب رئيسهم همبرسوم النجاة بنفسه ففر الى الجبل مع أحد عشر من رفقائه وقد قبض عليه العساكر بعد ان قتل منهم اثنين بيده وجرح ستة آخرين ولم يأت آخر شهر أغسطس حتى تفرق الثائرون شذر مذر. وقد عومل الاهالى من نساء وأطفال وشيوخ بأحسن المعاملة مراعاة لما أمر به الدين الاسلامى وأشارت اليه الانسانية أما الثائرون الذين قتلوا فهم الذين أبوا التسليم والاذعان لاوامر الحكومة وفضلوا الاستمرار على مكافحتها »

وكتب هذا الكاتب المحقق فى صحيفة ٧٦ وما يليها ما تعريبه :

ولكن هذه الحقيقة الواضحة قد أسدلت الجرائد الانكليزية عليها الستار ثم أبرزتها فى لفائف المبالغات والاكاذيب كى تستعين بها وزارة الخارجية الانكليزية على اصابة ما ترنو

اليه عيون مطامعها من الاغراض الذاتية. وفي الواقع فانه بعد ان عمت الخافقين تلك الاكاذيب طلبت انكلترا من الدولة العلية تعيين لجنة دولية لمزاولة تحقيق المسئلة الارمنية فقابلت الحكومة العثمانية هذا الطلب بالقبول لوثوقها بوضاحة الحقائق وتوفر القرائن المثبتة ادانة الارمن

وبناء على هذا القبول شكلت اللجنة وانتظم ضمن أعضائها مندوب روسى وآخر فرنساوي وآخر انكليزى وهو تشكيل يحق للقارىء أن يدهش كثيراً منه لموافقة الروسيا وفرنسا لانكلترا عليه واشتراكهما معها فيه . ولكن لو نقب الانسان عن الخفايا واستطلع الحقائق لاستحسن هذا الاشتراك اذ لو كانت الدولة الانكليزية استأثرت بالتحقيق لكانت تمكنت من نشر الاكاذيب واذاعة المفتريات عن الدولة العلية بلا خوف من قيام أحد لتكذيب مدعياتها وبرهنت على أن تركية آسيا قد أصبحت مرسحاً لتمثيل مذابح النصارى صباح مساء وأظهرت بذلك أهمية تداخل « احدى الدول الاوروبية العظمى » لتأييد دعامة النظام والامن

والعدالة فى تلك الانحاء

وخلاصة القول لولم تشترك الروسيا وفرنسا مع انكلترا في مسئلة التحقيق لاحتل الانكليز أراضى الاناضول كما احتلوا مصر بحجة توطيد الامن وكبح جماح العصاة ثم طاب لهم المقام فيها الى الآن بالرغم عن طلبات الدولة العلية وفرنسا وعن العهود العلنية التى فاه بها رجالهم السياسيون مرات متعاقبة »

« ولقد أفضت عواقب هفوتنا السياسية فى البلاد المصرية الى انحطاط نفوذنا وخفوت صوتنا بمعنى أنه بمجرد ما اقترحت الدولة الانكليزية علينا فتح أبواب التحقيق في المسئلة الارمنية قابلنا هذا الاقتراح بالقبول وتمام الارتياح وانما استدعينا أصدقاءنا الروسيين الى الاشتراك فيه معنا لاسيما وأنه يوجد من بين رعاياهم نحو مليون من الارمن

وقد تم التحقيق على قاعدة التجرد من الاهواء وتمام الاستقلال ودل على ما كان يمر بالخواطر من أن الارمن جنحوا الى الاضطراب بتحريض محرضين جاؤوا من الخارج لهذا

الغرض ووزعوا عليهم أسلحة انكليزية متكررة الطلقات وارتكبوا معهم بعد ذلك أقصى مايرتكب من الجرائم والآثام في أوقات الثورة كالاحراق والقتل والسلب ثم اعتصموا بالجبال الشاهقة للتمكن من مقاومة الجنود العثمانية المنتظمة وقد اثبتت لجنة التحقيق فوق هذا الاعتراف أن الحكومة العثمانية بارسالها القوة العسكرية لاخماد الثورة قد عملت بمقتضى مايخوله لها القانون من الحقوق

وقد كان لظهور هذه النتيجة وقع سيء لدى أرباب الجرائد الانكليزية ولذلك تراهم قد شددوا الوطأة على الدولة العلية واتسع أمامهم المجال لاختلاق الاكاذيب فقالوا ان الاتراك بعد أن ذبحوا آلافا من الارمن في جولي جوازت حفروا آبارا عميقة ألقوا فيها جثث القتلى ثم غطوها بطبقة من الجير والحقيقة هي ان الجنود العثمانية لما التقت بالعصاة كما أسلفنا استدعتهم الي الاذعان للطاعة فلما لم يقبلوا قتلت منهم نحو ٣٠٠ نفس تقريبا فلما انتهت الموقعة جمع العساكر جثث القتلى في حفرة أهالوا عليها الجير كي لاتكون منبعا للعفونة

وبؤرة للروائح الكريهة التى تعبث بالصحة وهى عادة مرعية فى جميع البلاد اذا وقعت فيها فتنة داخلية أدت الى قتل جملة من العصاة . واذا كان الانكليز يجهلون مزية الجير هنا فنقول ان الغرض من وضعه على الجثث هو تعجيل انحلالها ومنع الأذى الذى ينجم عن تصاعد الروائح الكريهة منها . والعاقل الذى لا تستولى عليه الاغراض الذاتية يحكم معنا بأن هذه الوسيلة الصحية لا يصح اعتبارها من الفظائع التى نسب الانكليز الى الاتراك ارتكابها ضد فئة الارمن العاصية

وفى أبان شروع اللجنة فى التحقيق قلنا كما كان يقول كل أوروبى مجرد عن الاهواء وكل من تتبع أثر المسئلة الارمنية بنفسه ان نتيجة التحقيق ستأتى على نقيض آمال الانكليز وانها لا تثبت شيئاً ضد دولة المشير زكى باشا قومندان الاوردى الرابع من الجيش العثمانى الذى نيط به اخماد فتنة الارمن فان جميع الاوروبيين الذين خالطوا دولته مجمعون على امتداح سيرته وطهارة أخلاقه وكرم طبعه وصدق ولائه لجلالة السلطان وكفاءته فى المسائل الحربية »

« ولنرجع الى الكلام على اللجنة الانكليزية الارمنية فنقول انها لم تدع وسيلة من الوسائل الا تذرعت بها لايهام الرأى العام فى أوروبا بأن لجنة التحقيق قد توفرت لديها الشهادات والقرائن الدالة على ارتكاب تركيا ما ينسب اليها من الفظائع . ولما كانت الامة الفرنسوية فى ذلك الحين غير مهتمة بأمور أرمينيا فقد طاف جماعة من الارمن في انحاء فرنسا لالقاء الخطب في هذا الموضوع اثارة لعواطف أهلها وتنشيطاً لهم على التمثل بالانكليز في طلب انقاذهم من مخالب الحكومة العثمانية وقد ألقى رجل اسمه شراسيون خطبة من هذا القبيل بمدينة باريس فى وسط جمهور حافل من أهلها وبالغ فى وصف حوادث مرسيوان ويوزجات وتالورى وحاول طبع هذه الاوصاف في نفوس السامعين بان أبرز لهم جملة صور فوتوغرافية بعضها يمثل الاتراك وهم يذبحون الارمن أو يطعنون الاطفال والنساء فى بطونهم بالخناجر أو يحرقون القرى . غير أن هذه الرسومات لم تفض الى احداث التأثير الذى كان ينتظره الخطيب على قلوبهم . اذ لا يخفى ما اشتهر

به أهالى باريس من شدة التحرز والتصديق بعد الامعان
والروية فانهم بمجرد القائهم النظر على تلك الصور حكموا بأنها
افتراء ومجرد اختراع لاستحالة وجود مصورين في بلاد أغلب
أهلها يقطنون الجبال وأثناء فتنة داخلية لا يعلم أحد تاريخ
وقائعها حتى يستعد المصورون الذين يجب أن يكونوا فى هذه
الحالة على جانب عظيم من المهارة والجسارة لاخذ صور تلك
الوقائع . وهناك سبب آخر بث هذا الاعتقاد فى مخيلاتهم
(اى الباريسيين)وهو استحالة محافظة المذبوحين والقتلي على
وضع يثبتون فيه اثناء ذبح الاتراك لهم ارضاء للمصورين كى
يتحصلوا على صور متقنة خالية من العيوب التى تنشأ عن
تحرك الذات المراد تصويرها . وقد وضع بعض أهالى أمريكا
رسالة قال فيها انه رأى صورة فتوغرافية تمثل النساء الارمنيات
يلقين أنفسهن فى المهاوى العميقة فراراً من عبث الجنود العثمانية
وانه علم بمجرد النظر اليها انها مقلدة بالتمام من لوحة رسمها
مصور شهير يسمي آرى شفر » وقد عقد بعض أكابر
لانكليز بمدينة لوندره وفي مقدمتهم الدوق درجيل والدوق

وستمنستر واللورد حاكم مدينة ليفربول وبعض رجال الاكليروس البروتستانتي اجتماعا حافلا في ٧ مايو الماضي عرضوا فيه ثلاثة أشخاص زعموا أنهم من أرمني ساسون مع أنهم كانوا لا يفهمون شيئاً من اللغة الارمنية او من اللغتين التركية واليونانية الشائعتي الاستعمال ببلاد الدولة العلية وحصل اجتماع آخر بمدينة شستر في ٦ أغسطس الماضي التي فيه المستر غلادستون خطبة جعل حشوها الطعن على الحكومة العثمانية وسأل من الرأى العام اعدام الدولة العلية واستئصالها من الوجود السياسي مستنداً في طلبه هذا على مقالة نشرتها جريدة الديلي تلغراف عن المستر ديلون مكاتبها في آسيا الصغرى ضمنها شهادة لص كردي اسمه مونتيجو لا يزال مسجونا بعد ان صدر عليه حكم محكمة ارضروم بالاعدام لانحصار التهمة فيه بأنه قتل ونهب وهتك وارتكب من الفظائع ضد الارمن والاتراك أجسمها . غير ان المستر غلادستون تغافل عن تعريف السامعين لخطبته بما اذا كان المستر ديلون السالف الذكر يعرف اللغة الارمنية أم لا وهل جميع مصادره

الاخبارية مشابهة للشق مونتيجو . على ان هذا تفصيل دقيق لا تهم الافاضة فيه لما يعلمه القراء من تصديق الذمة البريطانية لكل المصادر والموارد الاخبارية مادامت موافقة لمصالحها بصرف النظر عما اذا كانت تستحق الثقة أم لا »

هـذا ما كتبه كاتب مسيحي منصف فى حكمه غـير متعصب ضد الاسلام . وقد اقتطفنا للقراء كثيرا من شذرات رسالته الجليلة ليقفوا جميعاً على الحقائق وليكونوا على بينة من أمر الحوادث الارمنية والدسائس الانكليزية وليعـلم كل عثمانى وكل مسـلم مقدار الكراهة الشـديدة التى أظهرتها انكلترا للدولة العلية

وقد عثرنا فى جريدة الطان الفرنساوية الصادرة في ١٠ ابريل عام ١٨٩٧ على ترجمة عبارة كتبها أحد كتاب الانكليز فى جريدة « التيمس » بشأن المسئلة الارمنية . لا نرى بداً من تعريبها هنا :

« لقد جاء الوقت الذى يجب فيه على الامة البريطانية ان تعلم أن للمسئلة الارمنية وجها مظلما للغاية : فان الجمعيات

الثوروية الارمنيـة هي آفة الامة الارمنيـة ومصيبتها وانى لا أتردد فى أن أصرح — معتمداً فى ذلك على خـبرتى الشخصية — بان هـذه الجمعيات هى التى يقع عليها النصيب الاوفر من مسئولية موت الارمن العديدين الذين قتلوا فى الاضطرابات الاخيرة . فماذا يستطيع الانسان ان يقول عن أشخاص يبذرون بذور التعصب بين قومهم ويضحون نفوساً عديدة وأرواحا جمة من بنى جلدتهم بقصد الاعلان عن المسئلة الارمنيـة في أوروبا ؟ وفى أية بلدة من بلاد آسيا الصغرى لا يستطيع أحد من الارمن أن يكون آمنا على حياته وأمواله اذا كان أحد أعضاء هاته الجمعيات الثوروية مقيما فيها . فالاغنياء مجبرون ان يشتركوا فى مصاريف الثورة الارمنية والا قتلوا . واذا تجاسر أحد على القدح فى الجمعيات الثوروية أو العمل ضدها فقد حياته لا محالة

« وانى لا أعرف شيئاً عن الجمعيات الارمنية بأوروبا ولكن ما رأيته وما عرفته عن هـذه الجمعيات الموجودة في الاناضول وفى العجم وفي تفليس يحملنى على التأكيـد بان

الجمعية الثورية الارمنية التي مركزها لونده ترمى الى احداث مذابح جديدة (لكى تبقى أنظار أوروبا موجهة الى مظالم الاتراك) . وفي سلماس وغيرها من المدائن التي على حدود بلاد العجم يستعد ثوار الارمن للهجوم على الاتراك المسلمين ولهم هنالك من الرجال المسلحين بين الالفين والثلاثة آلاف ولكن لتركيا من الجنود هنالك نحو الخمسة عشر ألف مقاتل والحكومة العثمانية عالمة جيداً بدسائس الارمن وبنياتهم

هذه هى السياسة التي جرت عليها الجمعيات الثورية فى الماضى ومن المحتمل أنها تجرى عليها فى المستقبل. فأعضاء هذه الجمعيات ومديروها يريدون أجبار أوروبا على التداخل فى أمور تركيا الداخلية بالسلاح والقوة. وللوصول الى هذا الغرض تراهم يحدثون ثورات ومذابح هم وحدهم المسؤلون عنها وهم لا يتأخرون عن تضحية مئات وألوف من بنى جلدتهم في هذا السبيل ولكنهم يحترسون غاية الاحتراس من تضحية رجل واحد منهم أنفسهم ......)

ولامراء في أن ما كتبه هذا الكاتب الانكليزى فى

جريدة التيمس المشهورة بتعصبها الشديد ضد الدولة العلية وضد المسلمين لحقيق لا ريب فيه . ولكن هذا الكاتب لم يقل لنا من المسئول عن تأسيس الجمعيات الارمنية الثورية وعن تشجيعها أليس ساسة بريطانيا وكتابها ؟ ؟ ؟ ولكن ما ذكره حضرة الكاتب الانكليزى فى التيمس اكثر مما كان ينتظر من مثله !

*
* *

« لقد ودت انكلترا أن تتداخل وحدها فى المسئلة الارمنية وتقف أمام الدولة العلية وجها لوجه ولكن الروسيا كانت مصلحتها مخالفة لمصلحة انكلترا فكان من الواجب عليها أن تعرقل مساعي الانكليز وان تمنع تأسيس مملكة أرمنية تكون عدوة لها وآلة للانكليز في آسيا الصغرى ضدها . وكذلك فرنسا فان مسئلة مصر أفهمت رجال سياستها أن المسألة الارمنية ليست الا حيلة لمنع الدول من الاشتغال بمسائل وادي النيل ووسيلة لابتلاع مصر . وقد تظاهر المسيو (هانوتو) وزير خارجية فرنسا من أول الازمة الارمنية بالميل للحضرة

السلطانية . وفى فترة سقوطه من الوزارة كتب فى جريدة (ريفودى باريس) رسالة على المسئلة الارمنية وعلى اميال جلالة السلطان أثنى فيها على الخليفة الاعظم الثناء الجميل وتكلم عن جلالته بصفته من الذين اقتربوا منه وتحدثوا معه طويلا وعرفوا خلاله وصفاته وأفكاره السياسية . وقد سمى أعداء تركيا المسيو هانوتو بهانوتو باشا وعبد الهانوتو اظهارا لمحبته لجلالة السلطان واعتداله فى سياسته نحو الدولة العلية كما سموا جلالة الأمبراطور غليوم بعبد الغليوم . ولولا ان الرأى العام الفرنساوى كان متهيجاً بعض التهييج ضد تركيا بتحريضات أعداء الدولة العلية وأعداء الاسلام لكان المسيو (هانوتو) أظهر علناً ثقته العظمي بالحضرة السلطانية وحقيقة المسئلة الارمنية . الا انه كان مضطرا الان يتكلم عن تركيا بلهجة فيها شيء من الشدة فى بعض الظروف ولكن سياسته العمومية كانت ترمى الى منع تداخل انكلترا واحباط مساعيها

وقد تداخلت فرنسا والروسيا وانكلترا فى المسئلة الارمنية عقب حادثة (ساسون) فطلبت عمل تحقيق تام لاظهار

حقيقة الحادثة فقبلت الدولة العلية طلبها وسافر مندوبو الدول الثلاث مع المندوبين العثمانيين وكان وصولهم الي (موش) في ٢١ يناير عام ١٨٩٥ وأثبت التحقيق ادانة الارمن وخروجهم عن الطاعة. ولو ان المندوب الانكليزى كان يبذل جهده فى اثبات أعتداء السلطة العسكرية العثمانية على الارمن. وفي ١١ مايو عام ١٨٩٥ قدم سفراء فرنسا والروسيا وانكلترا الى الباب العالى مشروع اصلاحات يتضمن العفو عن مجرى الارمن السياسيين والعفو عمل حكم عليهم بالنفى من الارمن وتأسيس لجنة مراقبة بالآستانة لمراقبة تنفيذ الاصلاحات وما شاكل ذلك . وقد أشارت فرنسا والروسيا على جلالة السلطان الاعظم بقبول هذا المشروع فقبله وصدق عليه فى ١٧ اكتوبر عام ١٨٩٥ ولكنه رفض تأسيس لجنة مراقبة

وفي أثناء تداخل الدول الثلاث كان ثوار الارمن لا يغفلون لحظة واحدة عن تهييج بنى جلدتهم وأشعال نيران الثورة والفتنة فى كل بلاد الاناضول . ولم يكن بين الدول الاوروبية (غير انكلترا) دولة تتظاهر بمساعدة الارمن

الا ايطاليا . فان (كرسبى) انخدع للانكليز فى المسئلة الارمنية كما انخدع لهم فى افريقيا . أما المانيا فانها كانت ضد انكلترا وضد الارمن ولما أشتدت الازمة وكثرت مطاعن الجرائد الانكليزية وبعض الجرائد الاوروبية على جلالة السلطان الاعظم وقف جلالة الامبراطور غليوم وأعلن أمام مجلس الرشتاغ الالمانى « انه له بجلالة السلطان ثقة تامة وأنه لا يمكن الاعتماد على سوى جلالته فى قمع الثورة الارمنية واعادة السكينة الى ربوع آسيا الصغرى » . وقد أهاجت هذه العبارة الارمن فأرسلت جمعيتهم الثوروية بلوندرا الى الدول الارمنية — ما عدا ألمانيا — كتابا رفعت فيه شكواها ضد الامبراطور غليوم وقالت عنه أنه يشجع الجرائم والمجرمين . . . . فجعلت بذلك الجمعية الارمنية وظيفتها غير دس الدسائس فى تركيا تهذيب الملوك وتربيتهم وتعليمهم سياسة الممالك ! ! !

وقد كانت انكلترا تود كما قدمنا التداخل وحدها ولما لم تستطع الى ذلك سبيلا أرسلت الى سالونيك أسطولا مركبا من ثمانية عشر سفينة حربية بقصد أرهاب الدولة العلية

وتهديدها . وفى ٩ نوفمبر عام ١٨٩٥ وقف اللورد سالسبورى فى جيلدهال بلوندره وألقى خطبة شديدة اللهجة للغاية ملأها بالمطاعن ضد الحضرة السلطانية وأنذر المسلمين بقرب خلع خليفتهم وأوهم العالم كله بان دول أوروبا متفقة جميعها مع انكلترا فى خططها ونواياها . .

ولما رأت ألمانيا أن الانكليز يريدون التداخل فى تركيا مهما كانت النتيجة سألت فرنسا والروسيا اشراك بقية الدول الاوروبية معهما ومع انكلترا فى المسئلة الارمنية فقبلت وصار سفراء الدول الست بالاستانة يقررون كل أمر بالاشتراك وقد شعرت كل أوروبا وقتئذ بانه يستحيل عليها ان تتداخل تداخلا عسكريا وأن مثل هذا التداخل يجر على العالمين المصائب العديدة حيث يكون سبباً لثورة عامة من المسلمين فى تركيا وداعية لسفك دماء كافة المسيحيين فى الشرق وأصلا لحرب أوروبية عامة . وقد أضطر اللورد سالسبورى نفسه أن يقول : « ما دامت السلطة العثمانية قائمة فليس لاوروبا قوة تضغط بها على تركيا وكل ما في استطاعتها ان تؤثر على

فكر جلالة السلطان » . فليقارن القارىء بين هـذه اللهجة
وبين لهجة اللورد نفسه فى خطبة ٩ نوفمبر عام ١٨٩٥ يوم قال
ان دول أوروبا كلها متفقة مع انكلترا وانذرنا معاشر المسلمين
ومعاشر العثمانيين بقرب خلع صاحب الخلافة العظمى !!!

وقد توالت الاضطرابات والثورات فى آسيا الصغرى
ولم يرضخ أهالى (الزيتون) الا بتداخل الدول الاوروبية
ولما كان الانكليز يوالون الارمن على الدوام والتشجيع
والمساعدة فقد هجم جماعة من فوضوييهم على البنك العثمانى
فى أغسطس عام ١٨٩٦ ولم يسلموا أنفسهم الا بتداخل الدول
وبتعهد السفراء بعدم تسليمهم للحكومة العثمانية وتركهم
يسافرون من الاستانة الى الخارج . وقد أحدثت هذه
الحادثة هياجا عاما فى الاستانة وكانت الطامة الكبرى
على الارمن . ونادى عندئذ أعداء تركيا والاسلام بالويل
والثبور ووجهوا الى الدولة العلية والى جلالة السلطان الاعظم
سهام الملام والشتائم ولكن هؤلاء المتعصبين تجاهلوا ماحصل
فى كل بلاد أوروبا وما يحصل لو قامت فئة بالثورة فى وجه

الحكومة الشرعيـة . فماذا عملت انكلترا ضد ايرلندا عنـد ما ثارت وماذا عملت وماذا تعمل ضـد الهنود ؟ وماذا عملت فرنسا ضد الجزائر وماذا تعمل الآن لو ثار أهالى احـدى مستعمراتها ضـدها ؟ بل ماذا تعمل لو قام فى فرنسا جماعة كاليهود مثلا وثاروا فى وجه حكومة الجمهورية ؟

لا جرم ولا مراء فى أن أهل تركيا من المسلمين معذورون اذا كانوا أجابوا على أعتداء الارمن عليهم وقيامهم في وجه الدولة العلية بالاعتداء عليهم فهذا واجب تفرضه عليهم الوطنية الحقـة . وما ثوار الارمن في نظر المنصفين الا خونة قائمون بتنفيذ أوامر الاجنبي

وقد اتفقت الدول الاوروبية على وضع مشروع جديد للاصلاحات فى أرمنيا وأخذ سفراؤها بالاستانة يتداولون من ٢٦ ديسمبر عام ١٨٩٦ الى ١٠ فبراير عام ١٨٩٧ . ولكن المسئلة الكريدية خلقتها يد الدسائس البريطانية فأنست أوروبا أرمنيا ومسئلتها

هذا مجمل تداخل الدول فى مسئلة الارمن أتينا عليه بالايجاز

*
* *

لقد أنتجت الحوادث الارمنية عدة نتائج خطيرة .
فأثبتت ان انكلترا هي أشد الدول كراهة للدولة العلية وللاسلام وأكثرها رغبة في هدم السلطنة العثمانية وتقويض أركان الخلافة الاسلامية وأبانت للذين كانوا يظنون انكلترا الصديقة الطبيعية للدولة العثمانية انها العدوة الحقيقية الخداعة التي تلبث ثياب الصداقة طوراً وثياب العداوة طور آخر عاملة في الحالتين على الاضرار بالدولة العلية وعلى اضعاف نفوذ المسلمين . ولم يبق ريب بعد الحوادث الارمنية ووقوف العالم أجمع على دسائس الانكليز فيها في ان انكلترا كانت تريد حل المسئلة الشرقية بتقسيم الدولة العلية وانها لبلوغ هذا الغرض طلبت من الدول الاوروبية دخول البوسفور بالقوة وخلع جلالة السلطان الاعظم قهراً . وقد فاه بهذا التصريح الخطير المسيو (هانوتو) وزير خارجية فرنسا حيث قال في مجلس النواب الفرنساوى للمعترضين على سياسته ما معناه :
(ماذا كنتم تقولون لو كنا قبلنا طلب الدولة التي سألت

أوروبا دخول البوسفور بالقوة وانزال جلالة السلطان من علوة مقامه وخلعه من ملكه ؟) وما انتشرت هذه الخطبة في أوروبا حتى قالت الجرائد كلها واعتقد الناس كافة ان المسيو (هانوتو) قصد بعبارته هذه انكلترا . ولم يزد انكار وكيل خارجية انكلترا هذا الاعتقاد الا ثبوتا

وقد برهنت الحوادث الارمنية على ان انكلترا هى عدوة المسيحيين فى الشرق . فهى وحدها المسؤولة عن دماء الذين ماتوا من الارمن ضحية لسياستها وفريسة لاغراضها . وان المسئلة الارمنية لدرس مفيد للمسيحيين فى الشرق يرشدهم الى ان اتباع الايعازات الاجنبية ضار بهم كل الضرر وان سلامتهم وسلامة أبنائهم من بعدهم هى فى التعلق بالدولة العلية والاخلاص في خدمتها . وان ذكرى الحوادث الارمنية تجعلنا نؤمل حصول الاتفاق التام والوفاق السليم بين المسيحيين والمسلمين فى كافة انحاء المملكة العثمانية . فقد وجب على بنى الدولة جميعاً أن يخدموا الوطن العثمانى بالاتفاق وأن يتحدوا ضد الاجنبي فالدين الاسلامي والدين المسيحي متفقان على

وجوب خدمة الوطن وعلى ان كل من يعمل ضد وطنه يكون خائناً ليس أحط منه في طبقات الهيئة الاجتماعية أحد

وكان من نتائج الحوادث الارمنية أن أوروبا فقدت ثقتها بانكلترا ووقفت لها في كل أمر بالمرصاد . اذ تبين لها ان سواس بريطانيا يريدون اصطلاء نيران الحرب العامة فى أوروبا لتبقى انكلترا على الحيادة وتستفيد كما تبتغى ولولا ارتياب الدول فى نوايا انكلترا لكانت قامت الحرب فى أوروبا وانتشر لهيب الهيجان والحرب من اليونان الى البلقان . ولا شك ان هذه النتيجة خطيرة فى السياسة الدولية فبسوء ظن الدول بانكلترا تسلم أوروبا من الحرب ومن عواقبها الوخيمة وتسلم الامم من الوقوع فى شرك الدسائس الانكليزية وبالجملة يسلم العالم بأسره

وما علم المسلمون بحقيقة المسئلة الارمنية وبدسائس الانكليز ضد الخلافة الاسلامية حتى أظهروا تعلقهم الشديد بجلالة الخليفة الاعظم ونادوا جميعا بالاخلاص لسدته والاستعداد للدفاع عن عرشه الجليل . وهذه النتيجة لم

تكن للانكليز فى الحسبان فقد ظنوا انهم ببعض الخوارج يستطيعون تنفير المسلمين من صاحب الخلافة العظمى فشجوا فريقا من أعداء جلالة السلطان يدعى رجاله انهم مسلمون وما هم فى الحقيقة الا خوارج لا دين لهم ولا مذهب . ولكن المسلمين ليسوا بسذج يستطيع الانكليز ان يخدعوهم لهذا الحد فقد ثبتوا فى اخلاصهم الصادق للامام الاعظم والتفوا أجمعين حول رايته الاسلامية وأثبتوا بذلك على ان الاعتداء على جلالة الخليفة اعتداء على المجموع الاسلامي وان الطاعنين في جلالة الخليفة طاعنون فى الاسلام نفسه

وقد كان اللورد سالسبورى يتباهى فى الخطبة التى ألقاها بجيلدهال يوم ٩ نوفمبر عام ١٨٩٥ بأن مسلمي الهند من أصدق رعايا جلالة الملكة . فما بال الانكليز ينسبون الآن ثورة الهند لمساعي جلالة السلطان الاعظم ولنفوذه عند المسلمين . أهل كانوا يجهلون هذا النفوذ العظيم يوم كانوا يطعنون على جلالته الطعن السافل ويدسون ضد حكومته الدسائس العديدة ويقترحون على دول أوروبا خلع جلالته بالقوة والقهر

ومن النتائج الخطيرة التي أنتجتها الحوادث الارمنية ظهور جلالة السلطان الاعظم أمام العالمين بمظهر السياسي النادر المثال والسلطان الامين على مصالح رعاياه . فقد توالت زوابع الحوادث الارمنية وصواعقها وجلالة السلطان الاعظم ثابت ثباتا عجيبا لا يهتز كرسي ملكه لاكبر حادثة ولا لاعظم تهديد والذين كانوا يجهلون قدرة جلالة السلطان الاعظم وسطوته ومهارته كان يخيل لهم عند قراءة الجرائد الانكليزية أيام الحوادث الارمنية ان حكم جلالته قارب الانتهاء بل ان الدولة نفسها قاربت الزوال . ولكن السياسة الحميدية النبيلة فازت بالنجاح والفلاح وأنقذت الدولة العثمانية والاسلام من أكبر الاخطار وأشد البلايا حتى ان المستر (غلادستون) زعيم أعداء المسلمين اعترف بأعلى صوته « بان السياسة الحميدية تغلبت على السياسة البريطانية وقهرتها في المسئلة الارمنية »

وان عناية جلالة السلطان الاعظم بدولته العلية وبالاسلام تفرض على العثمانيين كافة والمسلمين عامة ان يخلصوا لسدته

الشاهانية الاخلاص الصادق الاكيد وان يعاونوا جلالته على اصلاح الاحوال ودفع النوائب والاخطار حتى يعود للدولة العثمانية مجدها القديم ويلبس الاسلام ثياب العز والرفعة السرمدية

اللهم احفظ جلالة السلطان الاعظم والخليفة الاكبر الغازى ﴿ عبدالحميد الثانى ﴾ وحقق على يديه آمال العثمانيين والمسلمين وأنقذ مصر بلادنا العزيزة من أيدى الانكليز واحفظ لها فى ظل جلالة مولانا السلطان الاعظم سمو الخديو المحبوب ﴿ عباس حلمى باشا الثانى ﴾ انك سميع مجيب

﴿ المسألة الشرقية ﴾

« فهرس الجزء الاول »

صفحة

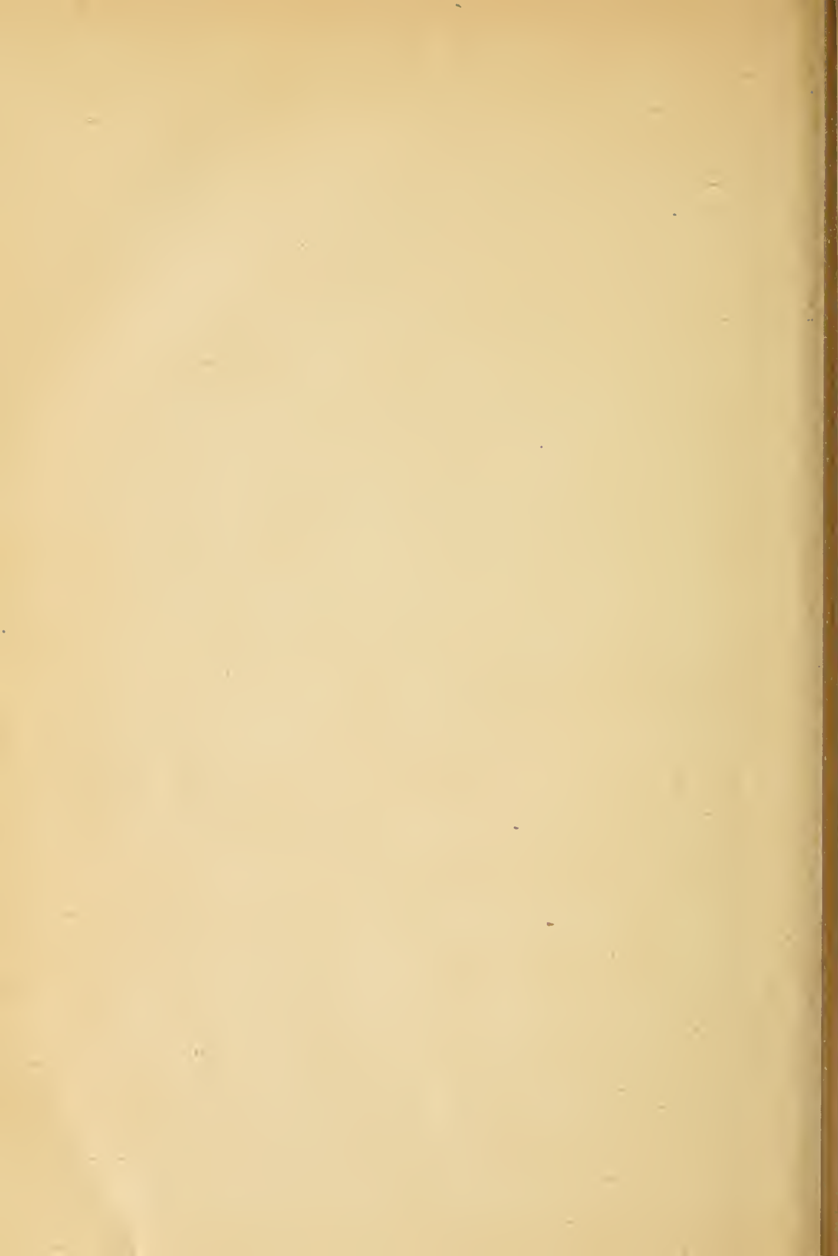
﴿ المسألة الشرقية ﴾

« فهرس الجزء الثانى »

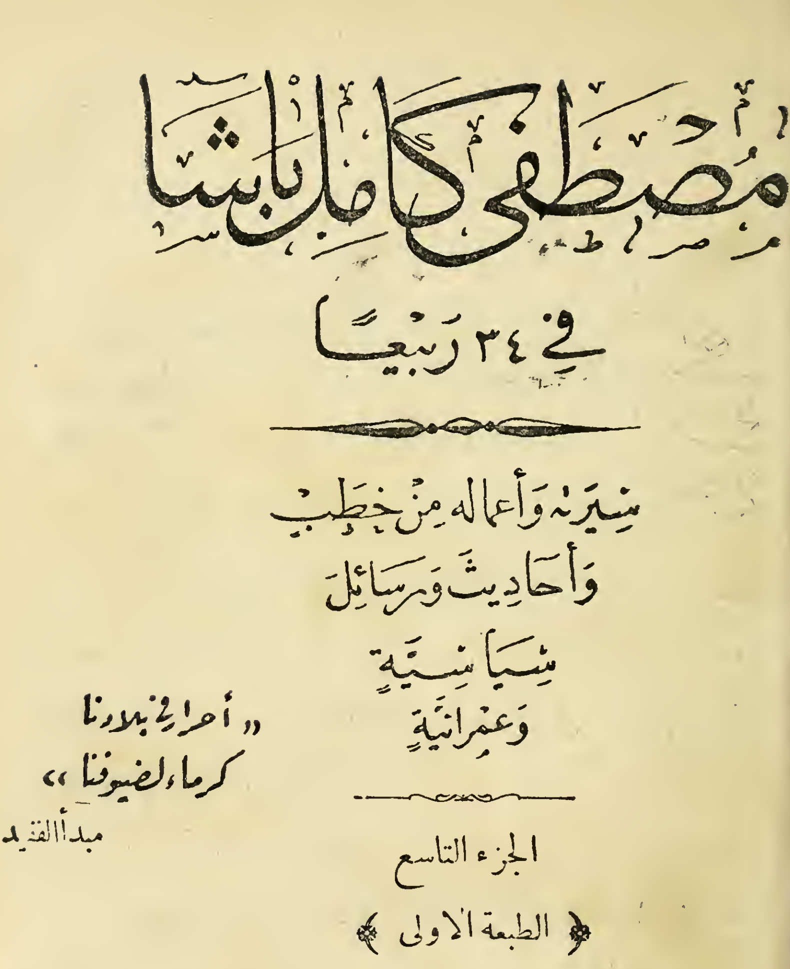
صفحة











مصطفى كامل باشا

في ٣٤ ربيعا

سيرته وأعماله من خطب
وأحاديث ورسائل
سياسية
وعمرانية

"أحرار في بلادنا
كرماء لضيوفنا"
مبدأ الفقيد

الجزء التاسع

﴿ الطبعة الاولى ﴾

سنة ١٣٢٨ هـ — ١٩١٠ م

(مطبعة « اللواء » بشارع الدواوين نمرة ٢٩ بمصر)

بسم الله الرحمن الرحيم

ما انتهى المترجم من اتمام كتاب المسئلة الشرقية وطبعه حتى استأنف جهاده الشريف فى خدمة البلاد والأمة بحمية أشد من حميته الأولى وعزم لا تزعزعه الحوادث ولا ترده عوادى الدهر . وكان أول عمل عمله أن أرسل مقالة لجريدة « الجولوا » هذا تعريبها :

« جناب المدير المحترم

جاءنى كتاب من صديق فرنسى كبير بعد ان شرح فيه سياسة أوروبا ازاء الدولة العلية وأسف على الخطة العدائية التى اتخذها من يلقبون أنفسهم بنصراء الانسانيـة فى مسئلة كريد وما ينوون عمله بعد ذلك متمسكين بمبدأ « ما أخـذه الصليب من الهلال لا يرد الى الهلال » قال : « انكم كنتم

تعتمدون كثيراً على انصاف أوروبا لكم حتي حسبتم بل وجزمتم ان مسئلة مصر ستعرض على بساط البحث بعد هذه الانتصارات المدهشة التي توجت بها الدولة العلية تاريخها المجيد . فماذا تقولون اليوم وأوروبا تعمل على نكايتكم ! »

ماذا نقول للعالم الاوروبي وكل يوم تسعى حكومة من حكوماته لتوسيع الحفرة التي يخاف منها كل رجل متمدين ويود سدها في القريب العاجل . هذه الحفرة هي تعصب المسيحية ضد الاسلام والتي أصبح البرهان يتلو البرهان على وجودها واثبات صحتها !

ان أوروبا تدعى انها متمدينة تعمل لسلامة النوع البشرى ولكنا أصبحنا نعتقد اعتقاداً جازماً أنها لا تعمل شيئاً آخر غير نصرة الصليب على الهلال !

ثم إنه يجب على كل امرىء أن يحب دينه ولكن مادخل الدين في الانسانية والمصلحة العامة ؟ ؟ اننا لم ننس الحروب الصليبية التي شاب من هولها الولدان والتي تركت في التاريخ صحائف حمراء من قرأها هاله مفعولها الدموي وتأثيرها المفزع .

فكيف ونحن في آخر القرن التاسع عشر قرن المدنية والنور نجد من ممدني العالم وجهابذة العلوم العصرية هذا التعصب الذميم !

ألم تكن الدولة العلية احدى الدول الاوروبية المميزة عن غيرها بسلطة الخلافة الاسلامية التى لا يستهان بها ؟ لم تنس أوروبا أن تلك الروح العالية المبجلة من كل مسلم روح الخلافة يمتد تأثيرها الفعال على ثلاثمائة مليون من النفوس . فتعمل على مناوأتها فى كل فرصة تصادفها غير حاسبة للمستقبل حساباً ؟

ماذا كانت أوروبا تعمل ضد الدولة اذا كان النصر لغيرها ؟ ألا انها على هذه القاعدة البربرية كانت تنسفها من الوجود ناسية العدل والانسانية ! !

ان العدل والانسانية اللذين يتحدث بهما ساسة أوروبا لم يكونا عامين بين أفراد البشر . بل انهما قاصران على المسيحيين من سكان أوروبا . والا فلماذا نجد العكس كلما كانت المسألة خاصة بالدولة العلية دون غيرها !

انى واثق كل الثقة مثل كل شرقى مسلم ان انكلترا المسيحية تحب

باوروبا المسيحية فهي التي تحض الأمم الصغيرة باسم الصليب على مكافحة الدولة العلية وهي التى تدفع أوروبا باسم المسيحية الى الانتصار للصليب وهي التى تتخذ من حكومات الغرب قنطرة لمرور المدمرات المبيدة والمفرقعات المهلكة حتى اذا بلغت غايتها هزأت بمن عاونوها وقالت «ومن بعدى الطوفان»

ان كل السياسيين الذين خالطتهم أو حادثتهم متفقون معنا على ان انكلترا وحدها هي المسئولة عن حوادث الارمن واليونان حتى ان هذا الرأى يكاد يكون رأى كل مشتغل بمبادئ السياسة . فلم لا تفقه الحكومات الاوروبية هذه الالاعيب البريطانية وتضع لهذه الدسائس حداً ؟

الا ان الحقيقة لظاهرة ظهور الشمس فى رائعة النهار وهى ان عمال الخير أصبحوا الندر فى أوروبا من عدلها مع الدولة التى عملت ما عليها من الواجب للدفاع عن شرفها وصيانة كيانها فاذا كانت أوروبا تستمر على هذا العداء الشائن فلا عدل ولا انسانية في العالم ! »

« مصطفى كامل »

*
* *

نلت أجازة فى أواسط شهر ابريل سنة ١٨٩٨ بعد واقعة عطبره (واقعة الجيش المصرى مع الامير محمود) وما وصلت القاهرة حتى كاد المرحوم يطير فرحاً للقياي لانها أول مرة التقينا بعد حادث الجيش الذى أتيت على تفصيله بالجزء الرابع وقد قضينا نحو شهر فى سرور وصفاء ثم عدت الى السودان وبودى أن لا أفارقه لأعضده فى عمله الوطنى الكبير

أما هو فقد برح الثغر الاسكندرى في يوم الجمعة ٢٤ يونيه على احدى باخرات الشركة الفرنسية الى أوروبا ليواصل جهاده الشريف .

وما وصل الى باريس حتى وقف على خطبة القاها اللورد سالسبرى رئيس الوزارة الانكليزية بسبب فشله فى سياسته بالصين اذ قال فيها تعريضاً بالهند ومصر « ان انكلترا لم تعمل السيف في الصين كما أعملته فى الهند ومصر » . فقام رحمه الله من فوره ورد على اللورد سالسبرى بكتاب هذا تعريبه :-

مصر وانكلترا

« باريس فى ٤ يوليه سنة ١٨٩٨

الى جناب اللورد سالسبرى

اطلعت فى الجرائد على نص خطبة سياسية زعم جنابكم فيها ان انكلترا قد فتحت مصر بالسيف. والوجدان الابى يتجافى عن زعم كهذا والوطنيون المصريون يقيمون الحجة عليه بأشد ما لديهم من الحزم والعزم فأن بلادكم لم تفتح بلادنا واني أستشهد الدنيا بأسرها على هذا الأدعاء. ان انكلترا لم تكن في حرب مع مصر في عام ١٨٨٢ بل هي تداخلت في حوادثها تداخلا وديًّا لتأييد عرش الجناب الخديو ! فهل يليق بها وهي على ما تدعى أمة متمدينة أن تقوم اليوم بعد أن حلفت حين تحلولها في مصر بأنها تتركها تحكم نفسها بنفسها فتصرح للعالم بالرغم من الشرف والوعد الصريح انها قد فتحت بلادنا بحد السيف. والا كان معنى هذه الكلمات « شرف وتمدين وانسانية » في عرفك يا جناب اللورد استعباد الامم الواثقة بالتمدين.

ألست القائل في عام ١٨٨٦ « لنحترم وعودنا المقدسة ولننجل عن مصر » . ألست القائل فى شهر نوفمبر من عام ١٨٨٦ للمسيو وادنجتون « ان بنى قومكم يكونون في ضلال مبين اذا اعتقدوا أننا نريد أن نمكث فى مصر الى ماشاء الله فنحن لا نبحث الا عن الوسائل التى نخرج بها من مصر بشرف وكرامة » أم لستم أنتم الذين لفظتم فى البرلمان يوم ١٠ يونيو سنة ١٨٨٧ هذه العبارة « لا يسوغ الآن أن نأخذ على عاتقنا حماية مصر ... حتى على فرض ان عملا كهذا ينطبق على الشرائع الدولية ومصالح بلادنا » أم لستم أنتم الذين قلتم وكررتم القول فى شهر أغسطس سنة ١٨٨٩ « أن التصريح باقامة انكلترا على الدوام في مصر دليل على قلة احترام العهود المقدسة التى ارتبطت بها حكومة الملكة والتى يجب علينا الخضوع لها »

فاذا كنتم يا جناب اللورد قد نسيتم أو ازدريتم هذه التصريحات الشريفة فأنه ينبغي عليكم أن تذكروا بأنكم قلتم فى احدى خطبكم الاخيرة « أن انحطاط الامم العظيمة قد كان سببه على الدوام طمعها وشراهتها »

والحال أن الامم الطامعة قد كانت مصر سبب موتها وفنائها فى الاعصر الخالية ولا تنجو انكلترا من هذا المصير اذا أصرت على احتلال بلادنا لانكم اذا كنتم تعتبرون أن أرادة انكلترا فوق أرادة أوروبا فانه لا بد أن يأتى يوم تنتصر فيه الوطنية المصرية وحدها على انكلترا العظيمة القادرة على كل شىء وربما هززتم كتفيكم يا حضرة اللورد حين قراءة هذا الكتاب ولكن كل انكليزى يضع شرف بلاده فوق المصلحة الذاتية الحقيرة يخجل ويستحي من قراءته

« مصطفى كامل »

وبعد أن نشرت هذا الكتاب جريدة الانترانسيجان الفرنسية التى يديرها المسيو روشفور صاحب القلم العالي وذو الفكر الوقاد والشهرة الكبيرة فى عالم الكتابة والذى هو من أكبر نصراء الانكليز ونقلته عنها كافة جرائد العالم علق عليه المسيو روشفور بقلمه فقال :

« ان الذى يغلب على الظن ان هذا الكتاب المفعم بسالة وشهامة لا يكاد يؤثر فى نفس اللورد سالسبرى فلا يعبأ

به تقريبا وصحيح أن انكلترا قد وعدت مراراً بالجلاء عن مصر غير أنه ليست هذه بأول مرة جحدت فيها أمة عظيمة كلامها ونقضت ميثاقها وكان مثلها مثل مدين سيئ النية ينكر امضاءه ويجحد توقيعه ومع ذلك فان عميد وزارة خارجية انكلترا لديه الآن عبرة وعظة تجعله يعتبر ويفطن الى عدم ثبات الاملاك التي تؤخذ بالقوة والقسر وهي مسئلة كوبا فكما أن الكوبيين ساعون الآن فى خلاص بلادهم من عبودية اسبانيا وظلمها الذي لا يحتمل ولا يطاق فكذلك نعتقد يقينا أنه يأتى يوم تصبح فيه انكلترا بالرغم من كل قوتها وجبروتها غير قادرة على اطفاء جذوة الوطنية المصرية واخماد أنفاسها وفي ذلك اليوم يأسف رجال انكلترا لعدم اصغائهم لكلام « مصطفى كامل » وحملاته الشديدة عليهم لم يدفعوا عن بلادهم عار هزيمة يصفق لها طربا دون شك جميع أولئك الذين يدافعون فى سبيل استقلال الشعوب المظلومة والامم المهضومة الحقوق »

١١ يوليو

﴿ضرب مدينة الاسكندرية﴾

في هذا اليوم المشؤوم والتذكار المؤلم الذى يحفظه كل مصري ولا ينساه مادام الجندي الانكليزى فى بلادنا قابل محرر جريدة الاكلير الفرنسية الطائرة الصيت المترجم وسأله عما يخالج صدر الامة المصرية من العواطف كلما تذكروا تاريخ اعتداء الانكليز عليهم واحتلالهم لبلادهم فأجاب رحمه الله بما يأتى :

« انى أشعر بألم شديد وسخط ليس عليه من مزيد كلما جاء هذا اليوم الذى يذكرنا بجميع مصائبنا فهو لمصر اذا تذكار حزن وحداد ولبريطانيا العظمى عنوان العار والشنار. وأى غضب يقوم بالانسان أكبر مما يعتريه عند تلاوته تاريخ ضرب الاسكندرية اذ لا يستطيع ان يتصور ان دولة أوروبية متمدينة تتصدى لتمدين غيرها ترتكب مثل هذا الاثم الفظيع !

من الذي يستطيع أن يروى تاريخ هاته الدولة الكبرى
التى بعلة ان البطريات المصرية هددت اسطولها دمرت مدينة
عامرة وأهرقت فيها الدماء ومع ذلك فقد كان فى مينا
الاسكندرية اذ ذاك سفن فرنسية ونمسوية لم تر تنسها بهدد
من القلاع المصرية !!

أن يوم (١١ يوليو) يجب أن يذكر السياسيين الذين
يقومون بادارة شؤون أوربا بواجباتهم نحو انكلترا في المسئلة
المصرية فلقد مضى على الانكليز فى مصر ١٦ عاما بحجة توطيد
النظام وتعزيز مركز الخديوية . ألم يكن هذا الوقت كافيا لاداء
مأموريتها واعادة وطننا الينا أو بالاحرى ألم يأت الوقت
الذى يجب فيه على أوربا أن تجعل ارادتها فوق ارادة انكلترا .
لا يعزب عن ذهن أحد فى أوربا الآن ان انكلترا تبغى أخذ مصر
غنيمة باردة فهل ترضى الدول الاوربية أن تترك للانكليز
هذا الطريق الذى لا بد منه لجميعها لانه الممر الوحيد لجميع
الامم وملتقى طرق المواصلات بأسرها

ونحن على أى حال نعلم ماهو واجب علينا . وهو العمل

لمصلحة بلادنا اذ بذلك نتوصل بالتأكيد لجعل المصريين رجالا عارفين بحقوقهم وواجباتهم نحو الوطن ومبغضين من صميم أفئدتهم لمن يظلمهم ويسلب حقوقهم فاذا ما أتى اليوم الذى فيه لا يكون للامة المصرية سوى قلب واحد وارادة واحدة مال الى مساعدتنا جميع الناس واكتسبت مصر حريتها المفقودة

والفرنسيون الذين ينكرون في مصر والذين يعلمون ان الانكليز يدفنون الآن فى أرضها أعمال فرنسا الجليلة فيها يجب عليهم ان يتذكروا ان ضرب الاسكندرية والحوادث التى أعقبته الى الآن ليست إلا أكبر فشل أصابها في هذا الجيل وهم يعلمون انهم لا يستطيعون أن ينالوا مرتبتهم السابقة ونفوذهم الماضى فى الشرق الا اذا أجلو الانكليز عن القطر المصرى ولهذا السبب ما زلنا ننتظر عملاً من الوطنية الفرنسية وإلا فأن فرنسا تخسر فى مصر كثيراً» اهـ

خطبة في باريس

٨

ما قرب يوم أول سبتمبر حتى دعا رحمه الله كعادته كل
المصريين والعثمانيين المقيمين بباريس للاحتفاء بعيد السلطان
وقد كان عددهم في هذه المرة كبيراً . وما جاء يوم الاحتفال
وأدى المحتفلون التحيات الواجبة في مثل هذا المقام حتى
وقف رحمه الله وقال:

« أصدقائي الاعزاء

اسمحوا لي أن أشكر لكم تفضلكم باجابة دعوتي فإن
فيها الاتحاد كل الاتحاد . واعلموا أن الوطنية الحقيقية هي التي
تعرف في مواقف الخطر وتظهر في ساعات الشدة . والتي
يجب على كل مصري أن يتمسك بها للأسباب السياسية
والدينية التي حتمت علينا أن نحتفل بهذا العيد ولو كره الدخلاء
والأعداء

ولقد نرى بأنفسنا أمم الغرب مع مدنيتها وعظمتها

وقوتها متعلقة غاية التعلق بامرائها وملوكها ولا اختار لكم مثلا آخر غير مثل الامة الانكليزية التى بلغ تعلقها بملكتها مبلغا كبيراً حتى أصبح من الامور المقررة عند كل انسان ان الانكليزى لو رضى السبة لنفسه لا يرضاها أبدا لملكته

إننا اذا بحثنا عن سبب تأخر المسلمين وتسلط الغربيين على بلادنا لوجدناه انقسامنا بعضنا على بعض وعدم اتحادنا وبالجملة عدم اتباعنا أوامر الدين الاسلامى الجليل

نعم — وأنى أصرح بذلك بأعلى صوتى — لا سلامة لمصر ولا سلامة للدولة العلية ولا سلامة لامم الاسلام كافة الا باتباع أوامر الشرع الشريف فاتباعها يهدينا الى اتحاد الكلمة والاجتهاد والنشاط والسير فى طريق التقدم والحضارة الاهلية الحقيقية

واذا كان الكثيرون من علماء أوربا وفلاسفتها يعترفون بأن الاسلام دين كريم يكفل للامم العاملة باوامره السير الى الامام فى سبيل التقدم والحضارة فكيف لا نعترف نحن بهذه الحقيقة الواضحة المتلألئة ؟ بل كيف لا نعمل نحن بهديها

الدين الشريف الذى فيه كل ما تحتاج اليه الامم من نواميس الحياة ووسائل الحضارة والارتقاء ؟

إنه من سوء حظ الشرق أن كثيرا من أبنائه الذين تعلموا في أوروبا يحسبون ان المدنية هي خلع ثياب الدين والتشبه بالاوروبيين في ملابسهم وزيهم فنجد بعضاً منا يفتخرون بأنهم يلبسون من لندره أو من باريس ولست تجد واحدا منا يفتخر بأنه يلبس من مصنوعات بلاده واذا ذكرت للبعض انك متمسك بالاسلام متبع أوامره قائم بفرائضه سمعته يقول لك : « أنت متعصب » كأن التمسك بالدين نقيصة النقائص وجريمة الجرائم !

حقاً انه ليس بالصعب على الباحث عن سبب تأخر بعض الامم وتقدم البعض الآخر ان يقف على أسباب تأخرنا فكثير منا يظن ان التمسك بالدين أمر مناف للمدنية مع ان أشد الامم مدنية أشدها تمسكا بدينها . وهذه المسألة الارمنية دليل واضح على ما أقول . والا فاذا كان الباعث على المظاهرات التى تظاهر بها الانكليز وكثير من الاوروبيين نحو الارمن

هو حب الانسانية فلماذا لم نر مثل هذه المظاهرات نحو الكوبيين وهم لا محالة أحق من الارمن بالمساعدة والرعاية والاحترام ؟ ولماذا رأينا الامم الكاثوليكية فى أوروبا ميالة الى اسبانيا دون أمريكا ؟ أليس لان اسبانيا كاثوليكية وأمريكا بروتستانتيه ولقد قرأنا أخيراً فى الجرائد ان المسيو ماكنلى رئيس جمهورية الولايات المتحدة أصدر منشوراً الى أمته وأعضاء مجلس النواب طلب منهم فيه أن يقيموا الصلاة فى الكنائس ويحمدوا الله جل شأنه على النصر الذى نالته الجنود الامريكية . فلماذا لا يعتبر هذا المنشور نقيصة اذا كان احترام الاديان والتمسك بها يعتبر نقيصة وجرما ؟؟

على ان التمسك بالاسلام لا يقصد به أبداً معاداة المسيحيين أو الاعتداء عليهم . كلا . ان الاسلام لاول دين يأمر باحترام ذوى الديانات الاخرى ، وحسن معاملتهم . فلذلك كان التمسك به يعتبر تعصباً له وليس تعصباً ضد غيره من الاديان

واذا كان من الامور البديهية ان الامم المسيحية مع قوتها الهائلة تتحد فيما بينها كلما اتفقت مصلحة المسيحية العامة

فكيف لا نتحد نحن المسلمين وليست سلامتنا الا فى تمسكنا بديننا. فأول واجب يحتمه علينا الدين الاسلامى هو اتحاد كلمة المسلمين كافة. وانه لأمر يظهر لنا صعب الحصول ولكنه يسير لو أردناه معاشر المسلمين. ويا حبذا لو اجتمعت جمعية من نخبة المسلمين يحضرها من كل أمة اسلامية عضو أو عضوان ودرست طويلا حالة الامم الاسلامية أمة أمة وبحثت عن حقيقة أدواء كل واحدة منها وقررت الدواء . فان جمعية كهذه تخدم الامم الاسلامية أجل خدمة وتكون الواضعة لاساس اتحاد المسلمين واعلاء شأن بلادهم . وعسى أن تنتقل هذه الفكرة من هذا المكان ويتردد صداها فى البلاد الاسلامية فنراها يوما من الايام حقيقة قائمة ليخدمها كل منا عندئذ بقدر استطاعته (١)

ولا يفوتنى أن أنبهكم الى أن بعض أبناء وطننا يظنون أنه قد قضى الامر وأن ليس للوطن العزيز مستقبل فيملأون قلوبهم يأسا ويقنطون من رحمة الله ويرفضون العمل فى سبيل خلاص مصر ونجاتها معتبرين كل عمل فى هذا السبيل جنونا

(١) وهي الدعوة الى عقد مؤتمر اسلامي

في جنون مع أن المستقبل بيد الله وحده ومن كان دينه الاسلام ووطنه مصر فعار عليه أن يعيش يائسا

واذا كان ناموس الله فى خلقه أن يعمل الانسان فى حياته لغرض معين وتعمل كل أمة لسعادتها ورفعتها فهل يليق بنا ونحن سلالة أول الامم مدنية وتقدما أن نقف فى الطريق وننظر الى الامم الاخرى سائرة مجدة يسابق بعضها البعض الاخر ! ولنسلم جدلا اننا غير موفقين الى رؤية مصر حرة مستقلة كما نؤمل أن نراها فهل ذلك عائق يعوقنا عن خدمتها ووضع أساس استقلالها حتى اذا جاء أبناؤنا من بعدنا وجدوا الاساس متينا قويا ليشيدوا عليه استقلالا سليما وملكا فخيما

واذا كان الفلاسفة والباحثون فى مدنيات الامم القديمة والحديثة قد قرروا أن الاهرام ستكون عند انتهاء العالم آخر وأفخم أثر يشهد للانسان بالقدرة وعظم السلطان كما يدل على ان انسان مصر فى قديم الزمان هو أشرف وأكرم انسان فانى ممن يأملون رجوع الشرف القديم والرفعة السالفة الى أمتنا المصرية العزيزة فتصير الكلمة كلمتها والعظمة عظمتها

وتعود كما كانت أسمى الامم منزلة وأولها مكانا

ولبلوغ هذه الأمنية الغالية السامية يجب أن تكون الوحدة الوطنية فى مصر تامة بمعنى أنه لا يوجد مصرى يتبرأ من وطنه بل يخدمه الكل ويعمل الجميع لخيره وسعادته مواصلين الليل بالنهار . وأقول ذلك لانى طالما رأيت ناساً قضوا هم وآباؤهم فى مصر السنين الطوال ولمصر عليهم فضل الوجود يقولون اذا ذكرت مصر أمامهم « نحن لسنا من أبنائها » ويتبرؤن من الانتساب اليها. وانها لعمرى أكبر جريمة التبرؤ من الجنسية وأذكر لهذه المناسبه أن لويس الثامن عشر لما جلس على أريكة ملك فرنسا بعد هزيمة نابليون الاول فى واترلو أمر بمحاكمة المرشال (نى) لاشتهاره بالميل لنابليون فجىء بهذا المرشال العظيم امام المحكمة وقام المدافع عنه يطلب براءته مستنداً فى طلبه على أن المارشال ولد فى مدينة سلخت من فرنسا أى أنه ليس فرنسياً . فلما سمع المارشال ذلك وقف وقال : « تف أيها المحامى ولا تدافع عنى بمثل هذا . أنى أفضل الموت عن نزع الجنسية الفرنسية منى ولو كان فى نزعها خلاصى وبراءتى

فانا فرنسى وأموت كذلك والموت أحب الىّ من اخراجى من جنسية أمتى وبلادى » فسكت المحامى وقضت المحكمة على المارشال بالاعدام ولكن التاريخ حفظ له ذكراً عاطراً وضربه لبنى الانسان مثلا للشهامة والوطنية الحقيقية

ليست الوطنية احتكارا لواحد دون آخر أو أنها تشترط لها سن معلومة وثروة معينة بل هى لكل من أحبها . وكل من أحس من نفسه بمقدرة على خدمة بلاده تعين عليه خدمتها بما فى استطاعته . وقد أرانا التاريخ أطفالا خدموا أوطانهم خدمات جليلة . فهذا (أنيبال) القائد الشهير ألم يتقدم لابيه وهو فى التاسعة من عمره العهود والمواثيق على أنه اذا شب دافع عن وطنه(قرطاجنه)وانتقم له من (رومه) عدوته اللدودة !! ألم يدون التاريخ الحديث سيرة الاحداث الذين فى الخامسة عشرة من عمرهم انضموا فى حرب السبعين الى جيش فرنسا وطنهم ودافعوا عن بلادهم

اعتقدوا أيها الاصدقاء ان الانكليز أنفسهم يحترموننا لو قمنا بواجباتنا نحو وطننا وظهرنا امامهم بمظهر الرجال العارفين

لحقوقهم فى الهيئة الاجتماعية. فهذه فرنسا اسألوها كم احترمت « عبد القادر الجزائرى » واجلته وكم تحترم اسمه الى اليوم ؟ وهذه روسيا اسألوها كم احترمت وكم تحترم الى اليوم الجندى العثمانى. هذا البطل الهمام الذى يمثل الوطنية الصحيحة والشهامة المطلقة ويذود عن حوض بلاده ويدافع عن شرف دولته بثبات جأش ما له من مثيل ؟

ان طرق خدمة الوطن عديدة فنحن فى حاجة الى صناعة أهلية ونحن فى أشد الحاجات لتعليم أهلى. فلماذا لا يقوم أغنياؤنا وسراتنا الذين يخاضون السياسة ويؤسسون الشركات لاحياء الصنائع فى البلاد حتى لا نحتاج الاجنبى فى شىء . وكم من مرة ناديت أبناء الوطن فى خطاباتى وسألتهم الاهتمام أشد الاهتمام بمسئلة التعليم الاهلى ويسرنى ان فضلاء مصر كتبوا الى المؤيد كتبا تعهد فيها كل واحد منهم بدفع جنيهين فى كل شهر اذا تأسست ادارة معارف أهلية . فلو قام فينا الف رجل يحسون باحساس هؤلاء الفضلاء وتعهد كل واحد منهم بدفع جنيهين فى الشهر لجمعنا فى العام أربعة وعشرين الف جنيه ولأمكننا أن ندير

بها مائة مدرسة ابتدائية تعلم الامة وتهذبها وتقدم كل عام للوطن خمسة آلاف رجل يعرفون واجباتهم نحوه وحقوقهم في المجتمع المصرى . وهكذا كل مشروع يصعب على الفرد تنفيذه فانه بالاتحاد يسهل ويتحقق . ولقد قال أحد الفلاسفة حقاً ! « ان عدد الامة بعدد المتعلمين فيها » ولا ريب انه قول مبالغ فيه ولكن فيه شيئاً كثيراً من الصواب واذا طبقناه على حالة أمتنا خجلنا أشد الخجل

ومن الحكم المأثورة عن (فيكتور هوجو) فيلسوف فرنسا وشاعرها العظيم قوله : « يوجد بعض أمكنة وبعض أوقات اذا نام فيها الانسان مات » فلنهتم بامر تربية الامة وتعليمها حتى لا تأتى الاوقات التي يشير اليها الفيلسوف ونحن نيام فيقضى علينا أشر قضاء

ولقد مضى الزمن الذى كنا نطالب الحكومة فيه بكل الحسنات وسائر الاعمال المفيدة للوطن وأصبحنا اليوم واكبر مأنية لنا عند الحكومة ألاّ تعتدى علينا أكثر مما اعتدت وأن لا تساعد العدو أكثر مما ساعدت فعلينا اليوم معاشر

الافراد القيام بتهذيب الامة وتربيتها ونشر روح الفضيلة بين أعضائها وتعريف كل مصرى مكانة مصر فى العالم وحالتها وما يجب أن تكون عليه حتى يعود للوطن مجده . ونبلغ ماتمناه من سؤدد ورفعة

ويسرنا أن سمو أميرنا متفق مع جلالة السلطان الاعظم متعلق بعرش السلطنة عامل بكل جهده على اعلاء شأنها نسأل القادر جل وعلا أن يوفق سمو الخديو وجلالة السلطان الى ما فيه خير الامة والملة ويوفق لهما المخلصين الامناء ليبلغانا مع نهضتنا الامانىّ والآمال » اه

*
* *

تم للجيش المصرى النصر على دراويش السودان وفتح عاصمة « أم درمان » فى ٢ سبتمبر سنة ١٨٩٨ ولما رأى المرحوم انه لم يرد اليه مايطمئنه من جهتى عاد الى مصر فوصلها فى يوم الاحد ١٨ سبتمبر وقد اطمأن اذ وجد تلغرافا يعرب عن جودة صحتى قد سبقه الى العائلة

وقد تولى رحمه الله ادارة تحرير جريدة المؤيد عندما سافر

صاحبها الى الاستانة قياما بواجب الصداقة والخدمة الوطنية فكتب فيها عدة مقالات ننشر هنا بعضها !

التعليم

كتب رحمه الله فى ٨ اكتوبر تحت هذا العنوان مانصه:

خطب أحد ساسة فرنسا أمام جمهور من الشعب فقال « المستقبل بيد معلم الناشئة » وهي حكمة جديرة بأن تكون محل نظر المصريين الراغبين في اعلاء شأن وطنهم وترقية مدارك أمتهم واسعاد مستقبل أبنائهم فقد تغيرت الاحوال فى نظارة المعارف وأصبح التعليم محفوفاً بالمكاره والمصاعب وأمسى المعلمون المصريون فى ضجر شديد من حالتهم شاكين سوء معاملتهم ولو استطاعوا أن يعيشوا خارج نظارة المعارف لفارقوها اليوم قبل الغد فرحين مسرورين وهو أمر يدل على أن التعليم فى مصر انحط انحطاطاً هائلا فان روح التعليم فى المعلم . ولو نظرت الي التلاميذ لوجدتهم أسوأ حالا وأشغل

بالا من المعلم نفسه فهم يذهبون الى المدرسة وكل منهم يتوقع طرده أو رفته اذ أصبح الطرد موقوفا على أقل شيء . كيف لا وقد أرتنا نظارة المعارف فى هذه الايام العجيب والغريب. فقد نقل الينا ثقة لا ريب في صحة قوله أن ناظر المدرسة الخديوية طرد تلميذا من المدرسة لانه كان عابس الوجه — فليعلم المصريون من الآن فصاعدا أن قوانين المعارف تقضى بأن العابس الوجه يطرد من المدارس — وأن الناظر الانكليزى طرد تلميذا آخر لانه كان متبسما — وأظن أن هذا المسكين حسب أن التبسم يقربه من الناظر بقدر مانال العابس الوجه من العقاب — وأنه أنزل تلميذاً فرقة لانه كان حاملا لكتب وسقط منها كتابان وهكذا من أمثال هذه المضحكات المبكيات

لطالما قلنا وكررنا أن مقصد الانكليز في نظارة المعارف قتل العاطفة الوطنية واعدام كل احساس شريف عند الناشئين فقد وضعت هذه النظارة مادة فى قانون مدارسها قالت فيها مامعناه « كل تلميذ يشترك فى احتفال أو مظاهرة أو اكتتاب

يطرد من المدرسة » فما معنى هذه المادة وما سبب وضعها ؟ أليس معناها أنه لايجوز للتلاميذ الاكتتاب للاحتفال بعيد جلوس سمو الخديو المعظم ؟ أليس سبب وضعها أن تلاميذ المدارس عقدوا فى ٨ يناير من هذا العام احتفالا شائقا بمناسبة عيد جلوس الحضرة الفخيمة الخديوية أعلنوا فيه مع مزيد الاحترام حبهم الخالص لسمو أميرهم وتعلقهم الصادق بعرشه المحترم ؟ واذا كان أساس التعليم فى المدارس قتل العواطف الوطنية فعلام معاشر المصريين ترسلون أبناءكم الى مدارس الحكومة ؟ أتريدون أن يكونوا خداماً للانكليز وعبادا لاعداء الوطن ؟ أم تبتغون جعلهم آلات ضد الوطن العزيز؟ ليت شعري اذا كان التعليم خالياً من التربية الصحيحة والفضيلة والوطنية بل أساسه التربية المفعمة بالخضوع والمذلة فما فائدة التعليم ؟ وهل ينكر أحد من الناس ان المتعلم السيء التربية أضر على نفسه وعلى قومه وعلى وطنه من الجاهل ؟

واذا كان تحلي الناشئين فى البلاد الاخرى بالعواطف الوطنية مما يكافأ عليه فلماذا تسير مصر على عكس هذه

القاعدة ؟ واذا قام الناشئون في انكلترا بعمل مظاهرة وطن
يوم عيد جلالة الملكة فهل يكون جزاؤهم اللوم والتقري
ووضع مادة في القانون تحرم عليهم مثل هذه المظاهرات
قاتل الله الغرض! فانه يعمى ويصم ولا يصح لعاقل أن يؤمل
خيراً في نظارة المعارف بعد أن عملت ماعملت وبالغت
مااستطاعت في التضييق على الناشئين وطلاب العلوم

ولقد كانت في الماضي مشرقاً لانوار العلوم والمعارف
مفتوحة مدارسها للطالبين والراغبين بل كانت الحكوم
تأخذ التلاميذ حتى بالرغم من آبائهم وتعلمهم وتهذبه
ليكونوا خداماً للوطن العزيز وعمالا نجباء على اسعاد الام
وترقية شؤونها . واليوم أراد الزمان وأراد سوء حظ مص
أن تنعكس الآية وتنقلب الامور . فماذا يجب أن يعمل
المصريون ؟ أليس أول واجب عليهم ان يقوموا ويؤسسو
المدارس الاهلية لتعليم أبنائهم وعلى الاخص لتربيتهم لان التعلي
شيء والتربية شيء آخر. قد أهملت التربية أصلا من مدارس
الحكومة فيجب أن تكون الاساس الاول في مدارس الا.ة

ومن غريب أمر مصر انه لما كانت الحكومة تأخذ
الابناء قهراً لتعليمهم وتربيتهم كانت الامة معارضة للحكومة
في ذلك ولما بدأت الحكومة جهدها فى التضييق على المتعلمين
تجهت رغائب الاهالى نحو التعليم والتربية وصار الفقير كالغنى
يسعى لتعليم أبنائه وتحميل نفسه المصاريف الباهظة لبلوغ
هذه الغاية . وأنا نعلم جيداً أن فى مصر رجالا يحبون وطنهم
حباً صادقاً ويودون له السعادة والرخاء ولذلك جئنا نسألهم
بلسان الوطن الاسيف ان ينهضوا لتأسيس المدارس الاهلية
لا سيما وقد ظهرت همة ذوى الهمم عند نشر المؤيد لاول
مرة رسالة فاضلين تعهد كل منهما بدفع جنيهين فى الشهر
اذا أسست نظارة معارف أهلية

نعم ان تأسيس معارف أهلية أمر مرغوب وشيء خطير
لكن اذا كان هذا الامر صعباً أو مستحيلا اليوم فهل
بعد عزائم الذين تعهدوا بدفع مبالغ لتربية أبناء الامة ؟
ان خير سبيل يجب على ذوى الهمم سلوكه الآن هو تأسيس
مدارس متفرقة فاذا استقامت أحوالها وسارت فى طريق

النجاح اجتمعت هذه المدارس كلها تحت ادارة مشترك
ولزيادة الايضاح نقول انه لو اجتمع عشرة من الناس وتبر
كل منهم بدفع جنيهين فى الشهر لأمكنهم ان يؤسسو
مدرسة ابتدائية تعلم الفقراء من أبناء الامة وتؤدى خدم
جليلة . ولدينا جمعية العروة الوثقى بالاسكندرية تقوم مثلا على
ذلك فهذه الجمعية ليست من الجمعيات الغنية ولكنها وصلت
الى تأسيس ثلاث مدارس سائرة فى طريق الفلاح والتحسين
فالارادة وحدها كافية لعمل أكبر الاعمال فما بالك لو أجم
عدد عديد من الناس على ارادة واحدة ورغبة مشتركة ؟؟

على اننا نرى المدارس الاجنبية فى مصر زاهية زاهر
غنيـة بأموال التلاميذ تبنى القصور وتشيد المباني الفخم
لمدارسها . فما على الراغبين فى تأسيس المدارس الاهلية ال
ان يبدؤا فى العمل وهم يجدون من الامة أكبر اقبال ول
يخسرون فى عملهم المبرور شيئا

« مصطفى كامل »

اوروبا والاسلام

وكتب فى ٩ اكتوبر تحت هذا العنوان ما نصه :

جاءتنا التلغرافات العمومية بنبأ مدهش وهو أن جلالة السلطان الاعظم قبل انسحاب الجنود العثمانية من كريد اجابة لطلب فرنسا وانكلترا والروسيا وايطاليا وقد انتهز أعداء الدولة فرصة ورود هذا التلغراف فاخذوا يشنعون بها ويطعنون على الدولة . ولو كان عندهم شيء من العدل والانصاف لقضوا على أوروبا ومدنيتها شر قضاء . اذ أى لوم يستطيع عاقل أن يوجهه الى الدولة ودول أوروبا كلها متحزبة ضدها عاملة جهدها فى نصرة الثوار والعصاة

أن التعصب القبيح ضد الدولة العلية ورعاياها المسلمين لواضح لكل ذى عينين والا فبأى حق تسوغ الدول لنفسها التداخل فى شؤون الدولة ولم تداخلت فى كريد ولم تتداخل فى كوبا والهند مثلا ؟ أليس لان اسبانيا دولة مسيحية كانت تفتك بالكوبيين وانكلترا دولة مسيحية تفتك بالهنود

مسلمين وغير مسلمين ؟؟؟

ومن الامور البديهية التى لا تصح المناقشة فيها ان جلالة السلطان من أكبر رجال السياسة فى هذا العصر وأنه باعتراف غلادستون نفسه لا يرضى أبداً الرضوخ لمطالب أوروبا ورغائب المسيحيين . ومسئلة الارمن لا تزال كلها براهين على أن السياسة العثمانية ترمى دائما أبدا الى رد هجمات السياسة الاوروبية ومحاربتها كل ما يخالف مصلحة الدولة العلية . فاذا كان جلالة السلطان قبل خروج الجنود العثمانية من كريد وتسليم الجزيرة بصفة نهائية الى أوروبا فان ذلك يكون ناشئاً عن اعتقاد جلالته بأن أوربا تنوى السوء والشر للدولة وأنه لا نصير لها بين الدول الاوروبية

والعبرة التى يجب أخيراً على كل مسلم ان يعتبر بها هي أنه لا سلامة لنا الا بالاتحاد حول راية السلطنة السنية وتعزيزها بكل ما فى استطاعتنا وعدم الاعتماد على أوروبا فى شيء ما

والذى غرر بنا الى اليوم هو اعتقادنا أن مدنية أوروبا غرضها المساواة الحقيقية والعدل الصحيح وكنا نعتقد ذلك

عن سلامة نية ولذا احتفلنا طول هـذا القرن بالاوروبيين وأكرمنا مثواهم وتلقينا تعاليمهم وارشاداتهم بمزيد الارتياح وصرنا ننافس بعضنا بعضاً في تقليدهم والتشبه بهم . ولكنهم خدعنا وسلبنا الكثير من عزنا ومجدنا ولم يبق الا أن نعتبر بالماضى ونعمل للمستقبل

وها قد كاد ينتهي القرن التاسع عشر وبعد قليل تحاسب كل أمة نفسها عما كسبت وعما خسرت واذا حاسبنا نحن كذلك أنفسنا تحسرنا الحسرات بعد الحسرات ورأينا هـذا القرن في ضيائه وسنائه أعدى القرون للشرق والاسلام وأكثرها ضررا . وما ذلك الا لاننا فرطنا فيه كل التفريط وخالفنا أوامر الشريعة المطهرة فكان جزاؤنا ما كان .

اما الآن وقد أسمعتنا الحوادث والايام أن سلامة مصر والدولة العلية فى الالتئام والاتحاد والحذر من العدو والدخيل فالنتنبه للخطر المحدق بنا ونعمل لاصلاح أمورنا ولم شعثنا ليعود الينا مجدنا القديم وعزنا السالف

« مصطفى كامل »

التربية الوطنية

وكتب فى ١٠ اكتوبر تحت هذا العنوان مانصه :

كتبنا أول الأمس مقالا على التعليم أبنا فيها الحالة السيئة التى وصلت اليها المعارف فى مصر وضرورة انشاء مدارس أهلية تنفق عليها الامة لتعليم أبنائها واليوم نعود الى هذا الموضوع نفسه لانه موضوع حيوى يجب البحث فيه مرارا حتى تظهر للوجود المدارس المقصودة وتتم الغاية المرغوبة وقد لاحظنا أنه مانشرت الجرائد الوطنية نصائح وسألت الامة اتباعها وأظهرت لها لزوم انشاء المدارس مثلا حتى استحسن الناس كافة رأيها غير ان كل واحد يقول : « ولكن من الذى يعمل بهذا الرأى ومن الذى يجيب النداء كذلك؟؟ » ولاحظنا ان كل فرد يعتبر نصيحة ناصح موجهة الى غيره لا اليه ولذلك يلوم الآخرين على عدم اتباعها مع أنه أول مقصر فى اتباعها !

ولذلك كانت نصائح الناصح عقيمة فى أغلب الظروف .

فيا أيها القارىء عود نفسك من الآن فصاعداً اعتبار ماتقرأه

من النصيحة أو من اللوم موجهاً اليك ولا تتهم غيرك بالتقصير فأنت مسئول عن خدمة الوطن ككل مصرى وأنت مسئول عن مصائب مصر ككل مصرى وأنت مشترك في جريمة انحطاط الوطن ان كنت مع المقصرين

واذا عرف كل قارئ من القراء ان النصيحة موجهة اليه وان الوطن ينادى أبناءه فرداً فرداً بلا تمييز في الدرجة والرتبة والثروة . ألفت انظار كل مصرى الى حالة الوطن الاسيف وما وصل اليه فى هذه السنين من التقهقر والانحطاط على حين تقدم البلاد الاخرى وافتخار كل وطن برجاله وكل رجل بوطنه . وليس لداء مصر من دواء سوى نشر التربية الوطنية الصريحة القاضية ببث روح الفضيلة فى نفوس الناشئين وتفهيم كل واحد منهم تاريخ بلاده وواجباته نحوها وحقوقه الوطنية حتى اذا شب كان رجلا شهما ووطنياً حراً يأبى الضيم لبلاده والاستعباد لقومه فينهض لاعلاء شأن الوطن برفعة الامة

كم من مرة سمعنا أطفال النزلاء هنا ينشدون الاناشيد

الوطنية امامنا ويهتمون بالدعاء لبلادهم وممالكهم على بعد المزار فيستوقفنا هذا المنظر المؤثر ويملأ قلوبنا أسفاً على فقدان التربية الوطنية من بلادنا ؟؟

ولقد أضاع اليأس عند بعض النبهاء قوة الارادة وصدق العزيمة فتراهم يصبحون كسالى ويمسون كسالى ولا ينشطون لعمل شيء من الاشياء . مع ان حسن الاعتقاد فى الخالق جل شأنه هو روح كل العقائد وعماد سائر الاديان فكيف نجعل لليأس علينا سلطاناً ؟؟

ها هو التاريخ قائم بأحاديثه ينبهنا الى أن كل أمة عملت لحريتها واجتهدت فى سبيل الحصول على استقلالها بلغت متمناها وأدركت أمنيتها . فلم لا نعمل نحن كذلك كبقية الامم التى كانت مستعبدة واستقلت فنحن نموت والوطن يبقى حياً . وعمرنا فى هذه الحياة قصير ولكن الوطن طويل العمر ممدود الأجل

واقد سمعت مرة المسيو (شارل ديبوى) رئيس وزراء فرنسا سابقاً يخطب على سكان قرية فرنسيه بمناسبة اقامته

تمثالا لاحد أبنائها الذين أخلصوا للوطن الفرنسى وخدموه بأمانة ووفاء . فالتفت الخطيب بعد أن افتتح خطبته بالثناء على فرنسا نحو تلاميذ هذه القرية وقال « علموا هؤلاء الناشئين ان فرنسا أول البلاد وأشرفها وأن أمتنا أجل الامم وأكرمها واملئوا قلوبهم وطنية وحباً لفرنسا . فربما خرج منهم رجل يرفع الراية الفرنسية الى أعلى منار ويسير بالوطن فى طريق السعادة والفخار »

واليوم أنا أقف أمام أمتى هذا الموقف وأنادى أبناءها بصوتى الضعيف ! « ان كنتم لا تؤملون لمصر خيراً وأنتم أحياء — مع أن المستقبل بيد الله وحده — فربوا أبناءكم واتركوا لهم التربية والوطنية ميراثا وعلموهم ان مصر خير الاوطان وأشرفها وأن أمتنا العزيزة أعرق الامم فى المدنية وأكرمها وأن الموت خير من الحياة بغير الحرية والاستقلال فيشبون على محبة مصر وينهضون وهم رجال لتخليصها واسعادها »

ألا ان أساس التربية الوطنية تقوية ملكة اللغة الوطنية عند الناشئين أى تعليم اللغة العربية الجليلة تعليما جيداً وتدريس

كل العلوم والمعارف باللغة العربية. وقد أدرك الانكليز ذلك فهدموا اللغة العربية بمالهم من القوة والحول ودكوا أساسها وقوضوا بنيانها فأصبحت غريبة في ربوعها كما أصبح الناطقون بها غرباء فى ربوعهم وأجانب فى بلادهم .

وما دمنا مضطرين الى تلقى العلوم والمعارف باللغات الاجنبية فكيف نرتقى الى أوج الكمال ونبلغ درجة الامم الأخرى . وما تقدمت هذه الامم الا بتقوية ملكة لغتها وتدريس كل العلوم بها . بل بلغت عناية الامم الحية بلغاتها أنك اذا مررت فى شوارع مدائنها لا تجد كلمة واحدة مكتوبة على حوانيتها أو محلات التجارة فيها بلغة أجنبية

واذكر بهذه المناسبة ما قصه عليّ صديق في المجر من أن رجلا مجريا دخل مرة فى مطعم فوجد فيه خادماً صغيراً يجهل اللغة المجرية فنادى صاحب المطعم ووبخه امام الناس كافة قائلا له : « كيف تكون مجرياً وتجهل خادمك اللغة المجرية؟ » ثم وعد الخادم باعطائه فلورينو (أى عشرة قروش صاغ تقريباً) على كل كلمة يحفظها من اللغة المجرية

ونجد لكل أمة حية أمثالا تتعلق باللغة يقصد بها تشريف اللغة الوطنية على غيرها من اللغات كقولهم في المجر مثلا « اللغة المجرية لغة الخالق » أما نحن فقد سلمنا أولادنا لنظارة المعارف التي تقتل فيهم كل عاطفة شريفة وتميت اللغة العربية بقدر استطاعتها على أن اللغة هي العامل الاول لحياة الامم واستقلالها

فيا أصحاب الهمم من بني مصر . ويا ذوي العزائم أجيبوا استغاثة الوطن الحزين وانهضوا الى تأسيس المدارس الاهلية ويكفي الواحد منكم ان يؤسس في بادئ الامر مكتبا في قرية أو بلد فاول الغيث قطر ثم ينهمل .

« مصطفى كامل »

الداء والدواء

وكتب تحت هذا العنوان في ٢٤ اكتوبر ما نصه :

امتلأت الارض بأخبار «فشوده» وشاع فى كل الانحاء ان الحرب أصبحت بين فرنسا وانكلترا قاب قوسين أو أدنى بسبب هذه المدينة الافريقية المصرية . وقد أخذ العجب منا كل مأخذ بسبب ذلك وأخذنا نتساءل كيف أن دولتين عظيمتين تعرضان أبناءهما الابطال للفناء والدمار بسبب بلد او قرية تركناها نحن غير آسفين . واذا كانت هاتان الدولتان تعزان الى هذا الحد فشودة فكيف اهملنا نحن أمر السودان بل كيف اهملنا امر بلادنا العزيزة كلها بل كيف تمر علينا الحادثات المزعجات ونحن بلا حراك ننظر اليها كأنها واقعة على غيرنا لا علينا

اللهم ان الجواب على هاته الاسئلة كلها بسيط وهو أن الامم الاوروبية امم حية عرفت قيمة الحياة وعلمت أن دعامة المجد والشرف هي الوطنية الحقيقية والذب عن شرف الراية

ومجد الاوطان بسالة واقدام . فظهر في ابنائها كل شجاع مقدام يقتحم الاخطار بعد الاخطار ويركب متن الاسفار في البحر والبر طالبا لبلاده عزا جديدا ومجدا تليدا ساعيا في توسيع نطاق أملاكها ونشر سطوتها وكلمتها فلذلك ارتفعت الامم الاوروبية شأنا وسمت قدرا وانتشرت سيطرتها على الشرق والشرقيين

ومن ذا ألذى لا يعجب برجل مثل (مارشان) قضى السنين هو ورجاله بين نيران الحر والجوع والعذاب والسهر والالم حتى وصل الى بغيته ورفع الراية المثلثة لالوان على فشوده . بل من ذا الذى يستطيع ان ينكر على رجال كهؤلاء الرجال شجاعتهم واقدامهم ووطنيتهم ومن منا معاشر المصريين الشاعرين بخطورة الحال وتعس الوطن لا يبكى البكاء الشديد ويتحسر من صميم فؤاده عند ما يرى أبناء الامم الاخرى متوازرين متحدين عاملين ليل نهار على سعادة أوطانهم على حين اننا بنى مصر في شقاق وافتراق لا نتحرك الا بعواطف الحسد والشحناء ولا تهتز قلوبنا لدمار بلاد هى بلادنا وشقاء وطن هو وطننا وخراب معاهد هى معاهد

الآباء والأجداد وهي هي وحدها مجدنا وفخارنا . وانا مع عظيم كراهتنا للمحتلين ومجاهرتنا في كل وقت وفي كل بلد بانهم مغتصبون معتدون علينا ناكثون العهد والميثاق نعجب غاية الاعجاب بتفانيهم في خدمة الوطن البريطاني واتحادهم فيما بينهم ومساعدتهم كل رجل يقوم من بينهم لاعلاء شأن بلاده وغاية آمالنا ان توجد في مصر هذه العواطف السامية التي شيدت الملك البريطاني وقوت السلطة البريطانية

وقد بحث كتاب مصر كثيرا في سبب اضمحلالها وتأخرها وذهب كل منهم مذهباً في شرح العلل والاسباب. أما أنا فقد قلت من أول يوم اشتغلت فيه بمسألة بلادى وقمت مطالباً بحقوقها ان سبب انحطاط مصر وتأخرها هو انعدام التربية الوطنية الجنسية من بيننا وجهل كل فرد لواجباته نحو الوطن وحقوقه فيه فنشأ عن ذلك ظلم القوي للضعيف وسكوت الضعيف عن حقه ازاء القوى واشتغال كل فرد بنفسه وتخلى الجميع عن الوطن ومصالحه الكبرى حتى انحلت بهذا السبب عروة الاتحاد بين أفراد

الشعب لان أصل الاتحاد فى كل أمة شعورها باتحاد مصالحها واتحاد واجباتها نحو الوطن المشترك

وطالما اعتقدت أمتنا ولا يزال فى أبنائها من يعتقد ان الحكومة هي المسئولة وحدها عن عمل كل شيء يفيد البلاد وأن لاحق للامة فى عمل شيء بغير اذن الحكومة وأمرها . ورسخ هذا الاعتقاد فى النفوس حتى اننا لا نزال نرى في مصر رجالا يقدسون خدمة الحكومة ويرون العار منتهى العار فى الكسب خارجا عنها

فاذا استجمع المصرى كل أسباب الانحطاط وأدرك انها جهل الامة أولا واعتقادها بانها آلة في يد الحكومة ثانيا وانحلالها ثالثا وفقدان العقيدة منها رابعا واستبداد الحكام خامسا وقبول كل شيء من الاجنبي سادسا وطمع الاجنبي سابعا . فقه كيف تأخرنا وكيف ساد غيرنا وكيف صارت هذه البلاد العزيزة تحت نير الانكليز الثقيل فهذه أدواء بل هى بعينها أدواء كل بلاد المسلمين فما هو الدواء واين يوجد وما ثمنه

أما الدواء ففى التعليم الصحيح وفى التربية الصحيحة فهما اللذان يزيلان هذه الغشاوة عن أعين الشعب ويهزمان جيوش الجهالة . وهما اللذان يعلمان الامة أنها صاحبة الكلمة الاولى في بلادها . وأن رجال الحكومة ليسوا الا عمالا لها وخداما لمصالحها ان رضيت عنهم حفظوا مراكزهم وان سخطت اعتزلوا الاعمال . وهما اللذان يجمعان كلمة الامة ويوجدان رابطة متينة بين سائر الافراد حتى اذا حل بالوطن أمر جسيم قامت الامة كانها رجل واحد . وهما اللذان يوجدان عند الامة عقيدة دينية صحيحة بها يقوم معوجها وتستقيم أمورها وتسمو مداركها كما انهما يوجدان عندها عقيدة وطنية تهتز لها الجبال الشم ويسهل أمامها كل صعب وييسر كل عسير . وهما (أي التعليم والتربية) اللذان يردعان الحكام عن الاستبداد ويقيمان فى الامة قسطاس العدل والانصاف . وهما اللذان يرفعان من شأن التجارة الوطنية والصناعة الاهلية فلا يشترى الفرد الا من تجارة وصناعة بنى جنسه ولا يترك المتاجر والمصانع الاجنبية تقتل المصانع والمتاجر الوطنية .

وأخيراً . هما التعليم والتربية . اللذان يقفان امام الاجنبي كاسدين كاسرين يدفعان عن الوطني هجماته واعتداآته ويحفظان للواء شرفه وللوطن مجده وجلاله

فها هو الدواء أيها المصريون ان أردتم لبلادكم خيرا ولوطنكم براً ولأنفسكم سعادة ولابنائكم من بعدكم مجداً وسؤدداً فعليكم به وما هو بعزيز عليكم بل هو عندكم وفي بيت كل واحد منكم وما ثمنه الا مال الاغنياء وفكر النبهاء . فان قصرتم فأنتم وحدكم المسؤلون عن مصائب هذه البلاد الحاضرة والمستقبلة وعار على المصرى أن يقضى حياته فى الطعن على أمته وبلاده دون أن يخدم وطنه خدمة جديرة بالذكر مع أن الاجنبي يقدم حياته وقوته بل وعمره ضحية للوطن وقربانا

واذا كان الاوروبيون مع قوة أوطانهم وسعادة بلادهم يقتحمون الاخطار لتوسيع دائرة سلطتها وزيادة عدد مستعمراتها فكيف لا نهتم نحن معاشر المصريين بانقاذ الوطن العزيز واعادة قوته ومجده اليه . بل كيف يعتبر الاوروبي توسيع أملاك بلاده فرضاً مقدساً عليه ولا يعتبر المصرى اعادة مصر

نفسها واجبا محتما وأول الفروض

اللهم هب أمة مصر العزيزة رجالا من أبنائها ينهضون بها ويرفعون شأنها ويردون للوطن حياته واستقلاله ويجعلون لراية مصر بين رايات الامم المحل الاول والمقام الاعلى

مصطفى كامل »

شرف الراية

وكتب رحمه الله تحت هذا العنوان فى ٣ نوفمبر ما يأتى :

« يرى العالم الآن منظراً من أغرب المناظر وأعجبها وهو منظر أمتين عظيمتين الاولى منهما واقفة تطالب بابتلاع مصر ووادى النيل وتدعى حقوقاً على السودان لا ندرى من الذى أعطاها اياها ولا ندرى ماهى تلك الحقوق وأرض السودان مخضبة بدماء المصريين التعساء ومال مصر الاسيفة والثانية واقفة أمامها تدافع عن شرف رايتها المثلثة الالوان الخافقة على فشودة

تجيب انكلترا على مطالبها أبلغ جواب وترد عليها أحكم رد تقول لها ان كان السودان لمصر والسلطان فلا شأن لك معي وان كان لاول فاتح فأنا فتحته قبلك . ومصر تنظر الى هاتين الدولتين العظيمتين بعين الاستغراب بل بعين ملؤها عبرات منتظرة النتيجة وما وراء النتيجة

يظن قوم أن الحرب بين فرنسا وانكلترا قاب قوسين أو أدنى ويظن آخرون أن جلاء فرنسا عن فشوده قريب لاريب فيه . ولكن الذي يجب أن يلتفت اليه المصري ويعتبر به هو ان فرنسا تدافع عن شرف رايتها وانكلترا تدافع عن آمالها واطماعها وحكومة مصر الاسيفة تسأل انكلترا أن ترد اليها السودان كله أي ان تطرد فرنسا من فشودة !

ولو قرئ كتاب الحكومة المصرية هذا على رجل بعيد عن مصر غريب عنها جاهل بأحوالها ومركزها السياسى لقال : « أنعم بحكومة مصر من حكومة محافظة على حقوقها غيورة على أملاكها وأنعم بحكومة انكلترا من حكومة شفيقة على مصر رحيمة بالضعفاء عدوة لكل مغتال ! » ولكن

المصريين الذين عرفوا حالة بلادهم ومجرى سياستها قرؤا خطاب الحكومة المصرية للحكومة الانكليزية بمزيد الكدر وعظيم الألم اذ أنهم يعلمون كما يعلم حضرات الوزراء الفخام أن مصر لا تملك نفسها فكيف أكون عبداً وأطالب أن أشترى ؟؟ بل كيف تطالب وزارة مصر انكلترا بأن ترد اليها السودان وهى حانثة فى يمينها معها فهل انكلترا هي الدولة العلية؟

أو ليس هذا الخطاب في هذه الظروف من أكبر المخجلات . وأى خجل يستولى على المصرى منا اذا اجتمع بفرنسى يقول « بلادى تدافع عن رايتها » وانكليزى يقول « بلادي تطالب بما أرادته لنفسها من الاملاك وتدافع عن آمالها ومطالبها » عندئذ ماذا يستطيع المصرى الحزين أن يقول ؟ لا قول له غير اللهم هب مصر وزراء يعرفون أنهم أبناء مصر وأنهم وزراء مصر وأن مصر وطن لهم ولآبائهم من قبل ولابنائهم من بعد وان أول واجباتهم المحافظة على سلامتها والموت فى الدفاع عن حقوقها المقدسة

مصطفى كامل »

*
* *

كتب الى رحمه الله فى هذه الاثناء خطابا قال فيه :

« .... ان الاحوال السياسية سيئة للغاية بعد مسئلة فاشوده وقد أظهر بعض الكبراء الجبن وكادوا يخونون بلاداً احسنت اليهم بما لا يحلم به غيرهم . ولكنى ثابت على خطتى حتى الممات لان اعتقادى ان ثمر الدفاع ان لم يجنه المدافع الاول ولا الثانى فلسوف يجنيه مصري على مدى الايام وأننا اذا لم نقتطف ثمر عملنا وجهادنا فى حياتنا فأننا على الاقل نضع الحجر الاول لمن يبنى بعدنا .

أنى قلقت كثيراً لعدم ورود انباء من جهتك فأرجو منك أن تعلمنى بمجرد وصول هذا اليك ولو تلغرافيا دمت لاخيك . .... »

وقد كان السبب فى عدم مواصلته بالجوابات المطمئنة اصابتى بمرض التيفود الذى نزلت بسببه الى مصر وقضيت نحو شهر بالمستشفى الحربى بالعباسية .

شماتة وتهويل

وكتب تحت هذا العنوان فى ٦ نوفمبر مانصه :

ما أعلن خبر جلاء فرنسا عن فشوده حتى صاحت أبواق الضلال بالشماتة فى مصر والمصريين وهددت المصريين المحبين لبلادهم المنادين بحريتها المطالبين باستقلالها المذكرين انكلترا بعهودها ووعودها وأقسامها . وكأن جريدة المقطم حسبت الفرصة مناسبة لاعلان هذا التهديد فأعلنته بشكل يفهم منه السذج انها مكلفة أو مأمورة من الانكليز بنشره . مع أن جريدة المقطم تعلم كما يعلم سادتها ومعبودوها أن المصرى المتعلق ببلاده لايخاف التهديد والوعيد لان احساسه الوطنى فوق كل احساس . ومن كان قوى العقيدة ثابت الفكر والرأى فلا الوعيد يرهبه ولا المدافع تزعجه . فليقل المقطم ما شاء ان الانكليز لا يحتملون معارضتنا لهم أكثر مما احتملوا فنحن نؤدى الواجب علينا نحو الوطن العزيز بكل رزانة وبكل ثبات وبدون أن تموت فى نفوسنا الآمال أو يضعف عندنا

الرجاء فالمستقبل بيد الله وحده يدبره كيف شاء

أما ماتقوله جريدة المقطم من أن الانكليز لا يخرجون من مصر أبداً فهو قول العدو الشامت والدخيل الكافر بالنعمة . فليعقل أفراد المصريين الذين يقرأون هذه الصحيفة السافلة معنى هذه الشماتة ومعنى هذا التهويل وقد كانت هذه الصحيفة نفسها تشير على المصريين بالمسالمة وتقول لهم : « ان سالمتم الانكليز خرجوا من دياركم » فلما جاءت الوزارة الفهمية وسالمت بل وسلمت كلما سلمت رأى المصريون أن المسئلة ليست الا استسلاما وموتاً وهوانا فسخطوا على هذه الخطة السخط الشديد . وحضرات النظار أنفسهم يعرفون ذلك جيدا . فلما رأى فلاسفة السوء والضلال أن نتيجة نصيحتهم لم تكن الا خراباً ودمارا لم يخجلوا من أن يقدموا النصيحة نفسها قائلين « ان لم تسالموا أيها المصريون فانكم ستصلون كل أنواع العذاب » وهكذا شأن العدو المدلس الكذاب المخادع

وقد انتشر سماسرة السوء يشيعون فى كل مكان أن خروج فرنسا من فشوده جر على مصر البلاء العظيم وصرنا

ولامانع يمنع الانكليز من اعلان الحماية على مصر بعد زمن قليل وغير ذلك من الخزعبلات والاكاذيب التى لا يقبلها عاقل ولا يصدقها الاطفال فضلا عن الرجال . فانسحاب فرنسا من فشوده لا يدل على ان الكلمة الاخيرة فى المسئلة المصرية قد قيلت أو أن فرنسا قبلت بقاء الانكليز فى مصر الى ماشاء الله . واذا كانت فرنسا جعلت جلاءها عن فشودة ضحية لسلام اوربا فهل تقبل اعلان الحماية على مصر وأماتة كل مصالحها الحالية والمستقبلة فيها وفى افريقية والشرق الاقصى ؟؟ وعلى فرض أن مصر فقدت من فرنسا كل عضد وكل نصير فأين الدولة العلية حتى تعلن انكلترا الحماية على مصر . وأين المانيا التى مهما جارت انكلترا فى احتلالها لمصر لتكيد فرنسا فانها تعلم علم اليقين أن مصر من السلطنة السنية روحها ومن الخلافة فؤادها وان اتفاقها مع تركيا أو اتحادها معها لا يكون له أساس بل لا يكون لها نفسها وجود اذا ضاعت مصر من يد الدولة العلية وهل يظن المصريون أن جلالة السلطان الاعظم الذى شهد له العالم كله بالدهاء السياسى والحرص الشديد على

سلامة الدولة يترك مصر تخرج من قبضته على حين أن المانيا هي المساعدة على ذلك ؟؟؟

لا تغتروا أيها المصريون باقوال الاعداء والمدلسين ولا تجعلوا للارهاب عليكم سلطانا بل اعتقدوا بالله وتوكلوا عليه واعلموا أن الليالى حبالى واذا كان اليوم لبريطانيا فغداً لكم وتذكروا قول الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام «مصر كنانة الله فى أرضه من أرادها بسوء قصمه الله »

مصر فى ٢١ جمادى الثانى سنة ١٣١٦ (مصطفى كامل)

*
* *

ما أعلن رحمه الله عن القاء خطبة وطنية بالتياترو الطليانى فى منتصف الساعة التاسعة مساء يوم الجمعة ٢٣ ديسمبر سنة ١٨٩٨ بمدينة القاهرة حتى جاءت الوفود تترى من طول البلاد وعرضها وهذا نص الخطبة :

خطبة بالقاهرة

٩

« سادتى وأبناء وطنى الأعزاء .

طالما تاقت نفسى الى الوقوف امام أبناء العاصمة فى موقف عام أحادثهم فى شؤون الوطن المحبوب وآلامه وآماله وتناجي نفسى نفوسهم فى مصير هذا الوطن العظيم وفى مستقبل هذه الديار العزيزة وقد حقق الله لي هذه الامنية ورأيت من الوطنيين الصادقين ماشجعنى على الوقوف امامكم هذه الليلة . وان كان اجتماعكم وازدحامكم وتهليلكم مما يجعلنى أرى المقام صعباً والموقف حرجاً فانى أحس بأنكم تكرمون في شخصى الضعيف الفكرة الوطنية والمبدأ الجدى ولذلك أرى عقدة لسانى تنحل انحلالا وأرى الجنان يحرك اللسان للدفاع عن هذه الاوطان والمناداة بنيها بالمناضلة عن حقوقها المقدسة والقيام بواجباتها خير قيام

ولعمري أن حالة الوطن العزيز لداعية الى هذا الاجتماع

والى اضعاف اضعافه لكي ينفقه أبناؤه هل هم حقاً أبناؤه وهل هو وطن لهم أم هم غرباء في وطنهم. وهل هم في عداد الاحرار أم في عداد الارقاء الاذلاء. وهل هم في مصاف الاموات أم في مصاف الاحياء. وليعلم الوضيع والرفيع هل ثم رفيع أم الكل اليوم سواء امام الذل وامام الهوان. وليتدبر العقلاء ان كان فينا عقلاء ويعمل للوطن الابناء الاوفياء ان كان فينا أوفياء. ولتجتمع كلمة المصريين عساهم ينقذون سفينة الوطن والاهواء تلعب بها من كل طرف والصواعق نازلة من كل جانب والبحر مضطرب أى اضطراب

أجل أيها السادة. يجب علينا ان نجتمع كثيراً ونتدبر فى الامر طويلا فقد توالت الحوادث الجسام وتعاقبت البلايا العظام وأنذرت الايام مصر بسوء العاقبة وظلمة المستقبل اذا دام المصريون رائدهم الشقاق والفراق ومنتهى آمالهم قضاء الحياة على أى حال تعسة كانت أو سعيدة

رددوا الطرف يابنى مصر فى هذا الوطن التعس وفى سائر الاوطان وقلبوا صحائف التاريخ وانظروا في ممالك الارض

يمنة ويسرة وشمالا وجنوباً ثم أجيبوني : هل تحاكي مصر في بلائها ؟ هل لها نظير في شقائها ؟ هل تنفذ ارادة الاجنبي في غيرها ؟ هل تلاقي أمة من الهوان ما تلاقيه أمتها ؟ هل يسود الاجنبي في غير ديارها ؟ هل يسود الدخيل والخائن والمنافق بين شعب غير شعبها ؟ بل تنزلوا أيها المصريون الى أعماق قلوبكم واسألوا سرائركم هل أنتم على شقاء أم على هناء وهل بالاستسلام وتسليم الاوطان تقابلون نعمة الله عليكم بمصر وهي جنة الارض وأبدع البلدان . وهل يليق بكم وأنتم سلالة أشرف الأمم ان ترضوا بهذا الهوان وتقبلوا هذه المذلة وأنتم صاغرون

لقد كان لنا من الاباء من يعرف حب الوطن ومجد الامة وشرف الراية ومعنى الحياة والوجود . فكانوا اذا هاجم الاعداء ديارهم يدافعون عنها الى آخر لحظة من حياتهم ويردونهم على أعقابهم خاسرين . وهذه مصر بنفسها قد سلمت من اعتداء الانكليز عليها في أوائل هذا القرن حيث صدهم رجال مصر وأبناؤها الاشداء تحت امرة ساكن

الجنان (محمد علي باشا) . وقد ماتوا فرحين مبتهجين بهذا الوطن العظيم اذ تركوه لنا قويا عزيزاً منيعاً . ولو كان حدثهم وقتئذ محدث بأن وادى النيل ستحتله دولة بريطانيا وتقيم فيه طويلا بسبب انشقاق المصريين بعضهم على بعض وخور عزائمهم وقعود هممهم واهتمام كل واحد منهم بمصالحه الذاتية لكانوا كذبوه أعظم تكذيب واعتبروه معتوهاً عديم المثال

أما الآن وقد انزعجت بقايا من فى القبور من انحطاط الوطن الشريف وقعود أبنائه عن نصرته فلو بعث أولئك الاموات من قبورهم ورأوا ما أنتم راؤون لانكرونا انسانا بعد انسان

فما عسانا نجيبهم اذا سألونا عن ذلك الوطن الذى سلموه لنا حراً مستقلا قوياً حصينا . أنقدمه لهم عليلا حزينا باكيا شاكيا . ونقول لهم اننا هدمنا ما بنيتم ودمرنا ما عمرتم وأدخلنا بأنفسنا الاعداء ديارنا فأجلسناهم مجالس السادة وجلسنا مجالس العبيد . أم نقول لهم لقد كان شرف الوطن كبيراً فصيرناه حقيراً . لقد كانت الديار رفيعة القدار فأصبحت موضع

الاحتقار . لقد كنا أعزاء فأصبحنا بارادتنا أذلاء . بل ماعسانا نستطيع أن نقول ؟؟

كان البعض منا يثق بالوعود البريطانية والعهود الانكليزية ويعتبر الاحتجاج ضد الاحتلال والمطالبة بحقوق الشعب خروجا عن الحد ومخالفة للواجب . فما بالنا الآن صامتين لانبدى حراكا وقد أعلن الانكليز على رؤوس الاشهاد أنهم يريدون مصر ملكا لهم ومتاعا الى الابد وان وعودهم وعهودهم قدمت للعالم خطأ وفاه بها وزراؤهم سهواً . ألا يجدر بالمصريين وقد حنت رؤوسهم المصائب ودكت بنيان استقلالهم النوائب أن يجاهروا بأفكارهم واحساساتهم ويظهروا للملا كله أنهم ان قضت عليهم مصالح الوطن العظمى بالسكينة وعدم القيام بثورة أو بهيجان فانهم أمة حية رشيدة تدرك مالها وما ضدها وتستطيع الاعراب عن رغائبها ومقاصدها

تمر الحادثات المزعجات علينا وتنفطر لها قلوبنا وتحزن منها أشد الحزن أفئدتنا ثم لا نجد لسانا ينطق بما يختلج الجنان

بل نرى سكوتاً فى سكوت واستسلاما في استسلام فيزداد البلاء ويتضاعف الشقاء

قد يقول بعض الناس عن هذا الكلام انه تهور في الوطنية وجنون فى حب الحرية ولكننى أسأل المعترضين ماذا كان يعمل الانكليز مع المصريين لو قدر ان هؤلاء احتلوا بريطانيا ونشروا عليها سيطرتهم وسلطانهم ؟ أكانوا يسلمون لهم البلاد ومفاتيحها ؟ أكانوا يستسلمون هذا الاستسلام المهين ؟ أكانوا يشفقون على أنفسهم ويتركون المحتلين يقبضون على زمام الامور شيئاً فشيئاً ؟ أكانوا يطأطئون رؤوسهم امام الاجنبي ويخضعون له عن طيب خاطر ويسبحون بحمده بكرة وأصيلا ؟ كلا ثم كلا . انهم كانوا يقدمون كل يوم دليلا من دلائل الحياة وبرهانا من براهين الوجود حتى يشهد من فى الارض ومن فى السماء انهم أمة حية حقيق بها الاستقلال جدير بها العز والشرف والمجد الرفيع

على ان ما نطلبه من أبناء الوطن العزيز هو ما جعله

الخالق من أول الفروض علينا ومن أقدس واجباتنا . فلا يستطيع أحد فى الوجود ان ينكر علينا وجوب حث قومنا على محبة بلادنا والتعلق بها والمطالبة بسعادتها وحريتها واستقلالها

لقد بالغنا فى الاستسلام وأبدعنا فيه كل الابداع وما جنينا الا الخيبة والفضيحة والعار . فهذه بلاد السودان فتحتها مصر بأموالها وبدماء أبنائها الاعزاء . أي راية تخفق اليوم عليها وأي شرع يقام اليوم فيها وأي حق يعترف به للمصريين فى نواحيها ؟ ألم تقض سياسة الاستسلام التى قضينا عليها من أول يوم رفعنا فيه صوتنا بأن تجاهد جنود مصر الابطال أجل وأشرف جهاد وتبذل حياتها رخيصة فى سبيل استرداد السودان ثم تسلم الى الدولة المحتلة هذه البلاد الزاهرة وهى من مصر الروح والفؤاد . فأى فضيحة بعد هذه الفضيحة وأي عار بعد هذا العار ؟؟

أقام الانكليز الارض وأقعدوها بسبب غردون وثار غردون ونسفوا قبر المهدى نسفا وأخرجوا رأسه بأشنع صفة وأقبح مثال وعقدوا المجامع وألقوا الخطب تحية وسلاما

على روح هذا الفقيد ورفعوا رايات الفرح والنصر للاخذ بثاره . والمصريون ينظرون الى هذه المناظر ويتساءلون : أليس لدماء من مات منا ثمن ؟ أليس لرجالنا قيمة ؟ أليس المصرى فى شريعة الرحمن انسانا ككل انسان ؟ أتموت منا الجنود الابطال قبل استرداد السودان وفى سبيل الاسترداد ولا يذكرون بشيء بل يقوم منا من يهنىء الانكليز بأخذ ثأر غردون . أيكون دم فرد من الانكليز غالي الثمن رفيع القدر ودماء آلاف من المصريين لا ثمن لها ولا تقابل بغير النسيان ؟؟

لقد تعاظم الخطب وأصبحت الحياة مرة وبات الوطن في أشد الاخطار وكل منا يهمل واجباته وينتحل لنفسه عذراً فمنا من يطمع فى الثروة والترقى . ومنا من يخاف الذل والفقر . ومنا من لا يشعر بالمسؤلية . ومنا من استولى على قلبه اليأس والقنوط

فالذين يطمعون فى الترقى يضحون كل مصلحة عمومية في سبيل مصالحهم الشخصية ويظنون انهم يخدمون بذلك عائلاتهم وأولادهم من بعدهم . مع ان نواميس الخالق جل

شأنه تقضى على كل من يفضل نفسه على بنى جنسه ويسىء
الى بنى وطنه ليحسن الى نفسه ان تقع نتائج أعماله على شخصه
وان لم تقع عليه فعلى أبنائه من بعده . فكم أرارنا التاريخ رجالا
سهلوا للاجنبي امتلاك بلادهم طمعا منهم فى الحصول على ثروة
واسعة ومكانة رفيعة فكانت مكافأة الاجنبي لهم اعدامهم ونعم
الجزاء للخائنين . وكم رأينا رجالا ظلموا الناس وخربوا البيوت
وهدموا أركان الوطن والوطنية فخربت بيوتهم من بعدهم
ولاقى أبناؤهم من الشقاء والعذاب ما لم يره انسان . فيا أيها
الطامعون فى الثروة ولذات الحياة ويا أيها المعتدون على وطنكم
بشروا أنفسكم بسوء منقلبكم وبشقائكم وشقاء ابنائكم من بعدكم
فالوطن ساخط عليكم والامة بريئة منكم وما الله بغافل عما تعملون

اما الذين يخافون الذل والفقر ولا يرفعون اصواتهم ضد
أعداء وطنهم لئلا يذلهم الاجنبي ويبدل هناءهم شقاء وسعادتهم
فقراً وبلاء فهم فى الحقيقة اذلاء فقراء . فالناس من خوف
الذل في الذل والناس من خوف الفقر فى الفقر . ومن خاف
الذل والفقر واحجم عن خدمة الوطن العزيز فقد جحد بالله

اكبر جحود . فأرزاقكم ياقوم واعماركم بيد الله يتصرف فيها كيف يشاء وما خلق لكم مصر الا لتجعلوها جنة الارض بما وهبكم من قوة وذكاء

وليس المسؤل عن خدمة مصر واعلاء شأنها شخصاً أو اشخاصا بل كل واحد من ابنائها يسئل عن خدمتها ويطالب بنصرتها كما ان المسؤلية فى تأخرها وانحطاطها تتم على كل منا . ومن اكبر ادواء مصر ان كثيراً من أبنائها يظنون انهم لا يسئلون عن خدمتها بل المسؤل الكبراء والامراء. واذا ألقى الخطيب النصيحة على قومه ظن كل انسان ان النصيحة موجهة الى غيره فيقول « لقد أصاب الخطيب ولكن الامة ميتة » فمن هي الامة ؟ ألستم من أعضائها وأهم أعضائها ؟ أو ليست الامة الفرد متكررا ؟ فاذا قام كل واحد بواجباته وأصلح المعوج من أموره صلحت أحوال المجموع وردت الى الامة حريتها وسعادتها ولبس الوطن ثياب الحياة والقوة والعافية ؟

ولقد يعتذر البعض منا عن التقصير فى خدمة الوطن العزيز بأنه ضعيف فقير مع أن الخالق جل جلاله أرسل

الرسل والانبياء وأغلب عظماء الرجال من طبقة الفقراء ليبعث فى كل انسان روح الامل وروح العمل . فيا أيها الضعفاء ويا أيها الفقراء ليس الفقر أو الضعف عذراً يقدم للوطن المحبوب فالضعفاء قوة ان اجتمعوا والفقراء غنى ان اتحدوا وقد خلقنا الله جميعا رجالا يملك كل منا قلبا ولسانا فقدموهما فى خدمة الوطن والامة وارفعوا أصواتكم ضد أعدائهما والخونة والمنافقين وتذكروا اننا ندين بدين الامة العربية الجليلة التى خاطب أحد عامتها الخليفة عمر رضى الله عنه بقوله : « لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناه بسيوفنا »

وكما ان الضعف أو الفقر ليس بعذر عن التقصير فى خدمة البلاد فكذلك اليأس ليس بعذر بل هو جناية كبرى تجنى على الوطن وأهله . وانى لاعجب من أناس عرفوا بالمروءة والشهامة وسعة العيش يحجمون عن خدمة الوطن بدعوى اليأس والقنوط من مستقبله . فهل تيأسون وفى السماء آله نسجد له ونسبح بحمده ؟ أتيأسون ونحن فى الحياة

نمر أمام الوطن مروراً وهو قائم دائم ؟ أتيأسون والتاريخ يحدثنا عن أمم عاشت القرون تحت نير الاستعباد ثم استجمعت قوتها وطردت العدو من ديارها وصارت حرة مستقلة ؟ أتيأسون وأنتم أبناء هذه البلاد التى قبرت فيها الدول الطاغية والممالك الظالمة ؟ فاين دولة الرومان وأين دولة اليونان بل أين الذين حكموا مصر وحكموا فيها السيوف ؟ أتيأسون وقد قال الرسول عليه الصلاة والسلام « مصر كنانة الله فى أرضه من أرادها بسوء قصمه الله »

لا معنى للحياة مع اليأس ولا معنى لليأس مع الحياة .

واذا سلمنا جدلا بأنه قضى علينا أن نعيش تعساء أرقاء ونموت عبيدا أذلاء فهل ذلك يدعونا الى اهمال كل أمر فيه فائدة الوطن ورفعته أم يجب علينا أن نقيم ماهدم ونرفع مادمر ونترك ميراث الوطن لابنائنا صالحاً للتقويم والاصلاح . أليست الأمة عائلة واحدة مرتبطة الاعضاء متماسكة الاجزاء متضامنة الحقوق والواجبات يفتخر كل فرد فيها بما أتاه بقية الافراد . الا ترون كيف اننا نفتخر بما بناه الآباء الاولون

وشيده السالفون . فتكن صحيفتنا فى سجل الأمة المصرية من أول أب جاء الى آخر ابن يولد فيها صحيفة بيضاء وتترك للاعقاب مثلا حسناً جديراً بالاقتداء .

على اننا اذا نظرنا الى الامم التى شابهتنا فى المصائب نجدها عاملة مجدة مجاهدة ليلا ونهاراً فى سبيل الحرية والاستقلال. فهل قضى بولونى لحظة من عمره الا وبولونيا ممثلة امام عينيه وامام فؤاده يذكر بهاءها وجمالها ويطلب استرداد عزها وشرفها . وهانحن نرى أبناء هذه الامة الشريفة يزاحمون سواس النمسا ويأخذون مساند الوزارة ويقبضون على زمام أمور المملكة بدون ان تنسيهم المناصب وطنهم أو تمحو السعادة الذاتية من أفئدتهم حبه والتعلق به . وهذه ايرلاندا تعرفون كلكم مكانة أبنائها من الوطنية الصحيحة فهم يطالبون بحقوقها الشرعية في كل ناد وفي كل آن . وما فؤاد الايرلاندى الاقصر لمحبة الوطن يحمله معه أينما حل وأينما سار . فتجد ايرلاندا على لسانه فى برلمان انكلترا وفى شوارعها وأنديتها كما تجدها على لسانه فى بلاد أميركا ومدائنها القاصية . فهى

ايرلاندا دون غيرها موضوع عمله واهتمامه في كل بقعة يسكنها وفى كل أرض ينزل بها

وأظنكم تذكرون جميعاً ما أتاه الايرلانديون أيام الاحتفال بعيد جلالة الملكة الستيني اذ ساروا في شوارع « دوبلين » حاملين لنعش كتبوا عليه (المملكة البريطانية) وألقى يومئذ خطباؤهم الخطب المؤثرة مذكرين قومهم بمن مات منهم فى سبيل الوطن الايرلاندى ومبشرين بقرب ساعة الخلاص ودنو ساعة بلوغ الآمال

فهذه هي الوطنية الحقيقية التى سادت بها أمم الغرب ويعرفها الانكليز أكثر من كل انسان . أرجو لوطنى أن تنبعث في قلوب أبنائه محبته الى هذا الحد الجميل وأسأل لبلادى أن يخرج منها رجال يرفعون شأنها ويحيون مجدها ويعيدون رفعتها . وما ذلك على الله بعزيز

نعم الحياة جهاد والعمر قصير وخير الناس من جاهد في سبيل بلاده وعمل لخيرها وناضل عن حقوقها . ولئن لامنا اللوام وسبنا الدخلاء لاننا نادينا بحقوق مصر وسألنا الدول

الاوروبية الاتفاق مع دولتنا العلية (حرسها الله) لفك قيود
هذا البلد الامين وتحريره من يد الاحتلال ولسنا نخجل
مما فعلناه ولا نرى عاراً ما أتيناه . بل نفتخر بأننا قرعنا كل باب
فى سبيل خلاص بلادنا ولا نزال ونعيش أبد الدهر نعمل
لتحريرها ولا نترك وسيلة من وسائل اسعادها واعلاء شأنها
الا نأتيها واننا لا نشك لحظة واحدة فى أن أعمالنا ستتوج
بالنجاح والفلاح ان لم يكن فى حياتنا فبعد موتنا وعلى أيدى
أبنائنا . فليست الحرية بعزيزة على قوم يعملون للحصول عليها
ويجتهدون فى نيلها . وليس بعزيز على المصريين ان يفكوا
قيود بلادهم ويعيدوا اليها استقلالها ومجدها . فالصخرة الضخمة
تذوب وتتفتت بسقوط المياه عليها قطرة بعد قطرة

واننا كلما اشتدت بلايا الوطن وعظمت مصائبه ازداد
تعلقنا به واخلاصنا اليه . وانى فى هذا الموقف أجاهر بأعلى
صوتى ان أكرم يوم فى حياتى هو يوم أموت فيه لاجل
بلادى وفى سبيل سعدتها . فليست الوطنية معنى من المعانى
المحدودة أو لها درجات معدودة بل الوطنية هي ذلك

الاحساس الشريف العالى الذى اذا استولى على قلب امرئ دفع به الى الهلاك فى سبيل سلامة الوطن ومجده . هذه هي الوطنية التى نعرفها ولا نعرف سواها

ومن الغريب ان المستر « غلادستون » فقيد بريطانيا وأكبر خطبائها وأعظم سواسها فى هذا العصر اعترف بنفسه في الرسالتين اللتين بعث بهما الىّ ان الحق فى مسئلة الاحتلال والجلاء بيد المصريين وان الانكليز وجب عليهم الرحيل من هذه الديار. على حين ان الدخلاء وسماسرة السوء والفساد يسبوننا السب العلنى لمطالبتنا بأمر اعترف المستر غلادستون نفسه بأنه من الصواب بمكان!!

*
* *

جرت على لسانى كلمة الدخلاء فى هذه الخطبة وفى سواها وأحس من نفسى الآن بأن بعض الناس يطالبنى بزيادة بيان في معناها ومرماها فأقول لمن التبس عليه ادراك القصد من لفظة الدخلاء انى لا أقصد بها السوريين النازلين بمصر . ومن يفسرها هذا التفسير فقد سب السوريين بغير

حق . ففيهم من يدافع عن مصر بقلمه ولسانه ومنهم من يشتغل بتجارته وصناعته بعيداً عن عالم الاقلام والسياسة . فهؤلاء لهم من مصر والمصريين جزيل الشكران وعظيم الامتنان على اخلاصهم لها واعترافهم بالجميل لهذه الديار التي أكرمت مثواهم وعاملتهم كأقرب الناس اليها

أما الدخلاء فهم الفئة المعلومة التي جاء رجالها مصر طلباً للرزق وقدموا أنفسهم للمصريين بمزيد الخضوع مجاهرين بمحبتهم لهذه البلاد وأهلها فاستقبلهم المصريون بما فطروا عليه من الرقة والبشاشة وأحسنوا اليهم أعظم احسان فقابلوا الاحسان بالاساءة والجميل بالنكران وجردوا أقلامهم ضد مصر وأهلها وجعلوا وظيفتهم الطعن على مقام جلالة مولانا السلطان الاعظم وسمو خديوينا المعظم

فقولوا لي بالله عليكم أي وطني يرى الدخلاء ويقرأ ما يكتبون ولا تهيج عواطفه ضدهم وضد أعمالهم ؟ بل أي بلاد في العالم تنحط فيها الوطنية الى حد قبول الدخلاء وقراءة صحفهم ؟ أليست مطاعنهم ضد مولانا الخليفة الاعظم خروجا

على جلالته وسباً للمسلمين عامة والعثمانيين خاصة ؟ أوليست مطاعنهم ضد سمو الخديو المعظم أعظم اهانة تهان بها أمة في ديارها وأكبر سبة يسب بها شعب رشيد حي الاحساس ؟

ماقام المصريون الوطنيون بعمل الا كان قذى في عيون الدخلاء . فالوطنية التي يرونها عند الانكليز جميلة بديعة شريفة سامية هي عند المصريين في نظر هؤلاء الاعداء ذنب لا يمحى وجريمة لا تغتفر

يقول الدخلاء عنا اننا أبواق الامير وعمال الامير . ومادروا أن هذا لو صح يكون كل الشرف ومنتهى الفخار . وتجاهلوا أننا عمال الوطن قبل كل شيء وأننا نجل في شخص العباس الوطن نفسه . فقد ملك مولانا الأمير قلوب سائر أفراد رعيته من أول يوم نادى فيه على مسمع من شعبه ومن الناس كافة « أنه يفضل الموت عن أن يتنازل عن حق من حقوقه » . وقد برهن حفظه الله في كل أعماله وأقواله أنه محب الشعب كما أنه محبوب الشعب وان اعظم آماله وقصارى أمانيه أن تبلغ أمته أعلى درجات الكمال وترقى في سبيل العرفان وتشارك

الحكومة فى النظر فى المسائل العامة فسمح رعاه الله لرعيته أن تراه وتسمعه ما عندها لا أن تكتفى بتقديم واجبات التجلة والاحترام

ولا ينكر أحد أن أعداء الأمير بذلوا ويبذلون أقصى الجهد فى تنفير الشعب من سموه كما أنه لا يخفى على اى انسان أن الشعب أجاب على هذه الدسائس بزيادة التعلق بأميره الشرعى . ومن أكبر الدلائل على تعلق المصريين بالعرش الخديوى أنه لما وقع دولة الأمير الجليل « فؤاد باشا » جريحاً كان كل منا يتألم لألمه كأنه عضو من عائلته وكانت كل أم تبتهل الى الله طالبة شفاءه كأنه ابن لها. وبقدر ألم المصريين وقتئذ نراهم اليوم آسفين على ذلك الأمير السيء الحظ الذى أصبح اليوم سجيناً

ولا بدع اذا كان المصريون يتعلقون بالعرش الخديوي ويخلصون الحب للامير فهم يعرفون محبته لهم ويدركون حرج مركزه حيث تولى والخطوب عظيمة والشقاق مستحكم فجاهد ما استطاع ومع ان الايام خانته وخانه رجال من بنى مصر

له عليهم الايادي البيضاء فانه لا يزال شديد الامل قوى الرجاء

وقد نبه حفظه الله المصريين الى واجباتهم نحو الوطن العزيز وأدركنا جميعاً فى عهده حقيقة طالما أخفاها الحاكمون عن المحكومين وهى أن الشعب هو صاحب الحق الاول في بلاده وأنه لا يقوم الا بنفسه ولا تعلو كلمته الا بهمة ابنائه . ولقد اعتاد اليائسون القانطون المثبطون للهمم أن يقولوا عن شعب مصر أنه غير صالح للتقدم والارتقاء . مع أن التاريخ يعارضهم أشد المعارضة ويثبت بالبراهين القاطعة أن المصرى اذا ترى وتهذب كان رجلاً كاملاً عارفاً لحقوقه قائماً بواجباته . وهذا تاريخ مصر فى القرن الحاضر يسمعنا بأفصح لسان وأبلغ بيان أن المصريين بلغوا بعناية ساكن الجنان «محمد على باشا» شأوا بعيداً فى المعارف والآداب حتى صارت مصر فى أيامهم في الصف الاول من الشعوب المتمدينة وخرج منها رجال كان لهم فى كل علم وفى كل صناعة القدم الراسخة والباع الطويل

وهذه أمتنا الحاضرة لا ينكر انسان انها تشعر بما يقع عليها ويقع حولها فلا تخفى سرورها اذا أقبلت الحوادث السارة كما انها تظهر حزنها وكدرها كلما تساقطت على الوطن العزيز بلية جديدة

أو ليس ميل العامة الى تعليم أبنائهم وتربيتهم أكبر دليل على استعداد هذا الشعب العزيز للتقدم والارتقاء . ومن كان منكم ينكر هذا الاستعداد فعليه أن يطوف المدارس فى أول السنة المكتبية حيث يجد هنالك زمراً ووفوداً من الاهالى ترنع الى نظار المدارس الرجاء بعد الرجاء لقبول أبنائهم ولو كلفهم ذلك النفقات الجسيمة . ولكنهم لسوء الحظ يرد اغلبهم ويرفض طلبهم بحجة ضيق المدارس على المتعلمين

فالامة شاعرة بضرورة تربية أبنائها وهو شعور شريف يعتبر فى نظر الفلاسفة والحكماء أساس التقدم وعنوان الحياة والذين يطالبون الآن بتحقيق رغائب الشعب هم الاغنياء والنبهاء فهم القادرون على تأسيس المدارس الاهلية لتعليم البنين والبنات

وأرى من الواجب على فى هذا المقام أن أوجه مزيد الشكران للذين اهتموا بمسئلة التربية واقدموا على تأسيس المدارس وأومل أنهم يوجهون آمال الناشئين الى التجارة والصناعة والفنون الحرة حتى يصير الوطن غنياً بابنائه ويستطيع وقتئذ الواحد منا أن يعيش عيشة وطنية حقيقية ويشترى كل حاجاته من أبناء وطنه فلا تذهب أموالنا لغيرنا بل تبقى فينا وتحفظ ثروتنا من الضياع

ويجدر بى أن ألفت انظاركم عموما الى أمرين خطيرين أولهما أن تربية البنت لازمة وضرورية فهى ذات الشأن الاول فى تربية الاطفال متى صارت اماً ورئيسة عائلتها وهى التى عليها الجزء الاعظم من أعمال هذا الوجود . وثانيهما ان تعليم البنين والبنات العلوم والفنون لا يفيد وحده بل يجب قبل كل شئ تربية الروح حتى يصير الطفل متى شب رجلا شجاعا ممتلئاً بالوطنية الحقة قائماً بالمبادئ الجنسية وتصير الطفلة متى شبت امرأة رشيدة مدبرة تعلم أبناءها محبة البلاد وتغرس فى قلوبهم وجوب التفانى فى خدمة الامة وفى اعلاء شأن الوطن

العزيز . فتكون بذلك المدارس منبع حياة للامة ومصدر وجود جديد . والا فالوطن يعرف من أبنائه وانتم تعرفون رجالا تعلموا العلوم العالية ونبغوا فيها بدون ان تربى أرواحهم فلما حان الوقت الذى وجب عليهم فيه خدمة الوطن العزيز نفروا عنه وأعلنوا له العداء وصاروا نصالا لاسهم الاعداء

ويجب قبل كل شىء ان تكون التربية الدينية أساس التعليم والتهذيب . فالدين عاصم من الدنايا رادع عن الخطايا معلم للفضائل محبب للكمالات

واذا بحثنا بحثاً مدققاً عن سبب تأخر المسلمين فى سائر البلاد وضياع استقلالهم ومجدهم وسؤددهم لوجدنا الاسباب كلها مجتمعة فى سبب واحد وهو اننا ابتعدنا عن الدين وقصرنا فى اتباع أوامره واجتناب نواهيه فصرنا كالذين يهجرون بيوت آبائهم وهى قصور عالية البنيان مشيدة الاركان ثم يأوون الى الفضاء متشردين فتصيبهم الامراض المختلفة من عوارض الجو ويسقطون فى مهواة الاضمحلال. فارجعوا الى بيوت آبائكم أيها المتشردون فى الفضاء فنيها تجدون الدواء

وفيها تجدون الشفاء . ويا أيها المسلمون ان كنتم تبتغون استرجاع مجدكم وسؤددكم فاتبعوا دينكم فهو كفيل لكم بأن تعيشوا أبد الدهر سادة لا عبيداً

وانا نرى الامم الاوربية مع ما وصلت اليه من العظمة والقوة تحافظ على دينها أشد المحافظة ويخطب فيها ملوكها ورؤساؤها باسم الدين واذا ألم بأحد أبناء دينها خطر اهتزت له جمعاء ولو كان المصاب بعيد المزار

ولقد كذب من أدعوا بأن الاسلام دين مناقض لمبادئ المدنية غير ملائم لمصالح الانسانية فانه دين شريف اعترف المنصفون من المسيحيين بأنه كافل لتقدم الأمم القائمة به وأنه كما رفع المسلمين الى المقام الاعلى فى أول ظهوره يرفعهم اليوم الى أسمى المنازل اذا اتبعوا مبادئه الشريفة . فهو الآمر بمحبة الاوطان الآمر بالعدل والاحسان الآمر بالعمل والسعى والجد والنشاط الآمر بالاتفاق والوفاق الآمر بالرحمة والاعتدال والغفران

فارجعوا اليه أيها المسلمون النافرون عنه واتحدوا جميعاً

حول راية جلالة الامام الاعظم والخليفة الاكرم

وانكم اذا حافظتم أيها المصريون على مبادئكم الوطنية وطالبتم بحقوقكم المقدسة واتبعتم أوامر الشريعة المطهرة وزال من بينكم الشقاق والفراق ردت اليكم حريتكم وسعادتكم وبلغتم منتهى العز وذروة المجد والا فاذا دمتم على هذا الحال فبئس المآل وبئس الاستقبال . وحسبكم مبشراً ونذيراً قول ربكم « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » . اهـ



هلت هذه السنة والمترجم فى أجمل ثوب من الصحة والعافية تبتسم له الآمال كبيرة وينتظر من الزمان تحقيقها وقد كان كل همه فى ذلك الوقت مصروفا الى الحض على نشر العلوم والمعارف فى البلاد

وكنا نسكن بيتاً بجوار حضرة الوطنى الغيور حسين بك قره جوللى أحد كبار وجهاء البلاد الذى أسس مدرسة كبيرة بالعاصمة فى قطعة كبيرة من منزله وكانت أول مدرسة فى بابها وقد أقام لافتتاحها احتفالا فخما فى سراى الحلمية فى يوم عيد جلوس سمو الخديو فأم هذا الاحتفال كثير من الامراء والعظماء وكبار الموظفين وأساتذة المدارس حتى ضاق بهم المكان على اتساعه وما أذنت ساعة الافتتاح حتى وقف

صاحب المشروع وشكر للحاضرين تلبيتهم دعوته الى حضور الاحتفال وشرح ما دفعه الى تأسيس هذا المعهد الجليل ثم دعا المرحوم للخطابة فوقف رحمه الله وقال :

أيها السادة

انى مهما شكرت لصديقى الهمام حسين بك قره جوللى عمله هذا فان أستطيع توفيته حقه من الشكران لانه أول من استجاب دعوة الداعين الى النهضة العلمية وأول من لبى فى هذه البلاد نداء وجدانه الطاهر الشريف ولئن قصرنا في مديحه والثناء عليه لسوف يذكره التاريخ بالحمد الجزيل مادام هذا العمل المبارك قائماً يبعث النور الى العقول وغذاء التربية السليمة الى النفوس

أجل

أيها السادة ان لكل محسن فى هذا السبيل أجراً لا قدرة لخطيب مهما كان قوى البيان شريف الوجدان ان يصفه لانه محيي النفوس مضىء الطريق باعث الرشاد وليس عند الله أبر من رجل يبحث عن دفائن الذكاء فيخرجها للناس زاهية زاهرة

تنصر الحق وترفع للبلاد لواءها وتأخذ بيد الامة فى الطريق السوى طريق الفلاح والسداد

اننا أيها السادة بشر ككل البشر لنا تاريخ يجب أن نقف على أسراره ومجد قديم من العار أن نتبرأ منه وهو تاجنا وعلم شرفنا ومحط آمالنا . ان الفرق بين هذه الامة وكل الامم هو فرق معنوى لايزول الا بنشر العلم . وان كل حجر يوضع فى هذا السبيل يساوى كنوز الارض من ذهب وفضة فانهجوا منهج المؤسس ليكون بيننا آلاف من المدارس لا مدرسة واحدة فنعيد دارس مجدنا ونأخذ المكان اللائق بعصرنا بين الامصار والبلدان

ان احتفالنا اليوم فى دار عباس الاول وفى عصر عباس الثانى بتشييد دور للعلم يعيد الى الذاكرة تاريخنا القديم ذلك التاريخ الآهل بالعظمة وقوة السلطان . الحافل بأساطيل البحر وجيوش البر ودور العلم ومعامل الصناعة وكل صنوف القوة والجلال . يذكرنا بأن الحكومة الاهلية وان أساءت خير من ألف حكومة أجنبية وان عدلت . يذكرنا بأن الامة المصرية

أمة اكتشف فيها التاريخ معدناً من أثمن المعادن قدراً وأسماها منزلة ألا وهو الذكاء المصرى . ألم يحكم محمد على هذه الامة وهى لا تعرف من العلوم العصرية أسماءها فأخرج منها أطواداً فى كل علم وفن كما اتخذ من أذرع أبنائها دروعاً أعجب بها العالم بأسره

نعم كان هذا شأن محمد على وفى ذلك برهان على ان الامة المصرية لا ينقصها الاقواد خير حتى تذكر بين الامم الراقية بالتجلة والاحترام

انا رأينا أمم الغرب تطلب المزيد من العلم كلما قطعت من أدواره الشيء الكثير لان العلم لاحد له ومن الظلم البين أن تقف الحكومة بينه وبين الامة حباً فى جهلها والتلاعب بمصالحها . رأينا القراءة والكتابة بين أمم الغرب تكاد تكون عامة لانها عندهم من لوازم الانسان ولكنها عندنا فى نظر هذه الحكومة الاحتلالية عيب شائن وأثم كبير . رأينا الجرائد فى الغرب اذا نادت الامة الى عمل نافع أسرعت هذه الى تلبيته وما ذلك الا لانها تدرك العمل بما كسبته من علم وما

أضاء بصائر أبنائها من نور

فعليكم بالعلم فانه نور متى انتشر لا يطفأ وفى سنائه يختفى كل ظل للاستبداد لان الاستبداد ليس الا لصاً يعتدى على حقوق الامم فى ظلام الجهل فيسلبها أموالها ويغلبها على استقلالها ويتركها حائرة لا تعرف لها حالا تسير عليه

ان الرجل الذى يسرق فرداً يعرف كلنا عقابه ولكن الرجل الذى لم يبق على أمة بأسرها يلتمس له المنافقون والخائنون والذين دخلوا بين الامم كما يدخل السم فى الدسم عذراً بل ويبررون عمله . وقد دخل الاحتلال بيننا ليسلبنا متاعنا ومعه أبواق تصيح فينا « ان متاعكم بال وليس غرض الاحتلال الا أن يعيده اليكم أفخر وأعظم مما كان » هذه صيحتهم وهذا بهتانهم ونحن امام هذا الاستقلال المبكي لا نريد الا أسلحة معنوية ندافع بها عن أنفسنا وليس هناك سلاح أمضى وأحدّ من سلاح العلم . فالعلم وحده خير سلاح للأمم التى غدر بها الزمان فساق الاجنبي لاحتلال المكان واستخدام السكان

(قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون) فهم متعلمون ونحن جاهلون وحكومتنا مستسلمة جامدة فليس امامنا الا أعيان الامة ووجهاؤها وخيرة أبنائها ليقيموا للعلم مناره فتتبدد دولة الجهل ويقف المغتال عند حده

انى أيها السادة لا أستطيع أن أكيف لكم مبلغ سرورى من هذا العمل الكبير وما هو الا حلقة ستتبعها بمشيئة الله حلقات كلها سرور بالفقير والبائس وانى لا أقصد بالفقير معدم المال وباليتيم المحروم من الأب وبالبائس ذا الخصاصة . كلا أيها السادة اذ هؤلاء الثلاثة تجمعهم كلمة جاهل هذه الكلمة التى لا يصح ان تكون في هذا الزمان وصفاً لبنى الانسان . هذا الزمان الذى بلغت فيه الاختراعات مبلغاً كبيراً وأخذ فيه العلم مكانا رفيعاً عند اقوام كانوا اذا ذكروا فى سالف الأيام بجانب المصريين ذكر الجهل بجوار العلم والضعف بجانب القوة والسقوط امام السمو والرفعة وكبر الجاه وعزة السلطان

نعم اذ أملنا كان يتحقق . فان حسين بك لم يكن الا رجلا من أولئك الرجال الذين شعروا بأن عليهم واجباً نحو أمتهم

فبروا بها بما وهبهم الله من نعمته . وان بلادا كبلادنا فيها الكثير من أمثاله لابد أن تقوم فيها هذه النهضة المباركة واول الغيث قطر ثم ينهمر

وكأني أسمع صوتاً يناديني « الا قف أيها الخطيب قليلا فان أغنياء البلاد يعدون أنفسهم غرباء عن مصر وانهم لايجدون السعادة الا في تعس الفقراء وفي التزلف للكبراء فلا يخدعنك مافعله قره جوللي بك ولا تؤمل منهم خيراً فان الامل فيهم ضائع »

الا انه صوت اليائس القانط ونحن لا نعرف اليأس ولا القنوط فان الاغنياء ليسوا في سعة من العيش وراحة من البال الا بالفقراء فصاحب المزرعة لايأخذ من أرضه ذهباً الا بفأس الفقير وقوة ساعده . وما لنا نذهب بعيداً وهذه السراي العالية البنيان المشيدة الاركان لم تقم الا بالفقراء

فالفقراء هم قوة الامة وساعدها العامل ويحملون الاغنياء على اكتافهم فأن أخلوا بهم يوماً اسقطوهم الى اسفل سافلين

فواجب الاغنياء ان ينشروا المصابيح بين الفقراء

لتنكشف امامهم الحقيقة ويسيروا واياهم في طريق السلامة والسلام وكل من سار على الدرب وصل

ان الذى ينقصنا أيها السادة قوة الارادة فهى السلاح الماضى الذى يقطع كل عقبة فى طريق رقينا . فهذه الارادة الوطنية القوية هي التى أخرجت وستخرج أمثال هذا العمل النافع . بهذه الوطنية وحدها التى اساسها قوة الشعور وبناؤها الاعتماد على الخالق قطعت أمم الغرب طريقاً طويلا من العلم والعرفان . بهذه الوطنية التى لاتسكن قلباً الا اضاءته ولا بيتاً الا اعلته ولا بلداً الا اسعدته عرف الغربيون كيف يتآزرون وعلى عمل البر يتعاونون فقد أسسوا المدارس على أساس هذه الوطنية فأخرجت مدارك شيدت المستشفيات وبيوت العجزة ودور الصناعة فبلغوا بها مجداً نحسدهم اليوم عليه وننظر الى قوتهم باهتين . لا تعجبوا أيها السادة من أن الله لم يتح لهذه الحقيقة حقيقة الرقى من طريق نشر العلم من ينصرها فى مواطنينا فى هذا العصر غير هذا الشهم الكريم ولكن الذى تعجبون منه أنه مع ضغط الزمان علينا وانتشار الدخلاء بيننا

ابتدأنا نشيد مدارس ونقيم للعلم صروحاً عالية

فاغنم أيها الحفل العظيم والمؤسس الكبير بهذا المجد الذى سيذكره لك التاريخ مادام عملك قائماً وان حييناك فانما نحيي فيك الشهامة النادرة والذكر العاطر لتكون مثلا حسناً يقتدى بك كل ساع فى نشر العلم والله نصير العاملين » اهـ

ما انتهى المترجم من كلماته حتى دوى المكان بالتصفيق الحاد واصوات الاستحسان وأخذ كل حاضر يهنئ ببلاغته وقوة بيانه ومتانة اسلوبه وسرعة خاطره

وقد استمر الاحتفال الى منتصف الليل اذ القى خطبة أخرى صغيرة اجابة لطلب الحاضرين وقد حض فيها على نشر العلم والاقتداء بالامم الراقية والسلف الصالح مما كان له أحسن وقع فى النفوس

اتفاقية السودان

ما جاء يوم ١٩ يناير سنة ١٨٩٩ الذى هو من أشأم الايام في تاريخ الوزارة المصرية حتى انتشر نبأ عقد الشركة المصرية الانكليزية في السودان فقضى الوطنيون ليلة من أسوأ الليالى وندبوا احظ بلادهم وأموالهم ودماء آبائهم وأبنائهم

أمضى هذه الاتفاقية بطرس باشا غالي بالنيابة عن الحكومة المصرية باعتباره ناظر خارجيتها واللورد كرومر بالنيابة عن حكومة بريطانيا ولما كانت نصوص هذه الاتفاقية تهم كل مصرى رأيت أن أثبتها هنا وهذا نصها :

وفاق بين

حكومة جلالة ملكة الانكليز

وحكومة الجناب العالى خديو مصر

بشأن ادارة السودان فى المستقبل

حيث ان بعض أقاليم السودان التى خرجت عن طاعة الحضرة الفخيمة الخديوية قد صار افتتاحها بالوسائل الحربية

والمالية التي بذلتها بالاتحاد حكومتا جلالة ملكة الانكليز والجناب العالى الخديوى

وحيث قد أصبح من الضروري وضع نظام مخصوص لاجل ادارة الاقاليم المفتتحة المذكورة وسن القوانين اللازمة لها بمراعاة ماهو عليه الجانب العظيم من تلك الاقاليم من التأخر وعدم الاستقرار على حال الى الآن وما تستلزمه حالة كل جهة من الاحتياطات المتنوعة

وحيث انه من المقتضى التصريح بمطالب حكومة جلالة الملكة المترتبة على مالها من حق الفتح وذلك بأن تشترك فى وضع النظام الادارى والقانونى الآنف ذكره وفى اجراء وتنفيذ مفعوله وتوسيع نطاقه في المستقبل

وحيث تراآى من جملة وجوه اصوبية الحاق وادى حلفا وسواكن اداريا بالاقاليم المفتتحة المجاورة لها

فكذلك قد صار الاتفاق والاقرار فيما بين الموقعين على هذا بمالهما من التفويض اللازم بهذا الشأن على ما يأتى وهو :

﴿ المادة الاولى ﴾

تطلق لفظة السودان في هذا الوفاق على جميع الاراضي الكائنة الى جنوبي الدرجة الثانية والعشرين من خطوط العرض وهي

أولا — الاراضي التي لم تخلها قط الجنود المصرية من سنة ١٨٨٢ أو

ثانياً — الاراضي التي كانت تحت ادارة الحكومة المصرية قبل ثورة السودان الاخيرة وفقدت منها وقتياً ثم افتتحتها الآن حكومة جلالة الملكة والحكومة المصرية بالاتحاد أو

ثالثاً — الاراضي التي قد تفتتحها بالاتحاد الحكومتان المذكورتان من الآن فصاعداً

﴿ المادة الثانية ﴾

يستعمل العلم البريطاني والعلم المصري معاً في البر والبحر بجميع انحاء السودان ما عدا مدينة سواكن فلا يستعمل فيها الا العلم المصري فقط

﴿ المادة الثالثة ﴾

تفوض الرئاسة العليا العسكرية والمدنية في السودان الى موظف واحد يلقب (حاكم عموم السودان) ويكون تعيينه بأمر عال خديوى بناء على طلب حكومة جلالة الملكة ولا يفصل عن وظيفته الا بأمر عال خديوى يصدر برضا الحكومة البريطانية

﴿ المادة الرابعة ﴾

القانون وكافة الاوامر واللوائح التى يكون لها قوة القانون المعمول به والتى من شأنها تحسين ادارة حكومة السودان أو تقرير حقوق الملكية فيه بجميع أنواعها وكيفية أيلولتها والتصرف فيها يجوز سنها أو تحويرها أو نسخها من وقت الى آخر بمنشور من الحاكم العام وهذه القوانين والاوامر واللوائح يجوز أن يسرى مفعولها على جميع انحاء السودان أو على جزء معلوم منه ويجوز أن يترتب عليها صراحة أو ضمناً تحوير أو نسخ أى قانون أو أية لائحة من القوانين أو اللوائح الموجودة . وعلى الحاكم العام أن يبلغ على الفور جميع

المنشورات التي يصدرها من هذا القبيل الى وكيل وقنصل جنرال الحكومة البريطانية بالقاهرة والى رئيس مجلس نظار الجناب العالى الخديوى

﴿ المادة الخامسة ﴾

لا يسرى على السودان أو على جزء منه شئ من القوانين أو الاوامر العالية أو القرارات الوزارية المصرية التي تصدر من الآن فصاعداً الا مايصدر باجرائه منها منشور من الحاكم العام بالكيفية السالف بيانها

﴿ المادة السادسة ﴾

المنشور الذى يصدر من حاكم عموم السودان ببيان الشروط التي بموجبها يصرح للاوروبيين من أية جنسية كانت بحرية المتاجرة أو السكنى بالسودان أو تملك ملك كائن ضمن حدوده لايشمل امتيازات خصوصية لرعايا أية دولة أو دول

﴿ المادة السابعة ﴾

لاتدفع رسوم الواردات الآتية من الاراضى المصرية

حين دخولها الى السودان ولكنه يجوز مع ذلك تحصيل الرسوم المذكورة على البضائع القادمة من غير الاراضى المصرية الا انه فى حالة ما اذا كانت تلك البضائع آتية الى السودان عن طريق سواكن أو أية مينة أخرى من موانى ساحل البحر الاحمر لايجوز أن تزيد الرسوم التى تحصل عليها عن القيمة الجارى تحصيلها حينئذ على مثلها من البضائع الواردة الى البلاد المصرية من الخارج. ويجوز ان تقرر عوائد على البضائع التي تخرج من السودان بحسب ما يقدره الحاكم العام من وقت الى آخر بالمنشورات التى يصدرها بهذا الشأن

﴿ المادة الثامنة ﴾

فيما عدا مدن سواكن لاتمتد سلطة المحاكم المختلطة على أية جهة من جهات السودان ولا يعترف بها فيه بوجه من الوجوه

﴿ المادة التاسعة ﴾

يعتبر السودان باجمعه ماعدا مدينة سواكن تحت الاحكام العرفية ويبقى كذلك الى أن يتقرر خلاف ذلك بمنشور من الحاكم العام

﴿ المادة العاشرة ﴾

لا يجوز تعيين قناصل أو وكلاء قناصل أو مأمورى قنصلاتات بالسودان ولا يصرح لهم بالاقامة به قبل المصادقة على ذلك من الحكومة البريطانية

﴿ المادة الحادية عشرة ﴾

ممنوع منعاً مطلقاً ادخال الرقيق الى السودان أو تصديره منه وسيصدر منشور بالاجراآت اللازم اتخاذها للتنفيذ بهذا الشأن

﴿ المادة الثانية عشرة ﴾

قد حصل الاتفاق بين الحكومتين على وجوب المحافظة منهما على تنفيذ مفعول معاهدة بروكسل المبرمة بتاريخ ٢ يوليه سنة ١٨٩٠ فيما يتعلق بادخال الاسلحة النارية والزخائر الحربية والاشربة المقطرة أو الروحية وبيعها

تحريراً بالقاهرة فى ١٩ يناير سنة ١٨٩٩

الامضاآت (كرومر) (بطرس غالى)

*
* *

سبقت الاشارة الى أنى عدت من السودان الى مصر مريضاً بعد واقعة أم درمان وبعد ان أبللت من مرضى قدمت استقالتى من الجيش للمرة الثانية وقبلت فى الثاني والعشرين من شهر يناير عام ١٨٩٩ . وقد ارتاح المرحوم كثيراً لهذه النتيجة اذ أنها كانت أمنية من أمانية لأكون عونه وساعده فى أعماله الكثيرة وفى جهاده المشكور وعدت من ذلك التاريخ الى دراسة الحقوق التى كنت قد حرمت منها كما سبقت الاشارة الى ذلك

وقد كتب رحمه الله مقالة لجريدة الجولوا الفرنسية نشرتها فى ٦ فبراير هذا تعريبها :

« جناب المدير المحترم

ان اتفاقية السودان المزعومة بين مصر وانجلترا قد جاءت برهاناً جديداً على عدم مراعاة أوربا العهود والمؤتمرات الشيء الذى يعتبره المصريون جميعاً باطلا لانه مخالف للنظامات

الاوربية والقوانين الدولية . فانه أولا ليس لحكومة مصر أى حق في عقد اتفاقية كهذه الاتفاقية لانها تخالف نصوص الفرامانات السلطانيه الصادرة الى خديو مصر . واذا قال قائل ان السودان سلخ من مصر بقرار وزارى او بأمر عال فى سنة ١٨٨٤ وأصبح السودان خارجاً عن املاك مصر ولا يصح ان تطبق عليه نصوص الفرمانات الخديوية فأننا وكل المقننين نعتبر هذا السلخ غير قانونى لان نصوص الفرمانات صريحة بأن ليس لمصر الحق في التنازل او ابعاد أى جزء من أجزائها عنها بارادتها . اذاً فالسلخ غير جائز وعقد الشركة عمل فيه اعتداء من انكلترا

ثم ألم تصرح اتفاقية « ترابيا » التي كانت انجلترا في مقدمة الدول الست التى وقعت عليها بأنهن يتكاتفن في المحافظة على أملاك مصر وألا يكون لاحداهنّ ميزة على الاخرى وأن لا يجوز لأية واحدة منهن أن تبيح لنفسها امتلاك شبر من الاراضى المصرية

ان الحكومة الفرنسية عارضت فى قرض السودان وقد

كان حكم المحاكم المختلطة وهي الممثلة لجميع الدول موافقاً لرأيها فجاءت انجلترا وأقرضت مصر ما احتاجت اليه من المال ثم ماذا جرى بعد ذلك ؟ أدخل الانجليز أنفسهم ببعض جنود ليسوا فى العير ولا فى النفير ليبرروا هذه النتيجة السيئة التى ليست فى نظرنا الا اغتيالا للحقوق فى رائعة النهار وسرقة على مشهد من الأمم جمعاء

ان العساكر الانجليزية اشتركت اسما فى حملة دنقله ليبرر الانجليز هذا العمل بعد ان صرح سواسهم امام العالم كله بانهم لا يقصدون بارسال جنودهم الى السودان صحبة الجنود المصرية الا ليردوه الى مصر تنفيذا للخطة التى رسموها من احتلالهم مصر واجابة لصوت شرفهم. ألم يقل اللورد سالسبرى باعلى صوته « اننا نعمل لرد السودان الى مصر »

انتظرنا وانتظر العالم كله نتيجة هذا الاسترداد فكانت فظاعة انجليزية متناهية اذ نبشوا القبور وبعثروا الجثث وأهانوا الموتى وخالفوا في ذاك تاريخ المتقدمين والمتأخرين ثم قامت مسئلة فشوده بين كتشنر ومرشان أو بعبارة أخرى بين

الحكومتين الانجليزية والفرنسية وانتهت بتقهقر فرنسافطمع الانجليز طمعاً كبيراً ورفعوا رايتهم على الخرطوم بجوار الراية العثمانية وقد رفعوها سوداء ليوهموا انها حداد على غردون وبذلك يكونون آمنين شر هياج الجنود المصرية

أخذوا بعدئذ يوزعون الجنود المصرية هنا وهناك حتى اذا خلا لهم الجو ونضج الطعام بين كراسى الوزراء المصريين أكلوا أكلتهم وبدلوا الراية السوداء براية هذه الشركة المشؤومة

هذا ما جرى وانا ننتظر أن تعضد أوربا الحكومة العثمانية التى لابد أن تحتج احتجاجا شديداً على هذا العمل المخالف للعهود والمعاهدات والشرف كل المخالفة .

ثم ان أوروبا اذا لم تعمل ما تحتمه عليها واجباتها استهانت انجلترا بأمرها وأتت من المنكرات فى وادى النيل مالا يكون السودان بجانبه شيئاً مذكورا . فان المسئلة لم تكن مسئلة السودان فقط بل هى مسئلة مصر نفسها بل ومسئلة افريقيا أيضاً . فان مصر لا تكون بلدا غنيا قادرا على القيام بدفع

دونه الا اذا كان مالكا لينابيع النيل التي هي في صميم السودان وان مشاركة انجلترا لمصر في امتلاكه وهي الشرهة الطامعة التي لا يكفيها نصيب أو نصيبان مما يهدد المصالح الاوروبية ويجعل المستقبل مظلما وتصبح الدول التي تظن بها اليوم خيراً أول معادلها ساخط على عملها

كذلك فان لكثير من الدول الاوربية أملاكا في افريقيا وهذه الاملاك تصبح لا محالة مهددة بحكومة كالحكومة الانجليزية التي لا تريد الا أن تضع يدها على كل افريقيا ليكون لها منها هند افريقية ثانية. وان الحملات العديدة التي حملتها بواسطة رجالها السياسيين على حكومة الترانسفال والاورنج ليست الا دليلا قويا على حقيقة مطامعها الافريقية

اما فرنسا فانها بسبب هذه السياسة أساءت الى نفسها كثيراً فبعد ان كان المصريون يعتمدون بعض الاعتماد عليها وكان سمو الخديو يجدها الدولة الثانية بعد الدولة العلية للمدافعة عن حقوقه وحقوق أمته أصبحوا اليوم وهي امامهم من حيث التأثير في المسئلة المصرية أقل من أضعف دولة أوربية

نعم اني أصرح بذلك جهاراً لان السياسة القائمة على الجبن والخوف ليست الا سياسة مضيعة للحقوق مبددة للنفوذ محطة بكل كرامة . وانى لا أقصد بذلك انه كان يجب على فرنسا أن تحارب انجلترا بشأن فشوده . كلا . ولكنى كنت أرى من الحكمة أن تقبل ترك فشوده بشرط أن يعود كل شيء لمصر حتى اذا حانت ساعة الخلاص عادت مصر الى قوتها وفى يدها كل أملاكها . ولكن الحال كانت على الضد من ذلك اذ تظاهرت فرنسا بمظهر الراغبة فى الدفاع عن عمل رجالها الكبير مرشان وشرف رايتها ثم فى لحظة واحدة تنازلت عن هذا الدفاع بلا ثمن فأخجلتنا بالحط من كرامتها وبعثت باليأس من جهتها الى قلوب كثيرة كانت تراها من قبل دولة الهمة والكرامة

امامن جهتى فانى لا أيأس أبداً من مستقبل بلادى بل بالعكس أجد التمسك بالدفاع عنها في شدتها أوجب على منه فى رخائها . وانه اذا كانت انجلترا تلعب بمصالح الدول فانها لا تستطيع أبداً ان تلعب بقلوبنا التى تنمى فيها بعملها الجائر الحنق كل يوم . واننا

اذا كنا نحمل لها اليوم شيئاً كثيراً من الكره والحنق فاننا في مقتبل الايام نكون ألد أعدائها العاملين على نكالها اذا هي بقيت مصرة على مخالفة وعودها وعهودها معنا

وليعلم الفرنسيون الذين نجلهم ونحترمهم ونحفظ لهم جميلهم السابق أن عمل ساستهم لا يمحو حسناتهم معنا ولكن وهو ما نأسف له لم يبق في قلوبنا ذرة من الاعتماد عليهم بعد ان أعلنت الايام فشل سياستهم في وادي النيل

مصطفى كامل »

مدرسة مصطفى كامل

كان من أماني المرحوم على ماسبقت الاشارة في الاجزاء السابقة أن يكون له مدرسة يعلم فيها الناشئين محبة الاوطان والتمسك بأصول الدين الخالية من الشوائب والتي اذا تأصلت معانيها الطاهرة في النفوس كان للوطن خدام يستهينون بالموت في سبيل نصرته والعمل لاعلاء رايته . وقد حقق الله أمنيته وأخرج مدرسة مصطفى كامل من عالم الامل الى عالم الحقيقة اذ جاء اليه في يوم الجمعة ٣٠ ديسمبر سنة ١٨٩٨ مصريان وطنيان هما حضرتا الفاضلان محمد أفندي سعيد تومي وأحمد أفندي صادق وأخبراه أنهما أسسا مدرسة في جهة باب الشعرية بسراي العزبي وأظهرا له حباً في جهاده الوطني وعمله الذي خلد له في نفوس أبناء وطنه أسمى منزلة رغبتهما في تسمية المدرسة باسمه فقبل منهما ذلك بكل ارتياح وقد كتب هذان الفاضلان جملة في المؤيد بهذه المناسبة هذا نصها :

« نتشرف بأن نخبر قراء جريدتكم الغراء بأننا أسسنا في جهة باب الشعرية مدرسة أهلية لتعليم أبناء الوطن العزيز استأجرنا لها سراى العزبى الشهيرة وسنذشئ فيها قسما لتعليم البنات حتى تكون الفائدة أتم وأعم متى سارت المدرسة في طريق التقدم والارتقاء ولما كانت الامم الحية تخلد أسماء رجالها العظماء وأبنائها الامناء باقامة التماثيل لهم وتأسيس المدارس والمستشفيات والآثار النافعة بأسمائهم فقد أردنا ان نجرى على سنن هذه الامم ونسمى مدرستنا باسم رجل مصرى اتفق المصريون بل والناس كافة على انه جمع بين الوطنية النادرة والشهامة الفائقة ورفعة الافكار فضلا عن اجتماع قلوب بنى الوطن على محبته فلذلك سمينا مدرستنا (مدرسة مصطفى كامل)

واذا كان الانكليز يؤسسون مدرسة لغردون والفرنسويون لمرشان فهم فى الحقيقة يبجلون في هذين الرجلين الوطنية الصحيحة والاقدام الباهر فنحن نعتقد أن وطنينا الذى سمينا المدرسة باسمه سيبلغ لا محالة مراتب

عظماء الرجال بفضل وطنيته واقدامه وثباته » ...... الخ

مصر في أول يناير سنة ١٨٩٨

مؤسسا المدرسة

أحمد صادق   محمد سعيد التومى

*
* *

وبعد ان سارت مدرسة مصطفى كامل وهي في يد حضرتى مؤسسيها نحو ثلاثة أشهر رأيا أن تكون مالكا للمرحوم فداولاه في الامر وانتهي بقبوله أخذها على عاتقه ووكل الى شخصى الضعيف أمر ادارتها . وقد كتب المؤسسان بهذه المناسبة كتابا للمؤيد نشر في ٢٦ مارس سنة ١٨٨٩ هذا نصه :

سبق اننا أعلنا عن المدرسة التي أسسناها بباب الشعريه وسميناها باسم وطنينا الشهير وخطيب مصر (مصطفى كامل) وقد كنا نود القيام بهذا المشروع الجليل أحسن قيام ولكن ظروفا عديدة منعتنا من ذلك . وقد تفضل حضرة الفاضل المسماة المدرسة باسمه وقبل بناء على التماسنا ورجائنا ان يستلم

زمام المدرسة ويقوم باعبائها ومصر وفاتها ولا شك ان ذلك يجعلها محلا لثقة القوم ويرفعها الى أعلى مقام ...... الخ »

تحريراً في ٢٥ مارس سنة ١٨٩٩

محمد سعيد تومى   احمد صادق »

وكذلك كتب المترجم كتاباً للمؤيد نشره في حينه وهذا نصه :

« حضرة مدير جريدة المؤيد »

علم قراء جريدتكم الغراء ان المدرسة المسماة باسمي بباب الشعريه قد آل امرها الى وأصبح شقيقي المدير لها

واني أعلم ان حمل المدرسة ثقيل واتعابها كثيرة ونفقاتها طائلة ولكني قبلتها بكل ارتياح أملا مني في خدمة ابناء الوطن العزيز وترقية مدارك الناشئين واني أتشرف اليوم باعلان الجمهور ان التعليم في هذه المدرسة مقرون بالتربية لاني اعتقد ان التعليم بلا تربية عديم الفائدة بل ربما كان كثير الاضرار وأقصد بالتربية التربية الاسلامية المحضة لان اساس التربية الدين وكل أمة يتربى ابناؤها على غير قواعد الدين تكون

عرضة للدمار والانحطاط

وقد رأيت بنفسي في أغلب مدارس أوروبا اهتماماً فائقاً بتعليم الدين المسيحي للناشئين لذلك عولت على جعل الغرض الاول من المدرسة ترقية الملكة الاسلامية عند التلاميذ وتمكين مبادىء محبة الوطن والاتحاد والائتلاف من نفوسهم وتقديم اللغة العربية على كل لغة مع ترك الحرية لآبائهم في الاختيار لهم بين اللغة الفرنسية واللغة الانجليزية ورغبة مني في نفع ابناء الفقراء قررت قبول ثلاثين في المائة منهم مجاناً

واني أسأل الحق سبحانه وتعالى ان يوفقني وجميع المصريين لخدمة الوطن العزيز الذي أرى السعادة الكبرى في التفاني لاجل سعادته

هذا وارجو منكم ان تتفضلوا بنشر هذه الكلمات في محليات جريدتكم وان تقبلوا الخ

مصر في ٢٨ مارس ١٨٩٩ المخلص

مصطفى كامل »

*
* *

عنى رحمه الله بهذه المدرسة عناية فائقة ولم يدخر وسعاً في رقيها وبذل كل نفيس وغال فى تشجيع الطلبة وتشويقهم الى العلم فوضع لها نظاماً بنى على أساس متين من الدين والصلاح وكلف أحد أساتذة المدرسة بوضع كتب دينية للناشئين وبعد وضعها عرضها على الاستاذ الاكبر الشيخ سليم البشرى شيخ الجامع الازهر للتصديق عليها وبعد ان نالت موافقة فضيلته والكثيرين من كبار علماء الازهر طبعت ووزعت على الطلاب مجاناً

وكذلك قرر رحمه الله الاحتفال سنوياً بالنابغين الذين ينالون قصب السبق على اخوانهم فى كل عام اذ توزع عليهم الجوائز المختلفة فى وسط جمع حافل بالامراء والكبراء. وقد قال لي رحمه الله يوماً: « انه كان من أكبر أماني أن تكون بجانبي وأن يكون لي مدرسة وجريدة فها قد وهبنى الله ثلثي ما أتمنى وأملى أن أنشئ الجريدة قريباً »

وبعد أن مضى على المدرسة نحو عام في سراي العزبي

اختار لها المترجم مكاناً آخر هو سراى السلحدار التى لاتزال

فيها الى اليوم

*
* *

عند ما أسست هذه المدرسة خاف الناس أن يلحقو

أبناءهم بها لوجود اسم المرحوم عليها . ولكنهم أقبلوا عليها شيئ

فشيئاً عند ما علموا أن للدين الحظ الاوفر فيها مع توف

العلوم العصرية وان من يدخلها يكون له حظ نيل الشهادات

الاميرية اسوة بجميع مدارس مصر

قصد المرحوم الدار الجديدة بنفسه ورتب غرفها ووض

نظامها وقد أشار علينا أن نكتب على خرائطها التى يصادفه

التلميذ في رواحه الى غرفة الدرس وغدوها منها أمثال هذ

النصائح .

اعتمد على نفسك

العلم نور

أساس النجاح التقوى

لا تغتر بالظواهر

لا تجتمع الوقاحة والادب

النجاة فى الصدق

الاقربون أولى بالمعروف

اشتك متى ظلمت

لا تقرأ أثناء الطريق

الى غير ذلك مما يجده الزائر منقوشاً الى اليوم على حوائطها وهي نصائح أفادت كثيراً وانطبعت على أفئدة التلاميذ وعملوا بها جميعاً .

وكان يزور رحمه الله المدرسة من وقت الى آخر ويمتحن التلاميذ بنفسه ويرتاح من أجوبتهم وكانت نصيحته دائماً موجهة الى وجوب الاعتناء بتلقين التاريخ واستنباط عظاته النافعة لتكون دواء لداء الخمول الذى كاد يودى بحياة الامة

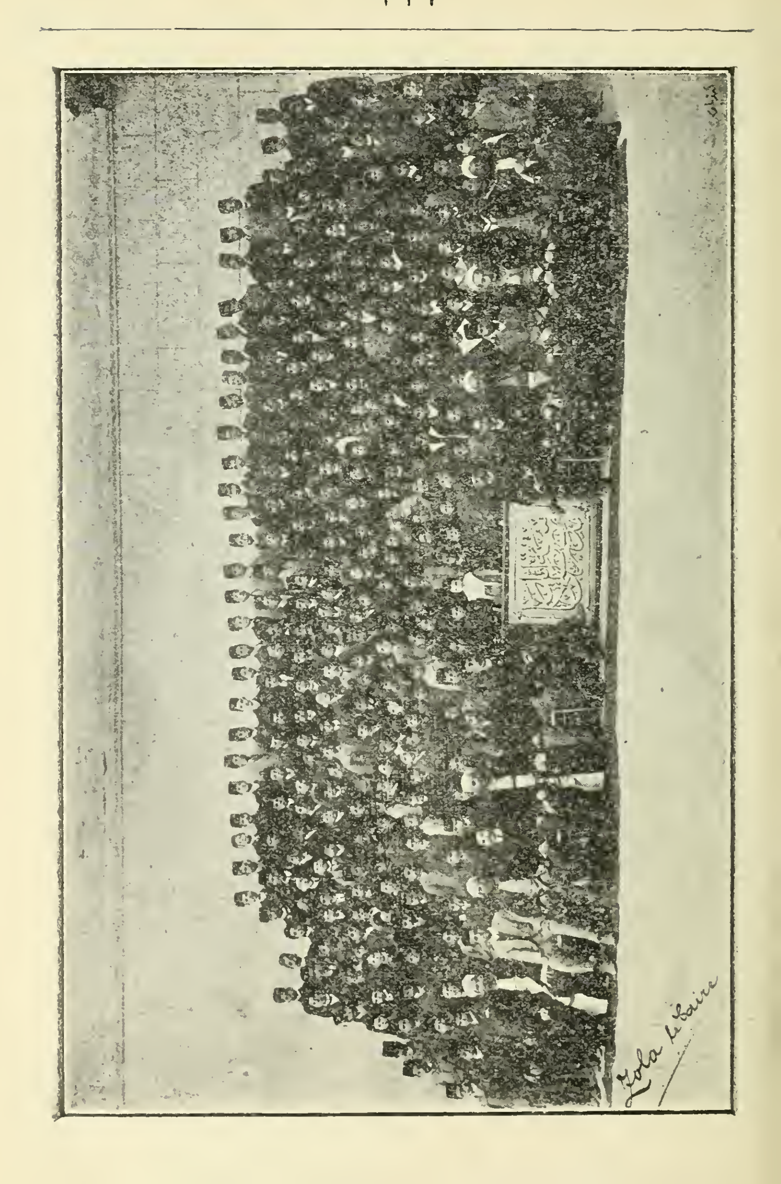
وكان التلاميذ صغاراً وكباراً يحبونه ويتمنون أن لو قام بينهم طول يومهم لانه كان أباهم البارّ وأخاهم الصالح ووطنيهم المحبوب .

قال له فى يوم زار فيه المدرسة أحد صغار التلاميذ « لم

لاتكون مدرساً فى هذه المدرسة التى هى مدرستك » فقا
له المرحوم وهو مبتسم : انى يا أخي وكلت أمر تعليمكم لم
أثق بهم بينما أجاهد أنا مع من هم أكبر منكم سناً » . . . . . .

* * *

ان ذكرى هذه المدرسة تبعث فى فؤادى أثراً من آثا
الرحمة والعطف على الفقير كما تذكرنى كيف يكون الرج
باراً بأبناء وطنه فقد كان المرحوم لا يرد سائلا يسأله المعونة ف
ادخال ابنه المدرسة لوجه الله الكريم حتى بلغ عدد الذي
كانوا يتعلمون على نفقته بها ولا يزالون حتى الساعة ١٦٥ طا
وقد كان يبذل في سبيل تثقيفهم من عرق جبينه وم
مجهوداته ٦٠٠ جنيه على الاقل في كل عام . وكانت أمني
الكبرى أن يوفقه الله يوما ما الى حبس ما تسد غلته نفقا
والصرف عليها وان تكون مغرسا لعقول ألف طالب وغي
ذلك من الامانى التي ان لم يحققها فى حياته فأملنا وطيد ف
تحقيقها فان الامة بأسرها أصبحت مسئولة عن حفظ آثا
والسير على خطه في كل أعماله . وفقنا الله الى ما فيه الخير والسدا





*
* *

برح رحمه الله الثغر الاسكندرى فى الرابع من شهر ابريل قاصداً الى أوربا ليستأنف جهاده حباً فى البلاد والامة. وما وصل الى فينا حتى كتب الى كتاباً جاء فيه :

« أخى الاعز حرسه الله

بعد التحية وتقبيل وجنتيك وصل الى هذا الصباح عند وصولى الى فينا كتابك العزيز فقبلته وشكرته اذ كان اول مستقبل لى فى الغربة وبه تحققت أنك معي فى كل زمان ومكان . . . .

. . . .

صحتى جيدة جداً وارتياحي تام والبرد هنا قارص ولكنى أخذت الاحتياطات اللازمة حتى استطيع بصيانة صحتى خدمة مصرنا العزيزة . . . .

سأقيم بفيينا أربعة أيام اقابل اثناءها من يهمهم أمر مصر من السياسيين ثم أبرحها الى باريس حيث أقيم بها ثلاثة أسابيع ومنها أذهب الى برلين فاكتب الى بعنوان باريس وستكون عندك عناوينى دائماً

لاتنس أن ترسل الى أهم اخبار الجرائد الأهليه عربيه وافرنكيه وطنية كانت أو احتلالية وأرجو منك ان لاتهيج اذا قرأت فى صحف الخصوم شيئاً ضدى فان خدام الحقيقة والحق كانوا من قديم الزمان وماز الوا قذى فى أعين خدام البهتان والباطل وكن كما أعهد فيك صالحاً رزينا فانك ستعيننى كثيراً فى هذه الخدمة التى لا أجد أشهى الي منها . . . . .

. . . .

كما ألفت نظرك الى وجوب الاقتصاد التام ووضع كل شيء فى محله فان الاقتصاد غنى والتبذير فقر. ولا أخفي عنك أنى مثال الاقتصاد أعمل كل شيء بحساب . لا أركب فى السكة الحديدية الا فى الدرجة الثانية مع أن جسمى ليس مستعداً لها وصحتى لاتقوى على الاتعاب الهائلة التى يجدها المسافر في أوربا بالنظر الى طول المسافات

تجدنى أقرأ وأكتب الآن اكثر من أي وقت فى حياتى فقد قرأت اربعة كتب أثناء سياحتى الاول فى حسنات الحكومة الاهلية والثانى فى الحياة الاجتماعية والثالث في الوطن

المجرى والرابع فى قوة الارادة وضعفها وما ينتج عنهما وهي
كتب نفيسة ليتها تترجم الى العربية وليتنى كنت قويا لأودى
فى أن واحد الواجبين الواجب السياسى وواجب التعريب
نسأل الله أن يبعث فى الامة روح العمل وان يهب المفكرين
منها قوة الارادة

أرجو منك أيها الاخ المحبوب أن تدعو لى في صلواتك
بالنجاح فأنى بما أمل لا أريد الا أن أرد لمصر ما على أجدادنا
وآبائنا وعلينا من الدين لها

لا أرتاب فى أنك مهتم كثيراً بأمر المدرسة التى كانت
أمنية من أماني بل حلما من أحلامى ولى كبير الامل في أن
تكون المثال الاكمل والاخ البار والحر الأبى مع اخواننا
اساتذتها فان مالا يدرك بالعنف يؤخذ بالعرف . . . .

. . . .

الله يحفظك لاخيك المخلص

كامل »

« ان هاتين المقالتين يتضمنان مسئلة ذات وجهين
الاول انتقاد حالة ادارتنا فى الجزائر . والثانى « يقظة الاسلام»
ولما كانت هذه المسئلة العمرانية من الشأن بمكان فقد انتهز
فرصة مرور « مصطفى كامل » بباريس لنسأله رأيه فيها وهو كما
يعرف القراء الوطنى المصرى الممتلئ غيرة وشهامة فضلا عن
كونه خطيباً عالى الصوت مسموع الكلمة بين أبناء دينه
ولطالما قدم لفرنسا أدلة جلية على عطف أبناء وطنه عليها
وحبهم لها

ولذلك رجونا منه أن يجيبنا على هذين السؤالين بكل
صراحة .

(١) حركة خواطر المسلمين

ما هى حركة خواطر المسلمين فى الوقت الحاضر ؟

— ان الحوادث الاخيرة فى كريت والسودان برهنت
لجميع المسلمين أن أوربا لا تعطف عليهم أبداً وان كلمتى «المدنية
والانسانية » ليستا الا لفظتين تلوكهما السنة السياسة لاغراض
استعمارية وأن العواطف الانسانية الحقيقية تنزلها أوربا عند

ما تسوس أمراً فى الشرق . وفى الواقع فأنا نرى ان البلاد الاسلامية التى تحكمها أوربا من زمن بعيد فى أسوأ حال من المظالم التى لا مثيل لها . مع ان الممالك الاوروبية عندما استولت على هذه البلاد ادعت رغبتها الأكيدة فى نشر « المدنية والانسانية » بين ربوعها . هذه الانسانية وهذه المدنية اللتان لم يفسرا بعد الا تفسيراً مبكياً إذ كانت نتيجة عمل أوربا سحق المسلم واحتقاره وتركه يتخبط فى ظلمات الجهل زمناً طويلاً . ويستوى فى ذلك وهو ما نأسف له جميع الحكومات الاوربية التى امتد سلطانها على فريق من المسلمين

هذه حالة ممالك أوروبا معنا وليس هنالك برهان على صدقنا وأنا نصف الحالة كما هى أقوى من اتهام أوربا الدولة العلية بالمظالم وعدم تأييدها مبدأ المساواة بين ذوى الاديان المختلفة ممن تحكمهم بينما نرى الكثيرين من سفرائها ومعتمديها ووزرائها مسيحيين ولا يستطيع انسان فى الوجود أن يثبت لنا وجود مسلم محكوم بانكلترا أو بفرنسا يشغل منصب « مساعد قنصل صغير »

وها هى مصر التى سارت منذ قرن فى طريق المدنية الغربية معتمدة على أوربا المسيحية فى كل أمر واضعة فيها كل ثقتها ماذا هو حالها اليوم ؟ انها لفريسة انكلترا ! أليس كذلك ؟ أليست الدول الاوربية منقسمة على نفسها فى أمر هذا الوطن المجيد وان بعضهن يقول بوجوب جلاء الانكليز عن مصر والبعض الآخر لا يرى ذلك ؟ فلما اذاً ينقسمن على أنفسهن عند ما تكون المسئلة فى مصلحتنا نحن المسلمين ويتحدن بل ويتماسكن بكل قوة عند ما يكون الامر خاصاً حتى بأحط مسيحى الشرق !! واذا لم يكن تداخل أوربا فى شؤون تركيا الا حباً فى مؤازرة المدنية والانسانية المحبوبتين أفليس المصريون والتونسيون والجزائريون والهنود وغيرهم بشرا لهم حق فى هذه المدنية وتلك الانسانية ؟

انى أرى انه أصبح من واجب سواس أوربا أن يعرفوا للعالم « الانسانية » بمعناها الذى يدركونه ويعملون به لاننا نرى من أعمالهم حرمان أمم كثيرة تشترك مع بنى الانسان فى كل صفاته ومميزاته من قوانين العدل وذلك باسم هذه

الانسانية المكتشفة حديثاً !!

لذلك نشأ استياء عام بين المسلمين ضد أوربا وأصبح كل مسلم يحمل شيئاً كثيراً من الضغينة ضدها

(٢) النهضة الاسلامية

هل يوجد حقيقة نهضة اسلامية ؟

— نعم توجد نهضة اسلامية قوية

انهم يظنون فى أوربا أن الاسلام حجر عثرة فى سبيل التقدم وقد نسوا التاريخ المفعم بآيات مدنية الاسلام . تلك الآيات التى لا يزال يسطع نورها فى العالمين والتى فارقت المسلمين من يوم ان فارقوا مبادىء دينهم القويم . وانه اذا كانت أوربا تجهل الى الآن كيف تقود الأمم الاسلامية التى تحكمها فذلك لانها لا تقودها باسم الاسلام وعلى مبادئه القويمة

انه من المؤكد ان العلم آخذ الآن فى الانتشار بين الاتراك والمصريين وقد كان السابقون الى هذه النهضة السريعة اخواننا الاتراك فقد تأسست مدارس عديدة مختلفة المراتب فى انحاء الدولة وان تعليم البنات الذى كان مهملاً اهمالاً معيباً

أصبح اليوم كثير الانتشار . وقد حذت مصر حذو الدولة الرئيسية فأنشأ الأهالى فى هذا العام اثنتى عشرة مدرسة وطنية ولا بد أن يزداد عدد مدارس الأمة فى كل سنة عن الأخرى بالرغم من جمود الحكومة لاننا نرى من جهة ان فى العلم أقوى درع تتدرع بها الامم الضعيفة المسلوبة الحق المهضومة الاستقلال . ومن جهة أخرى نرى المحتل يحارب مدارس الحكومة التى كانت قبله زاهية زاهرة بما يضعه من عراقيل ويسنه من قوانين لانه يرى بمزيد الاستياء أن تبلغ أمة يطمع فى خيراتها واستخدام أبنائها مبلغه من العلم وأنه اذا وجد اليوم من أسس مدرسة أو مدرستين فلا بد أن يوجد التاريخ القريب من أبناء مصر وواطنى الكرام من تذكره الامم بالخير ويتغنى بمديحه الاعقاب لان اللذة التى تعود على المحسن العلى أكبر لذة فى الوجود فهو يغرس ثمراً اذا غذا منه الطفل « أصبح لا محالة رجلا »

انه يوجد فى العالم الاوربى بعض فلاسفة وسواس ينشرون من وقت الى آخر خرافات ضد المسلمين ويبنون

على ما أسميه اختراعات المدنية نتيجة استحالة رقينا وتقدمنا الامر الذى لا يدهشنا فقط بل ويجعل هؤلاء العلماء الكبراء موضع سخريتنا. انهم يجهلون التاريخ بينما يدعون انهم مرشدو العالم وأساتذة بنى الانسان . ألم يقل لهم التاريخ ان الفلك والهندسة العالية والقوانين النيابية كانت عملا من أعمال قدماء المصريين يوم كان العالم كله لا يعرف غير سماء مرفوعة وأرض موضوعة لباسه من جلد الانعام وغذاءه من فضلات الطبيعة

وأنه اذا كان تاريخ مصر معلوماً مشهوراً فكذلك تاريخ البلاد الاسلامية حافل بالاعمال الحسان

وليس أمامنا الآن من الوجهة السياسية أقل اعتماد على مساعدة أوروبا لنا . وفرنسا التى تظاهرت فى مواقف كثيرة بحبها لمعاونتنا جاءت سياستها الاخيرة ضغثاً على ابالة فكانت وعودها أكبر من عملها . وأن وطنيتى التى هى كل حياتى والتى أستعين بها على رؤية مستقبلنا الذى أكاد ألمسه وكذلك صداقتى لكثير من سواس فرنسا يحتمان علىّ أن

أقول الحقيقة بكل صراحة وأقرر للجميع أن السياسة الفرنسية في مصر ليست الاساسية تسويف ومطل وانها اذا كانت تريد الوقوف امام انكلترا بحق فامامها الانتصار لحقوق السلطان والخديو في مصر الامر الذي تؤيده المعاهدات وتوجبه المواثيق

انى طالما جاهرت في هذه الجريدة (لكلير) وفي جرائد كثيرة فرنسية ان المصريين الذين يحبون في فرنسا تاريخها في مصر سواء كان سياسيا أو معنويا يحكمون عليها اليوم حكما قاسياً. لان أكبر خطأ ارتكبته هو تظاهرها بمعاداة تركيا في حين انها تتظاهر برغبتها في حل مسئلة مصر مع أن الواضح الذي لا يحتاج الى بحث ان مسئلة مصر لا تحل بغير ارادة تركيا فانها السيدة الشرعية علينا فضلا عن أن سلطانها خليفتنا وحامل راية رسولنا الكريم

نعم اننا نرى تركيا الدولة الوحيدة التي في استطاعتها ان تحسن الينا ولذلك لم ندرك الى الآن كيف يوفق الانسان بين فرنسا المحبة لمصر وفرنسا الكارهة للدولة العلية. في آن واحد

وفى النهاية ألخص آرائى فى هذه الكلمات :

« ان أوربا ساعدت على وجود استياء المسلمين منها بعملها معهم وأصبحنا اليوم نهزأ بهذه المدنيـة الموهومة التى تلوكها السنة ساسة أوربا . وليس امامنا الا الاعتماد على أنفسنا وانه يجب علينا قبل ان نحمل السلاح المادى ان نتدرع بالسلاح الادبى فننشئ المدارس المختلفة لنشر النور والعرفان بين طبقات الشعب وها نحن هؤلاء قد أدركنا هذا الواجب وكل يوم نرى رقياً نسبياً فى أغلب الممالك الاسلاميـة كما أن كل مسلم مهما كان جنسه يعتقد أن الدولة التى تستحق عطف المسلمين هى التى تعمل باخلاص مع الدولة العلية وتسعى لكسب مودتها لا للعمل ضدها بكل الوسائل التى أقلها تسليح طوائف المسيحيين لمحاربتها وهدم كيانها

فالدولة التى تنصح الى مسيحيي الدولة العلية بأن مصالحهم فى مكاتفة المسلمين والخضوع لراية جلالة السلطان هى الدولة التى تعمل حقيقة للانسانية وتسير بالشعوب الى طريق المدنية فضلا عن ان تاريخها يكون امامنا على الدوام كدليل حبها

لنا مما يحتم علينا العطف عليها . . . . » اﻫ

وقد قالت جريدة « لكلير » تعليقاً على هذا الحديث ان الضغط الاوربى الواقع على المسلمين يعلمهم كيف يتحدون ويبحثون عن طريق خلاصهم التى تبتدئ طبعاً بوجوب نشر العلم وتنتهى بفوزهم اذ من المحقق بلوغهم أمنيتهم . وبما أن أوربا لا تريد بهذا الضغط الا ان تستعبد هذه الامم العديدة والتى ينمو عددها نمواً لا نسبة بينه وبين نمو المسيحيين. فالاجدر بها متى كانت نتيجة هذا الضغط رقيهم مع تأصل الكراهة لها فى قلوبهم ان تعمل لرقيهم لتكتسب على الاقل محبتهم وتعيش معهم فى سلام . وهو ما نلفت اليه نظر الحكومة الفرنسية على الخصوص فانها من أوائل الدول التى لها مصالح اسلامية كثيرة . . »

*
* *

وكتب الىّ من باريس فى ٥ مايو سنة ١٨٩٩ كتاباً جاء فيه :

« أخى الاعز حرسه الله

بعد التحية والتسليم وتقبيل وجنتيك وصل الىّ خطابك

المؤرخان ٢٧ و ٢٩ الشهر الماضي كما جاءني المؤيد المشتمل على الحادثة. وقد أسفت كثيراً لعدم وجود جريدة عربية في يدي حتى أنشر فيها كل أعمالي لاني ما كنت أظن أن عملاً كهذا أنهك فيه قواى وشبابي يقابل من أدعياء الوطنية بمثل هذا الفتور. ولو كنت أجد وسيلة لتبليغ الناس الحقيقة وسبل الدفاع عن مصر الأسينة بدون أن يذاع اسمي لفعلت بلا تردد ولكن ما الحياة والاعمال العامة مقرونة بتحسين سمعة من يأتونها اذا أحسنوا صنيعها أو بتسوئتها اذا أساؤوا اليها. فهؤلاء الذين يحجمون عن نشر أعمالى فى الوقت الحاضر بعد أن استفادوا منها كثيراً فى ماضى الايام لا يسيئون الىّ ولكنهم فى الحقيقة يسيئون كثيراً الى المبادىء السامية التى تصدوا لخدمتها الا وهى مبادىء ادخال العقيدة الوطنية فى قلوب المصريين. ومع ذلك فقد عزمت عزماً أكيداً على اصدار جريدة وسأكتب اليك طويلاً فى هذا الشأن وأسأل الله أن يهدينا جميعاً الصراط المستقيم

ساءنى جداً ما علمته من أمر مرضك وانى أرجو منك

كل الرجاء أن تعتني بصحتك وأن تتريض كثيراً فان البلاد في حاجة الينا وعلى الاخص في الوقت الحاضر

اني لا أنكر عليك انه ساءني كثيراً الخلاف الذي وقع بينك وبين حضرة أمين افندي جابي صاحب المنزل ولي عظيم الامل أن تسترضيه ولو كان الحق في جانبنا فان الحلم سيد الاخلاق لا سيما ان مركزنا يحتم علينا أن نكون خدام الناس نقابل سيئتهم بالحسنة . ولا تنسى أننا نغرس مبادىء في نفوس هجرتها ملياً فواجب علينا أن نصبر صبراً جميلا في مواساتها حتى تثمر ثمراً يانعاً يرفع الوطن الى أشرف مكان !

لم أعهد صحتي أحسن مما هي عليه الآن وسروري عظيم باشتغال الكثيرين من فحول الساسة بالمسألة المصرية وأملي وطيد جداً في النجاح

بلغني اليوم أن المسيو اميل رينز الكاتب المجري الشهير يؤلف كتاباً عن مصر السياسية لذلك عزمت على السفر الى بودابست للقائه وقد استعنت باصدقائي هنا للتعرف اليه حتى يكون فيما يكتبه عادلا ان لم يكن كذلك . وسفري اليها يكون

طبعاً بعد سياحتى فى برلين كما أخبرتك

بلغ سلامى الخاص حضرات الاساتذة والخدم وقبل لي أيدى من تحت قدميها جنتنا السيدة الوالدة ..... ودمت لاخيك المخلص كامل »

*
* *

وجاءنى منه فى ١٠ مايو سنة ١٨٩٩ كتاب جاء فيه :

. . . .

وصل الي اليوم خطابك المؤرخان ٢ و٣ مايو الجارى. . . .

جددت طبع رسالتى « خطر الاحتلال الانكليزى فى مصر » بالفرنسية بعد أن اضفت اليها ما يجب اضافته وقد أرسلت اليك منها مائة نسخة لتهديها الى الأصدقاء المتعلمين الذين يهمهم أمر الوطن

وقد نشرت مقالة فى جريدة « برلينر تاجبلاط » الشهيرة التى تطبع بمدينة برلين والتى تبادل جرائد انجلترا أمام موضوعها فهو علاقة المانيا بالدولة العلية خاصة والاسلام عامة وجعلت عنوانها « المانيا والاسلام » وما نشرتها هذه الجريدة حتى

تناقلت ملخصها على لسان البرق الصحف الكبرى بأوروبا وقد علمت من أقرب الناس للامبراطور غليوم الثانى أنه قرأها بنفسه وانشرح كثيراً

أما تعريب هذه المقالة فسأرسله بعد غد لاخينا فريد بك لينشره فى « الاهرام »

اذا قابلت المطران (يقصد حضرة خليل افندى المطران الصديق الوفي والكاتب البليغ) فاشكره كثيراً و بلغه مزيد اعجابى بقصيدته التى نشرتها (الموسوعات) على مقتل وزير النجم . لله دره

سرنى ماذكرته عن المدرسة وأقبال الناس عليها بعد أن احجموا عنها هذا الزمن وأنى لا أرتاب فى معاونة الله سبحانه وتعالى لنا فأنه يعلم نياتنا التى كلها خيرية شريفة . وقد استأت لسير أحد الاساتذة وارتحت لرفته فأنا مسؤولون عن مستقبل التلاميذ ولسنا بمسؤولين عن مستقبل معلم لم يهتم بواجبه ومستقبله .

اكرر عليك الرجاء أن تعمل حسابك بالدقة فاننا غير معتمدين الا على الله وأنفسنا واعمل بالمثل الالمانى « من يعدو

كثيراً يصاب بالسل »

. . . .

علمت من فريد بك أن عثمان باشا ماهر (صاحب المدرسة الخيرية بقسم الخليفه) مريض جداً والامل ضعيف فى شفائه فأرجوك أن تنوب عنى فى زيارته مع فريد بك وأن تبلغه من قبلى سلاماً وتحية ودعاء لله خالصاً أن يشفيه ويبقيه فنعم الرجل ونعم المسلم ! انك لو علمت من هو هذا الصديق الكبير وهذا القلب الممتلئ ايماناً واسلاماً وحباً لمصر واعترافاً بجميلها ووطنية لا مثيل لها لخدمته فى مرضه كما يخدم الاخ اخاه أو كما يواسى الابن اباه ! اسأله جل وعلا أن يشفيه !

انى في حاجة الى دعاء الوالدة فأن فى رضائها رضاء الله والله يحفظك لاخيك المخلص

كامل »

*
* *

انى أسأل القارىء العفو اذا أطلت هنا من ذكر كتب المرحوم الى فأن فى كل جملة منها معنى يشير الى فضيلة ولان

فى ذلك التاريخ بدأت حياته القصيرة دنيا الطويلة ذكرى تفيض مكارم وعملا . فقد كتب الى رحمه الله فى ١٥ مايو من برلين ما نصه :

« شقيقى الاعز حرسه الله

بعد التحية وتقبيل الوجنتين . أخبرك انى وصلت الى برلين مساء الامس فى أحسن صحة وأتم سرور وقد قابلت اليوم الكثيرين من رجال الصحف والسياسية وعلى الاخص المسيو لافيزون مدير جريدة برلينر تاجبلاط الذائعة الصيت وتحدثنا فى مسائل مصر فرأيت من القوم انعطافا كبيراً علينا ووجدتهم على علم تام بكل ما يجرى فى بلادنا وقد طلبوا منى بعض تفاصيل عن السودان المصرى . . . .

فأرجوك ان تهتم بأرسالها الى بأقرب فرصه . . . .

كذلك زرت سفير الدولة قبل الظهر وقد ردالى الزيارة قبيل المساء وابلغنى ارتياحه وارتياح كل حر غيور لنهضة الامة المصرية ودفاعها عن أقدس شىء فى الوجود الا وهو سلامة الوطن . وابلغنى رضا جلالة السلطان عن أعمالى وأن سفير

باريس ابلغه أن جلالته يدعونى لزيارة الاستانة لذلك لبيت الدعوة ولو لم أكن على نية السفر اليها فى هذا العام . وسأسافر غداً الى بودابست لأقابل ذلك الكاتب الكبير الذى أخبرتك عنه فى أحد خطاباتى الماضية ومنها أقصد الاستانة فاصل اليها في ٢٣ أو ٢٤ الشهر الجارى . . . . . . »

*
* *

وتسلمت منه كتاباً أرسله من بودابست (عاصمة المجر) في ١٨ مايو سنة ١٨٩٩ هذا نصه :

أخى المحبوب حفظه الله

بعد التحية والتسليم والاعراب عن شوق عظيم وردالى خطاباك المؤرخان ١٠ و ١١ الشهر الجارى وأخبرك أنى مسرور مرتاح للقاء المسيو ايل ريزنر الكاتب المجرى الشهير فانه خل من فحول السياسيين الذين كاهم عطف على المسئلة الشرقية عامة والمسئلة المصرية خاصة فقد قرأ علىّ فصلا من كتابه « مصر فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر » كله دفاع عن مصر بأدلة قوية وحجج بالغة مما لا يطمع وطنى مثلى في اكثر

منه وقد شكرته شكراً جزيلا وسأزوره بمشيئة الله عند عودتي من الاستانة التي أقصدها غداً

قد رأيت رؤيا سعيدة مارأيت في حياتي أحسن منها وأملي كبير بعد انتصار الدولة الباهر في الحرب اليونانية أن تحل مسئلة مصر حلا يرضى الوطنيين جميعاً وفقنا ووفق الله الدولة الى مايحبه ويرضاه

كنت أوصيت ديمر قبل سفري على كتب سياسية تخص مصر وعددها ٣٢ كتابا فان كان قد أحضرها فأعطه الثمن وارسل الى منها مناقشات مجلس نواب فرنسا في أبان الثورة العرابية واحفظ بقية المجلدات حتى أعود . . . . »

*
* *

ما وصل رحمه الله الى الاستانة العلية حتى كتب الي هذا الكتاب :

« الاستانة في ٢٣ مايو سنة ١٨٩٩

أخي الاعز حرسه الله

بعد التحية وتقبيل وجنتيك . أخبرك أني وصلت عاصمة

الاسلام والخلافة يوم السبت الماضى عشرين الشهر الجاري وذهبت تواعقب وصولى كما يقتضيه الواجب الى السراي السلطانية فقابلت باشكاتب المابين الذي أبلغنى عظيم ممنونية الحضرة السلطانية من خدماتى السياسية والمالية وسامي رضائها عنى واستعدادها لقبول رغائبى ومطالبى فشكرته شكراً جزيلا ورجوته أن يرفع الى جلالة أمير المؤمنين اخلاصى التام وان رغبتى الوحيدة أن أرى الدولة في حرز حريز ومصر فى نعيم مقيم والا أمل لى في الدنيا مطلقاً . وقد ابلغنى عطوفة الباشكاتب أمس أن جلالة الخليفة معجب كثيراً بهذه الصفات وهو يرغب منى شرح نيات المصريين وآمالهم وما يعتقده ساسة أوربا فيهم ومبلغ رقيهم الحاضر . فلبيت النداء وأخذت فى شرح حالة مصر وعلاقتها بالدولة من جهة وبأوربا من جهة أخرى وما تؤمله من جلالته فى سبيل خلاصها ونجاتها وقد جاء شرحاً وجيزا جامعاً اذ بلغت صحفه ٢٢ صحيفه ولذلك ترانى منهوك القوى من السفر والعمل والله المعين :

ان من أمانى التى لم أحطك بها علما الى اليوم أن يكون بين

الاستانة والقاهرة صلة أدبية تتقرب بها الامتان التركية والمصرية كلتاهما من الاخرى وقد رأيت ان أحسن صلة أن يصدر جلالة السلطان ارادة علية بقبول النابغين سنويا من مدرستنا مجانا بمدارس الاستانة ليكونوا حكماء أو ضباطا فى هذا الجيش الباسل الذى هو فخار الاسلام والمسلمين وانى فى أمل كبير أن تتحقق هذه الامنية يوما ما .

وجدت الجواسيس هنا كالذباب وهم ألزم الي من ظلى فاينما سرت أعقبونى وهى حال مؤلمة للغاية ولولا ان أمر الخليفة مطاع لتركت هذا البلد حالا . وسأبلغ عطوفة الباشكاتب عظيم استيائى من هذه المعاملة التي لا تليق بمن هو ضيف أمير المؤمنين

ان البشاشة الفائقة التى قابلنى بها الباشكاتب تدل على احترام القوم للمصريين ولو انهم لا يزالون في شك منا على ما اعتقد .

سألنى الكثيرون من مكاتبي الصحف الكبرى الاوروبية والامريكية ان أحادثهم فى شأن مصر فأجبتهم الى ما طلبوا

وسأبدأ الحديث مع جريدة وستمنستر غازيت الانجليزية غداً وهى من أكبر جرائد انجلترا

وأرجوك ان ترسل الىّ ألف فرنك بعنوان أوتيل بيرابالاس بالاستانة من باب الاحتراس لان ميزانيتى قد اختلت بقدومى الى دار السعادة والا تنسى مكاتبتى طويلا ودمت لأخيك المخلص مصطفى كامل »

*
* *

وجاءنى منه كتاب في ٣٠ مايو هذا نصه :

أخي الأعز

أهدى اليك تحياتى الأخوية. وجاءنى صباح اليوم خطاب من عطوفة الباشكاتب أبلغنى فيه ان جلالة الخليفة الاعظم أمره بحضورى الى يلدز فسرت اليها تواً وما لقيت عطوفته حتى سألنى أسئلة فهمت منها ان بعض الناقمين على الوطنية المصرية وشى بى لدى جلالة السلطان وقد أدركت فى الحال انها دسيسة دبرها رجل جاءنى في النزل ببرلين بعد ان رد سفير الدولة الزيارة الىّ فقلت لعطوفته انى ماجئت الى الاستانة

الا تلبية لدعوة جلالة أمير المؤمنين وانى أؤكد لجلالته ان بلادى فى حاجة الى الانتفاع بالوقت الذى أضيعه هنا وانى أستأذن في السفر مع تقديم اخلاصى التام واحترامى الأكيد لعرش الخلافة الاسلامية . فذهب الباشكاتب وعاد الىّ باشامرحبا وأبلغنى ثقة جلالته باخلاصى وكرر على شكره العالى وقد انصرفت وبودى أن أبرح هذا البلد الذى بلغت فيه الدسائس مبلغاً لا يوصف . . . .

. . . .

لا تتكدر من قراءة هذا فان سبب انحطاطنا وسقوط ممالك الاسلام الاصغاء الى وشايات الواشين وقضاء الوقت الثمين فى الهذيان والنفاق والوقيعة والله ينصرنا ويثبت أقدامنا رغم الدخلاء والمنافقين . . . . . .

دمت لاخيك المخلص

مصطفى كامل »

*
* *

وجاءني منه خطاب في ٢ يونيه قال فيه :

« جاءني خطاب من عطوفة الباشكاتب يسألني الا أبرح الاستانة كرغبة جلالة الخليفة وأنه صدر أمر جلالته بأن تحسب مصاريف الفندق على جيب جلالته الخاص »

وجاءني منه تلغراف في ٦ يونيه سنة ١٨٩٩ هذا نصه :

من بك أوغلى في ٤ مارس سنة ١٣١٥ رومية

الى مصر

فهمى بشارع المبتديان نمرة ١١٩ بمصر

أنعم علىّ جلالة السلطان برتبة التمايز وأبلغني مراراً رضاه العالى أعود الى أوربا خاطبني بعنوان باريس وارسل ثلاثين جنيها أخرى كامل »

*
* *

ماذاع نبأ هذا الانعام حتى ارتاحت له نفوس الوطنيين اذ أدركوا أن في عطف السلطان وهو صاحب السيادة الشرعية على خدام المسئلة المصرية عطفاً على المسئلة نفسها . أما المرحوم

فقد استاء كثيراً لهذا الانعام لاعتقاده أنه يضعف من دعوته اذ يظن أبناء وطنه فيه أنه لا يسعى الا ليلقب بألقاب الشرف مما يجد الدخيل فيه مجالا للقول والمنافق بابا للدخول ولذلك كتب الى مانصه :

فينا فى ١٠ يونيو سنة ١٨٩٩

أخى الاعز حرسه الله

بعد التحية والتسليم وتقبيل وجنتيك . وصلت الى هذه العاصمة الفيحاء التى لا جاسوس ولا دخيل فيها فشعرت انى خلقت خلقاً جديداً بعد تلك الايام التى قضيتها فى الاستانة التي لا حلو فيها الا أنها قلعة المسلمين ودار خليفة المؤمنين.

انى أود بكل شغف ان أستطلع تأثير ما أنعم به السلطان علىّ من رتبة التمايز فى نفوس اخوانى الوطنيين فاني أخاف أن يكون سيئاً كما أعتقد وانى لا أخفى عليك أن هذا الانعام قد آلمنى أكثر مما سرنى لانى كنت أود أن أعيش باسمي الذى وهبنى اياه أبى مجرداً من الاضافة حتى لا يتسرب الشك فى عملى واخلاصى لمبادئى الى نفس واحدة من نفوس بنى

قومى وأهل عشيرتى . نعم ان فى عطف الخليفة ما يؤيد المثل المشهور « من أحب قولك أكثر من مخالفتك » ولكننى كنت أتمنى أن يعطف جلالته على أصدقائى المخلصين قبل أن يعطف علىّ لتكون الظاهرة موجهة كسهم في قلوب محتلى مصر وأذنابهم عباد الشيطان وخدام الضلال ولكن ارادة الله فوق كل ارادة

اسافر بعد غد الى باريس لامكث بها ليلتين ثم أذهب الى فيشى لمداواة معدتى وسأقضى بها أربعة أسابيع ثم أعود بمشيئة الله الى الوطن العزيز

لا تنس أن ترسل الى كل ما يكتب فى الصحف بسبب هذا الانعام الذي سيتخذه الاعداء سبيلا لدسائس كثيرة نسأل الله أن ينصرنا نصراً عزيزاً . . . .

. . . .

« كامل »

*
* *

وبعث الىّ بكتاب من باريس فى ١٩ يونيه قال فيه :

« القيت أمس خطابا فى مرسح قصر مدام جوليت آدم بناء على دعوتها وقد سمعه الكثيرون من كبار الكتاب والسياسيين الذين يؤمون دار هذه السيدة العظيمة ما بين آن وآن وسأرسل تعريبه غدا اليك لتنشره فى الاهرام او حيث تشاء . . . . »

خطبة فرنسية

في باريس

٩

هذا تعريب الخطاب الذي القاه بدار مدام آدم في ضواحي باريس في ٢٠ يونيو سنة ١٨٩٩

« أيتها السيدات . أيها السادة

اني في حاجة الى معرفة تامة بلغتكم الجميلة لاستطيع أن أعبر لكم عن مقدار التأثير الذى أخاطبكم به . وانني لو لم أكن أعرف مقدار ميلكم للمصريين وعطفكم على من يتعلمون لغتكم الجميلة من الاجانب لما كنت أجرأ على التكلم بها أمامكم وأنتم زهرة الامة الفرنسية

وان صلات المحبة القديمة التى كانت تربط فرنسا بمصر لم تزل في الاذهان فاذا كانت آلامنا من السياسة الفرنسية شديدة تلك السياسة التى أسلمتنا الى الظلم البريطاني فاننا لا نريد ان

ندخل اليأس على قلوبنا من حياة الامة الفرنسية ويقظتها ومستقبلها العظيم . . كما أننا لا ننسى مجهودات فرنسا لانهاضنا من نومنا العميق وايقاظ أمتنا للسير الى الامام واعادة مدنية أجدادنا واجراء دمائهم الشريفة في أجسامنا أولئك الفراعنة الذين أدهشوا العالم في سالف الزمان وسيبقون مئات القرون وهم موضع الدهشة والاعجاب

ان بونابرت عندما ترك مصر في أواخر القرن الماضى كان معتقدا أن المصريين من تلك الامم القوية التي يجوز عليها النوم ولكن يستحيل عليها ان تموت وبعد ذلك بقليل اعتقدت فرنسا نفسها هـذا الاعتقاد فمدت يدها لذلك الرجل النابغة «محمد على» الذى مدين مصر وجعلها جديرة بماضيها وقد مثلت فرنسا هـذا الدور الجميل أمام العالم من قيام أمة مسيحية لاسعاد ورد عظمة أمة اسلامية اليها فأرسلت الينا أكبر علمائها فكانت المدارس والمصانع المصرية على اختلافها يديرها الفرنسيون وبعد بضع سنين في عمل وجهاد رأت مصر من أبنائها علماء كباراً ورجالا ذوى كفاءة نادرة وضباطاً ممتازين

غيرة ووطنية وقد أصبحت حربية مصر وبحريتها مهيبتين حيث أخذت بعد ان هبت دفعة واحدة من سباتها مركزاً لها بين معاصريها من الامم جديراً بتاريخها ومدنيتها القديمين

ولكن للاسف وجدت وتوجد في هذه الايام دولة اوربية لا يرضيها ان ترى مصر حرة عظيمة . . وهل تجهلون بريطانيا؟؟ فكم مرة حاولت تلك التي تريد أن تضم العالم بين جناحيها حرماننا من استقلالنا ورمتنا في وهدة الجهل والاستعباد لتستطيع اذلالنا.

الم تنزل عساكرها في رشيد سنة ١٨٠٧ لغزو مصر ؟؟ ولكن آباءنا الشجعان بقيادة محمد على قهروا الانجليز وطردوهم فلم تغير هذه الهزيمة من خطة تلك الدوله العنيدة . وانتهزت فرصة الخلاف المشئوم بين مصر وتركيا في سنتي ١٨٣٣ و١٨٤٠ وعرضت بلسان وزيرها اللورد بالمرستون على أورباطرد محمد على وعائلته من مصر ولكن حكومة لويس فيليب قد اتخذت خطة حزم لمصلحة مصر وأعلنت الدول بأن مس حقوق واليها بمثابة اعلان الحرب مع فرنسا وقد حفظ محمد على جميل هذه المساعدة للويس فيليب حتى انه وجم لما علم بخبر سقوطه . .

واستمرت انجلترا فى دس الدسائس بعناد وثبات يلزمني لتعدادها ساعات وساعات كان من أشدها خطراً على مصر وأدلها على مهارة الانكليز ما حدث فى سنة ١٨٨٢ تلك السنة المشئومة التي عرفوا فيها كيف يخدعون أوربا كلها ولاسيما فرنسا . . . .
ولعلكم تذكرون مذبحة الاسكندرية التي مثل فيها الانجليز أخس ما يمكن تصوره من الادوار باطلاق القنابل على تلك المدينة الزاهرة وستبقى هذه الاعمال البربرية في التاريخ غير لائقة بمدنية تنادى بعظمتها صباح مساء

دخل الانجليز لا باعتبارهم فاتحين ولكن بدعوى صداقتهم للخديو والسلطان واتبعوا سياستين احداهما داخلية والاخرى خارجية

وانحصرت سياستهم الخارجية فى تخدير أعصاب المصريين وايهام أوربا بتكرار وعود الجلاء وتركنا بعد ذلك مديرين لدفة شؤوننا

واتجهت سياستهم الداخلية

(اولاً) — الى هدم نفوذ فرنسا فى مصر

(ثانيـاً) — الى سلب سلطة ونفوذ الحكومة المصرية

(ثالثاً) — الى وضع يدها على السودان وهو روح مصر وحياتها

ولكي تكونوا على بينة من وعود ساسة الحكومة البريطانية فيما يتعلق بالجلاء عن مصر اذكر لكم شيئاً مما قاله لورد سالسبري نفسه فقد قال ذلك اللورد في سنة ١٨٨٦ « يجب علينا احترام وعودنا المقدسة بالجلاء عن مصر » وقد قال لمسيو وادنجتون المعتمد الفرنسي في لندره في شهر فبراير من السنة نفسها « يخطيء بعضكم كثيراً اذا ظنوا أننا نريد البقاء في مصر الى الابد فنحن لا نبحث الا عن طريقة تمكننا من الخروج شرفاء »

وقد قال في اغسطس سنة ١٨٨٩ « ان اعلان بقاء انجلترا في مصر الى الأبد يكون بمثابة شهادة تنقض من شرف العهود التي أبرمتها حكومة الملكة تلك العهود التي يلزمنا الخضوع لها »

وكم من مرة اقسم غلادستون بتاج جلالة الملكة على ترك مصر للمصريين . أليس هو القائل لتلك الجملة المشهورة

« اذا كان أخذ مصر جميلا فاجمل وأشرف منه الوفاء بالوعد »

خدعتنا هذه الوعود المكررة وسلمنا عن حسن نية باخلاص الانجليز حتى كان الكثيرون يرون أن الشك في صدق وعود هؤلاء السياسيين أعظم سبة لانجلترا وما كنا لنتصور أن شعباً متمدينا ينقض وعوده ويسخر علناً من عهوده الصريحة

أما نحن معشر الشرقيين فنعتقد أن المدنية المادية ليست مدنية حقيقية ولكن خير المدنيات ما ارتكز على الشرف وحرية الشعوب .. فماذا يفيدنا التلغراف والتليفون والفونوغراف بل كل مخترعات أوربا الحديثة اذا كنا نئن من استبداد مخترعي هذه الآلات الجميلة واذا لم تصلح الا لتعجل باستعبادنا. وانه لأحب الىّ ألف مرة أن أهيم على وجهي في الصحراء ممتطياً جوادي رافلا في حلل الحرية من أن أجوب بلادي راكباً سيارة وهي تحت حكم الانكليز ! .

ان انجلترا لم تضع يدها على حكومة مصر الا لتكون أقدر على اماتة الشعور الوطني وابعاد المصريين عن ينابيع العلم والحرية .

وليس فى وسعى أن أصف لكم تلك الحرب التى أثار غبارها جيرانكم الانجليز ضد نفوذكم على ضفاف نهر النيل فكراهة الانجليز للغة الفرنسية شديدة جداً وهم يجدون بعزيمة لا تكل لابدالها باللغة بلادهم فاذا استمرّ ذلك وهو ما تحمانى على الظن به سياستكم العمياء فان اللغة الفرنسية لا بد أن تمحى من بلاد كان أهلها يفضلونها بعد لغتهم العربية

لايجولن بخاطركم أن شباننا الذين يتعلمون اللغة الانجليزية تعوزهم الوطنية من اجل ذلك فانهم يحبون بلادهم حبا جماً وكثيرا مايطعنون فى الاحتلال البريطاني في مجتمعاتهم بنفس اللغة الانجليزية

وقد اتخذ الانكليز ازاءنا خطة تثير الخواطر وتهيج الوجدان فابعدوا عن الوظائف كل الاكفاء من رجالنا ويكفى أن يكون الانسان وطنياً ليطرد من الحكومة . ولم يصاف الانجليز الا الخائنون الجهلاء الدساسون . . فالعلم والشرف يضايقان الانجليز والمدارس الاميرية يتناقص عددها من وقت لآخر وتقفل أبوابها فى وجود الشبان والفضل فى ذلك لهؤلاء

المستبدين والقوانين فى انقلاب مستمر والبلاد تئن من احتمال تلك التجاريب التى تسير حسب الاهواء ولا تعرف أو لا تريد الوقوف عند حد !

عجباً ؟ أيصح أن انجلترا الحرة تدعى تمدين مصر بينما نرى سياستها تنحصر فى الاستعاضة عن المصريين بالانجليز والوطنيين بالخائنين؟ انها لطريقة عجيبة لتمدين الأمم! ولكم من مرة رأينا هؤلاء الممدينين يرتكبون جريمة القتل فى رائعة النهار ليس الا تلذذا بالقتل! ربما كانت هذه أيضاً طريقة لتمدين الشعوب الافريقية فان الانجليز يقدسون الحياة لدرجة ان أحد مفتشيهم عندنا أطلق مسدسه على ساع للتلغراف وقتله كما تقتل الكلاب لانه اجترأ ان يطالبه بايصال ولم ينل القاتل عقابه غير ارساله الى البلاد الهندية

وقد اقتضى النفوذ الانجليزى فى القاهرة منذ سنتين احراق سبعة رجال من البلينا بالوجه القبلى بعلة انهم لصوص قاوموا البوليس. بذلك يمكنكم أن تعرفوا مقدار مدنية انجلترا ومقدار كراهتنا لهذه المدنية المزعومة !

وقد بذل ساستها كثيراً من الحيل والدسائس لوضع يدهم على السودان . فلما تولى غردون حاكما عليه فى حكم اسمعيل أتى بالمستحيل ليفرق السودانيين والمصريين وليبذر بذور العداوة بينهم ولما كانت الفوضى سائدة في مصر أشهر السودانيون السلاح فى وجه المصريين وقد ساعدهم على ذلك غردون وكلكم تعلمون كيف تركته انجلترا بلا مبالاة دون مساعدة وكيف خدم موته السياسة الانجليزية فان انجلترا كانت في حاجة لان تترك مصر السودان لتسترده فيما بعد لفائدتها فقط ولكن هذا الاخلاء غير شرعي لان السودان ملك تركيا تلك الدولة التي لها حق السيادة على وادى النيل فليس لمصر الحق فى التصرف فيه ولما حانت الساعة التى حددتها السياسة الانجليزية تقرر استرجاع السودان من جديد وقد أصدر الخديو دكريتو أمر فيه الجيوش المصرية وكلها من المسلمين لتتجه نحو السودان وبعد تعب شديد ومجهودات دلت على الشجاعة « سقطت » أم درمان فى يد المصريين ولكن ماذا كانت نتيجة هذه الضحايا وهذه الانتصارات الباهرة ؟ النتيجة ان

خفق العلم الانجليزى على عاصمة السودان !!

ماسمعنا بجيش أهين مثل هذه الاهانة التى تودى بالشرف. كيف ان انجلترا التى ليس عندها الا ٣٠٠٠ عسكرى أمكنها أن تدعى وضع يدها على السودان مع ان الجيش المصرى كان عدده ٢٠،٠٠٠ ؟؟ فما قدمناه من الرجال ضحية ومابذلناه من المشاق وما أظهرناه من الشجاعة كل ذلك لم يخدم الا عظمة انجلترا ؟ فوآسفاه .. كل هذه أسئلة مؤلمة . كان الضباط يتناجون بها حتى ذهب ببعضهم الحال الى النزوع للثورة ولكنهم حربيون يلزمهم اطاعة رئيسهم الخديو الذى أمرهم بالقتال لا أن يشتغلوا بالسياسة

ولما لم تكتف الانجليز تلك الاهانة التى ألحقوها بمصر وبكفاءة الامة عمدوا الى ايذاء الانسانية نفسها فاستباحوا لانفسهم أم درمان مدة الثلاثة الايام الاولى من استردادها حتى تساءل السودانيون عما اذا كانت أعمال عبدالله التعايشى هى البربرية أم أعمال ذلك الفتح الجديد وقد أمر لورد كتشنر ان ينبش قبر المهدى وتبعثر عظامه ليظهر للعالم الحانق عليه

مقدار حبه للانسانية ولم يكتف الانجليز باسالة الدماء بل عمدوا الى ذبح الموتى ليقتلوا الانسان بذلك مرتين وقد شاهد بعض الضباط المصريين الرؤساء الانجليز يتقاسمون فيما بينهم أصابع المهدى ليحتفظوها تذكاراً عندهم .. أليس من المعيب أن نكون بمصر هؤلاء من دعاة المدنية

وقد أصبح الانجليز ينادون بملكيتهم للسودان مع انه بالنسبة لنا بمثابة روح وطننا فنحن لا نقبل هذا الاغتصاب بعد ان روينا أرضه بدماء خير ابنائنا وبعد ان انفقنا فى سبيله جزءاً عظيماً من قوانا المادية والادبية فالسودان لابد أن يكون لمصر وسلب الانجليز له لا يبرر فى نظر الشرع والانصاف

اسمحوا الى أيها السادة بعد أن مثلت امامكم مركز مصر أن ألقى عليكم بعض كلمات على خطة الوطنيين المصريين: تنحصر خطتهم فى معارضة الاحتلال بكل نشاط ومنع أي حركة أو ثورة وتربية الشعب بتقوية الشعور الوطنى

اجترأ الانجليز على دعوى أن المصريين اصبحوا سعداء تحت حكمهم وأنهم يودون من صميم أفئدتهم بقاء الاحتلال

ولقد اقمنا الحجة على هذا الافتراء بما لا يقبل النقض ولا أدل على ذلك من ان مجلس الشورى المصرى الذى يمثل الامة طلب الجلاء مرات باجماع الاراء. وكم من مرة أظهر آلاف من المصريين كدرهم من بقاء الاحتلال وأعربوا عن شعورهم الوطني في فرص كثيرة. واننا اذا عملنا لمنع كل ثورة فما ذلك الا لعلمنا ان الثورات تخدم انجلترا التى ترى من صالحها ان تمثل المصريين لاوروبا امة ثائرة حتى يبرهن بذلك على ضرورة بقاء الاحتلال

اختصت الامة المصرية من بين سائر الشعوب الاسلامية بقوة فضيلة التسامح تلك الفضيلة الدالة على مدنيتها العالية فان السياحين الاوروبين يمكنهم التجول في الانحاء البعيدة بدون ان يجدوا من الفلاح غير البشاشة والاكرام ونحن متمسكون بالمحافظة على سجايانا متخذين تلك الحكمة قاعدة لنا « احرار في بلادنا كرماء لضيوفنا »

وأهم نقطة فى خطتنا هي تعليم الشعب فان مصائب مصر لم يكن لها سبب غير جهل الامة وأنه بالرغم من محاربة

الانجليز للتعليم فان الوطنيين ينشئون المدارس الحرة وقد انشئت في هذه السنة اثنتا عشرة مدرسة وأملي كبير في ان أرى مصر بعد بضع سنين في صف البلاد المستنيرة .

اما تربية البنات فليست مهملة وأنه ليسرني أن أقول لكم ان المصريات لسن كما تعتقدون في اوربا تعيسات جاهلات فانهن سعيدات يتعلمن تعليما كافيا. أما الاسلام فانه لا محالة دين حنيف رغما مما ينسبه اليه أعداؤه فقد أحل المرأة مكانة راقية عالية.وقد قال النبي عليه الصلاة والسلام « الجنة تحت اقدام الامهات » فعلمنا بذلك كيف نحترمهن ونطيعهن وكل أعباء الحياة يحتملها الرجال لاسعاد النساء

نعم اني اعلم ان الاوربيات مستاآت من الاسلام لانه مثل لهن بأنه الآمر بتعدد الزوجات . ولكن الاسلام أيها السيدات لا يحتم تعدد الزوجات فان العادة هي التى شوهت الديانة السماوية ولما أراد الاسلام ان يضع حدا للشهوات.ونصح الي من خاف أن لا يعدل بين زوجاته بأن لا يتزوج غير واحدة حتم المساواة في معاملة الزوجات ومع ذلك

فقد قال الفلاسفة ان كل الرجال يعملون بمبدأ تعدد الزوجات وانه اذا كان المسلمون يجرون فى ذلك باسم الدين فان المسيحيين يجرون فيه باسم الحب والغرام والفرق بين الاولين والآخرين فى الشكل لا في الموضوع اما نحن فممن يعتقدون ان قلب الرجل لا تملكه الا امرأة واحدة وكل المتعلمين من المصريين يكرهون تعدد الزوجات وستزول هذه العادة بحكم الضرورة عندما يئن الفلاح والعامل من ثقل اعباء الحياة

حقيقة ان المرأة المصرية لا تشغل مركز الاوروبية لاننا لا نريد أن نكون قردة نقلد أوربا فى كل شيء وانما نريد أولا أن نبقى مصريين وان نوجه قوانا لا لهدم مدنيتنا وانما لتقويتها وتحسينها ولذلك يجب على الاوربيات أن لا يدهشن اذا كانت نساؤنا يخالفنهن في العمل والغرض والحظ من الحياة : ويحلو لى ان أقول لكم ان نساءنا كذلك وطنيات مثلنا واغلبهن يقرأ الجرائد وكلهن يبغضن الاحتلال من اعماق قلوبهن

وقبل ان انتهي اتركوا الى الحرية ان أقول رأيي ورأى مواطني فى السياسة الفرنسية في مصر فانها سياسة لا تليق بدولة عظيمة فبدل ان تكون سياسة عمليه تركت الاشياء لتصاريف الزمان فلم تعمل غير وعد المصريين بوعود كثيرة مع الاختناء ساعة الحزم والهرب وقت العمل. وأنه اذا كانت سياسة انجلترا ليست الا التظاهر بنسيان وعودها لتكثر من املاكها - فان فرنسا اساءت لنفسها كما اساءت الى أوفى اصدقائها باتباعها سياسة الاهمال وبينما تشاهد الخطر المحدق بمصر ولا تنتبه وترى الحرب أعلنت على نفوذها فتتحمل الخذلان بلامبالاة حتى أن بعض السياسيين الفرنسيين يبرر عملها هذا بقوله: انه ليس لفرنسا اصدقاء فى أوروبا غير الروسيا وانهما ضعيفتان امام انجلترا مع أن التاريخ وحده يجيبهم ان فرنسا وحدها ساعدت محمد علي فى سنة ١٨٤٠ ضد اتحاد أوروبا مع تركيا بخلاف اليوم فانا نجد الروسيا وتركيا وجلّ أوروبا معها في المسألة المصرية. وحيث انى طرقت باب السياسة الفرنسية فى مصر اجدنى مضطراً للتكلم على فشرده ! فما الذى يمكننى

ان احيطكم علما به على هذه المسألة المحزنة ؟ أليست تلك النتيجة أكبر انتصار لانجلترا في هذا القرن ؟؟ أليست اكبر اهانة لحقت فرنسا حتى الآن ؟؟ ان سقوط فاشوده هدم كل أمل كان المصريون يترقبونه من فرنسا وقد سمعت باذني بعض الآباء يطلبون من نظار المدارس ان يعلموا اولادهم لغة أجنبية غير اللغة الفرنسية وما ذلك الا لانهم مستاؤون من رؤية أمة كامتكم تتحمل اهانة علمها الى هذا الحد ! على اننا كنا حقيقة ازاء هزيتكم السياسة منتصرين لتحمس فرنسا الذي مثله الضابط مارشان وامثاله كما دهشنا وسنستمر كذلك من رؤية شعب ينجب مثل هؤلاء الرجال ويتحمل في آن واحد مثل هذه الاهانه امام العالم طرا ! فبأي عمل مجيد نافع بل بأي عمل مدهش تمحو به فرنسا هذه الوصمة لتسترد مركزها في الشرق ؟؟ اننا لسنا انبياء حتى نتكهن فلنترك الجواب للمستقبل وليس المستقبل عنا ببعيد اه »

*
* *

ما جاءني تعريب هذه الخطابة حتى طلبت الى المؤيد

نشرها فلم ينشرها معتذراً بأن المواد لديه كثيرة وأنه نشر الكثير من أمثالها فاضطررت أن أسافر الى الاسكندرية للقاء صاحب الاهرام الذى استقبلنى بكل بشاشة ونشر أغلب فقراتها

وقد كتبت الى المرحوم بما كان وجاءنى منه كتاب بتاريخ ١٤ يوليه سنة ١٨٩٩ جاء فيه :

. . . .

. . . .

عدت اليوم من فيشى بعد أن استفدت من مياهها وانى أشعر بنشاط عظيم وصحة جيدة للغاية . وقد كنت أود كما أخبرتك أن أعود الى مصر غير أنى وجدت الفرصة مناسبة للتعرف الى بعض رجال السياسة ومن بينهم مسيو روشفور صاحب القلم العالى والفكر الوقاد . هذا الرجل الكبير الذى لو انضم الى مناصرينا ضد الانجليز لغنمنا مغنما كبيراً . والفضل كل الفضل فى معرفة هؤلاء الرجال يعود الى مدام آدم هذه السيدة التى ما رأيت مثل قلبها فى العطف

على الشعوب المهضومة الحقوق فضلا عن كونها من أكبر عائلات فرنسا حسباً ونسباً وقد قضت عمرها الطويل فى معارك سياسية وشاهدت مالم يشاهده غيرها

متى عزمت على العودة أخبرتك بلسان البرق ورجائي أن تدفع لمسيو لدويج تاجر المطابع والورق ستين جنيها وتستحثه أن يستحضر آلة الطباعة بسرعة لانى عزمت عزماً أكيداً على اصدار جريدة ولو أسبوعية متى عدت الي مصر .

وبما أن حضرتى الاخوين العزيزين فريد بك والسيد رضوان جلال يرغبان الاشتراك معي مثالثة فى آلة الطباعة فانى موافق ويمكنك الاتفاق معهما على الشرائط الاولية واذا رأيت أن المكان الحالى غير مناسب لادارة جريدة فيمكنك كذلك أن تبحث عن مكان آخر يليق بها

وصلت الى نسخ الجرائد وقد ألمت شديد الالم لعدم وجود جريدة فى يدى حتى كنت أرد على أذناب الاحتلال وأدافع عن هذه المبادئ القويمة .

لاتتألم من تغير الأحوال السياسيه في بلادنا فان الزمان

من عمله تصفية الحساب . فمن ثبت ووقف حياته لخدمة مصر نال من الله فوزا مبينا ومن اتخذ الوطنية سلما لأغراضه وشهواته لا بد أن ينكشف أمره ويبوء بخزى كبير

لا تندهش أيها الأخ العزيز من وجود المنافقين فان هذا أمر طبيعي فى بلادنا بعد أدوار التاريخ التى تعلمها وليس المدهش فى الحقيقة الا أن يكون بيننا مخاصون ! »

*
* *

وجاءنى منه رحمه الله كتاب في ٣١ يوليه سنة ١٨٩٩ جاء فيه

. . . .

« كنت وطدت العزم أن أبرح مرسايا لاعود الى الوطن في يوم الجمعة المقبل ولكن سفير الدولة هنا استدعانى قبيل ظهر اليوم وأبلغنى أنه تلقي رغبة جلالة السلطان فى عودتى الى مصر عن طريق الاستانة فدهشت كثيرا من هذه الرغبة ولكنى عزمت على اجابة هذا النداء العالى بالرغم من مضايقات الاستانة التى شرحت لك بعضها

لذلك أرجو أن ترسل الى بعنوان فيينا على لسان البرق نقودا من باب الاحتياط فأنى أود أن أقضى بضواحيها بضعة أيام لمقابلة بعض كبار النواب ورجال الحكومة والصحافة وربما عرجت كذلك على المجر لأعمال سياسية هامة

. . . .

دمت لاخيك

كامل »

*
* *

وجاءنى منه فى أول أغسطس كتاب ورد فيه . . .

. . . .

سأسافر مساء اليوم الى فينا بعد أن قمت هنا بما يجب علىّ نحو بلادنا العزيزة وبعد أن أكتسبت مودة الكثيرين من أهل السياسة والمقام الاسمى . وقد طلب الىّ الكثيرون منهم ان القى خطابا فى القاعة الجغرافية الكبرى على مسائل مصر السياسية والاقتصادية والوطنية ولكن أعمالى الكثيرة ورغبة السلطان في سفرى الى الاستانة ووجود أغلب أصدقاء

مصر بمصايفهم كل ذلك حال دون أجابة هؤلاء الى ماطلبوه

قابلت اليوم مسيو دى روزاس (ناظر مدرسة الحقوق الفرنسية بمصر) وتكلمت معه بشأنك فأظهر عظيم احترامه لك واعترافه بكفاءتك واستعدادك وقال لى أنه يرى أن دراسة الحقوق غير مفيدة لك بالمرة في عملك الحاضر فأنك في حاجة الى دراسة أصول التربية الحديثة لتسير بالمدرسة التي أخذناها على عاتقنا فى طريق الرقى والنجاح . لاسيما أنك بعد نيل الشهادة الثانوية قد قضيت عامين بمدرسة الالسن مما يساعدك كثيرا على تحقيق هذه الامنية . وأني أوافقه على هذه الفكرة فأن تربية الشعب من أهم ماتتجه اليه أغراض الوطنيين العاملين . ولى عظيم الامل أن أعود الى مصر قريبا لارتب معك مايلزم لانشاء الجريدة ثم أتركك تسافر الى أوربا لزيارة مدارس فرنسا وسويسرا وبلجيكا التى هي أرقى بلاد العالم فى التربية والتعليم

انى مع اعتقادى أن هذا الرأى لاشك يؤلمك لرغبتك التى أعلمها من زمن بعيد فى دراسة علوم الحقوق ولكنى

لا أخفى عليك أنى فى أشد الحاجة اليك وعلى الاخص لاننا على أبواب العمل الحقيق ويجب علينا أن نقدم الاهم على المهم وأن نبخل بوقتنا كل البخل على مايفيد ذاتيتنا ولا نضن به على ماينفع بلادنا ويخدم أمتنا

انى طالما أظهرت لك أمنيتي من وجودك بجانبي وها قد من الله على بذلك وانى أخاف أنك اذا درست الحقوق بسرعة كما كنت قد رسمت لنفسك تشتغل بعدئذ بالمحاماة وتتركنى وحيداً فى هذا العمل الشاق. وانى اذا كنت أعتقد في فريد بك اجابتى الى طلبي اذا سألته ترك عمله ليكون بجانبي فما بالك وأنت شقيقى الذى أحبه كروحى وأعتقد أنك تحبنى كذلك. .

. . . .

هذا وأبعث اليك فى البريد بكتاب على التربية الحديثة اختاره لك مسيو دى روزاس نفسه

. . . .

دمت لاخيك المخاص

كامل »

*
* *

وبعث الىّ من فينا بكتاب جاء فيه :

« فينا فى ٢ أغسطس سنة ١٨٩٩

شقيق الاعز حرسه الله

بعد التحية وتقبيل وجنتيك . وصل الىّ اليوم خطابك العزيز المؤرخ ٢٣ الشهر الماضى وقرأته بمزيد السرور والارتياح وجواباً عليه أفيدك أني وصلت الى فينا هذا الصباح وقد لاحت لى أمور غيرت معها خطة سفرى اذ أبرحها بمشيئة الله غداً مساء الى الاستانة العلية التى سأبذل الجهد فى العودة منها الى مصر فى ١٦ الشهر الجارى

نصائحك الحكيمة سرتنى جداً فلا تخف على صحتى وتيقن أنى لا أعمل الا ما يمليه على وجدانى والله الذى أنجاك من يد الانكليز ووهبنى الصبر الجميل وشد أزرى بعدئذ بك لا أتحول عن هذا السبيل السياسى وكن عند ظنك بى بارك الله فيك . . . . .

واعلم أنه بالرغم من شبوبيتى وغيرتى واتقادى واخلاصى

متبصر لا أقول الا ما أريد لا ما يريد غيرى كما يفعل البعض ممن ادعوا الوطنية . . . . . وأول دليل عندى على رضا الخالق جلّ شأنه علىّ هو أنه خلصك من الجندية لتكون لى اليد اليمنى والاخ المعين والمساعد الاول فى خدمة الاوطان ومع الصبر والثبات نبلغ المراد

لأستسهلن الصعب أو أدرك المنى

فما انقادت الآمال الا لصابر

وانى أرى للصحافة فى مصر وسائر بلاد المسلمين مستقبلا عظيما جداً خصوصاً اذا كان المحررون لها ممن عرفتهم الامم الاسلامية وعرفت فيهم الاستقامة والاخلاص

أوافق كل الموافقة على وضع المطبعة بالدور الاسفل من سراى العزبى وأرجو منك تبليغ عاطر سلامى لاخوانى فريد وجلال وعلى فهمى وحسين قردجولى ومحرم رستم . ولا تنسى مصطفى بك سرى ، فانى شاكر له كل الشكر ان عارفا له فضله وكماله

كتبت اليوم لعبد العزيز نريد حسب أمرك وانى لا أشك

لحظة واحدة فى أنه الوفاء بعينه

. . . .

ودمت لاخيك المخلص

مصطفى كامل »

وتسلمت منه كتاباً جاء فيه :

« الاستانة العلية فى ٧ أغسطس سنة ١٨٩٩

أخى الاعز حرسه الله

بعد التحية الاخوية وتقبيل وجنتيك العزيزتين أخبرك أنى وصلت الاستانة العلية بمزيد الصحة والسلامة أول الامس وذهبت تواً الى يلدز فقوبلت بمزيد البشاشة والاحترام وقد أظهر لى الباشكاتب رغبة جلالة السلطان فى معرفة حركة الخواطر الاوروبية نحو الاسلام والمسلمين وما يؤدى الى خدمة المسلمين ورفعة شأن الاسلام وما لقيته أثناء رحلتى الاخيرة وقد أجبته الى طلبه وسأكتب كل ما فى غنى خدمة لمصر خاصة وللعالم الاسلامى عامة وأملى أن أطبع ما أكتبه

في رسالة خاصة اذا سمح جلالته بذلك

أقيم أثناء وجودى بالاستانة بأوتيل سوم بالاس بترابيا وقد قابلت هنا شوقى بك وعبد الله بك أباظه وكلما ذكر صاحبنا بمصر (يقصد سمو الخديو) أذكره بأحسن لسان وأشتكى من خدامه الادنياء !!

انتظرت النقود التى طلبتها منك فى ٣١ الماضى فلم ترد حتى الساعة وأملي أن أتسلمها غداً

قبل لى وجنات فريد بك وفدنى عن صحة والده

وفى الختام أسألك أن تقبـل لى أيدى السيدة الوالدة البارة الرحيمة وأقبلك ألف قبلة وأسأل الله جل شأنه أن يرفع وطننا فوق كل بلد وان يجزى المخلصين

أخوك المخلص

مصطفى كامل »

*
* *

كتب الىّ المرحوم فى أحد كتبه التى اثبتناها فى هذا الجزء أن جريدة « برلينرتا جبلاط » نشرت له مقالا عنوانه « المانيا والاسلام » فى يوم الجمعة ٥ مايو سنة ١٨٩٩ ولما كان تعريب هذا المقال غير موجود لدينا فقد كتبنا الى حضرة أخينا الوطنى الغيور الدكتور محمود بك لبيب محرم المقيم ببرلين أن يبعث به الينا وقد تفضل وأرسله فتسلمناه فى يوم السبت العاشر من شهر فبراير عام ١٩١١ وهذا نصه :

ألمانيا والاسلام

ان احترام جميع مسلمي العالم لجلالة الامبراطور غليوم الثاني وعطفهم على الامبراطورية الالمانية أصبحا اليوم حقيقة جلية للعيان لا ريب ولا خلاف فيها . وما سبب ذلك الا أن المانيا أخذت منذ بضع سنين تبرهن للعالم الاسلامي الذي عاملته أوروبا بغلاظة وجفوة أن في العالم المسيحي دولة أدركت أن المسيحية لا تحرم مصافاة وخطب ود المسلمين

وفي الواقع قد تحقق جلالة الامبراطور بنظره الثاقب ما للمسلمين من قوة وما لخليفتهم من سطوة في نفوسهم وما يكمن في جسم الامة التركية من عناصر الفتوة والقوى الحيوية . كما تحقق جلالته فوق ذلك أن المسئلة الشرقية أعقد من ذنب الضب وأنه من رابع المستحيلات حلها بتقسيم الممالك المحروسة كما يتخيل ذلك المتهورون المتعصبون من ساسة أوروبا . وأن الثلاثمائة مليون مسلم الضاربين في انحاء المعمور لا ينظرون الى أي سوء يمتد الى الدولة العلية من يد

أثيمة لغرض تقسيمها او ابتلاعها بعين المرتاح ونفس المطمئن بل على الضد يقومون قومة واحدة تهتز لها الارض ومن عليها فتتهدم أركان الامن العام وتسوء العقبى . اذ المسلمون جميعاً لا تغفل لهم اذ ذاك عين عن الاخذ بالثار لتركيا المحترمة المحبوبة وطنهم الاسلامي العام

فطن جلالته الى كل ذلك ووجد أن الحل الوحيد المستطاع للمسئلة الشرقية والذى يقره العقل السليم وتؤيده الانسانية الحقيقية انما هو فى ترك الدولة العلية آمنة مطمئنة تعمل بنفسها لاصلاح مرافقها الداخلية واسترداد مجدها الباذخ وسؤددها القديم

ومما يؤيد أن المانيا لا تجد حلا للمسئلة الشرقية غير هذا مؤازرتها للدولة فى تنظيم جيشها وتدريب جندها ليكون درعها الواقية وعدتها المرهبة . هذه الخدمة الالمانية الجليلة التى يذكرها المسلمون دائماً لضباط الالمان بمزيد الاعجاب والاعظام كما يذكرها الجيش العثمانى الباسل الذى لا يضارع على ممر الايام

على أن اسم الامبراطور غليوم الثانى لم يأخذ هـذه الشهرة الفائقة في البلاد الشرقيـة الا ابان الازمة الارمنية. ومن منا لا يذكر تلك الخطة الشريفة النجيبة التى اتخذها الامبراطور وحكومته المبجلة فى الوقت الذى تحفزت فيه أوروبا باسرها للوثوب على تركيا وسلطانها ؟ من منا لا يذكر ولاء الامبراطور للسلطان واعترافه بسطوته وسلطته ومقامه واحترامه في الوقت الذى كان يدعو فيـه اللورد سالسبرى العالم المسيحي أجمع الى اشعال نار حرب صليبية ضد نفوذ جلالته ؟

لا ريب أن ذكرى هذا الصنع الجميل الذي اتاه جلالة الامبراطور من تلقاء نفسه فى وقت حوادث الارمن ستبقى خالدة مطبوعة الأثر فى نفوس المسلمين جميعا. وليس الهتاف والترحيب اللذان استقبله بهما المسلمون في العام الماضى الا دليلين حسيين على ما لجلالته من الاحترام والعطف فى قلوبهم حتى لقبوه فوق ذلك « بالصديق العظيم »

نعم أنه أكد للمسلمين اثناء سياحته فى ممالك الدولة

انه الصديق العظيم وقد رددت صوته العالى المسموع فى أرجاء العالم تلك الكلمات الودية التى نطق بها جلالته فى احدى خطاباته عند ما كان ضيف الدولة الكريم . ألم يقل جلالته « انى أقسم بأن صداقة أمبراطور ألمانيا للثلاثمائة مليون مسلم المنتشرين فى أرجاء العالم وخليفتهم ستستمر الى الابد »

الا ان هذه الكلمات المرضية المحمودة التي اشتغل العالم زمنا بتأويلها وتفسيرها كانت سببا لان أسائل نفسى : يجوز مع ذلك لعشرة الملايين من المسلمين المؤلفين لقوة الامة المصرية أن يعتمدوا أيضا على صداقة امبراطور المانيا ؟

وهل يصح أن يكون لنا فى هذه الاقوال التى ليست الا عهداً أمبراطوريا بعض السلوى ونعتقد معها أن لنا بين المسيحيين صديقاً عظيما لا يوافق على اضطهاد الانكليز لمصر وسلبهم لاقدس حقوقنا باسم المدنية والانسانية ؟

أنه ليتعذر على أن أجيب على هذا وعلى الاخص بعد أن أتهمنا سماسرة السوء بتهمتين — كلتيهما اكذب من الاخرى . لا لغرض آخر سوى ابعاد الالمانيين عن الميل

الينا ومناصرتنا فقد زعموا أن الامة المصرية تكد لنيل استقلالها التام غير ناظرة الى ما لتركيا في مصر من الحقوق وهو الكذب المحض والافتراء أى الافتراء لان المصرى الذى يحلم بالتخلص من الاستانة ليس فى نظري بل وفى نظر الامة المصرية بأسرها الا معتوها او مسلوب الشعور او خائناً لبلاده . فقد علمنا التاريخ وهو اصدق المعلمين وأمهرهم أن جميع ما حل بمصر من الارزاء والبلايا ما كان سببه الوحيد الا النزاع الواقع والخصام القائم بين مصر والدولة العلية وأن بلادنا العزيزة لا تسعد وتقوى الا اذا وطدت عرى المحبة الخالصة ووثقت أواصر الارتباط بينها وبين تركيا . لاسيما أن مصر أهم شطر متمم لجسم وروح الممالك العثمانية المحروسة

ان هذا الرأى ليس خاصا بي وحدى بل أنه أصبح كذلك عقيدة ثابتة متأصلة فى نفوس جميع أبناء وطنى . فوادى النيل من أدناه الى أقصاه لا يعرف غير وجوب هذه الرابطة المحتمة بين مصر والدولة حتى أنك لا تجد واحدا منا

تسرب الشك الى قلبه فى الدولة العلية او تزحزح قيد أنملة عن الاخلاص لها والتعلق بها

أما التهمة الثانية التى تمكن المفسدون من اذاعتها فى المانيا فهى لا شك أوهى وأحط من الاولى . ذلك أنهم قلبوا الحقيقة وادعوا أن ما نسميه بالمسئلة المصرية ليس فى الحقيقة الا مسئلة فرنسية . وهى تهمة لا يحتاج بهتانها الى برهان لان أقل الناس ادراكا يعلم أن المسئلة المصرية ليست الا مسئلة عثمانية بحتة بل انها قبل كل شىء روح المسئلة الشرقية . نعم لا ينكر أحد ما لفرنسا من المصالح الجمة فى مصر ولكن هل نعتبرها شيئاً مذكوراً اذا قورنت بما لتركيا فيها ؟ ماذا يكون مصير الخلافة الاسلامية العثمانية اذا قدر لمصر أن تكون ولاية انكليزية ؟ وهلا تكون قناة السويس سلاحاً ماضياً خطيراً فى أيدي الانكليز ؟ وهلا يصبح البحر الاحمر بحيرة انكليزية وتصير مدينة الحديدة ثغراً انكليزياً لا تخدم فيه الا المصالح والشؤون البريطانية ؟ وماذا يكون اذ ذاك مصير الحرمين بمكة والمدينة ؟

انا لسنا فى حاجة الى الـكثير من الحنكة السياسية والدربة العمرانية لندرك الاخطار الهائلة التى تهدد كيان الدولة العلية خاصة والخلافة الاسلامية عامة ببقاء الانكليز فى وادى النيل

وأنه اذا كانت المانيا تميل حقيقة الى المحافظة على صداقة الدولة المحروسة والاخذ بناصرها وتعطف عطفاً أكيدا على المسلمين راغبة في استبقاء مودتهم والانتفاع بقوتهم فما عليها الا أن تفكر فى مصر طريق العالم ومركز الدنيا وقلب الخلافة العثمانية بلا خلاف . وأن الثلاثماية مليون مسلم الذين لا يجهلون اليوم ما وعد به امبراطور الالمان من أنه سيحافظ على صداقتهم ومصافاتهم يعدون ضياع مصر بلية البلايا ومصيبة اسلامية لا مثيل لها ولذلك كان أملنا كبيراً فى تدبر المانيا فى الامر قبل أن يفوت الوقت وتذهب الفرصة ولات ساعة مندم

مصطفى كامل »

*
* *

وبعث الىّ باشارة برقية فى ٢٠ أغسطس هذا نصها :

« أنعم علىّ جلالة السلطان بالرتبـة الاولى من الصنف الثانى »

وما نشرت الجرائد نبأ هذا الانعام حتى قامت قيـامة صحف الاحتلاليين وأخذت تطعن عليه بفاحش القول وبذىء الـكلام كما اتخذ المنافقون هذا الانعام الثانى سبباً للوشاية به عند من يهمهم امره ويحسبون لعمله حسابا كبيراً أما الوطنيون المخلصون فانهم فرحوا فرحا كبيرا وقـد جاءنى عن طريق البريد والتلغرافّ رسائل شتى كلها تبريك وعطف

وأما المترجم فانه ارسل الى بعد هذا النبأ كتاباً قال فيه :

. . . .

كما انى لم أخف عليك استيائى من الانعام الاول فانى كذلك مستاء أشد الاستياء من هـذا الانعام لانه ما وقع فى تاريخ القاب الدولة مثل هذا فينعم على امرىء برتبتين فى

شهرين ولكني اعتقد أن السلطان أراد أن يطعن الاحتلال بسهم صائب لان فى عطف جلالته على خصوم هذا الاحتلال لدليلا قاطعاً على كرهه له ورغبته فى جلائه

إنى لا أشك أن خصوم البلاد وأعدائها والمنافقين الذين يدعون أنهم من الامة سيتخذون هذا الانعام سبباً آخر لتسوئ سمعتى وبذر بذور الدسائس بينى وبين العاملين معنا فى السر والعلانية . ولكنى أؤكد لك أنهم لا ينجحون فان الناس لايحبون خدام المبادىء لاشخاصهم ولكن حباً فى المبادىء نفسها وانى والحمد لله معروف بمبادئى التى شرفت الكثيرين من رجال التاريخ قبل أن أعرف بلقب أو وسام . فليقل العدو ماشاء فأنه عدو على كل حال

أما السياسة العمومية بين يلدز وعابدين فقد أخذت تتحسن عن ذى قبل وأن الدسائس والوشايات التى استخدمها الانكليز فى الاستانة والقاهرة لتوسيع حلقة الخلاف بين التابع والمتبوع لم تنجح مطلقاً وهذا مايجعل الوطنى فى ارتياح وانشراح . نعم انه يوجد كما قلت لك طويلا قبل سفرى من

لايهمهم الا ملء جيوبهم بالنضار الزائل ولو كان فيه خراب العالم بأسره ولكن على مارأيت مما سأحدثك به ملياً عند عودتى — قد حدث هنا انقلاب رئيسى فى الاعتقاد فى الخديوية المصرية وجميع المصريين فان السلطان رأى أن يضرب بهذه الوشايات عرض الحائط حتى لاتتجزأ الاجسام بانشقاق الرؤوس على بعضها . . . . .

لابد أن يكون أولئك الذين تظاهروا بالوطنية زمناً طويلا حاسدين ناقمين فاذا رأيت منهم مرارة فى اللفظ وعتامة فى الضمير فلا تتألم بل آلمهم بيشاشتك وتجاهلك وكن عند قول الشاعر العربى:

قد أتعب الاعداء من داراهمو
فأقم عدوك باللبان وأقعد
إن الاراقم لا يطاق لقاؤها
وتنال من خلف بأطراف اليد

هذا وأملى فى وجه الله أن أبرح الاستانة في ٣٠ الشهر الجارى . . .
مصطفى كامل»

*
* *

وجاءني منه كتاب في ٢٣ أغسطس سنة ١٨٩٩ قال فيه :

. . . .

« دعيت الى يلدز مرتين وقد قابلت جلالة السلطان بعد ظهر الامس وأظهر لى جلالته عظيم ارتياحه من جهادى وأكد لي أنه مهتم بمصر ومسئلتها وأنه يتحين الفرصة لعرض مسئلتها على بساط البحث . وكذلك أصدر ارادة عالية بقبول عشرة تلاميذ من مدرستنا سنويا بمدارس الاستانة العالية مجاناً وهى منحة لابد أن يقابلها المصريون بكل سرور

سألنى الباشكاتب أن أكتب ثلاثة من المخلصين لعرضهم على جلالة السلطان حتى يبرهن من جديد بالانعام عليهم على أن المصريين هم كذلك أبناؤه وموضع رعايته فكتبت معك حضرتى الاخوين الفاضلين الشيخ محمود أبى النصر وعلى أفندى فهمي المحامى وقد رأيت أن أضيف على اسمك كلمة « كامل » حتى لا يتشاكل الامر بينكما وربما تصدر الارادة

قريباً غير أني لا أعرف نوع الانعام وكذلك طلبت لاخينا شوقي بك ميدالية الحرب العثمانية اليونانية وأملي في وجه الله أن يهبنا من لدنه فوزا مبينا

لا تنس ارسال النقود كما سألتك ودمت لاخيك

مصطفى كامل »

*
* *

ماجاء يوم ٢٨ أغسطس سنة ١٨٩٩ حتى تسلمت اشارة برقية هذا نصها :

« فهمي بشارع المبتديان نمرة ١١٩ بمصر

أنعمت عليكم الحضرة السلطانية ومحمود أبو النصر وعلى فهمي المحامي بالرتبة الثانية وشوقي بمدالية الحرب فأهنئكم

كاتبني كامل »

——— ⟿ ———

*
* *

وما ذاع النبأ حتى أخذ الناس يتحدثون بنفوذه رحمه الله فابيضت وجوه واصفرت وجوه شأن الناس في أمر مثل هذا وهم بين صديق متين وعدو مبين

وقبل ان يعود رحمه الله الى مصر أنعم عليه السلطان بالنشان المجيدي الثاني الامر الذى كادت معه تنفجر صدور الذين كانوا يسيرون معنا فى طريق الوطنية على دخل حتى أن صحافياً منهم قال لى : ألا يكون هذا الانعام المتكرر بلا مناسبة على أخيك وعلى بعض أصحابه وعليك سبباً في مصادرة المحتلين لكل لقب يأتى الينا من طريق الاستانة ؟ بلغ بالقوم الحسد هذا الحد المخزى فأخذوا يهرفون بمثل هذا. ولو شئت أن أذكر الاسماء والالقاب والاقوال التى صادفتها بعد هذا الانعام لاحتجت الى مجلد ضخم ولكن المنافقين المضلين معروفون !

*
* *

عاد رحمه الله الى مصر مع الكثيرين من المصريين الذين كانوا فى الاستانة على « القاهرة » احدى بواخر الشركة الخديوية فاستقبله الكثيرون من اخوانه وأصدقائه والمؤمنين بمبادئه أعضاء الحزب الوطنى واحتفلوا به احتفالا عظيما

حادثنى فى أمر الجريدة التى يريد اصدارها وقد كانت المطبعة التى أوصى عليها لتكون شركة بينه وبين حضرتى محمد بك فريد والسيد رضوان جلال قد وردت الى العاصمة فرأينا أن نترك هذه المطبعة للشريكين ونستقل بعملنا وعلى ذلك أخذ رحمه الله فى تخير زملائه في العمل فاختار حضرة محمود أفندى عزت لادارة المطبعة وأعمال الجريدة وحضرة الكاتب البليغ محمود افندى سلامه محرراً وحضرة الزميل الصادق مصطفى افندى عزت (المحامى الشهير) مترجماً وحضرة مأمون أفندى بيومى مخبرا وترك لهم الحرية التامة فى تأسيس الجريدة وتحضير أدواتها فأخذوا فى العمل بهمة

عالية وكان أكبر الفضل فى تحضير أساسها لحضرتى سلامه افندى وعزت أفندى

أما المترجم فانه عزم على القاء خطاب فى مدينة العاصمة وحدد له يوم ١٨ ديسمبر سنة ١٨٩٩ وما جاء هذا اليوم حتى غص التياترو الايطالى بآلاف الراغبين فى سماع الخطاب المتشوفين الى رؤية الخطيب . أما الخطبة فها هو نصها :

خطبة وطنية

في القاهرة

١٠

« سادتي وأبناء وطني الاعزاء

طالما وقفت بينكم خطيباً أذكر مصائب الوطن العزيز واذكركم بالواجب نحوه وأقف بينكم الليلة هذا الموقف نفسه اجابة لصوت ضميري الذي يناديني في كل لحظة وآن بوجوب خدمة هذه البلاد التي لا شرف لنا الا بشرفها ولا مجد لنا الا بمجدها . وان العناية التي أجدها منكم في كل أمر يهم الديار ومستقبلها تزيدني ثباتا على ثبات وقوة على قوة وتكفل لي النجاح وتحقيق الآمال

ومهما قال القانطون اليائسون أني أعرض بنفسي للدمار في سبيل أمة لا يرجى لها نجاة وان الخطيب بين المصريين انما يخطب في الصحراء لا يسمع له قول ولا يجاب له نداء فاني أرى ان اليأس من مستقبل مصر ضرب من ضروب

الجنون واعتقد ان الامـة المصرية لم تخلق عبثاً فى الوجود
واعلم أن الوطنية الحقيقية تقضى على صاحبها ان يعمل لامته فى
وقت شقائها أكثر من عمله فى وقت عزها ورخائها وان يضحى
كل نفيس لاجـل سعادتها لينال الشرف الحقيقي فى حياته
والمجد الابدي بعد مماته . ولذلك عاهدت نفسى امام الله وامام
الناس ان أجعل حياتى هبة لبـلادى وان أصرف فى سبيل
سلامة هذه الديار قصارى الجهـد وغاية القوة مهما لاقيت
من المتاعب وصادفت من المصاعب. ويعلم الله انه لو انتقل
فؤادى من الشمال الى اليمين أو تحولت الاهرام عن مكانها
المكين ما تغير لى مبدأ ولا تبدل لى اعتقاد بل تبقى الوطنية
رائدى ونبراسى ويبقى الوطن كعبتى ومجده غاية آمالى

وانه كلما تقادم عهد الاحتلال الانكليزى في البلاد تضاعفت
واجباتنا نحو الوطن العزيز . فقـد ظهر اليوم للعالم أجمع ان
انكلترا تعمل للاستيلاء على مصر ووادى النيـل وترمى الى
نزع كل سلطة من أيدى المصريين . وتحقق للعامة والخاصة
ان المدنية الانكليزية لا تعرف فى سياستها مع الامم الضعيفة

معنى للوعود والعهود ولا ترعى حرمة للعدل والانصاف .
والا اذا كانت الدولة البريطانية تعتبر أساس المدنية والانسانية
احترام وعودها وعهودها ومعرفة حقوق الامم ضعيفة كانت
أو قوية فلماذا لا تزال محتلة مصر بعد انقضاء السنين الطوال؟
أهى محتلة الديار لتعزيز الخديوية وقد شهد العالم بأسره ان
المصريين هم أشد الامم احتراما لسمو اميرهم النائب الشرعى
عن جلالة سلطانهم الاعظم . أم هى محتلة لترقية مدارك
المصريين وتعليمهم ادارة أمور بلادهم بانفسهم ورجالها يعملون
فى مصر ليل نهار لهدم سلطة الوطنيين وسلب قوة الحكومة
من أيديهم . أم هي محتلة لتوطيد اركان الأمن فى البلاد
وقد توطنت أركانه من زمن بعيد وأصبح من العار على دولة
عظيمة أن تطيل احتلالها بمثل هذه الدعوى الواهية . أم هى
محتلة لاعادة السودان الى مصر ونشر الراية العثمانية على كافة
ارجائه وقد رأينا دماء المصريين وأموالهم تذهب ضحية
المآرب الانكليزية والاغراض البريطانية وأصبح السودان
غريباً عن مصر وأصبحت مصر غريبة عن السودان

ولقد كنا نود من صميم أفئدتنا أن يقوم الانكليز بوفاء وعودهم واحترام شرف عهودهم وأن يبرهنوا للعالمين أن المدنية الصحيحة هي المدنية القائمة على الفضائل الحقيقية المنافية لاغتيال حقوق الامم . ولكن من سوء حظ النوع البشرى ان المدنيـة الحاضرة أبطلت الرق فى الافراد وأعلنته فى الشعوب واستهجنت مخالفة الذمـة والشرف فى المعاملات الشخصية وسمحت بها فى المعاملات الدوليـة . وما دامت السياسة الانكليزية قائمة على هذه المبادىء فلا سبيل للاتفاق بين المصريين والانكليز . وكيف الاتفاق وأبناء التاميز يسلبوننا أعز عزيز لدينا وهو الوطن المقـدس وطن الآباء والأجداد وموطن الابناء والاعقاب . فالعواطف الوطنية التى امتزجت بدمائهم وتدفعهم فى كل وقت الى خدمة بريطانيا دون غيرها هى بعينها العواطف الوطنية التى تملى علينا المطالبة بحقوقنا والمناداة بحريتنا واستقلالنا الداخلى

واذا كان الانكليز يعتبرون الشرف منتهى الشرف فى المدافعة عن الوطن عند الخطر والسعى فى اتساع أملاكه وقت

السلم فالشرف غاية الشرف عندنا معاشر المصريين أن نطالب بحقوقنا المقدسة ونسمع الملل والدول أننا نأبى السيادة البريطانية علينا ونرى الموت أحب الينا من أن نكون بين الامم الامة الوضيعة الذليلة المهضومة الحقوق المغلوبة الارادة المحكومة بالاجنبي الساقطة فى مهواة الذل والاستعباد

واذا كانت الامم الهمجية تدافع عن أوطانها بفطرتها التى فطرت عليها وتفضل الموت فى سبيل الاستقلال على الحياة تحت سلطة الاجنبي فكيف بالمصريين وهم أعرق الامم فى المجد والسؤدد والعمران . أنأخذ من المدنية الغربية زينتها وزخرفها ونترك الوطنية وهى أساس تقدمها وتمدنها ودعامة حياتها ووجودها؟ انترك فضائلنا الاولى وننسى مبادىء ديننا ونطوى صحف التاريخ بما فيها من الحكم الباهرات والعظات البينات؟ اتكون مصر وطناً لنا واللغة العربية لغتنا والاسلام ديننا ونكون آخر الامم وأحط الشعوب؟ بماذا نفتخر معاشر المصريين اذا اجتمعت الامم فى نهاية هذا العصر وافتخرت كل أمة بما نالت من الفوز والنصر والسعادة والسلطة؟

أنفتخر باحتلال الانكليز وقعود الهمم والعزائم عن انقاذ الاوطان؟ أم نفتخر بتسليم البلاد للمحتلين ورفع العلم البريطانى على السودان؟

لقد آن لكم يابنى مصر ان تهبوا من رقدتكم وتنتبهوا من غفلتكم وتجمعوا كلمتكم وتضموا أصواتكم الى أصوات بعضكم وتأخذوا بيد الوطن الذى يسألكم من عميق هاوية المذلة والهوان أن ترفعوه الى اسمى مقام واشرف مكان. أما ترون كيف ان اهل الارض قاطبة يعجبون أشد الاعجاب باصغر الامم اذا اجتمع أبناؤها حول راية الوطن وصدوا عنه المعتدين. اما ترون ان الله نصير الذين يشكرون نعمته عليهم بالمحافظة على أوطانهم وما الاوطان الاخير نعمة للرحمن على بنى الانسان — انا نرى الانكليز يتباهون بانهم يحترمون في مصر الحرية الشخصية ويتركون للخطباء والكتاب استقلالهم فى الاقوال والآراء فلا حرج اذا على المصريين اذا نادوا بمبادئهم على رؤوس الاشهاد وعارضوا حكومة بلادهم فى كل ما يصدر من اعمالها مخالفاً لمصلحة الامة والبلاد. وما دمنا

نحافظ على النظام فى كل أعمالنا ونحسن الود مع سائر الاجانب القاطنين بلادنا فلا يستطيع أحد ان يلومنا اذا وجهنا عنايتنا الى اصلاح شؤوننا وراقبنا الحكومة فى سائر اعمالها شأن الامم الحية والشعوب العارفة لحقوقها

والذى يضرنا معاشر المصريين أكثر من كل شىء هو عدم اعتمادنا على انفسنا واعتقادنا اننا أمة قضى عليها بالموت الدائم فترى البعض منا يقول جهاراً ان الشعب المصرى فقد الحياة والوجود وليس فى بنيه من يعرف لمحبة الوطن معنى وانه يستحيل على مصر ان تنهض من رقدتها وتبلغ آمالها من العز والسؤدد. وقد ردد اليائسون هذا الاعتقاد الفاسد حتى رسخ عند البسطاء وضاعت ثقة الامة ببعضها وداخلها اليأس من حالها واستقبالها. على أن اشد الادواء ضرراً بالشعوب هو هذا الداء العضال الذى اذا تمكن من امة قتل فيها كل عاطفة وكل حياة وجعل اهلها فى الوجود حيارى لا غرض لهم ولا مطلب يعملون للوصول اليه . وقد أثبت التاريخ بافصح بيان ان أكبر الآفات على الدول والامم أن يعتقد ابناؤها الضعف فيها وان يشاع عنها

انها غير قادرة على حفظ كيانها. وها هي الدولة العلية طالما سمعنا اعداءها يشيعون عنها الضعف والاضمحلال حتى ظن الكثير من أشد الناس حبا لها واكثرهم ميلا لسموها ورفعتها انها على شفا جرف الهلاك والدمار فلما قامت الحرب بينها وبين اليونان علم الكارهون والمحبون انها لا تزال صاحبة البأس والقوة واسبق الدول فى ميادين القتال

فيا أيها المصريون لا تظنوا ان أمتكم فقدت الحياة ولا تغتروا باقوال اعدائكم بل اعتمدوا على الحق جل وعلا واصغوا الى نداء الوطن العزيز واعملوا لانقاذه واصلاح احواله غير حاسبين للزمن حسابا فان لم نستطع بلوغ آمالنا في حياتنا فليبلغها ابناؤنا من بعدنا ولا نكون في العالمين أمة ميراثها الذل والهوان والاستعباد !

الا ان المسألة المصرية الحقيقية هى مسألة تأخر الامة المصرية واستحكام الشقاق بين افرادها. وما مسألة الاحتلال الانكليزي الا مسألة فرعية بالنسبة لها . فان بقاء الامة متأخرة منحلة الاعضاء يعرضها الى كافة الاخطار في سائر

الامصار وعلى العكس فان تقربها من طريق العرفان واتفاق بنيها على خدمتها وتعاضدهم على اسعادها يحميها ضد الطوارىء والنوازل ويقيها شر جميع الاعداء . فالاتحاد يا بنى مصر الاتحاد هو عنوان النجاح ودليل الفلاح . تمسكوا به واتركوا الشقاق وراءكم فقد أوصلكم الى ما أنتم عليه من الذلة والمسكنة!

والغريب فى أمرنا أننا لو جمعنا قضايا المحاكم ودرسناها قضية قضية لوجدنا أكثر المتخاصمين أهلا واقارب . فالى متى هذا الشقاق وهذا النفور والى متى تخالفون أوامر الرحمن الذى يأمركم بالوفاق والاتفاق

ماذا التباغض فى الاسلام بينكم * وانتموا يا عباد الله اخوان
اما نفوس أبيات لها همم * اما على الحق أنصار واعوان

ما بالنا معاشر المصريين اذا قام الشقاق بين جماعة منا لا نرى الا عمالا للتفريق ودعاة للسوء والفساد . ما بالنا معاشر المصريين نسينا أو تناسينا قول الخالق عز وجل « ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم » وقول نبيه الكريم « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » . ما بالنا لا نتحد وقد جمعتنا المصائب .

مابالنا لا نتفق وقد أحنتنا النوائب . مابالنا اذا أصيب أحدنا بمصيبة لا نألم لمصابه . ألسنا عائلة واحدة يجب على كل عضو منا ان يشارك أخاه فى أفراحه وأتراحه . مابالنا لا نعقد الجمعيات والاندية لمساعدة من ألقتهم يد الحكومة فى شراك الفقر والشقاء بعد السعة والهناء . مابالنا فى بحار البلاء حيارى كل يريد السير فى طريق وليس للسلامة الا طريق واحد

لقد عظم البلاء واشتد الشقاء وتمكنت من الوطن الادواء فان أردتم يابنى مصر لبلادكم الدواء والشفاء فالدواء خير الدواء ان تتحدوا قلباً ولسانا وتتفقوا بصدق واخلاص على خدمة الامة والوطن والدين . فانكم اذا اتحدتم واجتمعت كلمتكم هان كل أمر عليكم وبلغتم من المجد غاية المجد ومن العلاء منتهى العلاء

وان تهاون الاغنياء والاذكياء بمصالح الامة لعار كبير عليهم وعليها . أماترون ان الجهل أصبح فى مصر حاكما يأمر وينهى وأصبحنا نعد المتعلمين بالمئات والجهلاء بالملايين . فمتى نرى أنوار المعارف والآداب تبدد ظلمات الجهالة والغباوة

ومتى تنتصر جيوش الفضائل على جيوش الرذائل ومتى يعرف الفلاح الصغير انه انسان ككل انسان وانه وأعظم عظيم سواء أمام الوطن وأمام الخالق

قام بعض ذوى الهمم العالية والعزائم الصادقة وأنشأوا المدارس الاهلية وبذلوا من الجهد مايخلده لهم تاريخ الوطنية والمعارف في مصر ولكن هذه النهضة لاتكفي لبلوغ المراد بل الواجب ان يقوم الموسرون والنبهاء فى كل مدينة ويؤسسوا المدارس والمكاتب لتعليم أبناء الامة وبناتها . وأن حاجة البلاد لمدارس التجارة والصناعة شديدة جداً فكلنا يعرف ان أموالنا ذاهبة للاجنبي لايستفيد الوطن منها شيأً فالاجانب هم القابضون فى بلادنا على مفاتيح التجارة والصناعة وهم المتمتعون دون غيرهم بخيرات البلاد ونعمها . وقد آن لنا معاشر المصريين ان نجاريهم في النخوة والنشاط ونؤسس الشركات الوطنيـة للقيام بكل احتياجات الامـة حتى يكون البائع والمشترى من وطن واحـد وأمة واحـدة فتحفظ الامـة ثروتها بين أبنائها وتزداد بذلك عزاً وجاهاً ورفعة . وأذكر انى سمعت فى بلاد المجر حديثاً من

أغرب أحاديث القوم هنالك وهو ان مجرماً مجريا حكمت عليه محاكم بلاده بالاعدام لقتله زوجته فلما اقتربت ساعة اعدامه سئل أي الاشياء تبتغى من دنياك قبل وفاتك . فقال لى سؤال واحد أرجوكم بحق المجر ان تجيبونى عنه بصدق وهو : هل أكلت أو شربت أو لبست فى حبسى شيئاً صنع فى غير بلاد المجر ؟ فأجابوه كلا . ولماذا تسأل هذا السؤال فقال لانى قضيت عمرى كله ولباسى من مصنوعات المجر ومآكلى مجرية وحياتي كلها مجرية وأبغي ان أموت كذلك . فقالوا عجبا أتكون مجرماً سافكا للدماء واحساسك الوطنى رفيع الى هذا الحد ؟ فقال أجل انى مجرم تلوثت بدماء القتل ولكن نفسى لاتزال نفساً مجرية حرة تحب المجر وتموت داعية للمجر . فانظروا ياقوم الى هذه العواطف العالية عند أحط الافراد وكيف ان مساعدة التجارة الجنسية تعتبر أساساً من أقوى أساسات الوطنية

فالتربية التى أود من صميم فؤادى ان تكون حلية الناشئين فى عموم مدارس مصر هى التربية الوطنية المحضة

القائمة على الفضائل وعزة النفس والشهامة . وانى لست ممن
يرون ان تربية البنات يجب أن تكون على المبادئ الاوربية
فان فى ذلك خطراً كبيراً على مستقبل الامة. فنحن مصريون
ويجب أن نبقى كذلك . ولكل أمة مدنية خاصة بها فلا يليق
بنا أن نكون قردة مقلدين الاجانب تقليداً أعمى بل يجب
ان نحافظ على الحسن من أخلاقنا ولا نأخذ عن الغرب الا
فضائله . فالحجاب فى الشرق عصمة وأى عصمة فحافظوا عليه
فى نسائكم وبناتكم وعلموهن التعليم السليم الصحيح

وان أساس التربية التى بدونه تكون ضعيفة ركيكة
غير نافعة هو تعليم الدين . نعم كل له دين وكل يجب ان يتبع
دينه . فنحن معاشر المسلمين يجب علينا قبل كل شئ ان
نعرف ماهية الاسلام ونسأل أنفسنا هل نحن عاملون بمبادئه
ومتبعون لاوامره ومجتنبون لنواهيه . واذا كنا وصلنا الآن
الى حضيض الذل والهوان فكيف ذلك والاسلام كفيل
بالتقدم والتمدن والعمران . لعمري ان الاسلام برئ مما
ينسبه أعداؤه اليه حيث يدعون أنه دين التأخر والانحطاط

والكسل والخمول على أنه دين النشاط والعمل والجهاد .
وانى لازلت أقول أن سبب تأخر المسلمين فى جميع البلاد
الاسلامية هو ابتعادهم عن الاسلام كل الابتعاد ومخالفتهم
لاوامره كل المخالفة . فما هذه المفاسد وما هذا الغرور . أيأمر
الاسلام بهذا الفسق وهذا الميسر وهذه الخمور . أيأمر الاسلام
بالربا وقد خرب البيوت ودك القصور. أيأمر الاسلام بالشقاق
والافتراق وخيانة الاوطان . أيأمر الاسلام بموت الهمم
وقعود العزائم وضياع الايمان . كلا ثم كلا . ان الاسلام لدين
الفضائل ودين المكارم ودين الهدى . اما يأمركم الاسلام
بالصلاة وصالح الاعمال . أما يأمركم بالمعروف وينهاكم عن
المنكر . أما يأمركم باجتناب الفحش والميسر والربا . أما يأمركم
بالاتحاد والاتفاق وخدمة الاوطان . أما يأمركم ان تعيشوا
رجالا وتموتوا رجالا . فما بالكم لا تتبعون اوامره وما بالكم
تسألون عن طريق النجاة والنجاة فى اتباع الاسلام ؟

لقد حق علينا غضب الرحمن وان لم نسلك السبيل
السوى فيابئس الحال ويابئس المآل !

وان أول مبادئ الاسلام هو الاتحاد بين جميع أبنائه وقد ارشدنا التاريخ الى ان السبب الاول فى ضياع استقلال الامم الاسلامية هو تنافرها من بعضها ومعاداة أمرائها لبعضهم. ولطالما تمنى المصريون توثيق عرى الارتباط بين مصر والدولة العلية لعلمهم ألا سلامة لمصر الا بهذا الارتباط وان الدولة رأس الاسلام ومصر روحه. وقد حقق الله هذه الامنية ورأينا سمو أميرنا المعظم يتقرب الى متبوعه الاعظم وان الذين كانوا يقولون فى بادئ الامر ان هذه السياسة الحكيمة هى سياسة الامير دون الامة أصبحوا يعترفون بأنفسهم ان التعلق بجلالة السلطان الاعظم وبالدولة العلية عام فى مصر يشمل جميع طبقاتها بلا اختلاف. وعهدنا بحرب اليونان قريب لايزال صدى مظاهرات المصريين فيه يرن فى الآذان.

وانى جاهرت من اول يوم ناديت فيه بحقوق بلادى ان الارتباط بين التابع والمتبوع ضرورى بل أمر حيوى لمصر والاسلام. وأكرر اليوم أن الساعين فى القاء بذور

الشقاق بين سمو الخديو وجلالة السلطان هم الد أعداء مصر وألد اعداء الاسلام . وانى اعرف ان فى مصر وفى الاستانة افراداً يعملون لهذا الغرض السيء ويريدون بدسائسهم ان يزيدوا الاسلام وأهله بلاء على بلاءوشقاء على شقاء. ولكنى أعتقد ان الحكمة العالية التى جمعت كلمة المصريين حول راية صاحب الخلافة العظمى تقضى على هذه الدسائس شر قضاء وتقوى روابط الاتحاد بين التابع والمتبوع

وانى اعرف كذلك ان فى مصر جماعة يسعون لحل المملكة العثمانية واقامة خلافة عربية تكون ألعوبة فى ايدى احدى الدول الاجنبية.فهؤلاءوامثالهم هم اعداءالدولة والملةواضر على الاسلام من اعدائه الظاهرين . ولا عجب اذا نبذتهم الامة المصرية باسرها واحتقرتهم ظاهراً وباطناً ولا جرم اذا بشرناهم بالفشل والخذلان وسوء العاقبة . فهذا وقت وجب فيه على المسلمين عامة أن يتحدوا حول راية الخلافة الاسلامية العثمانية ويضحوا أرواحهم في سبيل المدافعة عنها . فهى الرافعة لراية الاسلام وبدونها لا مقام لهذا الدين الكريم ولا حرمة

للمسلمين. وان الذين يطعنون على سلطانهم العلى الشان ويريدون
أن يهدموا بايديهم ما لدولتهم من العظمة والقوة يجب عليهم
أن يتشبهوا بامة الاسبان وقد داهمتها الحرب مع امريكا فاعلن
الحزب الجمهورى وسائر الاحزاب المعادية لنظام المملكة فيها
انها كلها تعضد حكومة بلادها وتترك عداوتها ظاهرياً حتى تظفر
اسبانيا بعدوها. فهذه هي الوطنية الحقة وهذا هو الاحساس
الصادق. وانا نرى دولتنا العلية حماها الله مهددة في كل وقت
من أعدائها الذين يدسون لها الدسائس فى الداخل والخارج.
فالوطنيون الصادقون من أبنائها هم الذين يجب عليهم تعضيدها
فى هذا الوقت وفداء سلامتها بالاموال والارواح

واننا نعلم جميعاً أن جلالة مولانا السلطان الاعظم يمثل
الدولة والاسلام فى شخصه الكريم فجميع الطاعنين على جلالته
انما يطعنون على الدولة والاسلام. وكافة المخلصين للدولة والدين
انما يتحدون حول رايته الكريمة ويسيرون تحت لوائه الشريف.
ولست أقول ذلك لانى رأيت من جلالته التفاتاً عالياً بل
أقوله حباً فى مصر التى مستقبلها فى يد السلطان وحباً فى الدولة

التى عليها يرفرف لواء الاسلام وقد جاهرت بهذه الاحساسات في جميع خطاباتى وصرحت بها باعلى صوتى فى وقت كان فيه الاعداء يذيعون أن جلالته ساخط على مصر والمصريين ذلك لان هذا اعتقادى وهذا مبداى أنادى بهما وأدافع عنهما الى آخر لحظة من الحياة

وانى في هذه الليلة المباركة ليلة عيد ميلاد جلالة مولانا السلطان الاعظم والخليفة الاكرم اختم خطابى بان أسأل الله من قلب صادق أن يوفق لجلالته الرجال الامناء لاعلاء شأن الدولة والدين وان يحقق لمصر آمالها من النجاة والسؤدد والعلاء » . . . (انتهى)

*
* *

ما ألقى رحمه الله هذه الخطبة النفيسة حتى رحبت بها الجرائد الوطنية أجل ترحيب وأثنت عليها الجرائد الاوربية ثناء عظيما واستمرت أياما تعلق عليها الشروح الضافية وتناقشها مناقشة دقيقة . حتى ان جرائد الاحتلاليين خجلت فى هذه المرة امام الحقيقة الساطعة فلم تبد حراكا ولم تنبث ببنت شفة

جريدة اللواء

اما الجريدة التى عول المرحوم على اصدارها فقد اختار لها اسم « اللواء » وقد صدر اول عدد منه فى يوم الثلاثاء غرة رمضان المعظم سنة ١٣١٧ هجرية الموافق ٢ يناير سنة ١٩٠٠

صدر العدد الاول مفتتحاً بمقال من قلم المرحوم وهو في الخامسة والعشرين من عمره هذا نصه :

(بسم الله الرحمن الرحيم)

« حمداً لمن جعل لواء الوطن اشرف لواء وصلاة وسلاما على نبيه خير الرسل والانبياء اما بعد فقد علم ابناء بلادى انى اخذت على عاتقي من زمن بعيد خدمة الوطن العزيز والعمل لاعلاء شأن الملة السمحاء بقدر طاقتى الضعيفة . وانى ممن يعتقدون اعتقاداً صحيحاً ان الوطن دونه الانفس والاموال وان اشرف يوم في حياة الانسان هو يوم يموت فيه لاجل بلاده وفي سبيل سعادتها

وقد بذلت قصارى الجهد في رفع لواء الوطنية وجمع كلمة الامة المصرية وأحياء الفضائل الاسلامية وما وجدته من التعضيد والتشجيع فى كل أعمالى وما تحققته من ميول أبناء مصر العزيزة سهّل لى اظهار جريدة (اللواء) التى آمل ان تكون ان شاء الله تعالى لواء حقيقيا لبنى الوطن الصادقين وراية للمجاهدين فى سبيل تقدم مصر والمصريين . وعلما لخدمة الاسلام والمسلمين . وقد جعلت أول عدد يصدر منها مقرونا بهلال شهر الصيام المبارك تيمناً بشهر رمضان الذى انزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان

*
* *

ولما كان اللواء فى كل امة حية هو شارة الوطن والوطنية ومثل اسمى العواطف الانسانية حيث يرى الانسان فيه الامة والوطن والعقيدة مجتمعة . وكان مقامه عند الامم الحية المقام الاول ومكانته فى نفوس الشعوب المكانة الشماء ينتهى الشرف كل الشرف فى صفوف الجيوش الى حامله . ويسمع الجندى اذا نظر اليه في ساحات القتال صوت الوطن يناديه

الثبات والشجاعة والاقدام. وتدرك الدول النصر والظفر اذا ارتفع لواؤها وسمت رايتها. ويجل كل انسان راية وطنه ولواء بلاده اعظم اجلال ويحس بقوة فى الفؤاد ونشوة في الدم كلما نظر الى هذا اللواء الذى يمثل تاريخ الوطن ومجده وفخاره. ولما كانت مصر لا تنهض من رقدتها الا باتحاد ابنائها حول لواء الوطن العزيز واتفاقهم على خدمته ونصرته أحببنا ان نسمى جريدتنا باسم (اللواء) املا فى وجه الله الكريم ان يوفقها لجمع كلمة المصريين حتى يقوموا بالواجب عليهم نحو الوطن المقدس

*
* *

أما خطة الجريدة فهى خدمة الوطن والاسلام بأشرف السبل وأنفعها. خطة الحكمة والاعتدال والحكم على الاشياء حكماً صادقا والسعى وراء الاتحاد والاتفاق بين المصريين بعضهم لبعض من جهة وبين كافة المسلمين من جهة أخرى. والعمل لتربية أبناء مصر أحسن تربية وطنية وترقية التجارة والصناعة واجلال كل من يعمل عملا مفيداً للوطن والامة

والدولة . واجتناب الشتائم والشخصيات اجتناباً تاماً

ورغبة منا فى تقرير الحقائق وتعضيد العاملين والمجتهدين سنفتتح فى جريدتنا فصلا تحت عنوان (المنبر العام) ننشر فيه كل ما يردنا من الرسائل السياسية والاقتراحات المفيدة للوطن والاختراعات الحديثة التى يخترعها أبناء البلاد وبالجملة نسمح لكل مصرى صادق ان يسمع الامة صوته . وسيكون كذلك فى الجريدة فصل عنوانه (اوروبا والاسلام) ننشر فيه كل ما يكتب فى جرائد اوروبا على الاسلام والمسلمين وكل ماله علاقة بذلك . وفصل عنوانه (أخلاق وآداب) لانتقاد الاخلاق الفاسدة والحث على الفضائل ومكارم الاخلاق . وفصل عنوانه (بريد الاسلام) يشتمل على كل اخبار البلاد الاسلامية . وفصل عنوانه . (بريد العالمين) ننشر فيه اخبار اوروبا وامريكا وآسيا وفصل عنوانه (آيات الوطنية) نأتى فيه على قصص الوطنية التى من شأنها بث الروح الوطنية الطاهرة فى نفوس ابناء الوطن . وغير ذلك ننشر كل ما فيه الفائدة للامة والدولة . ولا نقصر أبداً فى خدمة القراء وحسن

اختيار موضوعات الجريدة والقيام بالواجب نحوهم ونحو الوطن العزيز

واننا نؤمل من حضرات الكتاب الاماجد ورجال الافكار والآراء ان يشتركوا معنا فى هذه الخدمة الشريفة فجريدة اللواء هى جريدة الامة كلها لا جريدة شخص او اشخاص

واننا نسأل الحق سبحانه وتعالى ان يوفقنا للقيام بالواجب ويمدنا بروح من عنده ويهبنا قوة وثباتاً ورشداً إنه سميع مجيب

غرة رمضان سنة ١٣١٧

« مصطفى كامل »

*
* *

ماصدر هذا العدد حتى تخاطفه الناس على اختلاف مشاربهم وتباين أغراضهم لانه من عمل الوطنى المحبوب وصوت مصطفى المسموع

صدر فى أربع صفحات وكل صفحة فى خمسة انهر صغير الحجم خفيف الحمل كبير الروح ثاقب الرأى

ارسلناه اسبوعاً كاملا بلا مقابل لكل من طلبه ومن

لم يطلبه مشترطين على من يعجبه رواؤه وتوافقه مبادئه ان يبعث بقيمة الاشتراك مقدماً اذ قدرت وقتئذ بمائة قرش صحيح . وقد كتب المرحوم جملة بهذا المعنى اليك نصها .

« اول مبدإ قررناه فى سير الجريدة هو عدم ارسالها الا لمن يبعث بقيمة الاشتراك مقدماً الى ادارتها (وذلك بعد الاسبوع الاول من ظهورها حيث ترسل بدون مقابل لكل من طلبها) . ولا يستغرب القراء هذا المبدأ الجديد فاننا جعلنا قيمة الاشتراك زهيدة جداً سواء كانت عن سنة او ثلاثة شهور . ومع هذه القيمة القليلة لا يمكننا مطلقاً تعيين محصلين للجريدة. فضلا عن اننا نستهجن التحصيل بالمطالبة كل الاستهجان ونرى من النقص ان ترمي الجرائد المحترمة على الناس رمياً

فلذلك نعلن حضرات القراء الافاضل ان من لا يبعث قيمة الاشتراك مقدماً لا ترسل اليه الجريدة مطلقا

هذا وستصدر الجريدة ان شاء الله تعالي بعد ثلاثة أشهر أو أربعة فى حجم كبير وعلى ورق بديع جداً طلبناه من أحسن

المعامل في أوربا وسنبذل غاية الجهد في جعل جريدة (اللواء) لواء حقيقياً للمصريين الصادقين وراية لخدمة الاسلام والمسلمين والله يوفقنا الى ما فيه فائدة الامة والوطن »

ما انتهي هذا الاسبوع حتى أخذ المخلصون الغيورون في أرسال قيم اشتراكاتهم وقد بلغوا نحو الثمانمائة في بحر عشرة أيام من تاريخ صدور اللواء

شجع هذا الاقبال المرحوم وأبرقت أسرته وتأكدت لديه الحقيقة التي طالما خالفه فيها بعض مواطنيه من أن الامة حية وأنها لاتموت أبدا .

سار رحمه الله في تحرير اللواء بهمة لاتعرف مللا ولا يعتريها كلل ولا أبالغ اذا قلت أنه استمر ستة شهور من اصداره يكتب جله من انشاء وترجمة وغيرهما . أما معاملته لاخوانه المحررين والعمال فأني أترك ذكرها لهم وهم جميعاً والحمد لله احياء ذوو أقلام سيالة وصفات عالية

ظهر العدد الثاني من اللواء وقد صدره المرحوم بمقال من قلمه هذا نصه :

﴿ كيف يحيا الوطن العزيز ﴾

لم يأت على مصر حين من الدهر اشتغل فيه أبناؤها بحالها ومستقبلها مثل هذه السنين التي توالت فيها المصائب وتعاقبت النوائب وعرفنا حقيقة المقاصد الانكليزية ضدنا وضد الوطن العزيز . وقد ذهب أبناء الوطن فى أمر مستقبله مذاهب شتى . فاصحاب العقائد الصحيحة والمبادىء القويمة يؤملون له مستقبلا سعيداً وحياة طيبة لانهم يعلمون أن الامة المصرية هي أكثر الامم استعداداً للتقدم والترقي وأن اليأس من المستقبل يأس من قدرة الخالق سبحانه وتعالى. ويرى غيرهم أن مصر قضي عليها الى الابد وان أبناءها خلقوا مصادفة في الوجود وانهم ليسوا كغيرهم من بني الانسان اهل ارادة ونشاط وذكاء . ويذهب آخرون الى ان الامة المصرية مهما استطاعت اصلاح شؤنها وترقية مدارك ابنائها فانها لا تقوى على القوة الاجنبية المسيطرة عليها ولا تجد سبيلا للخلاص مما هي فيه لما هو مشهور عن دولة الانكليز من القوة والدهاء

واختلاف الآراء بين المصريين في هذه المسئلة الجوهرية الحيوية هو داء من اكبر ادواء مصر التي يجب العمل لشفاء الامة المصرية منها . فان اليائسين من الله ومن الامة تراهم لا يهتمون ابداً بامر من امور الوطن بل يسخرون من كل العاملين على احيائه واعلاء شأنه . فهم فضلاً عن تقصيرهم في خدمة الوطن التقصير الجسيم يعملون لتثبيط الهمم واقعاد العزائم وقتل العواطف الحية . وأن انتشار كلمات « موت المصريين » و « جبن المصريين » و « عدم فلاح المصريين » على الالسن لأضر على مصر والمصريين من كل المصائب والبلايا فاعتقاد الامة في نفسها انها لا تصلح لعمل شريف وانها لا تعرف معنى الوطن والوطنية آفة دونها كل الآفات وبلية تسهل بجانبها البلايا

على اننا لو تصفحنا تاريخ مصر نجد ان ابناءها قاموا باعظم الاعمال وبرهنوا على استعدادهم التام لكل تقدم وفلاح . واظهروا في ظروف كثيرة من الشجاعة ما حفظه لهم التاريخ في صحائفه البيضاء . فكيف يدعى البعض مع ذلك انهم أمة

ميتة لا حراك بها وانه يستحيل ان يوجد فيهم شعور وطني صادق ؟ أليس من الدلائل الكبرى على حياة المصريين ووطنيتهم انه يوجد بينهم من يعرف حب الوطن بعد ان احنتهم الحوادث ودكت بنيان استقلالهم ؟ ومن من امم العالم يستطيع ان يحمل ما حملت به مصر من المظالم والدواهي الدهماء ثم يبقى عنده شعور وطني كما نراه ويراه الناس جميعاً عند المصريين ؟

نعم . ان الامة المصرية نهضت نهضاتها السالفة بهمة قائد عظيم أو أمير عالى الفكر ولم تنهض من نفسها بدون حكومة تدبرها كما فعلت أغلب الامم الاوروبية . ولكن ذلك لا يقضى على المصريين أمام العقلاء . فالامم تحيا بأبنائها وكل أمة تقبل النصح والارشاد هى أمة سائرة فى طريق التقدم والسعادة والحرية . ولا يستطيع أحد ان ينكر اليوم على المصريين ادراكهم ان الوطن وطنهم والبلاد بلادهم وان الناس سواء أمام الوطن فى الحقوق والواجبات . وهو شعور ينمو يوما بعد يوم نمواً ظاهراً

واني لاعجب ممن ييأسون من قدرة الله ورحمته ويتناسون التاريخ وامثلته الكبار . فهل أراهم التاريخ أمة دامت على حال أو دولة بقيت بنظام ثابت ؟ وهل خلدت الدول التي حكمت مصر قبل دولة بريطانيا ؟ كلا ثم كلا . ان دوام الحال من المحال . ولا معني للحياة مع اليأس ولا معني لليأس مع الحياة وهذه انكلترا نفسها كان يخيل للعالمين في العام الماضي وقت حادثة فشوده انها لاتغلب ولا تهزم أبدا وان دول أوروبا كلها العوبة في يديها فقضت ارادة الرحمن ان لايحول الحول حتي تقوم الحرب بينها وبين أمة الترنسفال - وهي كما يعلم الناس أصغر شعوب العالم وعدد سكانها لا يتجاوز عدد سكان أحقر المدائن في انكلترا - وتنتصر عليها جيوش البوير المرة بعد المرة . « وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله » فهل بعد هذا دليل على ان اليأس من المستقبل جنون في جنون وان المستقبل بيد الخالق يدبره كيف يشاء ؟

فالعواطف الوطنية في الامة المصرية قوية والامل فى المستقبل عظيم . وما على المصريين الراغبين فى احياء بلادهم

وخدمتها الخدمة الواجبة الا ان يحاربوا اليأس ويقضوا على المطاعن الفاسدة التي يوجهها بعض الناس من اعداء وبسطاء ضد الامة المصرية العزيزة . والاخلاص فى محبة الوطن والثبات فى خدمته كفيلان بالنجاح لكل خادم امين

(مصطفى كامل)

*
* *

مارأى أعداء البلاد أقبال الامة على جريدة اللواء حتى أوعزوا الى جرائدأذنابهم أن تحمل عليه حملات متباينة فكانت تارة تدعى أنه صنيعة السلطان وثانية أنه صنيعة فرنسا وثالثة أنه عامل من عمال المانيا ورابعة أنه متعصب ذميم وقالوا فيه مالم يقله مالك في الخمر

كان يقرأ رحمه الله مايكتبون غير مبال بترهاتهم ولا متأثر بسخائمهم وقد رد على مسئلة الخلافة العربية التى أشار اليها فيخطابه الاخير وازعجت الساعين لها العاملين على تحقيقها بمقال نشره فى العدد الثالث من اللواء هذا نصه :

سلامة الدولة العثمانية

أشرت في خطبتي الاخيرة الى أن أعداء الدولة العثمانية يسعون لحل المملكة وتأسيس خلافة عربيـة تكون العوبة في أيدى احدي الدول الاجنبية . وقد وردت الى رسالة من صـديق حميم يسألني فيها عن قصدى من هذه الاشارة ومن أعنى بها ولما كنت أحب الصراحـة في كل أمر وكان مطلبي الذى أتمنى في تحقيقه هو خـدمة أمتي ودولتي فقـد أحببت أن أجيب على سؤاله في الجريدة ليعلم به الناس جميعاً

فالدولة العلية حماها الله هى الدولة الاسلامية الوحيدة التي تخشى أوروبا من قوتها ونفوذها . وأعداء الاسلام يودون من صميم أفئدتهـم أن يزول اسمها من الوجود حتى تموت قوة الاسلام وتقبر سلطته السياسية . وهم يعملون ليل نهار لبلوغ هذا الغرض السيئ . ولما كان وجود الخلافة الاسلامية في قبضة سـلاطين آل عثمان مما يجعل سلطتهم على المسلمين عامة ونفوذهم في انحاء الارض قويا فقد افتكر أعداء الاسلام

فى أمر هذه الخلافة العظمى وفي الطرق المؤدية الى فصلها من السلطنة العثمانية وتسليم زمامها الى أحـد المسلمين الفاقد للعواطف الدينيـة والاحساسات الاسلامية

ولا يظن القراء أن مسئلة الخلافة هي مسئلة حديثة بل أن ساسة أوربا فى القرن الثامن عشر اشتغلوا بها كثيرا. واهتم نابليون نفسه بها اهتماما عظيما. والتاريخ يثبت أنه فكر فى اعتناق الدين الاسلامى واقامة نفسه خليفة للاسلام وجمع كلمة المسلمين حول لوائه

ومن يراجع المذكرات السياسية المشحونة بها مكاتب وزارات الخارجية فى أوربا يرى أن الدول الاوربيـة بحثت من زمن بعيد فى مسئلة الخلافة وما تكسبه لجلالة السلطان من النفوذ المعنوى الهائل

وان أعـداء الاسلام في أوربا يعلمون علم اليقين أنه كلما اعتدت دولهم على الدولة العلية يتألم المسلمون لذلك فى كافة الارجاء والبلدان. وأن زوال الدولة العثمانية (لا قدر الله) وهى صاحبة الخلافة العظمى ورأس الاسلام والمسلمين

يكون داعية لحدوث اضطراب عام فى كافة أنحاء الارض ومشعلة لنيران يمتد لهيبها من مشارق الارض الى مغاربها . ولا نبالغ اذ قلنا أنه يكون سبباً لحرب دموية لم ير العالم لها مثيلا من قبل

ولذلك اعتقد أعداء الاسلام أن فصل الخلافة الاسلامية من السلطنة العثمانية يضعف الاتراك كثيرا ويقتل نفوذهم عند المسلمين ويجعلهم كاحدى الامم الاسلاميه العادية التى مهما عظمت مصائبها لا يضحي المسلمون أرواحهم لاجلها . فمشروع فصل الخلافة من السلطنة هو اذاً أضر على الدولة والاسلام من كل الاضرار

ومن أول يوم استعدت فيه انكلترا لاحتلال مصر ازداد اهتمام الساسة الانكليز بمسئلة نزع الخلافة من أيدي آل عثمان لانهم أدركوا ان احتلالهم لمصر يكون الى الابد سبباً للعداوة بينهم وبين الدولة العلية وان جلالة السلطان الاعظم لا يقبل مطلقاً الاتفاق معهم على بقائهم فى مصر . اذ أن مسئلة مصر تعتبر مسئلة حيوية بالنسبة للدولة والخلافة

اذا تقرر ذلك كله وعرف الناس عموماً مقاصد أعداء دينهم ودولتهم فليس علينا بعد هذا الا ان نقول كلمة واحدة وهى ان سماسرة السوء والفساد فى مصر يخدمون أغراض الانكليز ويخدعون الناس بتفهيمهم ان فصل الخلافة من السلطنة يفيد الدولة كما استفادت دول أوربا من فصل السلطة الدينية من السلطة السياسية . ولكن الدين الاسلامى لا يصح فيه مطلقاً فصل السلطتين من بعضهما لان الفصل بينهما يقتلهما معاً

واننا نعتقد ان أمراء الاسلام وكافة أبنائه عارفون حقيقة مقاصد الاعداء وعاملون لاعلاء شأن الدولة العثمانية التى هي تاج الاسلام وفخاره . والشرف كل الشرف للمصريين وأميرهم المعظم حيث أثبتوا بالبراهين الساطعة أنهم أشد المسلمين تمسكا بعرش صاحب الخلافة العظمى وأكثرهم رغبة فى خير الدولة وسموها ورفعتها »   (مصطفى كامل)

*
* *

كتب أحد الانكليز المنتصرين لحزب الاستعمار مقالة في جريدة المورنن بوست قال فيها ! « تقهقرت فرنسا امامنا وكادت تتلاشى قوة الدولة العلية فعلام يعتمد المصريون اليوم وقد أصبحت الكلمة كلمتنا والامر أمرنا ؟ »

فكتب المرحوم مقالا فى جريدة لكلير البارسية ونشره اللواء في العدد الرابع هذا تعريبه

مقبرة الامم الطاغية

أثبت التاريخ ان مصر كانت فى كل أطوار حياتها مقبرة للامم الطاغية والدول الظالمة وان الممالك العظمى التى انتهت اليها فى سالف الازمان القوة والعظمة والسلطان مادخلت مصر واستولت عليها حتى أدركها الهرم وقبرت على شواطىء نهر النيل . ولذا تري بعض المؤرخين يقول « متى آن لدولة أن تزول دخلت مصر واستبدت فى أهلها »

وهذا مصداق لقول رسولنا الكريم (مصر كنانة الله في أرضه من أرادها بسوء قصمه الله)

وقد احتلت انكلترا مصر بدعوى اصلاح شؤونها وتقويم المعوج من أحوالها وترقية مدارك أبنائها ثم مالبثت ان عملت على مخالفة أقوالها ومناقضة وعودها وسارت في سبيل الاستيلاء على ديارنا العزيزة وهضم حقوق المصريين واستعبادهم وإذلالهم ونزع السودان من ايديهم بعد ان أهرقت فيه دماؤهم ونفدت في استرداده أموال مصر والمصريين

وقد أدرك الاحرار من أبناء التاميز وأصحاب النظر الصائب في السياسة ان بقاء انكلترا في مصر خطر عظيم عليها ومبدأ لانحطاطها وسقوطها وأنذروها بذلك فوق المنابر وعلى صفحات الجرائد . وكل الذين يودون حقيقة من أبناء المغرب والمشرق ان يروا انكلترا سامية المقام شريفة التاريخ مخلدة المجد نصحوا وينصحون لها بالجلاء عن مصر واحترام شرف عهودها وترك البلاد لابنائها يديرون شؤونها تحت ظل جلالة سلطانهم الاعظم . ولكن ساسة بريطانيا الذين يديرون سياستها ويقودون زمامها أبوا الا اجابة داعي الطمع والجشع ومخالفة الشرف الصحيح بالاستيلاء على مصر ووادى

النيل. وقد أراد الخالق أن تسهل لهم الامور استدراجاً ويجدوا في مصر من يساعدهم على أغراضهم ضد هذا الوطن العزيز. فخيل لهم أن كل البلاد مصر وانهم يوفقون في غيرها الى ماوفقوا اليه فيها. ولما قامت حادثة (فشوده) واضطرت فرنسا الى التقهقر أمام الانكليز. ظن ساسة بريطانيا أنهم ارهبوا الامم والدول جمعاء حيث أرهبوا فرنسا وان الكلمة في الخافقين كلمتهم والعالم بأسره في أسرهم والنوع البشرى كله رعية لحكومتهم

ولما كان الاستيلاء على السودان يسهل طبعاً تنفيذ مشروع (سسل رود) من توصيل الكاب بالاسكندرية بسكة حديدية وجعل الراية البريطانية سائدة على كافة هذه الارجاء من شمال افريقية الى جنوبها. وكانت بلاد الترنسفال في طريق هذا الخط الحديدى المزمع انشاؤه فضلا عن أنها أرض الذهب والخيرات. فقد ضايق أبناء التاميز أهل الترنسفال بكل الاساليب وطلبوا منهم مطالب تأباها الوطنية الحقيقية وتنكرها العواطف الملية الصادقة. وانتهى الامر بأن

قامت الحرب بينهم وبين هذه الامة الصغيرة التي يجدر بالتاريخ ان يسميها « أشرف الامم » وكان ما كان من انتصار البوير الانتصارات المتوالية المدهشة

فهل لساسة بريطانيا أن يفقهوا اليوم ان احتلال مصر خطر عليهم وان أرض الفراعنة مقبرة للامم الطاغية ؟ وهل لهم ان يعترفوا الآن بان سياسة الشرف والوفاء هي السياسة الحقيقية وأن كل سياسة تجرى على مبادىء العسف وهضم حقوق الضعفاء تجر حتما الى النوائب والبلاء ؟

على أننا سمعنا اللورد سالسبورى نفسه يقول فى احدى خطبه « أن الطمع كان سبباً لموت الممالك العظمى فى التاريخ الماضى » . فما بال ساسة بريطانيا لا يعملون بما يقولون ؟ وما بالهم لا يرون باعينهم كما يرى الناس جميعاً أنهم قادوا الدولة البريطانية الى هاوية الهلاك والدمار وان بينهم وبين هـذه الهاوية خطوات قلائل اذا اجتازوها سقطوا فى الهوة الابدية وقضى عليهم الى يوم الدين (مصطفى كامل)

ما كتب مسيو رينيه الفرنسى المعروف بكراهته للاسلام والمسلمين مقاله على الجامعة الاسلامية المملوء طعناً على المسلمين وقذفا فيهم حتى رد عليه المترجم في جريدة الفيغارو بمقال نفيس هذا تعريبه :

﴿ اتحاد كلمة المسلمين ﴾

يشتغل رجال السياسة والاقلام في اوربا كثيراً بامر المسلمين وما يدور بينهم من الاحاديث فى شؤون بلادهم وتأخرها واستيلاء الاجانب عليها . وقد ملأ كتاب اوربا الدنيا بصراخهم ضد الاسلام والمسلمين ونادوا فى كل واد بالويل والثبور وهولوا في الامر حتى ظن العالم الأوربى قاطبة ان الاسلام كله مجتمع حول لواء واحد للاخذ بالثار واسترداد أملاكه من أيدى الدول الاجنبية

والذي يطالع كتابات هؤلاء الكاتبين ولم يكن رأي الشرق واهله وعرف مقدار سوء معاملة اوربا لابناء الاسلام يظن لاول وهلة أن المسلمين قوم متوحشون وانهم ناكرون لجميل اوربا عليهم أقبح نكران . على أننا لو ناقشنا أوربا

الحساب لوجدناها جنت على الاسلام والمسلمين بل جنت على العالمين اكبر الجنايات المعنوية . فمم يشتكي المسلمون؟ نشتكي معاشر المسلمين من أن اوربا المتمدينة لا تعاملنا كما يجب ان يعامل بنو الانسان . نشتكي من انها دخلت بلادنا بدعوى الاصلاح فأفسدت ونشر المدنية فاعادت همجية العصور الاولى. نشتكي من انها تكرهنا كراهة دينية شديدة وهي المنادية بمباديء العدل والحرية والمساواة . نشتكي من انها تقصد ابادتنا كما تباد الحيوانات الضارة وكما أبيد الهنود من أمريكا وهم أصحاب البلاد الاولون . نشتكي من كل أعمال التمدن والمدنية . وبودنا لو كنا غير شاكين . هذا ما نشتكي منه فمم تشتكي أوروبا ؟ أتشتكي من انا سلمنا اليها بلادنا ووثقنا بأقوالها ووعودها ؟ أتشتكي من انها سادت علينا بارادتنا وهضمت حقوقنا واستنزفت أموالنا وضيقت علينا فى حياتنا؟ أتشتكي من انا نحسن للمسيحيين في الشرق ونعدهم اخواناً لنا ؟ أتشتكي من اعتدالنا وتسامحنا وهي معنا ظالمة قاهرة ؟

هذه مصر أعز بلاد الاسلام على المسلمين وأرقاها في المعارف والآداب قد سارت في طريق المدنية الغربية ووثقت بالاوروبيين اكبر ثقة . وعين أمراؤها من بني الغرب حكاماً وسواسا وفتحوا ابوابها وابواب السودان لكافة الاوروبيين بما فيهم المبعوثون الدينيون فماذا كانت نتائج هذه الخطة وماذا جنت مصر من ثقتها بالغرب وأهله؟ كانت نتيجة خطتها وثقتها بالغرب وأهله انها صارت في قبضة الاحتلال البريطاني ذليلة ضائعة الحقوق باكية مجدها الشامخ واستقلالها المحبوب

وهذه بلاد القوقاز والقرم والجزائر وتونس والهند والزنجبار وجاوي وما حاكاها استولت عليها الدول الغربية فماذا عملت ؟ هل رقت اهاليها وعلمتهم كيف يحبون وطنهم ويخدمونه ويضحون في خدمته النفس والنفيس ؟ كلا ثم كلا . انها تعد من الجرائم الكبرى ان يحب المسلم بلاده ويحنو عليها ويطالب بحقوقها . وهل عاملت أوروبا المسلمين التابعين لها معاملة الانسان للانسان ؟ كلا ثم كلا . انها تعامل المسلمين

معاملة الانسان للحيوان بل وأقل كثيراً. فاذا كانت أوربا تسيء الى الاسلام بحولها وقوتها ولا ترعى للمسلمين حرمة ولا مقاما فما بال كتابها يحملون علينا ويتهموننا بتدبير التدابير السيئة ضد السلام العام ? وما بالهم لو كانوا منصفين لا يطالبون الدول الغربية باحترام حقوق الامم الضعيفة واعتبار الانسان فى الشرق أخا ومساويا للانسان في الغرب ?

وهذه دولتنا العلية التي يتهمونها بالتعصب القبيح ويطعنون عليها آناء الليل وأطراف النهار هل اضطهدت المسيحيين اضطهاد أوربا للمسلمين ? كلا. ألف مرة كلا. فانها تعينهم في أسمى مناصبها وتأتمنهم على أسرارها وتنيلهم عن الاحسان أجزل الاحسان وتعتبرهم أبناء لها. ولم تقابل أوروبا المتمدينة هذه المعاملة بالشكران بل انها قابلت ذلك بالاساءة الى الدولة العلية ونادى سفراؤها جهاراً « بأن ما أخذ من الهلال لا يرد الي الهلال »

فيا كتاب اوربا وسواسها قبل ان تحملوا على الدولة العلية وتسموها دولة الهمجية والتعصب سائلوا انفسكم بالله عليكم :

هل يلاقي المسلمون الذين تحت حكم دولكم من الرعاية عشر معشار ما يلاقيه المسيحيون تحت حكم الدولة العلية؟ وهل تعتبر اوربا المسلمين الخاضعين لها كابنائها اقتداء بالدولة العلية مع رعاياها المسيحيين؟

اذا كان الجواب على هذه الاسئلة بالسلب فما بالكم يا كتاب المدنيـة الغربية تزيدون المسلمين بلاء على بلائهـم وما بالكم لا تعرفون للحقيقة مقاما ولا تدركون للفضيلة الصحيحة احتراما ؟

اللهـم ان المسلمين في كل انحاء الارض متألمون ممـا اصابهم آسفون على ضياع استقلالهم ساعون في تحسين احوالهم ولـكن أي خطر على اوربا من ذلك ؟ نحن نصرح في كل كتاباتنا وخطبنا واعمالنا بأن الاعتدال اول مبدا للمسلمين وان الهيجان والاضطراب والفتنة خطر أشد على سلامتهم من كل الاخطار

على ان دول اوربا مع ماهي عليـه من العظمة والقوة وبسطة السلطان تجتمع وتتحد كلما دعا الي ذلك داع فلماذا لا يحمل

المسلمون الاتحاد والاتفاق وهم احوج اليهما من كل الاوربيين

لا ريب ان كل محب للانسانية صادق في حبه وكل انسان معتدل في أفكاره وأمياله لا يجد في اتفاق المسلمين غرابة بل يجد الغرابة منتهى الغرابة فى ان يكونوا مفترقين مختلفين بعد ان نبهتهم الحوادث الى وجوب الاتحاد وضرورة الاتفاق في السراء والضراء (مصطفى كامل)

*
* *

كانت الحكومة المصرية قررت فى ٨ رمضان سنة ١٣١٧ ألا يسافر مصري الى الاقطار الحجازية لتأدية فريضة الحج الا اذا دفع ضمانا مالياً لخزانة المديرية او المحافظة التابع لها بحجة أن البعض يسافر اليها غير متزود بالمال اللازم ومثله لايجوز حجه فكتب رحمه الله مقالا نشره اللواء فى ١١ يناير سنة ١٩٠٠ هذا نصه :

الحج الشريف

(والحرية الشخصية في مصر)

ذكرنا بالامس ان الحكومة الخديوية قررت ضمانة مالية على كل الذين يسافرون الى الحج الشريف واشترطت انهم يكونون حاملين لبسابورتات معلم عليها من الجهة التي يقيمون فيها ومن الجهات التي يمرون بها . وقلنا انه قرار مخالف للحرية الشخصية أشد المخالفة . ونقول اليوم ان هذا القرار أحدث أسوأ تأثير في نفوس الناس عموماً . فانا اذا تذكرنا ان حكومة الجناب الخديوى سعت من مدة عامين في ابطال الحج الشريف بدعوى ان الحجاز موبوء وعرفنا حقيقة مقاصدها في هذا الشأن فهمنا لماذا أصدرت هذا القرار الاخير

فانه لما ادعت الحكومة الخديوية ان الحجاز موبوء ولم تر من المسلمين في مصر خوفاً من هذا الوباء الموهوم . ولما لم تنلح في مسعاها بشأن ابطال الحج الشريف . ولما لم تجد ان طاعون الاسكندرية منع الدولة من قبول الحجاج في الحجاز

رأت ان خير طريقة لابطال الحج هي التضييق على المسافرين بكل الوسائل . هذا ما يقوله الناس وهذا ما يجب على الحكومة المصرية ان تعرفه

والا اذا كانت حكومة مصر تحترم الحرية الشخصية وتجل الاديان عموماً والدين الاسلامى خصوصاً بصفته دين غلب المصريين ودين الامير والوزراء أنفسهم . فلماذا تقرر مثل هذا القرار الذى قوبل من كل المسلمين بالاستياء العظيم ولماذا تحمل الناس على اساءة الظن بأعمالها ؟

على أنه اذا لم يكن احترام الاديان من مبادىء الحكومة الخديوية ـ بالرغم مما نسمعه كل يوم من انصار الاحتلال في هذا الصدد ـ فماذا تقول حكومة الجناب العالى في احترام الحرية الشخصية ؟ أليست تنادي كل يوم بانها حكومة العدل والحرية والدستور ؟ أليست تفخر من حكومات العصور الماضية وتقول ان هذا العصر هو العصر الذهبي على مصر ؟ فاذا كانت تنادى بذلك جهاراً فكيف تقرر أمراً يكذب كل أقوالها ويشوه كافة أعمالها ويثبت ان حكومات

العصور الخالية كانت أشد منها احتراماً للعقائد الدينية وأكثر منها محافظة على مبادئ الدين الكريم. فضلا عن انها اذا ظلمت كانت لا تدعى العدل والحرية ولا تسمي نفسها حكومة دستورية

ولنا الآن سؤال نوجهه الى رجال السلطة في مصر : ماذا تعمل الحكومة لو سافر أحد المصريين الى (يافا) مثلا ثم قصد منها الحج الشريف ؟ أتستطيع أن تمنعه من السفر الى بر الشام ؟ اللهم ان حكومة تضايق الحجاج — وهم أصدق المصريين أيمانا — هذه المضايقة المدهشة لا يصعب عليها ان تصدر يوماً ما منشوراً تمنع فيه أهل مصر من السفر وتقرر ضريبة وشرائط مختلفة لكل راغب فيه. فاعتداء حكومة سمو الخديوي على حرية الحجاج الشخصية هو في الحقيقة اعتداء على حرية المصريين عموماً لان أفراد الامة الواحدة متضامنون تضامناً تاما في الفوائد والاضرار . واذا ظلمت الحكومة أحدنا ولم نعمل جميعا لرد هذه الظلامة كان ظلم الحكومة واقعا لا محالة على الجميع

واني طالما سمعت من أصدقاء وزرائنا اننا نعارض الحكومة بحق وبغير حق . فهل لهم ان ينصفونا الآن ويعترفوا بان عمل الحكومة فى مسئلة الحجج الشريف عمل جائر لا يليق صدوره من حكومة حرة تحترم نفسها وتحترم أمتها!

على انى أول الذين يصفقون للحكومة لو عملت عملا صالحا للبلاد مفيدا للوطن ولكن ما العمل وقد أبى وزراؤنا ألا نصفق لهم ولو مرة واحدة فى الحياة !

(مصطفي كامل)

*
* *

لا يظن القارىء أن المرحوم كان يصرف كل قوته فى اللواء وحده خدمة لبلاده كما يتفاخر بعض المنافقين الذين كانوا يكتبون بقلم من نار فاصبحوا وحميتهم الوطنيـة فى تقبيل أيدى المحتلين وعبادة الفضة والذهب والشيطان وما نصب بل كان رحمه الله يستحث كل الذين عرفهم فى سياحاته من ساسة اوربا على خدمة المسئلة المصرية بكتب مؤثرة فكان يكتب كل يوم مالا يقل عن عشرين كتابا مختلفة الاسلوب

ترمي كلها الى أغراض متباينة تجمعها كلمة مصر وحياة الوطن؟

من ذلك انه عند ماظهر اللواء أرسل كتابا الى الكاتبة الكبيرة ذات المقام السامي والسطوة النافذة والبيت العريق فى المجد مدام آدم الفرنسية العظيمة وقد قال فى هذا الكتاب ما تعريبه :

« سيدتى المبجلة

انى أعمل الآن كثيراً وأملى أن يصير اللواء أول جريدة في الشرق فانى أريد له أن يكون في وقت واحد عاملا للوطنية المصرية وواسطة بين العالم الاوربى والعالم المصرى . ولهذا رجوت منك أن تكتبي لنا بين آن وآن مواعظ وطنية مما جرى فى أيامك أو فى سطور التاريخ وأن تسألى كل اصدقائك أن يعتبروا جريدتى جريدتهم في بلد اسلامى وأن يراسلوها

إن المصريين جميعاً مرتاحون لقيامى بأصدار جريدة اهلية الصبغة وطنية المشرب . . . . »

فردت عليه مدام آدم بكتاب هذا تعريبه :

« صديقى الشاب

اسمح لى أن أعرب لك عن الدعوات الصادقة التى أرفعها الى السماء ليهبك الله من لدنه صحة ومجداً وقوة فى جهادك الشريف ضد أعداء بلادك . وانى منشرحة الصدر جداً لما علمته من انك ستنشىء جريدة سياسية . لان ذخائر الخطابة والصحافة لازمة لكل المجاهدين فى ميادين السياسة

وانى أتمنى لمدرستك النجاح الذى أبتغيه . ويسرنى ان أراها فى زمن يسير كبيرة ملآنة بالتلاميذ بالغة مبلغاً محموداً. وان الذى يكوّن للوطن رجالاً يحبونه يخرج فى الحقيقة من أرض الوطن نفسه ثمراتها التى تهب الامة كلها القوة والعافية والحياة

وانى أهنيك أصدق تهنئة على نجاحك الخطابى العظيم وأرانى غير محتاجة لان أعرفك رأيي فى اعمالك الوطنية فأنت عالم بها علم اليقين . وانى لو استطعت ان اشرح لك افكارى بشأن بلادك البديعة لوجدت فيها مايملأ الفؤاد أملا وثقة بالمستقبل فقد كانت مصر دائماً آفة الدول الطاغية واثبت التاريخ انها

ان لم تبتلع الفاتحين لها قذفت بهم الى خارجها . ويظهر لى انها محروسة بأرواح أبنائها القدماء وأن فى أرض بلادكم سراً جعلها ويجعلها مقدسة للناس أجمعين

وانكم لو أردتم معاشر المصريين ان تكون مصر من اكبر الامم وأعظمها لكانت كما تشاؤون

الف تحية والف سلام (للواء الرسول) ! ليكن لواؤك يا مصطفى اول عامل للتقرب بين ابناء الدين المحمدى الصحيح وبين ابناء الدين المسيحى الصحيح . وما ذلك بعسير . وان هذا التقرب يكون اكبر خطوة فى تاريخ الانسانية والتمدن

هذا وتقبل ايها الصديق الشاب أحسن تحياتى واجمل تسليماتى

نيس فى ٥ يناير (چوليت آدم)

*
* *

وقد كتب رحمه الله بمناسبة مسئلة القيود التى وضعتها الحكومة فى طريق الحج الشريف مقالا آخر نشره اللواء فى ١٣ يناير سنة ١٩٠٠ هذا نصه :

﴿ اعتداء الحكومة على الامة ﴾

(فى مصر)

تفتخر الحكومة المصرية بانها حكومة العدل والحرية والدستور وأنه قلّ أن توجد فى اوربا نفسها حكومة بمبادئها الحرة الطاهرة ونحن معاشر المصريين نسر كثيراً ونفتخر اكثر منها لو رأيناها حرة فى الاقوال والافعال عادلة مع الكبير والصغير دستورية فى صغار الامور وكبارها لان اكبر فخار الامم هو انتظام أعمال حكوماتها وسيرها على محور الاستقامة والاستقلال

ولكن اذا كانت حكومات الامم المتمدنة دستورية قولاً وفعلاً فنصيب مصر من الدستور هو نصيبها من الاستقلال . فالحكومات الاخرى تحترم رغائب الشعب احتراماً ليس بعده احترام وتقدس مطالب الأمة أى تقديس لانها عارفة أن الأمة هى صاحبة البلاد وسيدة المملكة وانها ترفع من تشاء الى منصة الاحكام وتنزل من

تشاء . أما فى مصر فأول مبادئ حكومتنا العادلة احتقار المصريين وعدم الاهتمام بمطالبهم

ولسنا فى حاجة لأن نقيم الدليل على هذا وقد رأينا الحكومة فى ظروف عدة تسخر من رأى مجلس الشورى نفسه وتعقد جهاراً عقوداً مخالفة لمصلحة الامة والبلاد. وهى تعلم مع ذلك علم اليقين ان أعمالها هذه تقابل من الامة بمزيد الاستياء ولكنها فى واد والأمة فى واد

والآن علم المصريون جميعاً بما قررته الحكومة فى مسئلة الحج الشريف وكيف انها خالفت فى قرارها الاخير مبادئ العدل الصحيح واعتدت على الحرية الشخصية شر اعتداء . ولكى يعلم الناس كافة أن حكومة مصر تسير الى الوراء وان ما تقرره من مبادئ الحرية بالامس تبطله اليوم ننشر لقرائنا الكرام صورة قرار صدر من مجلس النظار وبلغ الى نظارة الداخلية في ١١ محرم سنة ١٣٠٦ الموافق ١٧ سبتمبر سنة ١٨٨٨ فى موضوع الحج الشريف والسفر الى خارج القطر . هذا نصه :

« بالجلسة المنعقدة فى يوم الخميس ٧ محرم سنة ١٣٠٦ (١٣ سبتمبر سنة ١٨٨٨) تليت المذكرة المقدمة من نظارة الداخلية المتضمنة أن العادة الجارية الآن بالنسبة لمن يريدون السفر الى خارج القطر هى أن الذوات المشاهير بل أواسط الناس مجبورون على طلب رخصة السفر بواسطة المديريات والمحافظات والاستئذان عن ذلك من نظارة الداخليـة وأن غيرهم من سائر الناس حتى الحجاج يكلفون بتقديم ضمانات

وبالمداولة فى ذلك رؤى أن كل انسان حر في أن يتوجه محل مايريد وليس هنالك وجـه يلزم أحـداً بطلب رخصة أو تقديم ضمانة عند احتياجه للسفر خارج القطر وان لا فائدة في ذلك سوى تعطيل الناس والزامهم بمـا لا يلزم واشغال جهات الادارة بأمر لاطائل تحته فلذلك تقرر أنه من الآن فصاعداً تعتبر تلك القاعدة ملغاة بالكلية وان الذين يريدون السفر خارج القطر لا يكلفون الا بأخذ الباسابورت المعتاد بدون ضمانة وكذلك الحجاج يأخـذون تذاكر الحج بدون ضمانة ولزم تحريره لاجراء مقتضى ما تقرر »

فاذا كانت الحكومة المصرية في عام ١٨٨٨ تحترم
الحرية الشخصية هذا الاحترام وتستهجن التضييق على
المسافرين عموما وعلى الحجاج خصوصاً فكيف يليق
بالحكومة المصرية في عام ١٩٠٠ ان تستحسن ما استهجنته
منذ اثنى عشر عاما وترجع بالحرية وبالأمة الى الوراء؟ نعم
ان الوزارة التى كانت قابضة على أزمة الامور فى عام
١٨٨٨ ليست وزارة اليوم ولكن الوزارات كلها متضامنة
فى أعمالها والحكومة واحدة لا تتغير . وويل ثم ويل للبلاد
لاهمّ للوزارة فيها الا تبديل قرارات الوزارات السابقة لها

واذا سئلنا عن سبب اعتداء الحكومة على الحرية
الشخصية فى مسئلة الحج لاجبنا بكل صراحة وبدون تردد
أن حكومتنا العادلة ترى أن زمن التدين قد فات وان
الاجدر بالحجاج أن يسافروا الى لوندره بدلاً من أن
يسافروا الى الحجاز ...... والا فليس لاعتدائها على حرية
الحجاج تفسير آخر !

نحن نسمعها تشكو من الحجاج الذين يعدون اليها بد

السؤال وتدعى أنها قررت قرارها الاخير منع الفقراء من السفر الى الاراضى الشريفة . ولكن أليس الاجدر بها أن تترك للحجاج حريتهم فى السفر والاياب وأن تكتفى بانذارهم بعدم مساعدة المحتاجين منهم ؟ أما آن لحكومة بلادنا أن تعتقد انها وكيلة عن الامة وان الوكيل تجب عليه خدمة موكله خدمة صادقة ؟

على انه اذا كانت مهمة الصحف فى كل البلاد تنبيه الامة ومراقبة الحكومة فنحن نكون مقصرين في واجباتنا نحو الوطن والامة ونحو الحكومة نفسها اذا لم نرفع صوتنا فى مسئلة هى من أهم المسائل الحيوية لمصر والمصريين . واننا ندعو أصحاب الاقلام فى مصر الى الكتابة في هذا الموضوع الخطير عسى أن الحكومة ترجع عن قرارها وتصلح خطأها وتستحق شكر الامة والبلاد

(مصطفى كامل)

*
* *

كانت الحرب قائمة فى هذا التاريخ بين البوير والانكليز وتعددت انتصارات الاولين على الآخرين مما دهش له العالم باسره وزاد اعجابه بأمة ليس لديها من العدد والعدد مايبلغ شطراً من مائتين من أمة الانكليز — وقد انتهز المرحوم نصر هذه الامة الصغيرة عددا الكبيرة فؤادا على خصوم بلاده وسالبي نعمتها واستقلالها فأخذ يتخير الانباء التى تبرق لها اسرة الامة باسرها وينشر اراء الساسة في نتيجة هذه الحرب حتى كاد خصومنا واذنابهم يتميزون غيظا ولم يجدوا وسيلة للرد عليه غير تشهيرهم به وبعمله واختلاق الكذب والبهتان

ولما كان المحتلون يعتقدون أن المحرك للشعور الوطنى هو سمو الخديو وأن المترجم صنيعة من صنائعه أرادوا ان يحرجوا الانفس بما احتلقوه على سموه مدعيين أنه صافى الانكليز وأخذ يعمل بالاتفاق معهم خدمة لبلاده وحباً فى خير أمته . ولكن المرحوم وجميع الوطنيين المخلصين لم يكترثوا

بهذه الترهات بل ساروا فى طريقهم الوطنى المرسوم رغم أنف هؤلاء الضالين المضلين . وقد كتب رحمه الله فصلا فى هذا الموضوع نشره اللواء في ١٤ يناير سنة ١٩٠٠ هذا نصه :

﴿ سياسة الشرف والاباء ﴾

أخذت احدى جرائد الاحتلال منذ بضعة أيام تسمعنا صباح مساء انها أصدق الصحف للاريكة الخديوية وان سمو العزيز عدل عن سياسته الاولى ورأى ان سياسة الاتفاق مع المحتلين هي السياسة القويمة الصالحة لملكه وبلاده . ولولا ان مصر أرض العجائب والغرائب ما كنا سمعنا الناس يتحدثون بأقوال كهذه صادرة عن قلوب كلها حقد وغرض . ولكننا نعيش فى بلد تفعل الاشاعات والاكاذيب فيه مالا تفعله فى بلد آخر . فوظيفة الصحافى الصادق فى مصر هى قبل كل شيء القضاء على الدسائس والاشاعات الكاذبة التي يدسها ويشيعها أعداء الامة والوطن

ويعلم أبناء مصر جميعاً اننا من أول يوم نادينا فيه بحقوق

الوطن العزيز واستنهضنا هممهم العالية للأخذ بناصر هذه البلاد التعسة دعوناهم للاتحاد حول الاريكة الخديوية والاجتماع على محبة سمو الامير صاحب السلطة الشرعية في مصر والنائب الوحيد عن جلالة مولانا السلطان الاعظم . ولم يكن احترامنا لهذا المقام السامى وحبنا لشخص العباس مؤسسين على التعلق بالامير أيا كان والاخلاص لهذه الاريكة من حيث هي أريكة بل اننا جاهرنا ونجاهر غير خائفين فى الحق لومة لائم ان شمائل الامير وأمياله الشريفة نحو بلاده وأمته هي التى استمالت قلوبنا اليه وجمعتنا حول كرسيه وهي التى نضحى لاجلها أرواحنا مادام الامير بهذه الشمائل وهذه الاميال السامية

كيف لا وقد دوت مصر من مشارقها الى مغاربها ومن شمالها الى جنوبها بكلمة العباس حيث قال عام ١٨٩٣ على مسمع من الملأ كله : « انى أفضل أن أموت عن أن أفقد حقوقى وحقوق بلادى » فالسياسة التى اختطها سمو الامير هى سياسة الشرف والاباء . سياسة العزة وعلو الهمة . سياسة الوطنية الصادقة . سياسة عظماء الرجال. واذا كانت الحوادث

والايام جرت ضد رغبته وأتت على خلاف مطلبه فله العذ
العظيم أمام الوطن وأمام التاريخ

وان أميراً هذه عواطفه وهذه سياسته لا يصدق ع
انه بذل نفسه لاعدائه وأعداء بلاده ويستبدل سياسة الشرف
والاباء بسياسة الاستسلام والهوان . ولعمرى ان أكبر س
يسب بها أمير كسمو أميرنا هى أن يقال عنه انه صديق
للمحتلين وانه أصبح لا يتألم لآلام أمته ولا يؤمل ما تؤم
بلاده. والا فكيف يكون الامير رفيع الاحساس طاه
النفس عالي الهمة سامى الوطنية ثم يقبل المذلة صاغراً ؟ وهل
يقبل عند ذوى العقول السليمة ان أميراً ينادى امام النا
كافة بأن الموت أحب اليه من ضياع حقوقه ينسى تصريحات
العلنية ويخالف أقواله الجهرية ويعمل ضد شعوره وضد أميال
الحقيقية ؟

لا جرم أن الحقيقة التى لا ريب فيها هى أن سمو
الامير على عهده الاول وأن مبادئه اليوم هى مبادئه بالامس
وانه كالاسد يركن الآن الى السكون ليجمع قواه وينهض

نهضة كبرى . هـذا ما اعتقده فى السر وفى الجهر . أما ماينادى به أعداء المصريين من تغير سياسة الامير فهو نداء العدو المتفنن في ضروب الشماتة العـامل لتنفير الرعية من الراعى لانهم يعلمون حق العلم أن المصريين جميعاً ساخطون على الاحتلال والمحتلين بريئون من الذين يعضدون الاجنبي مهما ارتفع مقامهم وسمت مراكزهم . فاتهـامهم أشرف المصريين احساساً وأرقى الامراء أميالا بانه مع المحتلين على مصر والمصريين تهمة شنيعة ودسيسة تصغر بجانبها كل الدسائس

ومن العجيب أن هؤلاء الدخلاء يتظاهرون اليوم بالاخلاص لسمو الامير فبئس الاخلاص اخلاصهم وبئس الولاء ولاؤهم وويل لمن يغـتر باقوالهم ويصغى لدسائسهم ووشاياتهم فانه يكون آلة لهم ضد الامة وضد الوطن المحبوب

(مصطفى كامل)

*
* *

لما اشتد لهيب الحرب الترنسفالية ودارت الدائرة على الانكليز فى وقائع عدة أخذت الجرائد الاوربية الكبرى تشيع اشاعات مختلفة كلها تدور حول ارسال الجيش المصرى الى الحرب أو استبدال الجنود البريطانية فى وادى النيل بجنود ايطالية او محالفة انكلترا تركيا وغير ذلك من الاقوال التى كل ما فيها الحط من كرامة انجلترا وتمثيلها للعالم بالضعيفة الجانب المرتبكة فى أمرها ازاء ليوث جنوب افريقية

وقد كتب المرحوم فصلا بهذه المناسبة نشره اللواء فى ١٥ يناير سنة ١٩٠٠ هذا نصه :

﴿ أعمال الانكليز فى مصر ﴾

احتلت انكلترا مصر من نحو ثمانية عشر عاماً بدعوى ترقية شؤونها واصلاح أحوالها. وجعلت همها الاول الجيش المصرى فعينت له القواد من أبنائها وغيرت نظاماته تغييراً كلياً وانتخبت له من بنى مصر ضباطاً كما شاءت سياستها واقتضت أهواؤها . وقد استردت بهذا الجيش العظيم بلاد

السودان ودكت أركان المملكة المهدوية وفاخرتنا وفاخرت العالم كله بجنود مصر الاعزاء

وكنا نظن أن تفاخرها بهذا الجيش يحملها على الثقة به والاعتماد عليه . ولما قامت الحرب بينها وبين الترنسفال وأشيع أنها مضطرة الى أخذ عساكر جيش الاحتلال من مصر وارسالهم الى افريقية الجنوبية قلنا : « قد حان الوقت الذي تستطيع فيه انكلترا ان تكافىء هذا الجيش المصرى الجليل وتبرهن على تمام ثقتها به بتسليمه البلاد تحت القيادة العامة لسمو الامير واحلاله محل الجيش المحتل » . ولكننا أحسنا الظن بالانكليز فوق ما يجب وحسبنا ان حوادث الترنسفال تغير من سياستهم نحو المصريين وتفهمهم أن معاملة هذه الامة بالقسوة والشدة والاستمرار فى الاساءة اليها يضر بالانكليز ضرراً ليس لهم على بال ويجعلهم دائماً فى مصر غير آمنين

وقد كان الانكليز وصنائعهم في البلاد يطنبون فى مدح الاحتلال وفوائده ويقولون ان الجيش المصرى أصبح من

أحسن جيوش العالم ومتى حانت الفرصة استغنى به عن جيش الاحتلال . فهل لم تحن الفرصة بعد مضى ثمانية عشر عاما على هذا الاحتلال الثقيل ؟ واذا كان الجيش المصري قام فى السودان بهذه الاعمال العظيمة التي يعجز عن القيام بها غيره من جيوش الدول فهل يجوز يا أبناء التاميز أن تقابلوا احسناته بالسيئات وتكافئوه بسوء الظن والحذر الشديد ؟ أليس ما كنتم تقولونه فى مبدإ احتلالكم وما كنتم تجاهرون به أمام أوربا وأمام الناس جميعا تمويها فى تمويه وتضليلا فى تضليل

تأتينا الجرائد الاوربية كل يوم بنبأ جديد بشأن الارتباكات العظمى التى وقعت فيها بريطانيا بفضل البوير ونقرأ فيها من الاخبار مايدهش العقلاء . فتارة نقرأ انها استغاثت بتركيا وسألتها محالفتها محالفة دفاعية هجومية وطوراً نقرأ انها تتخابر مع ايطاليا فى أمر ارسال جنود ايطالية لى مصر لتحتلها مكان الجنود الانكليزية التى عزمت على ارسالها الى هذه الهاوية (الترنسفال) التى لا نهاية لها والتى أصبح اسمها وردا على ألسنة العالمين

فلماذا هذه الحيرة ولماذا هذا الاضطراب ؟ هل مصر بحق شرفكم يامعاشر الانكليز محتاجة لجيش يحتلها ؟ وهل الامن فيها مهدد من أحد ؟ وهل لجنودكم فى بلادنا وظيفة حقيقية ؟ واذا كانت مصر محتاجة لمن يحرسها ويحفظ الامن فيها أليست جنودها وأبناؤها أحق بهذا الواجب من جيشكم ومن جيش الطليان ؟

انى أعتقد أن اكبر اهانة أهينت بها مصر فى أدوار تاريخها هى ان يمثلها الانكليز طفلة لاحارس لها من أهلها تترك وديعة عند هذا أو ذاك . فالى متى هذا الهوان وهذا الشقاء ؟ ومتى يعرف المصريون مقام الوطن المحبوب ويعملون باتحاد لنصرته فيجبروا العالم بأسره على احترامه واحترامهم ؟

(مصطفى كامل)

*
* *

دارت رحي المناقشة بين الوطنيين الصادقين على صفحات الجرائد الوطنية في علاقة الرابطة الدينية بالرابطة الوطنية وما يتهمنا به الخصوم من التعصب الذميم لذكرنا كلمة الدين فى كل

مجادلة سياسية وغير سياسية فكتب رحمه الله فصلا فى لواء ١٥ رمضان سنة ١٣١٧ هذا نصه:

﴿ رابطة الدين ورابطة الوطن ﴾

لكل أمة حية واجبان عظيمان واجب نحو دينها وعقيدتها وواجب نحو وطنها وأرض ابائها. وكلما ارتقت الامة في مدارج العرفان والكمال وتقدمت فى سبيل المدنية والعمران إشتد اجلالها لدينها ووطنها وعظم تعلقها بعقيدتها وبلادها. وبالعكس كلما نزلت الامة من عالى مجدها الى حضيض مقامها وانحطت عن غيرها قل اجلالها للوطن والوطنية وضعف تمسكها بالعقيدة الدينية

وهذه أمم الغرب بلغت من المدنية أقصى ماتبلغه الامم بفضل تمسكها بأوطانها التمسك الشديد وتفانيها فى محبتها والدفاع عن استقلالها. وقد كان الكثيرون من أبناء الشرق يظنون ان المدنية الغربية لاتعلم أبناءها الامحبة الوطن وانها بعيدة عن الدين ومبادئه فنبذوا مبادئ دينهم القويم تشبها بأهل الغرب وجهلوا ان الاوربيين هم أشد بنى الانسان

احتراما لاديهم وان العقائد عندهم مقدسة لايمكن مساسها وفي تاريخ هـذا العصر براهين جمـة تؤيد ذلك . وما تصفح أحد تاريخ علاقات أوربا بالدولة العلية الا ورأى ان الجهاد بين دولتنا المحبوبة ودول الغرب جهاد دينى وان الدين هو أساس سياسة الاوروبيين مع الشرقيين . ولم ينس أحد منا ماقاله جهاراً سفير انكلترا في الاسـتانة العلية أمام سفراء الدول الاخرى ووزير خارجية جلالة مولانا السلطان الاعظم من ان « ما أخذ من الهلال لا يرد الى الهـلال » .

كذلك نعـلم كلنا عـلم اليقين ان دول أوروبا مع اختلاف مشاربها وتباين أغراضها ومصالحها تتحـد كلها اذا أصيب مسيحي في الشرق أو في أقصى بقاع الارض بمصيبة وتعمل لانقاذه والاخذ بثاره . أليس ذلك كله دليلا على ان الدين هو أساس السياسة ؟ وكما ان الدين يقود أوروبا في سـياستها مع الشرقيين فانه يقود أفراد الاوربيين في أعمالهم الذاتيـة ولا عبرة بما يراه السائح في عواصم أوروبا من التهتك والالحاد فان أهل الارياف كلهم متدينون شـديدو الاعتقاد . وكل

من رأى عاصمة انكلترا في أيام الاحد عرف مقدار تمسك الانكليز بدينهم واستهجانهم لكل من ليس على شاكلتهم وكل من يقرأ كتابات كبار الكتاب الان ويطلع على أشعار فحول الشعراء يدرك ان الذين كانوا ينكرون الدين وقوته في أوربا أصبحوا اليوم دعاة له ونصراء

فاذا كان الغربيون وهم أساتذتنا الذين تشبهنا بهم فى أمور عديدة يجلون الدين هذا الاجلال ويعتبرونه أساساً للمدنية والعمران فلماذا لا نكون مثلهم ولماذا لا نتمسك بديننا فى السر والجهر وهو دين الفضائل والمكارم والهدى ؟ واذا كان الغربيون يعتقدون أن الدين أساس السياسة فكيف يقوم بيننا من يدعى أن الدين شيء والسياسة شيء آخر ؟ واذا كانت القاعدة الفلسفية التى لاريب فيها هى أن التمسك بالدين والوطن سبب ارتقاء الامم وعدم التمسك بهما علة انحطاطها . فلماذا لانتمسك بهما التمسك الشديد المتين وقد ابتدأنا نعمل لارتقاء بلادنا واعلاء شأن امتنا ؟

نحن فى مصر أمة مشتركة جزء منا هو الاقباط وجزء

عظيم هو المسلمون . وعلينا واجبان عظيمان واجب ديني وواجب وطني . فالواجب الديني يحتم على الاقباط أن يحافظوا على عقيدتهم أشد المحافظة ويدافعوا عنها أقوى الدفاع . ولا ملامة عليهم اذا عطفوا على اخوانهم في الدين والعقيدة . والواجب الديني يحتم على المسلمين أن يرجعوا الى مبادئ الاسلام الصحيحة ويعملوا باوامر الدين الحنيف الكريم ويجتنبوا نواهيه ويتحدوا فيما بينهم اتحاداً متيناً اكيداً حتى يرتفع شأنهم وتسمو بين الامم مكانتهم . ولا ملامة اذا عطفوا بكل جوارحهم على اخوانهم المسلمين في سائر المعمور لان الاسلام جعل المسلمين اخوة بالرغم من اختلاف النحل والبلاد . واذا أضفنا الى الرابطة الدينية اتحاد المصالح السياسية واضطهاد أوربا لنا بصفة واحدة وشكل واحد ولعلة واحدة ظهر لنا ضرورة اجتماع كلمة المسلمين وعرف الناس جميعاً لماذا ننادي بالاتحاد الاسلامي ! ألا ترى أن الذين يطعنون على الاسلام يتهمونه بأنه دين التأخر والانحطاط وأن جميع أبنائه متأخرون منحطون ؟ أليست هذه التهمة

وحدها داعية لاستنهاض همم المسلمين فى كل أنحاء الارض ودعوتهم للاتحاد والاتفاق وترقية شؤونهم واعلاء قدر الدين الكريم ؟

هـذا واجبنا الديني نصرح به امام الملأ ولا نخشى فى ذلك أحداً . أما واجبنا الوطنى فهو العمل باتحاد تام بين المسلمين والاقباط وغيرهم ممن صارت مصر وطناً لهم لخدمة هذه الديار العزيزة والسعى وراء استقلالها وحريتها ولم نجاهر بغير ذلك طول حياتنا بل اننا جاهرنا بأن المسلمين والاقباط فى مصر أمة واحدة وان الدم الذى يجرى فى عروق أغلب مسلمى مصر هو بنفسه الدم الذى يجرى فى عروق الاقباط والى هذا تنتهى الدعوة للاتحاد الجنسى والاتفاق الوطنى . فاذا كان بعض السذج والبسطاء لا يفهمون القول الصريح فليعلموا اننا نقصد قبل كل شىء اتحاد المصريين بصفتهم أمة لها وطن ويجب عليها خدمته ونصرته . وهذا لا ينافى نداءنا الاسلامى وعملنا لاعلاء شأن ديننا الكريم

وليس فى خدمة الاسلام او الدعوة لاتحاد المسلمين

شيء من التعصب الديني أو من المخالفة للمباديء الوطنية الحقيقية . بل ان التمسك بالدين يدعو للتمسك بالوطن . وحسبنا دليلا «حب الوطن من الايمان»

(مصطفى كامل)

***

عاد رحمه الله الى مسئلة الحج واحترام الاديان فكتب فصلا فى لواء ١٨ يناير سنة ١٩٠٠ هذا نصه :

﴿ احترام الاديان فى مصر ﴾

امتازت مصر دون غيرها من بلاد العالم بالاعتدال الديني والتسامح العظيم وجرت فى ذلك عملا بما أمرت به الشريعة السمحة واتباعا لخطة الدولة العلية مع رعاياها المسيحيين. ففتحت واسع أبوابها للغربيين على اختلاف مللهم وتركت للجميع حرية أديانهم وبالغت فى الاعتدال فسمحت للبعثات الدينية المسيحية بسكنى الديار والدعوة الى الدين والسفر الى أقصى جهات السودان والتنقل من بلد الى بلد بكمال الامان والاطمئنان

ومن تجول فى بلاد أوربا وخبر أحوالها واختبر أمورها يعلم أنها أقل اعتدالا من بلاد مصر وان حكوماتها لا تترك العنان لاصحاب الاديان المخالفة لدينها . ولذلك كان يحق للمصريين أن يفتخروا بما نشأوا عليه من مبادىء الاعتدال مع تمسكهم الشديد بدينهم الذى لا يحولهم عنه أفصح المبعوثين لسانا وأحسنهم بيانا

وقد اعتادت الحكومة المصرية من عهد بعيد ان تحسن الى الغرباء بنوع عام والى المسيحيين منهم بنوع خاص . ولم تجد من الامة أقل ملام على ذلك . ولكنها تجاوزت الحدود فأصبحت لا تحفل بالدين الاسلامي الذى هو دين السلطان والأمير ودين الامة والبلاد فتجدها تضيق على المسلمين فى أمورهم الدينية وواجباتهم الاسلامية وتعمل ما في استطاعتها لقتل أشرف عواطفهم وأقدس احساساتهم

ألا تراها تبذل الجهد غاية الجهد فى منع الحجاج من السفر الى أرض الحجاز الطاهرة وتأتى كل يوم حيلة لهذا الغرض ؟ أما كلفتهم بالضمانات المدهشة واشترطت عليهم

ان يأخذوا الجوازات من البلد المقيمين فيه ليكونوا تحت رحمة سلطتها اذا شاءت سافروا وان لم تشأ أقاموا آسفين ؟ أما ضيقت على الشركة المخصوصة العثمانية لتجبر الحجاج على ان يسافروا فى مراكب الشركة الخديوية الانكليزية ؟ أما جعلت ديدنها تعيين ذوى الاخلاق السافلة من اليونانيين وغيرهم فى المحاجر الصحية ليأنف الحجاج من الحج نفسه ويأبوا القيام بعد ذلك بفريضته وهى من أقدس الواجبات ؟

انى لا أجد لأعمال حكومتنا فى مسئلة الحج تفسيراً معقولا أو مقبولا . وان كان لرجالها الا دنياء العادلين نصراء يستطيعون الدفاع عنهم فليردوا علينا وليقدموا حججهم حتى نعدل عن الاحتجاج عليهم فى أعمالهم ونفهم حقيقة مقاصدهم !!

على اننا لم ننس ان وزراء مصر الاسيئة سعوا فى ابطال الحج الشريف منذ عامين حيث قامت قيامة الرأى العام واستغاث الناس بسمو الامير فلبي نداءهم وسمع استغاثتهم وأصغى الى صوت ضميره فأبطل قرار وزارته وسمح بالحج محترما فى ذلك الشريعة والامة والوطن

فاذا كان هـذا منتهى احترام حكومتنا السنية لعقيدة الامة التى تسوس أمورها فكيف يطالبنا أصدقاؤها بمحبتها والثناء عليها بل كيف يدعون أنها حكومة الحرية والعـدل والدستور ؟

ليت شعرى اذا كانت حكومات العصور الاولى تقدس الاديان تقديساً وتجلها اجلالا وحكومات أوربا المتمدينة تحترمها أكبر احترام وتدافع عنها دفاعها عن أرض بلادها فعلى أى سنة تسير حكومتنا الجليلة فى أعمالها ؟ هل تقلد حكومات الزمن الماضى أم تقتدى بحكومات أوربا الحالية ؟ فان كانت كحكومات العصور الاولى فأقدس واجباتها اجلال الدين الاسلامى واعزازه وان كانت تقتدى بحكومات التمدن الحديث وبالحكومة الانكليزية بصفة خاصة فلا يليق بها أن تتجاهل مبادىء هذه الحكومات التى تسير جيوشها في ظروف كثيرة للأخذ بثأر قسيس أو مبعوث دينى . . . .

فمن العار الكبير على حكومة مصر أن تعرقل طريق

الحجاج من أبناء بلادها وتخالف سنة المتقدمين والمتأخرين وتضعف بنفسها قوة الدين الكريم !

(مصطفى كامل)

*
* *

ماجاء يوم ١٩ يناير سنة ١٩٠٠ حتى كان قد مضى عام على اتفاقيـة السودان فخفت على الوطنيين الذكرى وترديد الآلام والعمل لبرء السقام . وقد كتب المترجم مقالا في هذا الموضوع الهام هذا نصه :

﴿ يوم ١٩ يناير ﴾

لكل أمة من الأمم أيام في تاريخها تحتفل بها وتحييها لما تم لها فيها من المجد والعز والرفعة وأيام تذكرها شقاءها وبؤسها فتحزن فيها وتأخذ على نفسها العهود باصلاح ما فسد واعلاء شأن ديارها وأوطانها . وكلما قلت ايام ذكرى الحزن والحداد في أمة قل مصابها وحسن حالها . وكلما كثرت ايام ذكرى النصر والظفر والفخار كانت الأمة عالية الشأن رفيعة المقدار

وهذه أمتنا المصرية العزيزة لم تتم لها في هـذا العصر المنحوس سعادة ولم توفق الى عمل يرفعها الى مقام الأمم الحية والشعوب المستقلة بل تضاعفت نوائبها وتعاقبت مصائبها وحاقت بها البلايا وتواترت أيام البؤس والشقاء في تاريخها فاذا تصفحت هذا التاريخ وجدت بلاء فى بلاء وشقاء فى شقاء. ومما يزيد الاسف ان هذه البلايا والرزايا لم تصب الامة من الاجانب عنها وحدهم بل أصابتها — على الخصوص — من خيانة بعض ابنائها واهمال البعض الآخر

وان اكبر أيام الشقاء فى تاريخ مصر وأسوأ تذكار يهيج فى نفوس المصريين الاحرار الآلام والاشجان هو يوم ١٩ يناير. يوم تذكار اتفاقيـة السودان. ذلك اليوم المشؤوم الذى أعلنت فيه الحكومة الخديوية للامة المصرية وللعالم كله ان السودان صار مستعمرة انكليزية بالفعل وان المشاق الهائلة والاتعاب الجسيمة والاموال الباهظة والدماء الطاهرة التى بذلت فى سبيل استرداده قدمت هدية من مصر للدولة البريطانية. فما أعظمك يامصر كرماً واكبرك بلاءً وهماً!

أجل . كان الامس تذكار المصيبة الكبرى والداهية الدهماء التى أنزلها وزراء مصر وساسة البريطان على أمتنا الاسيفة من سماء عدالتهم وانصافهم . فان كان لكم معاشر المصريين شعور واحساس فتذكروا هذه الحادثة تذكر الاحياء واعتقدوا ان حقوقكم فى السودان ثابتة وان كل المعاهدات والاتفاقيات لاتميت هذه الحقوق أبدا . وعلموا أبناءكم صغارا معنى هذه الحقوق المقدسة ليطالبوا بها كباراً أو يحافظوا عليها ان وفقتم لاسترجاعها

تذكروا معاشر المصريين ان اخوتكم فى الوطن والدين أهرقت دماؤهم العزيزة فى سبيل استرداد السودان . تذكروا معاشر المصريين ان أرض السودان رويت بدمائكم وصرفت فيها أموالكم وسلبتكم أشد الرجال وأعز الابناء . تذكروا معاشر المصريين ان مصر لاحياة لها بغير السودان وان القابض على منابع النيل قابض على أرواحكم . تذكروا معاشر المصريين ان ضياع السودان ضياع لمصر وانكم بغيره فاقدون الحياة . تذكروا معاشر المصريين ان اتفاقية السودان مخالفة

لدستور البلاد وفرمانات سلاطين آل عثمان ومعاهدات الدول الأوربية . تذكروا معاشر المصريين ان فرنسا لم تنس الالزاس واللورين الى اليوم وقد مضى على انفصالهما من جسمها ثلاثون عاما . وما حاجة فرنسا اليهما كحاجة مصر الى السودان

وما أذكركم بالسودان الا لتفكروا فيه صباح مساء وتعتبروا الاتفاقية المشؤومة اتفاقية باطلة حتى يجيء اليوم الذى تحققون فيه رغائبكم وتكون الحكومة طوع ارادتكم وتصير كلمتكم فى بلادكم هى الكلمة النافذة كغيركم من الامم الحرة والشعوب الحية المستقلة

(مصطفى كامل)

*
* *

بعد ان ذكر السودان وما كلفنا من دماء وأموال قامت صحف المحتلين كعادتها تذكر حسنات الانكليز الموهومة مدافعة عن الوزارة الفهمية فكتب المترجم مقالا في لواء ٢١ يناير سنة ١٩٠٠ هذا نصه :

كلمات فى سبيل السودان

كان أول الأمس تذكار ذلك اليوم المشؤم الذى تضت فيه الحكومة الخديوية على سلطتها ونفوذها ومصالح أمتها وحقوقها المقدسة بعقد اتفاقية ١٩ يناير التى استولت انكلترا بمقتضاها على السودان استيلاء رسمياً . وقد ذكرنا أبناء الوطن العزيز بهذا التذكار ليكون السودان حاضراً فى أذهانهم ولتتمثل حقوقهم الشرعية أمامهم فى كل لحظة وآن

وقد اعترضنا أحد أنصار الوزارة الفهمية فقال « ما بالكم تحملون على الوزراء في مسئلة السودان وأنتم تعلمون أكثر من كل انسان أن الوزارة لاحول لها ولا قوة وانها مسوقة الى ذلك بقوة بريطانيا وتهديداتها » . فأجبناه « أن الامر بسيط فان الوزارة الفهمية اذا كانت تعمل ما تعمل مضطرة فما عليها الا أن تبرىء نفسها أمام أميرها وأمام أمتها ووطنها وتستقيل من منصبها قائلة الموت أحب الىّ من القضاء على حقوق مولاى وحقوق أمتى » . عندئذ كنا نضرب بوزارتنا الامثال للناس فى الشهامة وعزة النفس والوطنية

ولكن كيف يستطيع حضرات النظار أن يبرئوا أنفسهم اليوم وهم أشد تمسكاً بمناصبهم من (كروجر) بالانتصار على الانكليز . وقد سمعنا وزراء بريطانيا ينادون باعلى أصواتهم أن الحكومة المصرية حرة في أعمالها مستقلة في كل أفعالها . أى انهم يقولون لنا معاشر المصريين « ما أصابكم من حسنة أو من سيئة فمن حكومة بلادكم »

على أننا لو رجعنا الى الحوادث القريبة العهد منا قبل اتفاقية السودان لوجدنا أن كل مشروع انكليزي عارض فيه سمو الخديوى المعظم وعضده بعض الوزراء فى معارضته فانه لم ينفذ مطلقاً ألا يتذكر القراء الكرام مشروع سكك السودان ؟ فان الانكليز سألوا الحكومة الخديوية ان تبيع هذه السكك لشركة انكليزية فأبى سمو الامير وأشيع وقتئذ أن بعض الوزراء معضد لسموه فى معارضته . وقد تبودلت يومئذ الرسائل البرقية بين سمو الخديوى المعظم وجلالة مولانا السلطان الاعظم في هذا الامر ورأى الجناب العالى من لدن متبوعه تعضيداً قويا علم به الخاص والعام

فاذا كانت الحكومة الخديوية رأت أن بيع سكك حديد السودان مخالف لحقوق البلاد ولمصالح الامة والدولة فكيف لا ترى أن تسليم السودان للانكليز قضاء على مصر وعليها نفسها ؟ وهل يصح لحكومة حرة غيورة على مصالحها عارفة بمبادئ الوطنية الحقيقية أن تعارض في بيع سكك حديدية وتقبل عن طيب خاطر التنازل للدولة البريطانية عن السودان كله وهو مصدر الحياة والوجود لمصر والمصريين؟ واذا كانت الحكومة الخديوية قد أفلحت في معارضة المحتلين في مسئلة السكك السودانية فكيف يدعي أنصارها انها كانت مضطرة لعقد اتفاقية السودان ؟

ثم انهم يقولون ان حادثة فشودة أثرت كثيراً في الحكومة المصرية وان منادياً نادى بين وزرائنا بان مصر ليست كفرنسا وانه اذا كانت هذه الدولة العظيمة خافت بريطانيا وأخلت فشوده بعد رفع رايتها عليها فخير لمصر أن تترك حقوقها وبلادها للسادة المحتلين . ولكن اذا كان وزراء مصر عارضوا الحكومة البريطانية في مسئلة السودان وابوا

تسليم هذه البلاد اليها فماذا كانت تعمل ؟ أكانت تستطيع أن ان تسيء الى الديار المصرية أكثر مما أساءت ؟ وهل موقفنا في مسئلة السودان كان كموقف فرنسا فى مسئلة فشودة ؟

ولماذا تجتهد الحكومة الخديوية فى التشبه بمن فشلوا في أعمالهم وتولاهم اليأس والجبن ولا تكون كذلك القائد الفرنساوى الذي حوصر مع عشرين جندياً فى احدى قلاع أسبانيا وسئل التسليم من المحاصرين له فاجابهم وقد فقد كل حيلة فى النجاة ! « انكم لا تسلمون منا الا رصاصاً ثم رمماً » يقصد بقوله هذا انه يحاربهم حتى يموت هو ومن معه ويكونوا رمماً بالية

فهكذا تكون الشهامة الصحيحة وهكذا تكون الوطنية الحقيقية . واننا معاشر المصريين نفضل أن نرى حكومتنا شديدة الاباء عظيمة التمسك بالوطنية شريفة المبادىء ولو قضى ذلك بسقوط الف وزارة عن أن نراها على خلاف مايجب والوزراء في مناصبهم مؤبدون مخلدون

«مصطفى كامل»

*
* *

ما رأى صنائع المحتلين هذه المقالات الوطنية وهذه النهضة المشكورة حتى أخذوا يحرقون الارم ويضربون على نغمات المأجور شكراً للآجر تلك النغمات التي يرتلونها كلما عصب الخزى جباههم وبارت بضاعتهم الا انهم لا يأمون ظنوا أن السذاجة من خلاق المصريين والتغرير يحجب الحقيقة عن بصائرهم فأطروا الانكليز وأعمالهم وذكروا للمحتلين من الحسنات ما لم يذكره التاريخ للعمرين وهما أعدل من سطر وأسبق من بنى وعمر . فكتب المترجم مقالا نشره اللواء فى ٢٣ يناير سنة ١٩٠٠ هذا نصه :

لمن يعمل الانكليز فى مصر

طالما ادعى الانكليز وصنائعهم انهم احتلوا الديار المصرية لاصلاح شؤونها وتربية أبنائها على حكم بلادهم بأنفسهم وكنا كلما طالبناهم بهذا الاصلاح أجابونا : « ألا فانظروا هل كانت بلادكم بهذا الجمال وهذا البهاء ؟ هل كان لكم جيش منظم

كهذا الجيش ومالية منتظمة كهذه المالية ؟ » ولولا التاريخ لقالوا انهم بنوا الاهرام وشيدوها تشييداً . ولكنهم اذا حاسبوا أنفسهم باعتدال وتجرد عن كل هوى لوجدوا ان عاصمة البلاد التى يفاخروننا بتنظيمها لم ينظم فيها الا حى الاجانب . وان هذا الجيش العظيم الذى كان يحق لنا أن نفتخر به قبلهم لم يسخر الا لخدمة بريطانيا دون غيرها . وان هذه المالية المنتظمة لم تنظم الا لينال السادة الانكليز من المرتبات مالا يناله أمير فى بلاده ! ! !

وقد كنا نسمع ساسة الانكليز يقولون اذا سئلوا عن ميعاد الجلاء : « لا يليق بشرفنا أن نترك مصر والسودان منفصل عنها مهدد لها فى كل وقت » . فها هو السودان قد تم فتحه باسم الخديو وبمال المصريين وبرجال مصر . فماذا كان من أمر الانكليز معنا فيه ؟ هل تركوه لنا وتركونا له وغادروا البلاد احتراماً لشرفهم وقياماً بالوفاء بوعودهم ؟ كلا ثم كلا . ان الشرف فى سياسة الانكليز كلمة لا معنى لها بل معناها التوصل الى استعباد الامم بأية وسيلة . وويل لمن يغتر

من أمراء الشرق وشعوبه بهذه الكلمات المزخرفة التي جرت على ألسن الخطباء وأقلام الكتاب من ساسة أوربا !

واننا نجد في تاريخ الاحتلال الانكليزي أمثلة كبيرة على ان غرض المحتلين هو إماتة العواطف الحية والاستيلاء على البلاد ونزع كل سلطة وكل ثروة من أيدي المصريين وأقرب مثال يصح ذكره بل يجب التنبيه اليه هو مسئلة الخليج التي تكلمنا عنها بالامس نقلا عن جريدة الاجيبسيان غازيت لسان حال الاحتلال . فقد علم الخاص والعام ان الانكليز أوعزوا الى الحكومة المصرية بوضع مشروع أمر عال يقضي باعتبار المباني التي على جانبي الخليج من المنافع العمومية والتنازل لشركة انكليزية عن حق شراء هذه المباني بعد تقدير أثمانها تقديراً رسمياً كله اجحاف بالاهالي وتساهل للشركة الانكليزية

فهل في هذا العمل الغريب شيء من المساعدة للمصريين؟ وهل بمثل هذه الافعال يتربى المصريون على ادارة شؤون بلادهم بأنفسهم وتبلغ مصر مبلغ الأمم المتمدنة؟ وهل وظيفة

الانكليز في مصر تسليم هذه الديار الاسيفة لابناء جلدتهم أم ترك ما بأيدى المصريين للمصريين ؟ واذا كان غرض الانكليز سلب البلاد من أهليها أفلا يوجد بين وزراء مصر رجل واحد له فؤاد يؤلمه وضمير يوبخه يقف مرة ويرفض بيع الوطن والامة هذا البيع العلني ؟

اللهم ان مصر تفضل ان ترى الانكليز يطعنونها في فؤادها كل يوم من ان ترى أبناءها الذين ربتهم لخدمتها واتخذتهم دروعا لها منيعة يكونون آلات للانكليز ضدها وينقلبون خناجر في نحرها . لان أشد المصائب وقعاً على النفوس ماجاء منها على يد من ينتظر منه الخير والبر . فاذا كان وزراؤنا يعتقدون انهم لا يستطيعون ضدالانكليز شيئاً وانهم ليسوا الا منفذين لرغائب المحتلين فكيف يقبلون البقاء في مراكزهم وكيف لايجدونها عاراً لا فخاراً ؟

والا فهل لايزال وزراؤنا يظنون ان الانكليز قوم متمدنون يشفقون على مصر والمصريين وأن أعمالهم كلها حسنات في حسنات ؟ لست أدرى اذا كان الله سبحانه وتعالى

وهبنا عقولا لا ندرك بها وعيونا ننظر بها غير العقول والعيون التى وهبها السادة الوزراء حتى يروا فى خطة الانكليز الخير والبركة لمصر والمصريين . أما نحن فعقولنا القاصرة لا ترشدنا الا الى الحقيقة الواضحة التى لا يستطيع أحد نكرانها وهى ان الانكليز يعملون فى مصر لا نفسهم ولا بناء جلدتهم ضدنا وضد وطننا العزيز وانهم يستخدمون الحكومة لمصالحهم دون مصالحنا

واذا كان هذا هو الحال فى مصر وهذه الحكومة لا تعمل شيئاً للمصريين فما واجبات الامة ؟ أتنتظر رأفة من قوم لا رأفة عندهم أم تنتظر خيراً ممن يرون الخير فى الاساءة اليها ؟

لقد أصبحت واجبات المصريين جلية بينة امام اضطهاد الحكومة والمحتلين معاً . فأقدس واجباتهم ان يختاروا لهم لجنة تدافع عنهم وتبلغ أصواتهم الى مسامع العالمين حتى يقف تيار المطامع الانكليزية عند حده ويعرف المحتلون ان فى الامة حياة وان لها احساساً حياً وأن فى أبنائها من يستطيع

الدفاع عنها والذود عن مصالحها وحقوقها الشرعية

(مصطفى كامل)

*
* *

وقد ثنى رحمه الله بمقال آخر فى هـذا الموضوع نشره اللواء فى ٢٤ يناير سنة ١٩٠٠ هذا نصه :

﴿ لمن يعمل الانكليز فى مصر ﴾

كتبنا فى عدد أمس فصلا تحت هذا العنوان أوضحنا فيه حقيقة أغراض الانكليز من احتـلال مصر واستسلام الحـكومة لهم استسلاما لا يرجى معه فائدة للامـة المصرية ونادينا ذوى العزائم الصادقة من أبناء الوطن العزيز أن يؤلفوا منهم لجنة تطالب بحقوق المجموع وتسمع صوتهـا للعالمين

وقد ذكرنا أحد الفضلاء بمسئلة تدل وحدها على أن الانكليز يسخرون من المصريين ويتخذون الحـكومة آلة لاغراضهم غير حاسبين لاحد من أهل مصر حسابا . وذلك

ان الحكومة — بايعاز السادة الانكليز — قررت من بضع سنين ارسال لجنة للبحث فى جهة (البرانيس) على شاطىء البحر الاحمر عن البترول واستحضرت لذلك الآلات اللازمة من أوربا وصرفت نحو الثلاثين الف جنيه لهذا الغرض وسافر المهندسون والباحثون — من الانكليز طبعاً — وشيدوا هنالك لهم منازل واقاموا نحو سنتين يوالون البحث والتنقيب ثم عادوا ومعهم البترول فظنت الحكومة انها وجدت كنزاً لايفنى وأنها أرشدت بفضل المحتلين الى مصدر الخير والسعادة ولكنها نسيت أن الانكليز فى مصر يعملون لانفسهم لا لها ولابناء جلدتهم لا للمصريين . فان هؤلاء المهندسين الذين توصلوا الى ايجاد البترول قالوا يومئذ ان الكمية الموجودة منه فى جهة البرانيس لاتعادل النفقات اللازمة للحصول عليه فعدلت الحكومة — اطاعة لاشارتهم — عن استخراجه ومضت الايام والسنون وهى لاهية عن الآلات النفيسة الثمينة التى اشترتها من انكلترا حتى جاءت شركة انكليزية — وأغلب أعضائها ممن كانوا أرسلوا على نفقة

الحكومة لاستخراج البترول — وطلبت شراء هذه الالات فاشترتها بثمن بخس وسافرت الى جهة البرانيس وأخذت تبحث عن البترول بكل أمان واطمئنان جاعلة مساكنها المنازل التى شيدت فيها على نفقة الحكومة المصرية الكريمة
(وقد عاد الانكليز في السنة الماضية الى نفس العمل)

فهل بعد ذلك دليل على أن الانكليز فى مصر يستخدمون كل شيء لصالحهم وأن مصالحنا تداس بالاقدام ؟ وهل يلام المصرى الوطنى اذا تحسر وتألم واستنهض همم أبناء وطنه ودعاهم للمطالبة بحقوقهم المقدسة وسألهم القيام بالواجب نحو هذا الوطن الاسيف ؟

اللهم هبنا أفئدة حساسة وقلوباً صادقة وعقولا مدركة وهمما عالية ماضية لننقذ هذه البلاد العزيزة التى خلقتها جنة الارض وبهجة العالمين (مصطفى كامل)

*
* *

زار رحمه الله مع بعض أصدقائه كبار الساسة الوافدين من أوروبا على مصر مدرسته فى يوم الاربعاء ٢٤ يناير فاعجبهم

مافيها من كد فى العلم ورغبة فى استطلاع خفايا التاريخ. وعلى أثر هـذه الزيارة نصح للامة بمقال نشره اللواء فى ٢٥ يناير سنة ١٩٠٠ هذا نصه :

حياة الشعب بالشعب

من الشعوب من يسلم زمام أموره الى حكومته ويجرى طوع ارادتها ومنها من يجعل للحكومة حداً محدوداً فى السلطة والنفوذ ويراقبها مراقبة شديدة ان أحسنت كافأها وان أساءت قضى عليها . فشعوب الشرق من النوع الاول وشعوب الغرب من النوع الثانى . ولذلك كان الشرق فى تأخر وانحطاط وكان الغرب فى تقدم وارتقاء . لان الشعب هو فى الحقيقة صاحب البلاد وسيدها وحارس الوطن من كل الأخطار وما الحكومة الا وكيل عنه تختار من نخبة أبنائه ومن أشدهم حرصاً على مصالحه

وقد قضى تاريخ مصر ان تنقلب الأوضاع فيها ويصير الشعب عبداً للحكومة وخادماً تسخره كيف تشاء وترسل به

أنى شاءت ونسيء اليه ما استطاعت وهو لا يقدر معارضة أو حراكاً لانه اعتقد ورسخ فى أذهان بنيه انه آلة فى يد أفراد يتصرفون فيه وفى مصالحه كما ترمى أهواؤهم وانه ماخلق الا لارضاء هؤلاء الافراد . وبقدر ما اشتهر المصريون بالنباهة الطبيعية والذكاء الفطرى اشتهروا بالخضوع للحاكم وعدم مخالفة الحكومة . فارتقاؤهم لايكون الا آية من آيات أمير كبير عالى الهمة قوى الارادة وتأخرهم انما يكون نتيجة مظالم حاكم غشوم جائر ولذلك لم يبق لمجد مصر القديم أثر لانه زال مع الموجد له وقبر مع صاحبه . وهكذا حدثنا التاريخ عن مصر فى النصف الاول من هذا القرن فانها كانت قوية فخمة ترهب الدول وتباهى الامم ونراها اليوم تعسة شقية ذليلة يرن صدى أنينها فى آذان الناس أجمعين

فهي تتقدم في سبيل الحضارة والاستقلال بطريق المصادفة وتنزل من عالى مجدها الى حضيض ذلها بطريق المصادفة ايضاً . وحياتها كلها تجرى على هذا المنوال . أما الشعوب التى عرفت حقوقها وأدركت سر وجودها وعلمت مالها وما

عليها فلا خوف عليها ولا خطر على وجودها واستقلالها لانها ان وليت حاكما عادلا عاملا على اعلاء شأنها سارت وراءه بكل جهدها واستجمعت كل قواها للنهوض نهضة كبرى . وان وليت حاكماً جهولاً محباً للفساد والمفاسد أسقطته من عرشه وسلمت زمامها الى من يحسن التصرف فى أمورها

ولا ريب ان الشعب المصرى لا يبلغ ما بلغته شعوب الغرب من التقدم والارتقاء ولا يأخذ من الحياة الحقيقية نصيباً وفيراً الا اذا قام بنفسه ونهض بمحض ارادته وبقوة مجهوداته . يومئذ تدوم له الرفعة والسعادة ويدوم له المجد والاستقلال . والا فانه اذا اعتمد على الحكومة فى كل شىء وطالبها بتحقيق أمانيه فشقاؤه يكون أبديا وذله يبقى سرمديا

وان السلم الذى يصعد به الشعب الى أعلى درجات المعالى ويدرك به أقصى مراتب السعادة الدنيوية هو العلم والتربية . فبهما تهيء الامة رجالا يغارون عليها ويدافعون عن حقوقها ويثبتون فى خدمتها ويموتون فى سبيل مجدها . وانا نرى

الحكومة تبذل الجهد الجهيد في ايقاف تيار العلم والعرفان وتبنى كل يوم بناء محكماً لسد بحار المعارف وتحويل مجراها عن مصر والمصريين . وكل يوم نسمع خبراً حديثاً وحديثاً جديداً عن أعمال الانكليز في مدارس الحكومة وتفنن القائمين بأمر التعليم فى أساليب منع أنواز العلوم عن المتعلمين ولم يبق مصرى الا وعلم علم اليقين ان العقائد الدينية نفسها أصبحت مهددة فى مدارس الحكومة بفضل ابناء التاميز وان علم التاريخ الذى يجب ان يكون دروس وطنية حقيقية وفضائل صحيحة أصبح آلة سياسية فى ايديهم يغرسون به فى نفوس الناشئين حب بريطانيا وكراهة الدولة العلية واحتقار الوطن والوطنيين . فالى متى يرضى المصريون بهذه الحال السيئة والى متى يسلمون اولادهم واعز الناس لديهم فى الحياة الى ايدى أعدائهم ؟ والى متى نصرف الاموال الباهظة فى خدمة بريطانيا ضد مصلحة وطننا العزيز ؟ لان ما يصرفه المصريون على أبنائهم فى مدارس الحكومة لا يصرف فى الحقيقة لمنفعتهم بل لتربيتهم على المبادىء الانكليزية

ليكونوا عبيداً لبريطانيا وخداماً لها طائعين وعمالا لخدمتهم الكريم ووطنهم الشريف عاملين

على ان أمر تربية أبنائنا بانفسنا أمر هين لا يحتاج الى تعب كبير ونصب عظيم . فآباء التلاميذ لو اجتمعوا واتحدوا يستطيعون أن ينشئوا مدارس مستقلة تربي أبناءهم على مبادىء الاسلام الطاهرة وأصوله الصحيحة وتعلمهم محبة الوطن والتفانى فى خدمته واعلاء شأنه وتعرفهم معنى هذه الحياة وحقيقة المطالب التى يجب على الانسان أن يتطلبها منها وترشدهم الى انه « خير للانسان أن يكون بلا حياة من أن يكون بلا وطن »

ومما لا يختلف فيه اثنان أن المسئلة المصرية الحقيقية ليست مسئلة الاحتلال البريطانى بل هي مسئلة تأخر الشعب المصرى وعدم شعوره بحقوقه الشرعية . فانه لو بقى متأخراً جاهلا وترك الانكليز مصر طوعاً او كرهاً لا يزول الخطر المهدد لحياته بالمرة . لان الاسلحة التى ترد بها الشعوب هجمات الاعداء واعتداء الاجانب هى الاتحاد والشهامة

والوطنية الحقيقية ولا تكتسب هذه الصفات العالية الا بالتربية والتعليم

فالخدمة الصحيحة التي يجب علينا معاشر المصريين أن نؤديها لوطننا العزيز ودينا الكريم هي انشاء المدارس الاهلية ووضع نظامات مخصوصة لها وتغيير طريقة التعليم المتبعة في مدارس الحكومة بمعنى ان اللغة العربية تكون هي الاساس الاول لهذه المدارس الاهلية

نعم ان المصريين نهضوا فى العام الماضى نهضة شريفة وأسس الكثيرون من أبناء الشعب الغيورين عليه مدارس أهليـة سبقت مدارس الحكومة بمراحل فى طريق التعليم السليم والتربية القويمة . ولكننا لانزال في حاجة شديدة الى مدارس أخرى . ولست أرى كغيرى أن تنشأ من الآن ادارة معارف أهليـة لان ذلك المشروع يحتاج الى نفقات هائلة واتعاب جسيمة ومتى تأسست مدارس أهلية مستقلة ونمت وتقدمت يسهل بعدئذ ضمها تحت ادارة واحدة وتوحيد طرق التدريس فيها

والذى أقترحه الآن على أبناء الوطن العزيز هو انشاء مدرسة كبرى في ضواحى العاصمة يكون بها قسم ابتدائي وقسم تجهيزى وقسم عال وقسم خاص بالفنون والصنائع . وتكون كلها داخلية حتى يسير المتعلمون فيها على نظام واحد ويتخرجوا على مبادىء واحدة بمعنى انها تكون على طراز المدارس الكبرى في أوربا

وقد قدرنا لتنفيذ هذه الفكرة مبلغا لا يقل عن عشرين الف جنيه تجعل أسهماً وتوزع على الفضلاء والاغنياء من بنى مصر . ومتى تم توزيعها وجمع المبلغ تحت يد رجل أمين ينتخب المساهمون لجنة ادارية للمدرسة لتضع الخطة التى تجرى عليها وتتفق مع أشهر المهندسين الوطنيين على بناء محلها بناء صحياً

فعمل كهذا يخدم به المصريون أنفسهم خدمات جليلة ويهيئون به للمستقبل رجالا أشداء يعرفون معنى الوطن والوطنية ويبرهنون به على انهم قادرون علي القيام بعظائم الاعمال وانهم أهل لنيل الحرية والاستقلال

(مصطفى كامل)

*
* *

عاد أعداء البلاد الى مهاجمة المرحوم باتهامه بالتعصب لينفروا منه الاوربيين عموما ومسيحي مصر خصوصا وقد استندوا فى اتهامهم على مايحض الناس عليه من اتباع أوامر الدين الحنيف والتخلي عن غواية الشيطان الى غير ذلك من وسائل النصح والزجر. فكتب مقالا ردا على هؤلاء الذين آلوا على أنفسهم أن يحاربوا الفضيلة أينما وجدوها وقد نشره اللواء فى ٣١ يناير وهذا نصه :

﴿ الدين والوطنية ﴾

(عند الامم الحية)

كتبنا أكثر من مرة ان الدين هو الاساس الذى يبنى عليه الاستقلال الصحيح والمجد الابدى وان الوطنية لا تكون صادقة قوية شديدة الا اذا كانت ثمرة من ثمار التمسك بالدين ونتيجة من نتائجه . لان النفس البشرية مهما ارتفعت وسمت قاصرة عن أن تستمد كل القوة التي يحتاجها الانسان من

نفسها بل هى مفتقرة الى قوة عالية تهبط عليها من لدن خالق السموات والارض وتهديها سواء السبيل

لذلك رأينا ونرى أصحاب العقائد السليمة والايمان الحى لايخافون في الحياة شيئاً ولا يعرفون لليأس معنى بل يقضون العمر فى أشرف الاطوار ويجاهدون فى معارك الوجود بقلب قوى وعزم شديد

ولطالما ضربنا الامثال بالامم الحية التى عرفت أسرار الحياة وأدركت معنى العمران فأسست مجدها على دعائم الدين وقامت بالدين . واننا كلما ذكرنا كلمتى الدين والعقيدة سمعنا بعض المارقين والمفسدين يقولون « هذا تعصب ذميم » . فما قولكم أيها المعترضون الضالون فيما كتبه المسيو (جان رامو) فى جريدة (الجولوا) الباريسية الصادرة فى ٢٠ يناير الجارى تحت عنوان (سر الانتصار) حيث قال مامؤداه :

« ان الضباط الذين أرسلتهم دول أوربا لمشاهدة حركات البوير وتقديم التقارير الوافية عن مهارتهم الحربية لايرون شيأ خطيراً أو أمراً استثنائياً في أعمال الترنسفاليين العسكرية

بل ربما وجدوا الجندى الترنسفالى غير لابس لملابس جميلة وغيره سلح تسليحاً جيداً . ولكن اذا أراد الضباط الاوربيون ان يقفوا على (سر الانتصار) فليبحثوا عما فى أفئدة هؤلاء الجنود . فان فى أفئدتهم شيئاً لايهتم به الاحصاء ولاتبحث عنه الجواسيس ولا تصنعه المعامل مع انه سبب الظفر والنصر وأصل النجاح والفلاح . ألا وهو الاعتقاد بالخالق القادر العظيم

فقد افتكر الرئيس (كروجر) في حاجة النفوس والارواح قبل ان يفكر فى حوائج الاجسام وفى معدات القتال وآلاته الحديدية . لذلك ربما نقص جنود البوير أشياء كثيرة من الملابس والمعدات ولكن لاينقصهم شىء من القوى الروحية . بل ان نفوس الترنسفاليين متشبعة من الاعتقاد الدينى المتين . ذلك الاعتقاد الذى اظهر ويظهر المعجزات

ومن قرأ منشورات (كروجر) يراها كلها مبتدئة ومختتمة باسم الخالق الذى عليه اعتماده . ومهما قال بعض ادعياء الفلسفة الحديثة فان هذا الاعتقاد وهذا الاعتماد يولدان

فى نفس المقاتل قوة دونها كل قوة . والذين يذهبون الى القتال وليس لهم اعتماد الا على قوة دولهم لا يقاسون بمن يعتمدون على حول الله وقوته

واذا كانت الحكومات الاوربية تريد ادراك « سر انتصار » البوير فلترسل الى الترنسفال علماء النفوس وفلاسفة الارواح وقراء الضمائر واخبر الخبيرين بحرارة تلك الافئدة المتوقدة الذكية الطاهرة . عندئذ نفقه ان صراخنا « لتحي الجمهورية ! لتحي الجمهورية ! » لا يكوّن منا الا محافظين ومديرين . وأما النداء باسم الخالق وبمعونة الرحمن فانه يوجد بين أفراد الامة آساداً يدافعون عنها بقلوب لا تيأس ولا تلين . فما أسعد الامم التى تعتمد على مبدع الوجود ! وما أسعد الجنود الذين يعتمدون على قوة الاله ويسيرون بروح من لدنه !

وان لنا فى تاريخ فرنسا مثالين عظيمين وهما مثل جينيفييف وجان دارك فان هاتين المرأتين انقذتا فرنسا باعتمادهما على خالق الارض والسماء

والبرنس بسمارك الذى لم يكن شاعراً يحب الخيال هو القائل لهـذه الجملة الشهيرة « اذا نزعتم العقيدة من فؤادى نزعتم محبـة الوطن معها » دلالة على أن الدين والوطن مرتبطان ارتباطاً لا انفصام له . وامبراطور المانيا الحالى لا يكتفى باعطاء جنوده الاسلحة الجيدة والمدافع الحـديثة الطراز بل يعطيهم قبل كل شىء السلاح المعنوى الفعـال . فهو يكلمهم عن الخالق ويرشدهم الى أن قوتهم مستمدة منه جلّ وعلا وأنهم بالاعتماد عليه ينتصرون دائمـا . ولا يترك فرصة تمر دون أن يذكر القـدرة فى خطبه . وهو يعرف كسائر فلاسفتنا وعلمائنا الاختراعات الحـديثة والتقـدم العصرى ولكـنه يخاطب جنوده بنفس اللسان الذى كان يخاطب به (شارلمان) عساكره لانه يعلم أن الانسان فى عهد الامبراطور القديم هو انسان اليوم وان السر الذى أوتى به الاقدمون النصر والظفر هو بعينه سر الانتصار فى هذه الازمان »

فمن يستطيع بعد ذلك الادعاء ان المناداة بالدين تعصب

ذميم وان حب الوطن شيء والتمسك بالدين شيء آخر؟ واذا كان الكاتب الفرنساوى لم يذكر غير البوير والالمان فهل نسى المسلمون ان سبب انتصاراتهم القديمة وبقاء دولتهم العلية فى أمن من كل خطر هو التمسك بالدين تمسكاً صحيحاً صادقا؟ وهل نسوا ان اقوى سلاح للجندى التركى هو الاعتقاد الدينى الذي يدفعه الى الاتيان باعظم الاعمال العسكرية ويجعله فى صدر الرجال شهامة واقداما؟

اذا لم نكن نسينا ذلك كله فلماذا نتساهل فى امور ديننا ونهمل واجباتنا ونقصر اقبح التقصير فىالقيام بما فرضه الخالق علينا! اللهم هبنا من لدنك رشداً واهدنا بنورك الى الصراط المستقيم (مصطفى كامل)

***

قالت احدى جرائد الاحتلال أن المصريين استناموا لحكم الاجنبي من زمن بعيد وما عرفنا منهم حا كما ذكره التاريخ . . . الى غير ذلك من منكرات السخائم التى طالما خطتها أقلام من لا وطن لهم ولا ذمة فى ضمائرهم ولا أدب

فى اخلاقهم . ولما كانت الامة فى حاجة الى من يدرأ هذه المخازى عنها ويبين لها حقوقها وسلطتها كان اهتمام المرحوم بهذا الامر عظيما فقد كتب مقالا نشره اللواء فى ١٠ فبراير هذا نصه :

﴿ حقوق الشعب وواجباته ﴾

لكل شعب فى وطنه حقوق مقدسة لا يمكن لاحد الاعتداء عليها أو المساس بها وواجبات نحو الوطن اذا قصر فى تأديتها سلبت منه هذه الحقوق وقلت سعادته وانحط مقامه. فبقدر ما يخدم الشعب وطنه ويؤدى من الواجبات نحوه ينال من الحقوق فيه ويمنح من الرفعة والسؤدد في نواحيه

ولذلك كانت الشعوب الأوربية عزيزة في ديارها ممتعة بكل حقوقها لانها تخدم أوطانها بما يجب عليها وتدافع عن شرفها ومقامها بكل ماتملك من مال ورجال . فترى ثمة العامل الصغير يشتغل بأمور بلاده وسياسة حكومته وينتخب النائب عنه فى مجلس النواب بمحض حريته وارادته . وبالجملة يعد نفسه جزءاً من ذلك المجموع العظيم وعضواً حياً من

جسم الامة ودعامة من دعائم الوطن . وتراه اذا حلت ببلاده مصيبة يحزن أشد الحزن وتتولاه الكآبة ولا يطيب له عيش لانه يجد في قوله « بلادى » كل معاني الوطنية والروابط الجنسية ويحس بأن لا معنى للحياة اذا كان الوطن شقياً وان أقدس واجب على الانسان فى الوجود هو خدمة الوطن والعمل على اعلاء شأنه ورفع مكانته

أما في بلادنا التعسة فالشعب لا يعرف لنفسه شيئاً من الحقوق ولا يدرك ما عليه نحو الوطن من الواجبات ولذلك كنا في آخر مصاف الأمم وتمكنت منا الادواء الكبار وتولى الاجنبي قيادة أمورنا وزمام أعمالنا واعتبرنا الغير قصراً صغاراً عاجزين عن ان نتصرف في أموالنا وبلادنا تصرفا حسناً محتاجين لوصى يرشدنا ويدبر مصالحنا . ولعمرى انها أكبر سبة لشعب من الشعوب وأعظم اهانة في تاريخ أمة من الأمم . فهذا المصرى الذى يجب ان يكون فى بلاده سيداً محترما مبجلا عزيزاً أصبح فيها عبداً محتقراً مهانا ذليلا . وهذا الاجنبي الذى يجب أن يكون خاضعا لقوانين البلاد

ودستورها غريبا عن السلطة والاحكام أصبح هو الذى يغير الدستور كما تشاء أهواؤه ويلعب بالسلطة لعباً . وهذا الشعب الكبير الذى يجب ان يكون كله عاملا لخدمة الوطن ومشيداً لبنائه الفخم أصبح منقسما على نفسه منشقا على بعضه متغافلا عن واجباته . وهذه الامة التي يجب ان تكون سيدة البلاد وصاحبة السلطة والكلمة فيها أصبحت بلا حق في بلادها . بل سلبها الاجنبي حقوقها وتمتع بخيراتها وبات يسخر منها

على انـا لو تأملنا قليلا الى ما أقيم في هـذه البلاد من عظائم الاعمال لوجدنا ان الشعب هو المنشىء له والموجد لكيانه . فهؤلاء الافراد الصغار الذين لايعبأ بهم الكبراء والعظماء هم فى الحقيقة قوام مصر ومصدر نعمتها ولولاهم ما عرفنا العيش أبدا . فمن المؤلف للجيش ؟ أفراد الشعب ! ومن المكون للشرطة وحفظة النظام ؟ أفراد الشعب ! ومن الموجد لمحصولات مصر وخيراتها ؟ أفراد الشعب ! وبمن يعيش العظماء والكبراء والامراء ؟ بأفرد الشعب ! فهم دون غيرهم قوام الوطن ومصدر خيره ومجده وسعادته .

فكيف يجحف بحقوقهم وكيف يهانون ؟ ألا ترى ان العظماء انما هم كذلك لأن أفراد الشعب يحملونهم فوق رؤوسهم ويطيعون أوامرهم . والا فلو تحول تيار الشعب ضدهم فماذا يفعلون ؟ هل يستطيعون مقاومة أو يقدرون على الوقوف أمامه ؟ كلا ثم كلا . ان الشعب هو القوة الوحيدة الحقيقية وهو السلطان الذى يخضع لارادته أكبر العظماء وأعظم الاقوياء. فان أردتم يارجال الحرية فى مصر وخدمة هذا الوطن المحبوب أن تسعدوا بلادكم وترفعوا شأن دياركم فارشدوا شعبكم المصرى العزيز الى حقوقه وواجباته وعلموه اننا جميعا سواء امام الوطن يستوى فى ذاك الحقير والرفيع والفقير والغني . وان رجال الحكومة ليسوا الا وكلاء عنه وخداما له ان خانوه وجب عليه عزلهم وتولية غيرهم وان صدقوا في خدمته وجبت عليه مكافأتهم

وان يوما يري فيه المصرى أفراد أمته يدافعون عن شرفهم وحقوقهم وحكومة بلاده تجلهم وتطيع رغائبهم لهو يوم تتم له فيه السعادة الدنيوية ويكون قد بلغ في حياته اكبر

مايطمع اليه الانسان وتتطلع اليه النفس البشرية »

(مصطفى كامل)

*
* *

كان كلما وجد المترجم الفرصة مناسبة لتأييد روح الدين وادخالها تارة في الوطنية وأخري فى السياسة خدمها الخدمة اللائقة بوطنى عظيم مثله والبسها الحلة التى تعجب الناظرين وهيأها للقراء في اجمل رواء غير حاسب لخصوم البلاد او المنافقين ممن يدعون باطلا الانتساب اليها حسابا . شأن الذى رسم لنفسه خطة مبناها الاخلاص ومعناها الحياة فلا التهديد يردعه ولا الأرعاد يثنيه

من ذلك أنه كان يرى السياسة فرعا من فروع الدين بل أصلا من أصوله وانه اذا سأل الناس اتحادا ليقووا من ضعف او علما ليستضيئوا من جهل الي غيرهما من ضروب السياسة الفعالة المنتجة كان غالبا يرجع الى سند الدين ضاربا الامثال بأبنائه العادلين العاملين بآياته وسننه متخذا غير ذلك اساليب كتاب المسيحيين في تأييد حجته وظهور حقه على

أباطيل المبطلين المفرطين

كتب رحمه الله رداً على الذين خطأوه فيما قال غير معترفين بأن السياسة الحقيقيـة فى الرجوع الى أصول الدين والعمل بمنطوقها ومفهومها . هذا نصه :

﴿ الدين والسياسة ﴾

أوضحنا فى مقالات متعددة أن الدين والسياسة توأمان لا يفترقان وأثبتنا بالبراهين المحسوسة والدلائل القوية أن الدول الاوربية لم تنل من المدنية والمجد والسلطة ما نالت الا باعتمادها على مبادىء الدين فى سياستها حتى صح أن تسمى السياسة الاوربية بالسياسة المسيحية لكونها ترمى دائماً الى رفع شأن الدين المسيحى على غيره من الاديان وتجعل رجاله آلة قوية فى الشرق الادنى والاقصى لبلوغ غاياتها السياسية ومآربها المختلفة

ومن يتصفح تاريخ الدولة العلية ويمعن النظر فى أحوالها من أول يوم وضع فيه أساسها الى هذا اليوم يجد أن أوربا لم

تحاربها الا بسبب الدين ولم تتداخل فى شؤونها الداخلية الا بدعوى نصرة الدين ولم تعادها الا لانها دولة اسلامية . وكأن الدول الاوربية علمت اننا اذا تمسكنا بالدين استرجعنا قوتنا وعظمتنا فتراها تعمل ما فى وسعها لابعادنا عن مبادئه القوية وتجتهد فى نشر مبادىء الجحود والفلسفة الكاذبة بيننا . وصنائع أوربا فى الشرق لا يكرهون شيئاً مثل قيام خطباء الاسلام وكتابه بدعوة المسلمين الى التمسك بدينهم الكريم والعمل لاحياء مبادئه الشريفة الطاهرة التى قبرناها بجهلنا واستسلامنا للاجانب والاعداء

وانى كلما طالعت كتب الاوربيين وجرائدهم ازداد يقيناً على يقين بشأن مسئلة ارتباط الدين بالسياسة والسياسة بالدين . وقد جاءنى العدد الاخير من « مجلة العالمين » وفى صدره مقالة على حرب الترنسفال للدكتور (كويبر) أحد مشاهير نواب هولاندا فتلوتها ولم أكن قبل تلاوتها أظن أن فيها شيئاً دينيا ولكنى ما بدأتها حتى وجدت الكاتب يقول ما ترجمته بالحرف الواحد :

« أصبح المتوحشون ينظرون بعين الاندهاش الى هذه الحرب الدموية القائمة بين المسيحيين وبعضهم وينتظرون النتيجة ليعرفوا من الظافر: مسيحيو أوربا أم مسيحيو افريقية

وقد ارتفع صراخ حزن وحداد في اوربا ليس ضد التركي في هذه المرة ولكنه ضد الدولة التي كانت تفتخر في الزمن الماضي بمحبتها الشديدة الطبيعية للعدل والانصاف . أفليس هذا المنظر محزنا للغاية ؟ وهل بهذا يقف سير التقدم الى الامام ؟ وهل سنرجع القهقرى في هذا القرن الذي أصبح على وشك الابتداء ؟ »

فقل لى بالله عليك أيها القارىء الكريم ما شأن التركى في هذه الحرب ؟ أليس غرض الكاتب من قوله « التركى » المسلمين عموماً لان الدولة التركية تمثل الاسلام والمسلمين . فهل لا يرى القارئ من عبارة هذا النائب الهولاندي ان أوربا تود لو كانت هذه الحرب قائمة بين المسلمين والمسيحيين وكان النصر فيها لابناء دينها ؟ وهل بعد اعلان كتاب أوربا وخطبائها وساستها لافكارهم بشأن ارتباط

السياسة بالدين هذا الارتباط المكين يستطيع أحد أن ينكر علينا وجود هذا الارتباط ؟

واذا كانت الدول الأوربية على اختلاف مصالحها وتباين منافعها وعظمتها وقوة سلطانها تتحد فيما بينها وتنسى كل شقاق وكل افتراق عند ما يهم المسيحية أمر فلماذا لا نتحد معاشر المسلمين وقد احتل الشقاء بلادنا وخيم الجهل والذل على ديارنا وقوضت المصائب أركان استقلالنا وسلبتنا النوائب عظمتنا وقوتنا وسعادتنا ؟ ألسنا أشد من الاوربيين حاجة الى هذا الاجتماع وهذا الاتفاق ؟ واذا كنا نعتقد بالدلائل التاريخية ان الاسلام دين الفضائل والمدنيـة الصحيحة وان الابتعاد عن مبادئه سبب التأخر والانحطاط والتمسك به داعية السمو والترقى فلماذا لا نعمل باوامره ونجتنب نواهيه ؟ واذا كنا نرى كل يوم شاهداً جديداً ودليلا قوياً على ان أوربا لم تقم الا بالدين فلماذا نهمل ديننا ونحن أحوج الى التمسك به من أوربا والاوربيين ؟ اللهم انا نسألك أن تهدينا بفضلك كما هديت آباءنا من قبل انك سميع مجيب

مصطفى كامل »

*
* *

وكتب في لواء ١٦ فبراير سنة ١٩٠٠ مانصه :

﴿ كيف نبلغ الآمال ﴾

يشعر كل مصرى بأن بلاده متأخرة عن سائر البلدان وانها ليست في المكانة التي خلقت لأن تنالها بين الممالك والاوطان . ويحس كل واحد منا بان هـذا الوطن المصرى الغني الكثير الخيرات لو كان لنا دون غيرنا لكنا أسعد الأمم وأحسن الشعوب ويود لو رآه كذلك ورأى أبناء جنسه سادة فى بلادهم أعزاء فى ديارهم محترمين في البلاد الاجنبية مبجلين حيث يذهبون . اذا عرف الاجنبي انهم أبناء مصر انحنى لهم تعظيما واجلالا لشرف البلاد التي ينتسبون اليها وعظمة المملكة التى هم أبناؤها

ولكن هـذه الآمال وتلك الامانى التي تختلج ضمائر المصريين وتمر على نفوسهم آنا بعد آن لا تستقر عندهم ولا تجد منهم رجالا يعملون لتحقيقها وخداما للوطن أمناء يشعرون

فى احياء مجده ورد ثروته الى أبنائه

نعم . انك لو طفت حول البلاد لوجدت أهلها مجمعين على كراهة المحتلين شغفين بخلاص مصر من نيرهم الثقيل ورأيت أفراداً يمتازون عن غيرهم بالحمية الوطنية والغيرة الملية ولكن لماذا هؤلاء الافراد مفترقون ؟ ولماذا لا نراهم مجتمعين حول لواء واحد لخدمة غرض واحد عاملين باتفاق لتحقيق آمالهم الطاهرة الشريفة موجهين قوتهم الى غرض مشترك ؟

نحن نعرف جميعاً أدواء مصر ومم تشتكي هذه الام الحنون التعسة . فكيف يكون الدواء فى أيدينا ولا نعمل لشفائها من هذه الآلام القاسية والاسقام الشديدة ؟ انا نرى مصر وطننا المقدس تهان كل يوم الف اهانة . فكيف نصبر على هذه الاهانات ولا نرى العار منتهى العار في السكوت عنها ؟ نحن نعلم أن الخالق جل وعلا وهبنا أجمل الاوطان وأغني البلدان وفرض علينا التفاني في خدمة هذه الديار وصرف العمر في العمل لاسعادها واعلاء شأنها . فكيف نخالف أوامر الرحمن ونقابل نعمته علينا بالكفران ؟

لعمري ان ساعة العمل قد آذنت ولم يبق عذر لاحد في التقصير عن خدمة الوطن العزيز . وقد علم الخاص والعام أن خير سبيل للقيام بالواجب الوطني هو نشر أنوار العرفان بين أبناء البلاد وتربيتهم على أساس متين .فنحن نشأنا وآباؤنا يسمعون كل يوم في الاحاديث التي تدور بينهم « أن المصري لا يفلح » . و « أن المصريين أمة ميتة » و « اتفق المصريون على ألا يتفقوا » وغير ذلك من الاقوال المفرقة للكلمة المثبطة للهمم المقعدة للعزائم المميتة للنفوس . فنشأنا نعتقد في أنفسنا عيوباً يعلم الله انها لا وجود لها وامتلأت قلوبنا من الصغر يأساً وقنوطاً بينما نشأ غيرنا في محبة امته والوثوق بها والاعتقاد بحسن حالها ومآلها

فعدم اعتماد المصرى على نفسه وعلى أخيه هو الداء العضال الذى تنتهى اليه الادواء .فهو سبب الشقاق والافتراق واصل هذا الموت المعنوى الذى اصبحنا لابسين لثيابه مرتدين بجلبابه ومصدر هذا الخمول القبيح الذى قضى علينا ان نكون في آخر مصاف الامم ونعيش فريسة للطامعين

واكبر نتيجة لعدم اعتمادنا على انفسنا هو اننا اعتمدنا دائماً على الاجنبي وانتظرنا منه الخير لبلادنا . مع انه من المستحيل ان يجيء الخير على ايدى رجال ليسوا من ديننا ولا من وطننا . والتاريخ يرشدنا بشواهده الجمة الى ان الوطن لا يحيا الا بابنائه والبلاد لا تسمو الا باهلها

ألا ترى ان عدم اعتماد المصريين على بعضهم أدى الى فقدان التضامن بينهم فصار كل انسان لا يهتم الا بنفسه واذا نزلت مصيبة بفريق من الامة لا يتألم لها الفريق الآخر. فسهل على الحكام ان يتصرفوا في اموال هذه الامة الاسيفة ومصالحها بدون ان يجدوا من احد من بنيها معارضة او مقاومة

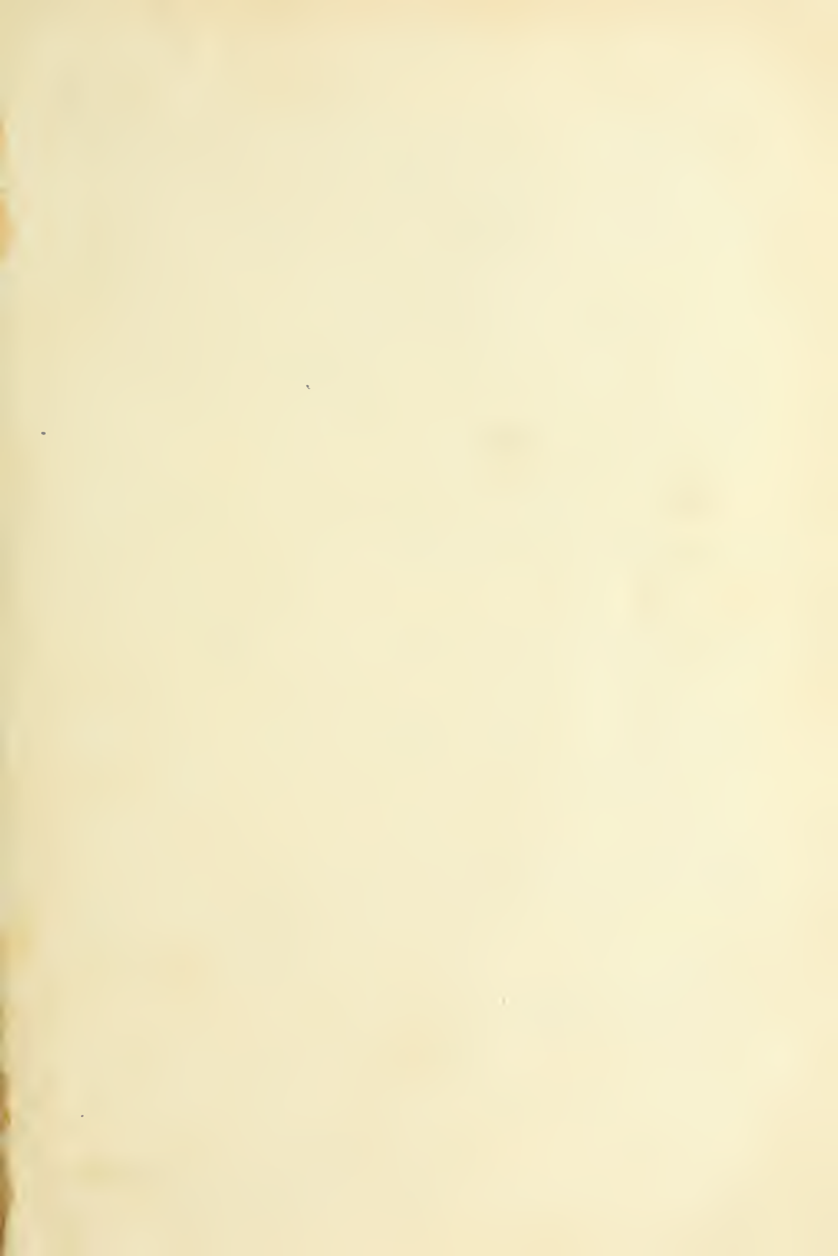
ألا ترى ان المصريين يجندون ويستخدمون في مصالح بريطانيا ولا يرتفع منا صوت يحتج على هذا العمل المخالف للوطنية الحقيقية . ألا ترى اننا اذا ترق شعورنا وتألمنا لمصائب فئة منا لا نتألم الا تألماً معنوياً بخلاف الحال في الامم الحية . فان ابناء الامة الواحدة يقومون كرجل واحد لانصاف

المظلومين منهم لانهم متضامنون في الخير والشر يصيبهم ما يصيب ابناء جلدتهم من رخاء وشقاء . ويعتقدون ان السكوت على مظلمة فرد واحد يدعو الى مظلمة الامة كلها

فالسبيل الذى نبلغ به الآمال ونحقق الاماني هو سبيل تربية ابناء مصر على الاتحاد والاتفاق والثقة من انفسهم والاعتماد على بعضهم دون غيرهم والتضامن فيما بينهم تضامناً تاماً . بذلك نكون امة لها شأن وبغير ذلك نبقى ابد الدهر عبيداً للاجانب اذلاء

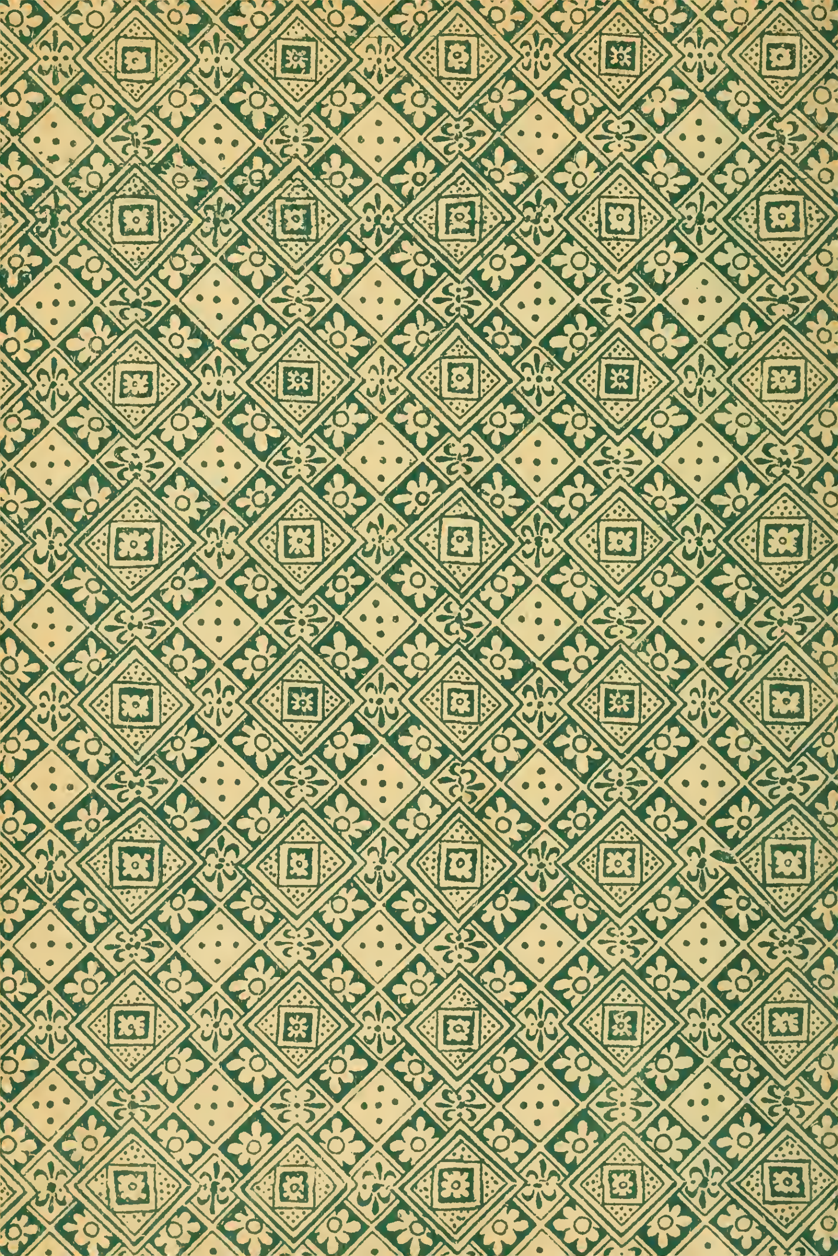
وان زمناً تعمل فيه الامم المتمدنة نفسها لبلوغ غاية الرقي ومنتهى الكمال لعار علينا ان يكون موقفنا فيه موقف المتفرج الكئيب الذى لا يعمل فى حياته عملا نافعاً بل فقد ثروة آبائه واجداده واضاع مجد المتقدمين وامسى خادماً لمن كان يخدمه من قبل

(مصطفى كامل)










UNIVERSITY OF TORONTO
3 1761 01436237 0